

ليالي عاشوراء

الشيخ
علي حسن غلوم

المركز الإسلامي الشيعي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام





الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٥م



المركز الإسلامي الثقافي

لبنان - حارة حريك - مجمع الإمامين الحسين عليه السلام والإمام جعفر عليه السلام

هاتف: ٥٥٧٠٠٠ / ٠١ - ٥٤٤٤٠٢ / ٠١

خليوي: ٥٦٥٠٧٤ / ٠٣



البريد الإلكتروني

sayedfadlullah@gmail.com

info@tawasolonline.net

info@fadlullahlibrary.com



المواقع الإلكترونية - المركز الإسلامي الثقافي

www.sayedfadlullah.org

www.tawasolonline.net

www.fadlullahlibrary.com

youtube/tawasolonline

youtube/sayedfadlullah

Facebook:

SayedFadlullah

مكتبة العلامة المرجع السيد فضل الله العامة

تواصل أون لاين

ليالي عاشوراء

الشيخ علي حسن غلوم



المركز الإسلامي القاتفي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام



تصدير



لا أتصوّر أنّ في المكتبة العربية والإسلامية كتاباً عالج الثورة الحسينية، كما عالجها كتاب (ليالي عاشوراء) لسماحة الشيخ علي غلوم، أحد العلماء الكويتيين البارزين في مجال الدعوة والتبليغ والشأن الثقافي...

أهمية هذا الكتاب تنبع من المعالجة العلمية الدقيقة للأحداث والمواقف والتصوّرات للواقع الإسلامي خلال الفترة الزمنية التي تلت وفاة الرسول ﷺ حتى استيلاء الأمويين على الحكم الإسلامي وقيام الثورة الحسينية وما أحاط بها من عناوين حضارية إسلامية رفضت الخضوع للحاكم الجائر، واجهتها عناوين مهزومة وانتهازية حوّلت الحكم الإسلامي العادل إلى مُلك عضوض كسرويّ قيصريّ قمعي استلب الإرادات وعطلّ العقول واخترع أفكاراً ومفاهيم وعقائد بعيدة كلّ البعد عن الإسلام في رؤاه وعقائده ومفاهيمه...

لقد أجاد الشيخ علي غلوم بعرض الثورة الحسينية متناوياً أدقّ التفاصيل في حركة الإمام الحسين ﷺ منذ هجرته من المدينة إلى مكة، إلى كربلاء... مستعرضاً مواقف القيادات حينها من خروج الإمام الحسين ﷺ، متوقفاً عند الاتجاهات الفكرية خصوصاً التي كانت تبرّر للحكم الأموي استباحته للأعراض والكرامات وتغيير مسار الاتجاه الإسلامي الأصيل المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ليالي عَشُوراء _____ ❁

ولا ننسى أنّ سماحته قد ناقش بمنهجية علمية كثيرة من الأفكار التي حاولت قديماً وحديثاً أن تُلصق بالثورة الحسينية وبالإمام الحسين عليه السلام ما يتعارض مع توجهات ورؤى المدرسة الشيعية العقلانية، مثبتاً بالبراهين والأدلة القرآنية ما يتوافق مع آراء كبار العلماء القدماء والمحدثين الذين أبعثوا الكثير من الغيبيات والمعتقدات وما لا ينسجم مع حركة الإمام الحسين عليه السلام ..

ولا ننسى أنّ سماحة الشيخ علي غلوم استحضر التاريخ في مدى زمنيّ معيّن تحليلاً ومناقشةً وتعليقاً وما ذاك إلاّ خدمةً للمشروع الحسيني الرسالي بعيداً عمّا أُلصق بالتاريخ زوراً وبُهتاناً...

والكتاب في الأساس هو محاضرات على مدى سنوات أربع في مواسم عاشوراء من عام ١٤٣٣هـ إلى عام ١٤٣٦هـ ألقاها سماحته في حسينية دار الزهراء في الكويت وفي مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت.

ولأنّ هذا الكتاب يخدم المبلّغين والدُّعاة وخطباء المنبر الحسيني، والباحثين والشباب، يَسرُّنا في المركز الإسلامي الثقافي - مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام - لبنان أن ننشره انطلاقاً من إيماننا بترسيخ أفكار الوعي في واقعنا حتى نُخرج هذا الواقع من أزماته الفكرية وفوضاه الثقافية... لتتشكّل رؤية إسلامية هادفة ينشأ من خلالها إنسانٌ رساليٌّ يساهم في بناء وتطوير وتقديم المجتمع الإسلامي...

والله الموفق

مدير المركز الإسلامي الثقافي

شفيق محمّد الموسوي

محرم ١٤٣٧هـ / تشرين الأول ٢٠١٥م





المقدّمة



بقلم د. منصور غلوم

وجودنا - كبشر - مرتبط بالإسلام، والإسلام الحقّ في استمراريّته مرتبط بالحسين عليه السلام، فالحسين من رسول الله، ورسول الله من الحسين.

ومنذ نعومة أظفارنا ونحن نتلقّى المعارف الدينية تحت المنبر الحسيني، وكثير منها تكوّنت ونمت معها عقولنا من خلال هذا المنبر.. هذا في زماننا.. أما بالنسبة إلى أولادنا، فقد خلّقوا الزمان غير زماننا..

لذا فإنني أشعر - ومعني كثير من المؤمنين - أنّ المنبر الحسيني في هذه الأيام لا يواكب العصر، ولا يقدم ما من شأنه أن يحقق التنمية الإيمانية والمعرفية والروحية عند شباب هذا الجيل بالمستوى المطلوب، لذا فإنّ هذا المنبر في أمس الحاجة إلى التطوير من حيث المحتوى والأسلوب.

وفي هذا العام قدّمت لنا محاولة وتجربة جريئة من قبل الشيخ علي حسن غلوم تهدف إلى تطوير هذا المنبر، وأعتقد - كما يشاركني في الرأي كثير ممّن حضروا مجلسه - أنّها كانت تجربة موفّقة، ونأمل أن تكون لبنة تؤسّس لتحقيق التطوير المنشود من خلال الاحتذاء بهذا النموذج الرائد.

وأرى من واجبي تقديم الشكر مرّة أخرى للشيخ الجليل علي حسن غلوم

ليالي عاشرًا * _____

على هذه الجهود، ونرجو له التوفيق والسداد من الله سبحانه.
وما بين دفتي هذا الكتاب عرضٌ كاملٌ لما قدّمه سماحته خلال تلك المجالس،
وقد قام مشكوراً بتهيئتها للقراء والمهتمين الذين لم يحالفهم الحظ للاستماع
إليها.

جعل الله هذا العطاء في ميزان أعماله، ووفق الله الجميع لما فيه خير الإسلام
والمسلمين، ونسأله وَعَلَى أن يُبقي المنابر الحسينية مصدر شعاع للعلم والتنمية
ورقي المجتمعات الإسلامية.

الكويت صفر ١٤٣٣ هـ - يناير ٢٠١٢





تمهيد



بقلم المؤلف

الحمد لله فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ديّان الدين ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيّد المرسلين المبعوث رحمةً للعالمين محمد وعلى آله الطيّبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

يعيش محبّو آل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه وعليهم مع قدوم شهر محرم الحرام من كلّ عام حالة من الاستنفار الفكريّ والروحيّ والعمليّ تناغمًا مع إحياء الذكرى السنوية للنهضة الحسينية.. النهضة التي لم تغب عن ضمير الوجود، كما لم تغب عن قلوب كلّ من عرف الحسين عليه السلام، وقرأ سيرة نهضته في كلّ تفاصيلها البطولية والمأساوية.

ويُعدُّ المنبر الحسيني الرافد الأهم بين كلّ الروافد التي تغذي إحياء هذه الذكرى السنوية، وهو الذي يستقطب الملايين في كلّ عام طوعاً وشوقاً وطمعاً في نيل رضا الله سبحانه، وتجديد العهد مع هذا الإمام العظيم الذي أحيا - باستشهاده - الأمة الإسلامية.

وقد تلقّيت في هذا العام دعوةً كريمةً من حسينية دار الزهراء عليها السلام لإلقاء

ليالي عاشوراء



سلسلة محاضرات عاشورائية منذ الليلة الأولى من شهر محرم لعام ١٤٣٣ هـ ولمدة ١٤ ليلة، وهي التجربة الشخصية الأولى بالنسبة لي في هذا المجال.

وقد تنوّعت تلك المحاضرات من حيث موضوعاتها، لتشمل قراءةً في أوضاع المنبر الحسيني، وشعر الطفّ، وبعض التحليلات التاريخية المتعلقة بالنهضة الحسينية. كما وتناولت فيها الردّ على إشكالية مصادر أخبار النهضة الحسينية من حيث تحديد شهود العيان والمؤرّخين الذين نقلوا عنهم تلك الأخبار بتفاصيلها.

وإذ طلب مني بعض الأخوة الأفاضل تقديم تلك المحاضرات في صورة كتاب مطبوع، فقد عملتُ على إنجازها تحت عنوان (ليالي عاشوراء).. على أن تستمرّ هذه السلسلة بالصدور ما استمرّ العطاء من خلال المحاضرات العاشورائية السنوية بإذن الله تعالى وتوفيقه. وأسأله سبحانه أن يتقبل هذا السير بوافر رحمته وعطائه، وأن يجعل فيه الفائدة والخير والبركة.. مع شكري وتقديري لكلّ الأخوة الأعزاء الذين أبدوا ملاحظاتهم أو قدّموا اقتراحاتهم لتطوير هذا العطاء.

الكويت صفر ١٤٣٣ هـ

(كانون الثاني) - (يناير) ٢٠١٢





ليالي عاشوراء

الكتاب الأوّل

حسينيّة دار الزهراء عليها السلام - الكويت

محرم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م



- * تطویر المجالس الحسينية
- * الإخلاص في العطاء
- * ربط المنبر الحسيني بالواقع
- * شرعية الحياد في الموقف
- * الموقف من أسرى الحروب
- * خطر عقيدة الإرجاء
- * نقد شعر الطف: مفاهيم قلقة
- * نقد شعر الطف: تشويه التاريخ
- * نقد شعر الطف: لسان الحال
- * عصمة الدماء والنفوس
- * مشروعية الثورة الحسينية
- * توثيق المقتل: الجزء الأول
- * توثيق المقتل: الجزء الثاني
- * توثيق المقتل: الجزء الثالث
- * المصادر والمراجع





تطوير المجالس الحسينية



• لكل أمة عملها

﴿الْمَ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

عندما يتحدث القرآن الكريم عن التاريخ فإنه ينظر إليه بطريقتين، الطريقة الأولى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، فدور القصة التاريخية هو دور العبرة والدرس الذي يمكن أن يأخذه العاقلون في ما يمكن لهم استيحاؤه من التاريخ لمصلحة الحاضر.

والطريقة الثانية: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]، وهذه الآية تركّز على أنّ التاريخ ليس مسؤولية الجيل الحاضر، وإنما هو مسؤولية الذين صنعوه، إلا إذا كنّا نتبنّى ما فعله الماضون، وعلى استعداد لتكرار التجربة في الحاضر لو تكرّرت الظروف، تماماً كما خاطب القرآن اليهود على عهد النبي ﷺ وكانّهم هم الذين فعلوا ما فعلوه على عهد موسى ومن بعده: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ

جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظْرُونَ ﴿البقرة: ٥٥﴾، ﴿وإِذِ قَاتَلْتُم نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢]... إلخ.

فإذا لم يكن التاريخ مسؤولية الحاضر فلا معنى إذاً لأن أحمل مسؤولية تاريخ لم أصنعه، أو أحمل الآخرين مسؤولية تاريخ لم يصنعه، فالقضية أننا نسأل عن صنع تاريخنا.

ومن هنا، فإن إثارة ذكرى الثورة الحسينية لا تمثل سلبية إسلامية، لأنها غير موجهة أصلاً من طائفة تجاه طائفة أخرى ولا هي تهدف إلى تمزيق الصف الإسلامي.. كما لا تعمل على تحميل طائفة مسؤولية ممارسة أناس حكموا بالظلم والاضطهاد وارتكاب الجرائم، إلا ضمن الاستثناء المذكور من مناصرة الباطل.

لا ينبغي أن تكون هذه المجالس لشحن نفوس الشيعة ضد السنة ولا سبباً لإثارة السنة ضد الشيعة.

كما أن إثارة ذكرى الثورة الحسينية ليست سلبية إنسانية حضارية، لأن الناس اعتادوا على استحضار تاريخهم بإقامة الاحتفالات أو المهرجانات أو المؤتمرات أو غير ذلك من الأساليب الجماهيرية أو الثقافية أو الإعلامية.

قد يثرون فيها الحساسيات، وهذا ما نرفضه ونعمل على إصلاحه ما أمكننا ذلك.

• عطاءات المجالس الحسينية

والمتمعّن في عطاءات المجالس الحسينية سيجدها لا تقتصر على البعد التاريخي، بل لها أدوار عديدة دينية وثقافية وسياسية واجتماعية وتربوية، كما أنها تستقطب الجماهير بصورة يقلّ نظيرها، فهي تستقطب حتى أولئك الذين قطعوا علاقتهم بالأجواء الدينية العامة، فلا تجد لهم حضوراً في مسجد أو مركز

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م _____ *
إسلامي أو محاضرة دينية، بينما تجد لهم حضوراً فاعلاً في مجالس عاشوراء..
بل تجد من بينهم من قد قطع علاقته بالدين وشعائره إلى حدٍّ بعيد، إلا أنّ حضوره
الموسمي في شهر محرم لا يمكن له التنازل عنه مهما كانت الظروف.
● ويمكن تلخيص الأدوار التي تنهض بها هذه المجالس في نقاط:

- ١- تجديد الولاء لمدرسة الإسلام وفق منهج أهل البيت عليهم السلام.
- ٢- الزخم العاطفي الكبير الذي ترفده من خلال تجديد استعراض بعض أحداث النهضة الحسينية وما سبقها ولحقها من ظلمات وأحداث مأساوية تجاه آل النبي عليه السلام وشيعتهم وأنصارهم.
- ٣- الإمداد الفكري الدينيّ النابع من القرآن والسنة واجتهاد العلماء في المجالات الدينية المختلفة، فهذه المجالس التي أطلقها أئمة أهل البيت عليهم السلام تمثل مجالس الدعوة إلى الإسلام بكّله.
- ٤- التثقيف الاجتماعيّ والتربويّ والسياسيّ والعلميّ من منطلق إسلامي واعي ومعاصر.
- ٥- تقديم النماذج الحياتية القيمة من خلال استعراض سيرة النبي وآله، الأمر الذي يدفع نحو المحاكاة والتقليد الإيجابيين، انطلاقاً من النصوص الدينية الداعية لذلك ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ [آل عمران: ٣١] ولنوعية علاقة الفرد الشيعيّ بالنبي وآله والقائمة على أسس المودة، إذ إنّ من الطبيعيّ أن يسعى المحبّ في التقرب إلى محبوبه، وغالباً ما يتحقّق ذلك بالسّير على نهجه والافتداء بأعماله.
- ٦- الدور السياسيّ الميدانيّ المتعدّد الأنماط وفق معطيات الساحة ومستجدات الأحداث والتحديات.

• أبعاد العطاء

من الواضح أنّ هذا العطاء ضخم، وهو لا يأتي من فراغ، فهو مرتبط باسم الحسين، وارتباطه باسم الحسين يعطيه أكثر من بُعد:

١- بُعد ولائِيّ: فعندما ندرس الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنّه يمثل أحد العترة الذين اعتبرهم النبي ﷺ سبياً مع القرآن لعدم الضلال من بعده.

٢- بُعد روحيّ: فهو أحد الخمسة الذين أكّد القرآن الكريم على أنّهم حقّقوا ذلك المستوى من الطهارة الإيمانية والروحية والسلوكية فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٣- بُعد عمليّ: فهو يمثل الشخصية التي عاشت عمق الإسلام كأعمق ما يكون، فهو من الرسول: (حسين منّي وأنا من حسين)، والشخصية التي انطلقت مع الناس بروحية المحبّة والعطاء، والشخصية التي تحرّكت في القضايا المتّصلة بالجانب الإسلامي في حركيته في الواقع، حتى بلغ القمّة في ذلك من خلال التضحيات العظيمة التي قدّمها من أجل الإسلام في يوم عاشوراء في مواجهة نوع من أنواع الانحراف الذي فرض على ذلك الواقع الإسلامي، من خلال مجموعة عوامل تبدأ بتلك الفوضى التي جاءت نتيجة الصراعات الداخلية، وتحوّل الخلافة إلى ملك عضوض، وتبدّل المفاهيم من ناحية التصوّر، والانحراف في السلوك النابع منها، ما أدّى إلى انقلاب في صورة الإسلام.

كلّ هذا يجعل التعاطي مع المنبر الحسيني تعاطياً ذا أهمية كبيرة لاسيما وقد قدّم العديد من الخطباء الحسينيين- طوال القرون الماضية وفي العصر

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
 الحديث - التضحيات الجسام في طريق الإصرار على إقامة هذه المجالس المفعمة
 بالعطاء الإيماني والفكري والروحي والقيمي المتميز، فاستشهد منهم من استشهد،
 واعتقل من اعتقل، وهجر من هجر.. وهذا في حد ذاته يفرض على كل الأطراف
 المعنيّة من حوزات علمية وخطباء وأصحاب مجالس حسينية ورواد تلك المجالس
 أن يحافظوا على هذا المنبر الدينيّ الإعلاميّ المنقطع النظير، بقاءً وامتداداً وتطويراً،
 كما يجعل مسؤوليتهم مضاعفة تجاه ما يقدمه المنبر الحسيني للمجتمعات المختلفة
 وفق متغيرات ظروفها وخصائصها، وللشرائح المختلفة في المجتمع الواحد.

وصدر مؤخراً كتاب بعنوان (شهداء المنبر الحسيني في العراق) لمؤلفه
 الشيخ حمزة الخويلدي، ويختص فقط بشهداء المنبر الحسيني في العقود
 الأربعة الأخيرة (١٩٦٨-٢٠٠٣م)، وسبقه إلى ذكر بعض شهداء المنبر الشيخ
 حيدر المرجاني في كتابه (خطباء المنبر الحسيني) والسيد داخل السيد حسن
 في موسوعته (معجم الخطباء) وغيرهما ولكن ما يميّز هذا المعجم أنه اختصّ
 بالشهداء من الخطباء، كما اختصّ - من قبل كتاب (شهداء الفضيلة) المطبوع في
 العراق العام ١٩٣٦ للشّيخ عبد الحسين الأميني - بالشهداء من العلماء.

• أهمية إقامة المجالس

• إنّ المجالس الحسينية لا تمثّل - في أصالة تأسيسها - حالة من الترف
 الفكري، ولم يرد لها أن تكون وسيلة من وسائل الإثارة الطائفية، بل هي منابر
 الوعي الإيماني المنبثق من قيم القرآن وعطاءات النبي وآله صلوات الله عليهم.
 ولذا جاء الحثّ على إقامتها وارتياحها، ومن ذلك ما روي عن الإمام
 الرضا عليه السلام: «مَنْ تَذَكَّرَ مِصَابِنَا، وَبَكَى لِمَا ارْتُكِبَ مِنَّا، كَانَ مَعَنَا فِي دَرَجَتِنَا يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ، وَمَنْ ذَكَرَ مِصَابِنَا فَبَكَى وَأَبَكَى، لَمْ تَبِكْ عَيْنُهُ يَوْمَ تَبْكِي الْعَيُونَ، وَمَنْ جَلَسَ

مجلساً يُحيى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»^(١).

ولم تكتفِ توجيهات أهل البيت عليهم السلام نحو إقامة هذه المجالس وإحياء هذه المناسبة في الظروف الطبيعية، بل جاء الحثُّ على الاهتمام بها حتى في زمن الخوف والشدة، ففي جامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي عن ابن بكير أنه قال للإمام الصادق عليه السلام: «إني أنزل الأرجان - بهبهان - وقلبي ينازعني إلى قبر أبيك، فإذا خرجت فقلبي وجل مشفق حتى أرجع خوفاً من السلطان والسعاة وأصحاب المسالِح، فقال: يا ابن بكير، أما تحب أن يراك الله فينا خائفاً؟ أما تعلم أنه من خاف لخوفنا أظله الله في ظلِّ عرشه، وكان محدثه الحسين عليه السلام تحت العرش، وآمنه الله من أفراع يوم القيامة، يفرع الناس ولا تفرع، فإن فرع وقرته - أو قوته - الملائكة، وسكنت قلبه بالبشارة»^(٢).

● إن هذه المجالس أمانة، ومسؤوليتنا أن نرسخ وجودها، وأن نقدّمها بصورة تجعلها ركيزة إسلامية حضارية، تخدم قضية الحسين عليه السلام التي هي قضية الإسلام والتي لخص أهدافها في قوله: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي عليه السلام، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق»^(٣). وفي هذا الطريق قدّم الإمام الحسين عليه السلام مهجته، ومهج أهل بيته وأنصاره، يقول الشاعر حيدر بن سليمان الحلبي:

وخائضين غمارَ الموتِ طافحةً أمواجها البيض بالهلماتِ تلتطمُ
مشوا إلى الحربِ مشيَ الضارياتِ لها فصارعوا الموتَ فيها والقنا أجْمُ

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ١، ص ١٩٩، ح ٣.

(٢) م. ن، ج ٩٨، ص ١٠-١١، ح ٣٩.

(٣) م. ن، ج ٤٤، ص ٣٢٩.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

* ولا غضاضة يومَ الطفِّ أن قُتِلوا صبراً بهيجاء لم تثبت لها قدمٌ^(١)
* فإنّا لله وإنا إليه راجعون وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون والعاقبة
للمتقين.. السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى
أصحاب الحسين جميعاً ورحمة الله وبركاته.



(١) شبر: أدب الطف، ج١، ص ٢٦.



الإخلاص في العطاء



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

• يُقال إنّ من طبيعة الإنسان الشرقي الإفراط في الحساسية من النقد، وإذا أضفنا إلى ذلك حساسية الدائرة التي يرتبط بها النقد، كأن يكون نقداً لشخصية يقدّسها الناس - وإن لم تكن مقدّسة في واقعها - أو لأمر يرتبط به الناس عاطفياً لمديات بعيدة، أو لعنوان خصّه الناس بالتحالي على أية إشكالات يمكن أن تعتريه.

• أهمية النقد

لذا كان من الضروري التنويه إلى أنّ نقد المجالس الحسينية في صورتها الحالية لا يعني بحال محاولة إضعاف هذه المجالس أو توهينها، بل هو نقد ضروريّ في المسيرة التي يفترض بها أن تكون تكاملية لأيّ مشروع ديني وثقافي وإعلامي وتربوي واجتماعي، فكيف إذا كان هذا المشروع هو مجالس العزاء الحسيني الذي يتوافد عليه عشرات الملايين في أنحاء العالم طوال العام ومن مختلف المشارب والفئات، حتى من قبل أولئك الذي لا تكون لهم علاقة ملتزمة بالدين والشريعة، إلا أنّ ارتباطهم التاريخي والعاطفي بالنبّي وآله عليهم السلام يدفعهم بقوة نحوها.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * _____

• يُضاف إلى ذلك أنّ شريحة من جمهور هذه المجالس بات يتحدث علناً في إطار نقد بعض ما يُقال ويجري فيها، بل إنّ البعض فضل الانسحاب نهائياً ومقاطعتها، علاوة على الشريحة التي سجّلت ملاحظاتها على هذه المجالس فكانت منطلقاً لابتعادها عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام بصورة تامّة.

• وثالثاً تواجهنا الشريحة التي ترصد وتترصد لكل زلّة لتسجّل نقطة هنا ونقطة هناك على ما يُمارَس ضمن أجواء مدرسة أهل البيت عليهم السلام بعنوان الشعائر، وعلى ما يُقال على المنابر بعنوان عقيدة وفكر هذه المدرسة.

• ثم إنّ هناك مسؤوليّة شرعيّة واعتباريّة ملقاة على كلّ مسلم في أن يعي ما يُقال، وأن يستمع عن تبصّر وتفكّر، لأنّه مسؤول عن تبعات ما يأخذه عن الآخرين كما في الحديث عن الإمام محمد الجواد عليه السلام: «مَنْ أَصغى إلى ناطقٍ فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّي عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»^(١).

• للنقد في كتب اللغة عدة معانٍ، ولكن أبرزها معنيان يرتبطان بحديثنا هذا:

١ - التمييز بين الجيّد والرديء من الدراهم والدنانير، فيقال: نقدت الدراهم وانتقدتها إذا أخرجت المزيف منها.

٢ - العيب والثلّم والتجريح، فيقال: نقدت رأسه بإصبعي إذا ضربته، ويذكرون شاهداً عليه حديث أبي الدرداء «إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك»^(٢) أي: إن عبّتهم أو اغتبتهم قابلوك بمثله.

• ولعلّ المعنى الثاني، هو المعروف الشائع من هذه الكلمة، فقد استعمل

(١) الكليني: الكافي، ج ٦، ص: ٤٣٤، ح ٢٤.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة نقد.

النقد في معنى تعقّب الأدباء والفنّيين والعلماء والدلالة على أخطائهم وإذاعتها قصد التشهير أو التعليم، وشاع هذا المعنى في عصرنا هذا وصارت كلمة النقد إذا أُطلقت فُهِمَ منها الثلم ونشر العيوب والمآخذ.

• أنواع النقد

• ولهذا اعتُبر النقد في كثير من المجتمعات مظهراً من مظاهر العداوة والبغضاء وسبباً من سبب الإهانة والإيذاء، لأنّه يمثّل البحث عن عيوب الشخص من أجل إظهارها للناس كوسيلة من وسائل التحقير والتشهير. أما المعنى اللغوي الأول، فلعلّه أنسب المعاني وأليقها بالمراد من كلمة النقد في الاصطلاح الحديث من ناحية، وفي اصطلاح أكثر المتقدّمين من ناحية أخرى فإنّ فيه معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم.

• في المفهوم المعاصر: (دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها المشابه لها، أو المقابلة ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها. يجري هذا في الحسيّات والمعنويات وفي العلوم والفنون وفي كلّ ما يتّصل بالحياة).

• وفي النصوص الإسلامية هناك تشجيع على النقد الذاتي، أي (نقد الفرد نفسه، أو نقد الأمة أو بعض قطاعاتها الاجتماعية نفسها.. وذلك، بالتحليل العميق الواعي، من أجل تحديد مواطن النقص، وأسباب العجز والمؤثرات المؤدّية إلى وجود العيوب والنقائص)^(١).

• نقد الفرد لنفسه يتمّ من خلال: تحليل الدوافع الذاتية للعمل، وفي تحديد المؤثرات الخارجية التي شاركت في اتّخاذ هذا الموقف أو ذلك. فإذا أراد أن يعرف قيمة عمله من الداخل فبإمكانه تحليل الدوافع التي شاركت في اندفاعه

(١) العظم: النقد الذاتي بعد الهزيمة، ص ١٧٥-١٧٦.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * —————

للعمل، فقد يكتشف الصفة الخاصّة، وهو يتخيّل انطلاقه من الصفة العامة، وقد يكون هذا الموقف واقعاً تحت رحمة مؤثرات عديدة، ولا يعرف الإنسان السبب الأعمق في التأثير، فيكتشفه بعد التحليل، ليكتشف طبيعة المؤثرات الخارجية التي تضغط على إرادته.

• نقد الأمة لنفسها يتمّ أيضاً بالشيء نفسه، وذلك بتحليل المواقف الكبيرة التي تقفها من الأحداث، أو الأحداث التي تقتحم حياتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتؤدّي بها إلى تقدّم أو تأخّر، وتقودها إلى الهزيمة أو الانتصار.. فقد تختلط المؤثرات، وتتشابك الأسباب.. ويأتي دور النقد الذاتي الذي يحلّل ذلك كلّ من خلال تحليل الأفراد المسؤولين أعمالهم، وتحديد المؤثرات العامة والخاصة، وأسباب الربح والخسارة، ومواطن النجاح والفشل.. وللوصول إلى معرفة أعمق، وفهم واسع لطبيعة الموقف وأبعاده..

• تنبع حاجتنا إلى النقد الذاتي من حاجتنا إلى فهم أنفسنا في أبعادها الداخلية والخارجية، وإلى فهم واقعنا بكلّ ما يشتمل عليه من ظواهر وحركات، ولتقييم حركتنا وإلى أين تتّجه، وللتخطيط لما يأتي، وحلّ السلبيّات والتطوير. إلخ.

• وربما تتمثّل الحاجة إلى النقد الذاتي في دراسة بعض الأوضاع التي درجنا على ممارستها في شؤون الدين، انطلاقاً من عادات قديمة، أو تقاليد مستحكمة، أو نظرة خاطئة، تجد في ذلك ضمناً لقيم معينة، أو مبادئ كبيرة، وترى أنّ زوال هذه الأوضاع يشكّل خطراً على تلك القيم والمبادئ، بحجة أنّها هي التي تحفظ للمجتمع عقيدته أو توازنه أو ارتباطه بالقيم، فإذا فقدناها فقدنا هذه الضوابط التي يحتاجها المجتمع في حياته الدينية والاجتماعية.

• ربما نحتاج إلى النقد الذاتي - في هذه الحالة - لنعرف كيف نشأت هذه

ليالي عَاشُورَاءُ * _____

الأوضاع، وكيف فرضت وجودها على الدين والمجتمع، ثم لندرس تأثيرها العكسي، ثم لتتعرف - من خلال فهمنا لواقعنا المعاصر - كيف يمكننا الحصول على ضوابط جديدة تحفظ للمجتمع عقيدته وتوازنه وتساهم في التوفيق بين طبيعة الوسيلة وبين طبيعة الغاية في مستوى الممارسة.

• ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، ونجد أمير المؤمنين عليه السلام يقول في دعائه: (أنا...) والإمام السجاد عليه السلام يقول لطاووس اليماني: (لا أدري...) كل ذلك لم يكن والعياذ بالله تمثيلاً، كما أنه لم يكن لكي نتهنهن نحن بالسوء والعياذ بالله، بل هذا ما تربوا عليه في نقد أنفسهم ووضعها أمام الله في موضع الاتهام كصورة من صورة النقد الذاتي لكي ترتقي، لأن من غير الطبيعي أن يمارس الإنسان عملية النقد في الأجواء التي يشعر معها بالكمال النفسي الذي يتمرد على النقص، ويعلو على النقد.

• نقد التراث الإسلامي

• وجاء التوجيه الإلهي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. وفي الحديث النبوي الشريف: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنوها قبل أن تُوزنوا»^(١).

• ننظر إلى التراث على أساس أنه يمثل الخطوط الفكرية المتنوعة في قواعدها وأساليبها ومضمونها، من خلال اجتهادات الذين حرّكوها، سواء كان ذلك في المجال الكلامي أو الفقهي أو الفلسفي أو السياسي أو في المجالات الأدبية والفنية المتنوعة... إنه جهد الآخرين الذين عاشوا في الماضي، وجهد

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ح ٦٧، ص ٧٣، ح ٢٦.

الآخرين لا يمثل الحقيقة إلا من خلال قناعاتهم، في ما يرونه.

إننا كمسلمين نرى الحقيقة في كتاب الله، من خلال أنّه النص الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ [فصلت: ٤٢]، فليس هناك شك في أنّ القرآن كتاب الله، ولكن كلمات القرآن تبقى خاضعة لاجتهاد المفسرين والعلماء، الأمر الذي لا يسمح لنا اعتبار ما اجتهد به العلماء وما فسّر به المفسرون القرآن، أنّه يمثل الحقيقة الكاملة، فقد نستطيع أن نكتشف كثيراً من الأخطاء في هذا التراث، كما اكتشف الذين عاشوا في داخل حركة هذا التراث في الماضي أخطاء بعضهم البعض.

• وهكذا، فإننا لا نستطيع أن نرى الأفكار التي انطلقت من خلال الاجتهاد في أحاديث النبي ﷺ أنّها تمثل الحقيقة، فهناك مدخلان لمعالجة مسألة السنة النبوية الشريفة، المدخل الأول يتصل بجهة الصدور هل هي من النبي ﷺ؟ أما المدخل الثاني فيتصل بجهة المضمون، أي يتصل بطريقة فهمنا لكلام النبي ﷺ من خلال أحاديثه؟ وهكذا بالنسبة إلى الأئمة عليهم السلام.

• ونحن نعتقد من خلال ذلك، أنّ كلّ ما جاءنا من تراث فقهي وكلامي وفلسفي هو نتاج المجتهدين والفقهاء والفلاسفة والمفكرين، من خلال معطياتهم الفكرية، ولا يمثل الحقيقة إلا بمقدار ما نقتنع به من تجسيده للحقيقة، على أساس ما نملكه من مقاييس الحقيقة، وبهذا فإننا نعتبر أنّ كلّ الفكر الإسلامي - ما عدا الحقائق الإسلامية البديهية - هو فكر بشري، وليس فكراً إلهياً، قد يُخطئ فيه البشر في ما يفهمونه من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، وقد يصيبون.

• وعلى هذا الأساس، من الضروري أن ننظر إلى التراث المنطلق من اجتهادات المفكرين - أيما كانت مواقع تفكيرهم - نظرة بعيدة عن القداسة في توجهاتهم، وهم من هم في مؤهلاتهم الروحية، لأنّ ذلك شيء ومسألة الفكر

ليالي عاشرآء * _____

شيء آخر. ولذلك فإننا ندعو إلى دراسة التراث دراسة ناقدة، ونعتبر أن إغفال التراث هو خطأ كبير، كما هو الحديث عن الاستغراق في التراث خطأ كبير.

• ومن هنا انطلق العديد من العلماء والمفكرين في دراسة أوضاع المنبر الحسيني من خلال نقد موضوعي هادف، ولكنهم للأسف ووجهوا في كثير من الأحيان بردات فعل عنيفة، خسروا من خلالها شيئاً من امتدادهم وفق حسابات الكم والعدد، ولكن جهودهم أثمرت من حيث الكيف. وهو ما سنستعرضه لاحقاً بإذن الله.





رَبُّطُ المنبر الحسيني بالواقع



• ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

• من أهم مسؤوليات القائمين على التبليغ الديني رَبُّطُ التعاليم الإسلامية بالواقع الفكري والسياسي والتربوي والاجتماعي والأخلاقي الذي يعيشونه، لأن الإسلام أولاً وأخيراً هو الدين والشريعة التي رسم الله تعالى معالمها حين بعث نبيه الأكرم ﷺ، وحين أنزل معه القرآن الكريم نوراً مبيناً، كل ذلك بهدف إخراج الناس من ظلمات الواقع الذي يعيشونه إلى نور الحياة التي يتزودون من خلالها للآخرة، ويقتبسون من نورها نوراً في ظلمات الآخرة.

• دور المجالس

• ويُفترض في مجالس العزاء الحسيني أن تكون في مقدّمة الوسائل لتحقيق هذه الغاية ما أمكن، على الرغم من معارضة أصحاب الرأي الآخر الذين يريدون لهذه المجالس أن تنأى بنفسها عن هذه العناوين، وتبقى مقتصرة على استعراض أحداث الثورة الحسينية في أبعادها التاريخية والمأساوية لا غير.

• وقد اعتبر بعض العلماء أنّ اهتمام أهل البيت ﷺ في إقامة مجالس العزاء

الحسيني - ولو بصورتها البسيطة - لم تكن بعيدة عن غرض تحريك واقع المسلمين وفق المنهج الإسلامي.. وللإمام الخميني كلمة في ذلك، قال رَحِمَهُ اللهُ: «لا تحسبوا أنَّ الغاية من اجتماعنا في المجالس الحسينية هي البكاء أو التباكي على الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقط؛ فلا الإمام بحاجة إلى البكاء، ولا البكاء في حدِّ ذاته يُجدي في شيء، إنَّما في المجالس تجمُّع للناس، وهنا يكمن الهدف السياسي منها.. والمعطى السياسي هو أهم معطيات تلك التجمُّعات، وهذا ما يفسِّر لنا طلب بعض الأئمة من الحاضرين قراءة المجلس ورغبتهم في الاستماع لمصيبة أبي عبد الله الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. كذلك ليس اعتباراً أنَّ تنصُّ رواياتهم على علوِّ أجر من بكى أو حتى تباكى على مصابهم ومظلوميَّتهم، فالقضية ليست قضية بكاء محض أو تباكٍ صرف، وإنما هي قضية السياسة بعينها التي أراد الأئمة من خلالها توحيد الأمة وتحسينها من الزل»^(١).

• ثقافة الخطيب الحسيني

• ومع تطوُّر التحدّيات في عصرنا هذا عمقاً وامتداداً وتنوعاً وكثرة ووسيلة فمن المفترض على مَنْ يتحمَّل مسؤولية الخطابة الحسينية أن يبقى في حالة مستمرة من الدراسة والتفكير والبحث والحوار مع مَنْ حوله كي يستطيع أن يقدم الكلمة المسؤولة، ويكون حجّة لله على الناس، لا حجّة على الإسلام لمصلحة أعدائه، لأنَّ الإنسان الذي لا يملك ثقافة يستطيع من خلالها أن يدافع عما يمثل و عما يدعو إليه فإنّه سوف يؤدّي إلى ضعف ما يمثل وما ينتمي إليه.

• إذا لم يعيش الخطيبُ الحسينيُّ عصره فإنّه لن يفهم ذهنية الجيل الذي يعيش معه ويجلس تحت منبره، ولن يعيش هموم هذا الجيل في التحدّيات التي تواجهه كإنسان مسلم تنبيري أمامه الكثير من التساؤلات والتشكيكات والحيرة

(١) مترجم عما ورد في قيام عاشوراء در كلام وبيام إمام خميني (ثورة عاشوراء عند الإمام الخميني): مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني: ج١، ص ٦٤.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
في الموقف من القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها، ما يجعل نتيجة
لذلك هوة عميقة بين الدين وبين متلقيه.

• تطوير الخطاب

• ولناخذ مفردة واحدة من المفردات التي نحتاج إلى تطوير خطابنا فيها نوعاً
وأسلوباً، وهي مفردة البحوث العقائدية.

- البحوث العقائدية حين تبلورت في النصف الثاني من القرن الهجري الأول،
وأخذت بعد ذلك مسمى علم الكلام تحكّمت في نشأتها وتطوّرها مجموعة
من الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في المجتمعات
الإسلامية آنذاك، فأمدّت عقل المتكلم (الباحث المتخصّص في العقائد) بعناصر
وأدوات خاصة، هي نتاج تلك البيئة، ولذلك تجلّت البيئة التاريخية للمتكلم
وأبعادها المعرفية في تراث الكلام الإسلامي.

• مثال ذلك قضية (الجبر والتخير) التي انطلقت من خلال عامل سياسي
حين أرادت الحكومة الأموية أن تبرّر للخليفة وعمّاله تصرفاتهم المنافية لتعاليم
الإسلام، وتطوّرت المسألة إلى بحوث مفصّلة وظّفت فيها الآيات القرآنية
والأحاديث النبوية، وشهدت حتى الوضع (الكذب) على لسان النبي ﷺ من
أجل تقوية هذا الطرف أو إضعاف الطرف الآخر.

• فظهرت في تلك الفترة فرقة (القدرية الجبرية) ويعرفون بعنوان (غلاة
الجهمية) وإمامهم (جهم بن صفوان الترمذي السمرقندي) (قُتل ١٢٨ هـ) حيث
قالوا: «إنّ عموم مشيئة الله، وعموم إرادته تقتضي أنّ العبد مجبور على أفعاله
وأقواله، ولا قدرة له على شيء من الطاعات، ولا على ترك المعاصي، وهو مثاب
معاقب على ما لا قدرة له عليه»^(١).

(١) ابن تيمية: الدرّة البهية شرح القصيدة النائية في حل المشكلة القدرية، ص ٢٤ بتصرف.

• ونشأت كردة فعل عليها فرقة (القدرية النفاة) على يد (معبّد الجهنّي البصري) القائل بأن: «أفعال العباد، وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره»^(١).

• ووضّح الحديث على لسان رسول الله ﷺ في هذه الأجواء انتصاراً حيث نسب إليه قوله: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»^(٢).

• هذا نموذج عن كيفية تكوّن مفردات علم الكلام في تلك الحقبة من الزمن، وعليها فقس وقوعها تحت تأثير أجواء الصراعات المذهبية والأهواء السياسية والتحديات الفكرية التي فرضتها أجواء التلاقي مع أتباع العقائد الأخرى في ظلّ امتداد حدود الدولة الإسلامية. ويبدو أنّ الأمر بقي على هذا المنوال لأربعة قرون، ثم اتّجهت البحوث العقائدية نحو اجترار ما قدّمته تلك القرون، وإن كان بأسلوبٍ مختلفٍ أو بشيءٍ من الزيادة في الأدلّة أو التعليق على هذا القول أو ذلك، فدخل هذا العلم مساراً مسدوداً، دأب فيه على العودة إلى المشكلات والتحديات نفسها التي بحثها السلف.

• الملاحظة الثانية في هذا الإطار هو استغراق المتكلّمين في العوالم الذهنية المجرّدة، البعيدة عن الواقع ومشكلاته، فتغلّبت بالتدرّج النزعة التجريدية الذهنية على المنحى الواقعي في التفكير الكلامي، وخرج بالتالي عن المنهج القرآني في طرح القضايا العقائدية. فعنوان التوحيد - على سبيل المثال - أراد له القرآن أن يكون صبغةً لسائر مرافق حياة الإنسان، إلا أنّ استغراق علم الكلام في الأسلوب التجريدي أدّى لتفريغ التوحيد من مضمونه العملي، والتعامل معه

(١) ابن تيمية: الدرّة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، ص ١٨-١٩.

(٢) أبوداود: السنن، ج ٤، ص ٢٢٢، ح ٤٦٩١.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
بوصفه مفهوماً ذهنياً مجرداً لا صلة له بالواقع، وغدت حقيقة التوحيد التي كانت
تطبع حياة المسلمين كلّها تشريعاً، وآداباً، وفنوناً، وعمارة، منحسرة في أذهان
المسلمين إلى بُعد واحد نظري تجريدي.

• وأدى أيضاً إلى طرح قضايا وهمية، وبتعبير العلامة الطباطبائي: «نظريات
وأقوال يأسف العقل السليم لوجودها»^(١).

• وبمرور الزمن اكتسبت بعض الأبحاث القديمة في علم الكلام نوعاً من
القداسة، فلم يجرؤ الكثيرون على تخطّيها، حتى ولو لم يعد لها أية أهمية، وفي
المقابل لم يجرؤ الكثيرون على إضافة قضايا هامة تمسّ الواقع.

• ويشير بعض الباحثين إلى أنّ من أبرز القضايا المهملة اليوم في علم
الكلام مبحث الإنسان، الذي يتناول تأصيل موقف نظري يحدّد منزلة الإنسان
وقيمته بالنسبة إلى غيره من المخلوقات، والهدف من وجوده، وطبيعة وظيفته،
 وأنماط حياته، وثقافته، وعيشه، وعلاقتها بما يتشكّل لديه من رؤية كونية، وما
يرتبط بذلك من مسائل، بينما نجد قضية الإنسان تتصدّر القضايا التي يعالجها
القرآن.

• ولذا اعتبر الشهيد السيد محمد باقر الصدر في مقدّمة كتابه الفتاوى الواضحة
أنّ أهمية هذه القضية تتنامى مع تطوّر الحياة الاجتماعية، وشيوع ألوان القهر
والاستبداد، وامتهان الإنسان، وإهدار كرامته، وتدجينه على المفاهيم والقيم
الرديئة.. فما لم نتوفّر على صياغة رؤية كونية تفصح لنا عن مكانة الإنسان،
وتحدّد نوع علاقته بالدين، وتؤكد أنّ الدين جاء لتكريم الإنسان، وترشيده،
وخدمته، تغدو دعواتنا لتحريره مجرد شعارات لا مضمون لها.

(١) الطباطبائي: الشبعة نص الحوار مع المستشرق كوربان، ص ٨٢.

• تصوّرات للتجديد

• ولذا يفترض أن يتمّ تجديد علم الكلام من خلال:

١- التجديد في المسائل والقضايا المبحوثة بما يشمل الإشكالات العقائدية والفكرية المعاصرة حول الإسلام من قبيل قضايا حقوق الإنسان والأقليات وقضايا المرأة والحرية والعقوبات والعلمانية ونظام الحكم وغير ذلك.

٢- التجديد في الأهداف بتجاوز الغايات المعروفة لهذا العلم، التي تتلخّص في الدفاع عن المعتقدات، إلى تحليل حقيقة الإيمان ومجمل التجربة الدينية.

٣- التجديد في المناهج بالانفتاح على بعض العلوم الجديدة أو التي تطورت في هذا العصر من قبيل علم تفسير النصوص، وعلم الدلالة، والتجريبية، والبرهانية، مضافاً إلى ظواهر النصوص، والحقائق التاريخية.

٤- استيعاب القضايا الموجودة في النصوص الإسلامية، سواء منها الناظرة إلى الواقع أم الناظرة إلى الأخلاق والقيم، من قبيل دراسة موقع السُّنة بالنسبة إلى القرآن، ومرجعية القرآن المعرفية.. إلخ.

٥- التجديد في اللّغة بالانتقال من لغة المتكلّمين القديمة، وألغازها، إلى لغة حديثة تعبّر بيسر، وسهولة عن المدليل، ويفهمها المخاطب من دون عناء.

٦- التجديد في المباني، فالمتكلم اهتمّ سابقاً بترسيم مبانٍ خاصة في المعرفة، تستند إلى المنطق الأرسطي، وشيء من ميراث الفلسفة اليونانية، وجعلها ممهّدة للمباحث الكلامية، بينما انهارت بعض تلك المباني، الأمر الذي يدعو إلى استئناف النظر في المباني الماضية لعلم الكلام.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * —————

• هذا يمثل نموذجاً من نماذج ربط التعاليم الإسلامية بالواقع الفكري والسياسي والتربوي والاجتماعي والأخلاقي الذي نعيشه، ونفتقر إليه في الخطاب المنبري الحسيني المبارك.

• عاشوراء القضية

• إنّ ما نريده هو أن نكبّر من خلال إحياء ذكرى عاشوراء ونهضة الإمام الحسين عليه السلام، فلا نرى فيها مجرد تاريخ لقيادة تنزف الدماء منها، دماء الكارثة ودماء المصيبة، ودماء الجسد، ولكننا نريدها أن تكون قضية.. قضية الإسلام.. وقضية الإنسان.. وقضية الفكر.. وقضية الحرية.. وقضية الأخلاق.. وقضية الماضي الذي نحركه في الواقع الذي نعيشه.. إننا لا نريد لمنبر الحسين عليه السلام أن يعلمنا فقط كيف نبكي سيد الشهداء بالتاريخ أكثر ممّا نبكي الإسلام في الواقع، ولا أن نتعلّم كيف نبكي الذين استشهدوا مع الحسين عليه السلام قبل أن نبكي المجتمع الذي يتخبّط في واقعنا، والذي يتعد في كثير من خطواته عن منهج الذين استشهدوا مع الحسين عليه السلام.

• لقد كانت نهضة الإمام الحسين عليه السلام واضحة في أهدافها الكبرى منذ أن انطلق بها، ولذا لم يتردّد في المضي قدماً نحو تحقيقها ضمن الخيارات المختلفة على الرغم من كلّ الكلمات التي وجّهت إليه من قبل البعض نصحاً أو تحذيراً.

• يقول الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد إنّه في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة ستين للهجرة «خرج عليه السلام مبادراً بأهله وولده ومن انضمّ إليه من شيعته.. فروي عن الفرزدق الشاعر أنه قال: حججت بأمي في سنة ستين، فيينا أنا أسوق بعيرها حين دخلت الحرم إذ لقيت الحسين بن علي عليه السلام خارجاً من مكة معه أسيافه وتراسه، فقلت: لمن هذا القطار؟ فقيل: للحسين بن علي. فأتيته فسلمت عليه

وقلت له: أعطاك الله سُؤلكَ وأملكَ فيما تحب، بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، ما أعجلك عن الحج؟ فقال: لو لم أعجل لأخذت. ثم قال لي: من أنت؟ قلت: امرؤ من العرب. فلا والله ما فتشني عن أكثر من ذلك، ثم قال لي: أخبرني عن الناس خلفك. فقلت: الخبير سألت، قلوب الناس معك وأسيافهم عليك، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء. فقال: صدقت، لله الأمر، وكلُّ يوم ربُّنا هو في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلم يبعد من كان الحق نبيته والتقوى سريره. فقلت له: أجل، بلِّغك الله ما تحبَّ وكفاك ما تحذر. وسألته عن أشياء من نذور ومناسك فأخبرني بها، وحرك راحلته وقال: السلام عليك. ثم افترقنا. وكان الحسين بن علي عليه السلام لما خرج من مكة اعترضه يحيى بن سعيد بن العاص، ومعه جماعة أرسلهم عمرو بن سعيد إليه، فقالوا له: انصرف، إلى أين تذهب؟ فأبى عليهم ومضى، وتدافع الفريقان واضطربوا بالسياط، وامتنع الحسين وأصحابه منهم امتناعاً قوياً. وسار حتى أتى التنعيم فلقي عيراً قد أقبلت من اليمن، فاستأجر من أهلها جمالاً لرحله وأصحابه، وقال لأصحابها: مَنْ أحب أن ينطلق معنا إلى العراق وفينا كراءه وأحسننا صحبتته، ومَنْ أحب أن يفارقنا في بعض الطريق أعطيناه كراءً على قدر ما قطع من الطريق. فمضى معه قوم وامتنع آخرون. وألحقه عبد الله بن جعفر رضي الله عنه بابنيه عون ومحمد، وكتب على أيديهما إليه كتاباً يقول فيه: أما بعد، فإنِّي أسألك بالله لَمَّا انصرفت حين تنظر في كتابي، فإنِّي مشفق عليك من الوجه الذي توجَّهت له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك، إن هلكت اليوم طفئ نور الأرض، فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالمسير فإنِّي في أثر كتابي، والسلام. وصار عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد فسأله أن يكتب للحسين أماناً ويمَّته ليرجع عن

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
 وجهه، فكتب إليه عمرو بن سعيد كتاباً يمنيّه فيه الصلّة ويؤمّنه على نفسه، وأنفذه
 مع أخيه يحيى بن سعيد، فلحقه يحيى وعبد الله بن جعفر بعد نفوذ ابنه ودفعاً
 إليه الكتاب وجهداً به في الرجوع فقال: إنّي رأيت رسول الله ﷺ في المنام،
 وأمرني بما أنا ماض له. فقالا له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدّثت أحداً بها، ولا
 أنا محدّث أحداً حتّى ألقى ربي ﷻ. فلما أيس منه عبد الله بن جعفر أمر ابنه عوناً
 ومحمداً بلزومه والمسير معه والجهاد دونه، ورجع مع يحيى بن سعيد إلى مكة.
 وتوجّه الحسين عليه السلام نحو العراق مغدّاً لا يلوي على شيء^(١).

* فإنّا لله وإنا إليه راجعون وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون والعاقبة
 للمتقين.. السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى
 أصحاب الحسين جميعاً ورحمة الله وبركاته.



(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٦٧-٦٩.



شرعية الحياد في الموقف



• ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

• للمجتمع الإسلامي أخلاقيات تحكم علاقات الناس فيه، هدفها المحافظة على وحدته وسلامته، ومنها الإصلاح في ما يتنازع فيه الناس ويتقاتلون عليه. ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ وامتدّت بالعدوان، فلم تقبل بالصلح ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ ولا موقع للوقوف على الحياد مع وضوح أي الطرفين هو الباغي، ولا شرعية للحياد في الصراع بين الحق والباطل، ولا هو من الاحتياط الممدوح، بل حالة من الانتصار للباطل وتقوية موقعه.

• ذهنية الحياد

• ولذا فنحن نعتبر أنّ الذين رفضوا نصره الحسين عليه السلام مفضّلين الوقوف على الحياد، وهم يعلمون من هو الحسين وماذا يمثل، ومن هو يزيد وماذا يمثل، إن هؤلاء نصرروا الباطل وخذلوا الحق.

• وقد تجلّى هذا الموقف الحيادي السلبي من قبل في الصراع الذي خاضه

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * —————

أمير المؤمنين عليه السلام مع خصومه، وذلك بذريعة التمسك بالاحتياط، والامتناع عن الخوض في الفتن، إلا أنّ تلك المواقف عادت بالنتيجة سلباً على المجتمع الإسلامي، وهو ما أدركوه متأخرين، وحاولوا مواجهته دون جدوى، فقد استقرّت الأمور للأمويين وباتوا الطرف الأقوى الذي فرض كلمته.

• ويمكن تطبيق ما سبق على مواقف الصحابي سعد بن أبي وقاص الزهري. فقد أسلم وهو في السابعة عشرة من عمره، وكان من أوائل من قبلوا دعوة النبي ﷺ، وروي أنه كان من المتحصّنين في بيت أمير المؤمنين بعد أحداث السقيفة.. إلا أنّ الأيام كانت كفيلة بتغيير موقفه من نصرته أمير المؤمنين.

• بدأ موقفه السلبي الواضح من الإمام يوم بويع بالخلافة، قال ابن أبي الحديد: «بايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة وعبدالله بن عمر، وأسامة بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، وعبد الله بن سلام... ثم أتى بسعد بن أبي وقاص، فقال له بايع، فقال: يا أبا الحسن خلّني، فإذا لم يبقَ غيري بايعتك، فوالله لا يأتيك من قبلي أمرٌ تكرهه أبداً، فقال: صدق، خلّوا سبيله»^(١).

• وهكذا اتخذ موقفه في الأحداث التالية حيث اعتزل معركتي الجمل وصفين بمبرّر البعد عن الفتنة على الرغم من وضوح الأمر بالنسبة إليه في خصوص شأن الإمام علي عليه السلام. يقول ابن أبي الحديد: «وكان سعد بن أبي وقاص قد اعتزل علماً ومعاقبة ونزل على ماء لبني سليم بأرض البادية يتشوّف الأخبار، وكان رجلاً له بأس ورأي ومكان في قريش، ولم يكن له هوى في علي ولا في معاوية، فأقبل راكبٌ يوضع من بعيد فإذا هو ابنه عمر فقال له أبوه مهيم؟ فقال: التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك حتّى تفانوا ثم حكّموا عبد الله بن قيس

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٩.

وعمر وبن العاص وقد حضر ناس من قريش عندهما، وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل الشورى، ومن قال له النبي ﷺ: «اتقوا دعوته»، ولم تدخل في شيء مما تكره الأمة، فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غداً. فقال: مهلاً يا عمر، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تكون بعدي فتنة خير الناس فيها التقي الخفي» وهذا أمر لم أشهد أوله فلا أشهد آخره، ولو كنت غامساً يدي في هذا الأمر لغمستها مع علي بن أبي طالب، وقد رأيت أباك كيف وهب حقه من الشورى، وكره الدخول في الأمر. فارتحل عمر لما استبان له أمر أبيه»^(١).

• وبعد استشهاد أمير المؤمنين ﷺ واضطرار الإمام الحسن ﷺ للصلح دار الحوار التالي بينه وبين معاوية، حيث يعيب عليه معاوية موقفه السلبي من الصراع، معتبراً أن لا مبرر له في الشرع، وقد ورد الحوار في أكثر من كتاب ومنه شرح النهج: «ذكر أبو أحمد العسكري في كتاب الأمالي أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية عام الجماعة، فلم يسلم عليه بإمرة المؤمنين، فقال له معاوية: لو شئت أن تقول في سلامك غير هذا لقلت، فقال سعد: نحن المؤمنون ولم نؤمرك، كأنك قد بهجت بما أنت فيه يا معاوية! والله ما يسرنني ما أنت فيه وأنني هرقت محجمة دم، قال: ولكنني وابن عمك علياً يا أبا إسحاق قد هرقتنا أكثر من محجمة ومحجمتين، هلم فاجلس معي على السرير، فجلس معه، فذكر له معاوية اعتزاله الحرب يعاتبه، فقال سعد: إنما كان مثلي ومثل الناس كقوم أصابتهم ظلمة، فقال واحد منهم لبعيره إخ، فأناخ حتى أضاء له الطريق. فقال معاوية: والله يا أبا إسحاق، ما في كتاب الله إخ وإنما فيه: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٢٥٠-٢٥١.

* **تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**، فوالله ما قاتلتَ الباغية ولا المُبغى عليها. فأفحمه^(١).

• والسؤال: هل كانت الصورة بالنسبة لسعد غائمة بالدرجة التي لا يستطيع من خلالها أن يقرّر أيّ المعسكرين يمثّل الحقّ؟ وأيّ منهما يمثّل الباطل؟ النصوص التي بأيدينا تشكك في ذلك، فسعد كان يعلم كلّ العلم من هو عليّ وما هو مقام عليّ، ولذا كان يُفترض به أن يتّخذ موقف قتال الفئة الباغية كما تبّهه إلى ذلك معاوية بنفسه.

• وعلى عجالة نستعرض نصّين يرويهما سعد، فقد أخرج الحافظ النسائي في خصائصه عن عائشة بنت سعد قالت إنّها سمعت أباها يقول: «فلما بلغ غدير خم وقف للناس ثم ردّ من تبعه ولحقه من تخلف، فلما اجتمع الناس إليه قال: أيّها الناس مَنْ وليكم؟ قالوا: الله ورسوله. ثلاثاً، ثم أخذ بيد عليّ فأقامه ثم قال: من كان الله ورسوله وليّه فهذا وليه، اللهم والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه»^(٢).

• وفي صحيح مسلم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: «أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً، فقال: ما منعك أن تسبّ أبا التراب، فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رسول الله ﷺ فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حُمُر النعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول له، خلفه في بعض مغازيه، فقال له علي: خلفتني مع النساء والصبيان، فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبوة بعدي. وسمعتة يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، قال: فتناولنا لها، فقال: ادعوا لي علياً، فأتي به أرمداً، فبصق في عينه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه. ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾.. دعا رسول

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٢٦٣.

(٢) النسائي: خصائص الإمام علي، ١٠١٢.

الله ﷻ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي»^(١).

• وله نصوص أخرى عديدة في بيان مقام أمير المؤمنين ﷺ. ولذا يبدو أنه قد ندم على هذا الموقف السلبي منه في عدم نصرته الإمام علي ﷺ حتى آلت الأمور إلى معاوية، وأدرك هو وغيره من الصحابة الذين شاركوه في الموقف الضرر الكبير الذي لحق وسيلحق بالمسلمين جراء ذلك وكيف تبدلت الأحوال، وإلى أين تسير.. وهي نتيجة طبيعية لخذلان الحق باتخاذ الموقف الحيادي الذي يقوّي الباطل، وإن لم يقصد صاحبه ذلك، وهم الذين سمعوا النبي ﷺ يقول لهم: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليعمّنكم عذاب الله»^(٢) وقال: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فليسومنكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم»^(٣).

• فتتالت من ابن أبي وقاص التصريحات بالندم أو بذكر فضائل الإمام وأنه كان الأجدر بالأمر وغير ذلك، وهناك شواهد عديدة، ومن ذلك ما كتبه سعد بن أبي وقاص إلى معاوية برواية ابن قتيبة في الإمامة والسياسة: «أما بعد، فإن أهل الشورى ليس منهم أحدٌ أحقَّ بها من صاحبه، غير أنّ علياً كان من السابقة، ولم يكن فينا ما فيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه، وكان أحقنا كلنا بالخلافة، ولكن مقادير الله تعالى التي صرفتها عنه حيث شاء لعلمه وقدره، وقد علمنا أنه أحق بها منا، ولكن لم يكن بدُّ من الكلام في ذلك والتشاجر، فدع ذا. وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمرٌ كرهنا أوله وآخره، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيعتهما لكان خيراً لهما، والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين»^(٤).

(١) صحيح مسلم، ح ٤٤٢٠.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٤٩١.

(٣) ابن أبي الدنيا، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح ٨.

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٢٠.

• وفي العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي: «لما مات الحسن بن علي، حجّ معاوية فدخل المدينة وأراد أن يلعن علياً على منبر رسول الله ﷺ فقبل له: إن ههنا سعد بن أبي وقاص، ولا نراه يرضى بهذا فابعث إليه وخذ رأيه. فأرسل إليه وذكر له ذلك فقال: إن فعلت لأخرجنّ من المسجد ثم لا أعود إليه. فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد، فلما مات لعنه على المنبر وكتب إلى عماله: أن يلعنوه على المنابر. ففعلوا فكتبت أم سلمة زوج النبي ﷺ إلى معاوية: إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم وذلك إنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبّه، وأنا أشهد أن الله أحبّه ورسوله. فلم يلتفت إلى كلامها»^(١).

• وفي نهاية المطاف تجرّع ابن أبي وقاص السُّم على يد معاوية وتخلّص منه كمعارض أزعجته مواقفه المتتالية وأخرجته في أكثر من مقام، إلا أنّ تلك المواقف للأسف جاءت متأخرة، ولربما كان من نتاج ذلك التبدّل المتأخّر أنّ ابنه عمر اتخذ لنفسه سبيلاً مع الأمويين حتى قاد الجيش الذي قاتل الإمام الحسين ﷺ وأنصاره.

• لا حياد بين الحقّ والباطل

• ولذا فإنّ الوقوف على الحياد مع وضوح الحقّ والباطل لا يعني سوى خذلان الحقّ ونصرة الباطل بصورة غير مباشرة، والإنسان يتحمّل مسؤولية ذلك الموقف وتبعاته، وأمّا قول أمير المؤمنين ﷺ: «كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابِنِ الْبُؤُونِ، لَا ظَهْرٌ فَيُرَكَّبُ، وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبُ» فلا يعني الوقوف على الحياد في صراع الحقّ مع الباطل بل في الصراع الذي تكون الصورة فيه غائمة، أو يكون صراعاً بين الباطل والباطل.

• إنّ علينا أن نحدّد موقفنا أمام النماذج الموجودة في الواقع، هل نحن من

(١) الأندلسي: العقد الفريد، ج ٣، ص ١٦.

ليالي عاشوراء



الذين يتجنبون الدخول في ساحة الصراع، فيجلسون على التلّ عندما تزدهم ساحات الصراع بالمواقف الصعبة؟ أو من الذين يقولون إنّنا لا نحبّ المشاكل لأنفسنا، ليتغلّب هذا الجانب على ذلك ويتغلّب ذاك الجانب على ذلك، إذ ليس لنا مصلحة هنا ولا هناك، وبذلك نكون حياديّين بين الحقّ والباطل فلا نتخذ موقفاً محدّداً؟ وبتعبير بعض أهل الكوفة: «ما لنا والدخول بين السلاطين»^(١)؟

● لقد قدّمت لنا أحداث عاشوراء في مقدّماتها وتفصيلها صوراً عديدة لهذه النماذج التي ميّعت مواقفها مع الحق الذي مثله الإمام الحسين عليه السلام بذريعة الحياد والاحتياط واجتناب الفتنة، كما تجلّت فيها صورٌ عديدة لأناس حسموا مواقفهم مع الحقّ لأنّهم أدركوا أنّ الوقوف على الحياد لا يعني في نهاية المطاف سوى نصرّة الباطل.

● روى الشيخ المفيد في الإرشاد عن جماعة من فزارة ومن بجيلة قالوا: «روى عبد الله بن سليمان والمنذر بن المشمعل الأسيديان قالاً: لما قضينا حجّنا لم تكن لنا همّة إلا اللّحاق بالحسين عليه السلام في الطريق، لننظر ما يكون من أمره، فأقبلنا ترقل بنا نياقنا مسرعين حتى لحقنا بزروء، فلمّا دنونا منه إذا نحن برجل من أهل الكوفة قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين عليه السلام، فوقف الحسين كأنّه يريدّه ثم تركه ومضى، ومضينا نحوه، فقال أحدنا لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا لنسأله فإنّ عنده خبر الكوفة، فمضينا حتى انتهينا إليه فقلنا: السلام عليك، فقال: وعليكم السلام، قلنا: ممّن الرجل؟ قال: أسدي، قلت: ونحن أسديان، فمّن أنت؟ قال: أنا بكر بن فلان. وانتسبنا له ثم قلنا له: أخبرنا عن الناس وراءك، قال: نعم، لم أخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، ورأيتهما يُجرّان بأرجلهما في السوق. فأقبلنا حتى لحقنا الحسين صلوات الله

(١) آل درويش: المجالس العاشورية في المآتم الحسينية، ص ٢١١.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

عليه فسايرناه حتى نزل الثعلبية ممسياً، فجنّنا حين نزل فسلمنا عليه فرد علينا السلام، فقلنا له: رحمك الله، إنّ عندنا خبراً، إنّ شئت حدثناك علانية، وإن شئت سراً، فنظر إلينا وإلى أصحابه ثم قال: ما دون هؤلاء ستر. فقلنا له: رأيت الراكب الذي استقبلته عشي أمس؟ قال: نعم، وقد أردت مسألته. فقلنا: قد والله استبرأنا لك خبره، وكفيّناك مسألته، وهو امرؤ منا ذو رأي وصدق وعقل، وإنّه حدّثنا أنّه لم يخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم وهانىء، ورآهما يُجران في السوق بأرجلهما: فقال: إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، رحمة الله عليهما. يكرّر ذلك مراراً، فقلنا له: نشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوّف أن يكونوا عليك. فنظر إلى بني عقيل فقال: ما ترون؟ فقد قتل مسلم. فقالوا: والله لا نرجع حتى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق، فأقبل علينا الحسين عليه السلام وقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء. فعلمنا أنه قد عزم رأيه على المسير، فقلنا له: خار الله لك، فقال: رحمكما الله. فقال له أصحابه: إنك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع. فسكت ثم انتظر حتى إذا كان السحر قال لفتياناه وغلمايه: أكثروا من الماء. فاستقوا وأكثروا ثم ارتحلوا، فسار حتى انتهى إلى زباله. فأناه خبر عبد الله بن يقطر، فأخرج إلى الناس كتاباً فقرأه عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإنه قد أتانا خبر فظيع قُتل مسلم بن عقيل، وهانىء بن عروة، و عبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف غير حرج، ليس عليه ذمام. فتفرّق الناس عنه وأخذوا يميناً وشمالاً، حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة، ونفر يسير ممّن انضوا إليه. وإنّما فعل ذلك لأنّه عليه السلام علم أنّ الأعراب الذين اتبعوه إنّما اتبعوه وهم يظنون أنّه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يُقدمون. فلما كان السحر أمر أصحابه فاستقوا ماء وأكثروا، ثم سار حتى مرّ ببطن العقبة، فنزل عليها، فلقيه شيخ

من بني عكرمة يقال له عمرو بن لوذان، فسأله: أين تريد؟ فقال له الحسين عليه السلام: الكوفة. فقال الشيخ: أنشدك الله لما انصرفت، فوالله ما تقدم إلا على الأسنّة وحدّ السيوف، وإنّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ووطؤوا لك الأشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً، فأما على هذه الحال التي تذكر فإنّي لا أرى لك أن تفعل. فقال له: يا عبد الله، ليس يخفى عليّ الرأي، ولكن الله تعالى لا يُغلب على أمره. ثم قال عليه السلام: والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقه من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم مَنْ يذلّهم حتى يكونوا أدلّ فرق الأمم. ثم سار عليه السلام من بطن العقبة حتى نزل شراف، فلما كان في السّحر أمر فتياته فاستقوا من الماء فأكثروا، ثم سار منها حتى انتصف النهار، فبينما هو يسير إذ كبر رجل من أصحابه فقال له الحسين عليه السلام: الله أكبر، لمّ كبرت؟ قال: رأيت النخل، فقال له جماعة من أصحابه: والله إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط، فقال الحسين عليه السلام: فما ترونه؟ قالوا: نراه والله آذان الخيل. قال: أنا والله أرى ذلك. ثم قال عليه السلام: ما لنا ملجأ نلجأ إليه فنجعله في ظهورنا، ونستقبل القوم بوجه واحد؟ قلنا: بلى، هذا ذو حسمى إلى جنبك، تميل إليه عن يسارك، فإن سبقت إليه فهو كما تريد. فأخذ إليه ذات اليسار وملنا معه، فما كان بأسرع من أن طلعت علينا هوادي الخيل فتبينها وعدلنا، فلما رأونا عدلنا عن الطريق عدلوا إلينا كأن أسنتهم اليعاسيب، وكأن رياتهم أجنحة الطير، فاستبقنا إلى ذي حسمى فسبقناهم إليه، وأمر الحسين عليه السلام بأبنيته فضربت. وجاء القوم زهاء ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمي حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين عليه السلام في حرّ الظهرية، والحسين وأصحابه معتمّون متقلدو أسيافهم، فقال الحسين عليه السلام لفتياته: اسقوا القوم وأرووهم من الماء، ورشّفوا الخيل ترشيفاً. ففعلوا..». ثم روى الشيخ المفيد ما دار بين الإمام الحسين وبين الحرّ وجنده حتى قال: «ثم أمر مناديه فنادى بالعصر وأقام، فاستقام الحسين عليه السلام فصلى بالقوم ثم سلّم

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * _____

وانصرف إليهم بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، أيها الناس فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله عنكم، ونحن أهل بيت محمد، وأولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أبيتم إلا كراهية لنا والجهل بحقنا، فكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت به عليّ رسلكم، انصرفت عنكم». فقال له الحرّ: أنا والله ما أدري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر، فقال الحسين عليه السلام لبعض أصحابه: يا عقبة بن سمان، أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إليّ. فأخرج خرجين مملوءين صحفاً فنُثرت بين يديه، فقال له الحرّ: إنّنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك، ألا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله. فقال له الحسين عليه السلام: الموت أدنى إليك من ذلك. ثم قال لأصحابه: قوموا فاركبوا^(١).

* فإنّا لله وإنا إليه راجعون وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون والعاقبة للمتقين.



(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٧٣-٨٠.



الموقف من أسرى الحروب



﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

• الثُّخَنُ: الغلظ، ومنه قولهم: أثنخته الجراح وأثنخته المرض. قال الراغب في المفردات: «ثخين إذا غلظ فلم يسيل ولم يستمر في ذهابه»^(١)، فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت، بعدما كان رقيقاً سائلاً مخشياً الزوال بالسيلان.

• نزلت هذه الآية في أجواء غزوة بدر، وتمثل تنديداً من الله بالمسلمين الذين قاتلوا في بدر، وما قاموا به من أسر الكثيرين من المشركين، وعدم اللجوء إلى قتلهم في المعركة، وكان موقفهم ذاك من أجل الحصول على الفداء.

• بين عَرَضِ الدنْيَا وَالْآخِرَةِ

• وتلك نقطة ضعفٍ يسجلها الله عليهم، فإنَّ المقاتل الذي يشعر بخطورة القوة الكبرى المهيمنة على شؤون الناس بالظلم، لا يعيش في المعركة هاجس النفع المادي، بقدر ما يعيش هاجس القضاء عليها، بالقضاء على كلِّ رموزها، لا

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٩، ص ١٣٤.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
سيّما في المرحلة الصعبة التي خاض فيها المسلمون المعركة غير المتكافئة ضدّ قريش وانتصروا فيها، ممّا يفرض التفكير في إضعاف أية مبادرة مستقبلية لمعركة جديدة، في ما يمكن أن تفكّر به قريش من باب الثأر.

• فالآية إذاً تناقش المسألة من زاوية المصلحة الإسلامية العليا في حركة الأنبياء، فليس للنبي الداخل في معركةٍ من معارك الإيمان والكفر، أن يكون له أسرى، حتى يتمكّن في الأرض ويستقرّ ويثبّت أقدامه، لينطلق - بعد ذلك - من موقع قوة، بعيداً عن إمكانات التحرك المضادّ من قبِل الأعداء.

• إلا أنّ المسلمين اختاروا عرض الدنيا الذي يزول بسرعة، بينما يريد الله لهم الآخرة، فهي التي ينبغي لهم أن يستهدفوها في معاركهم، تحقيقاً لمرضاة الله بتحقيق غاياته التي أقام عليها حركة المعركة.

• هذا لا يعني أنّ الله مغلوب على أمره، فالله عزيزٌ حكيمٌ، ولكنها سنة الله في خلقه أن يتركهم مختارين.

• ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] فمن المفترض أنّ المسلمين يستحقّون العقوبة على هذه المخالفة الجسيمة، ولكن الله رفعها عنهم.. لماذا؟

• الاحتمال الأول: إنّ معنى ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لولا القاعدة العقلية التي تنصّ على قبح العقاب بلا بيان، لكان العقاب حتمياً، وبالتالي فإنّ رفع العذاب كان بسبب أن الله لم يبيّن لهم ضرورة عدم السعي لأسر المشركين.

• الاحتمال الثاني: إنّ النبي ﷺ قد بيّن لهم ضرورة التركيز على قتل أكبر عدد ممكن من المشركين، وبالتالي فإنّ الحكم الشرعي قد تمّ بيانه، إلا أنّ الله أخذ

ليالي عَشُوراء _____ *

على نفسه اللطف بالمؤمنين وأن لا يعاقبهم، بل يعطيهم فرصة جديدة لعلهم يتعلمون من هذه التجربة ويصححون سلوكهم مستقبلاً، وهذا معنى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾.

• وهل هذا التنديد والعقاب المرفوع بمثابة إشارة إلى حرمة ما غنموه وما سيغنمونه من خلال فداء الأسرى؟ جاءت الآية اللاحقة لتقول لهم: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فقد عفا الله عنكم ورضي عليكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيه وفي ما تستقبلون من أعمال، وما تحصلون عليه من أموال ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

• واتضح مما سبق أن المسألة آنية محكومة بالظرف بلحاظ قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ﴾، فإذا ألقى الإسلام بجرانه واستحكم فإن الموقف سيختلف، ولعل الظروف اللاحقة تفرض أن يُبقى على أكبر عدد ممكن من العدو أسرى ليكون العفو عنهم سبباً لدخولهم في الإسلام وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة الإسلامية العليا.

• نظرة الإسلام الإنسانية

• ماذا يفعل المسلمون الآن وقد أسروا السبعين مشركاً؟ جاءت الآية اللاحقة لتفرض عليهم التعامل بالروح الرسالية المسؤولة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

• فالإسلام لا ينظر إلى الأسرى نظرة القوي القاهر الذي يعتبرهم كميّة مهملّة، أو مجرد شيء يحقق للمسلمين الربح، بل ينظر إليهم نظرة إنسانية رسالية، ولهذا فليفتح لهم باب الخير من خلال التفكير بالمستقبل، وليتأملوا في موقفهم السابق، فإن اختاروا الموقف الصحيح بالدخول في الإسلام والانتهاج

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
عن الأعمال العدوانية في حقّ المسلمين فسيؤتيهم الله خيراً ممّا أخذ منهم من
المال، رزقاً وعنايةً ومغفرةً للذنوب.

• وفي الإسلام قواعد شرعية متعلّقة بعصمة الدماء والأعراض تمثّل أسساً
قانونية لا بدّ من مراعاتها في حال السّلم، أمّا في حالة الحرب التي تُفرض على
المسلمين، وتؤدّي إلى انتهاك حرّمتهم، واحتلال ديارهم، فتختلف الصورة،
وتتبدّل الأحكام، ويصبح من حقّ المسلم، لا بل من واجبه أن يدافع عن نفسه،
ويقاوم المعتدي.

• أخلاقيات الجهاد

• ولكن على الرغم من ذلك، فإنّ للحرب ضوابط وأخلاقيات كثيرة تقيّد
حركة المجاهد المسلم، ويمنع من تجاوزها، وإلا فقدّ أجره، ولم يُعدّ مجاهداً
في سبيل الله، ومنها:

١- استثناء الأطفال والنساء والشيخوخ الذين لا يقاتلون: وفي الخبر عن
الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ: «إذا أراد أن يبعث سرية دعاهم فأجلسهم
بين يديه ثم يقول: سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول
الله، لا تغلّوا ولا تمثّلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا
امراً، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطرّوا إليه»^(١).

٢- حرمة الغدر والفتك: ومن أبلغ كلمات النبي ﷺ في هذا الشأن قوله:
«الإيمان قيد الفتك»^(٢)، والفتك: أن تهاجم الآخر وهو غافل، فتقتله.
وعن علي عليه السلام: «أيها الناس، لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس،

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٩، ص ١٧٧، ح ٢١.

(٢) م. ن، ج ١٩، ص ١٧٧، ح ٢١.

ألا إن لكل غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة، ألا وإن الغدر والفجور والخيانة في النار»^(١).

٣- حماية اللاجئين والرسول: فكل من يدخل بلاد المسلمين لاجئاً أو مستأمناً ويُعطى الأمان من السلطات المخولة بذلك، يغدو في حماية المسلمين وحفظهم، ولا يجوز التعدي عليه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]. وإذا أعطى مسلم الأمان لأحدهم التزم بذلك سائر المسلمين، ففي الحديث النبوي: «ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم»^(٢). بل إذا ظنوا أن المسلمين أعطوهم الأمان، والواقع خلاف ذلك، فعلى المسلمين الالتزام بذلك الظن، ففي الخبر عن الصادق عليه السلام: «لو أن قوماً حاصروا مدينة فسألوهم الأمان فقالوا: لا. فظنوا أنهم قالوا نعم، فنزلوا إليهم، كانوا آمنين»^(٣). وإذا خولف ذلك كان مرتكباً لجريمة كبيرة، ففي الحديث النبوي: «أيما رجل آمن رجلاً على دمه فقتله فقد برئت من القاتل ذمة الله وإن كان المقتول كافراً»^(٤).

● وهكذا فإن الرسول أو المبعوث أو السفير آمن على نفسه كاللاجئ، سواء كان ينقل الرسائل، أو يسعى للصلح بين الطرفين، أو الهدنة المؤقتة. وقد قال النبي لرسولي مسيلمة الكذاب: «لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما»^(٥).

٤- الوفاء بالعهود: ومنها إعطاء الآخر تأشيرة دخول إلى البلاد الإسلامية،

(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة، خ ٢٠٠.

(٢) صحيح مسلم، ح ٣٣٩٧.

(٣) الكافي: ج ٥، ص ٣١، ح ٤.

(٤) عبدالرزاق الصنعاني: المصنف، ح ٩٦٧٩.

(٥) أبوداود: السنن، ح ٢٧٦١.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

* فإنّها تمثّل عقداً معه، وإذناً له بدخول أرض المسلمين آمناً مطمئناً، ويجب على المسلمين الوفاء بهذا العقد، ما دام الآخر ملتزماً بمضمونه، ولم يستغلّ ذلك للقيام بأعمال تجسّسية أو تخريبية ضدّ الإسلام والمسلمين.

٥- حرمة التمثيل: حرص الإسلام حرصاً بالغاً على حرمة التنكيل بجثث الموتى والقتلى، ولو كانوا محاربين أو مجرمين. ووصية أمير المؤمنين بابن ملجم معروفة.

٦- رعاية البيئة والحيوان: وتمتدّ التعاليم الإسلامية والوصايا النبوية التي تحدّد من سلطة الإنسان أثناء اندلاع الحرب، لتشمل البيئة، في سبيل حمايتها قدر المستطاع من الأضرار والحفاظ على عناصرها الرئيسة، كالماء والحيوان، والأشجار من التلوّث والانقراض. وعلى ضوء ذلك ورد النهي عن الفساد في الأرض، وإلقاء السمّ في مياه أو طعام، أو بلاد الأعداء. كما يمنع المحارب من قطع الأشجار أو حرقها إلاّ في حالات الضرورة.

٧- رعاية الأسير: إذ يحرمّ الإسلام قتل المحارب بعد أن يقع في أسر المسلمين، ويوصي بحمايته، والإحسان إليه، إلى أن يتمّ إطلاق سراحه ممّناً أو فداءً. وقد أوصى أمير المؤمنين عليه السلام بابن ملجم: «أطعموه واسقوه وأحسنوا إيساره، فإنّ أصحّ فأنا وليّ دمي، وإن شئت عفوت، وإن شئت استنفذت، وإن هلكت فاقتلوه»^(١).

• بنو أمية مثال سوء

• ولك أن تأخذ هذه الصورة المشرقة لتشريعات الإسلام في هذا الإطار لتقارنها بما كان عليه سلوك الأمويين مع خصومهم ومع من يقع بأيديهم من

(١) ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ٣١٢.

الأسرى أو سواهم.. ففي (الإرشاد) للشيخ المفيد أنه لما أدخل مسلم بن عقيل على ابن زياد «لم يسلم عليه بالإمرة، فقال له الحرسى: ألا تسلّم على الأمير؟ فقال: إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه؟ وإن كان لا يريد قتلي ليكثرن سلامي عليه. فقال له ابن زياد: لعمرى لتقتلن! قال: كذلك؟ قال: نعم؟ قال: فدعني أوص إلى بعض قومي، قال: افعل. فنظر مسلم إلى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص فقال: يا عمر، إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة، وقد يجب لي عليك نُجْحُ حاجتي، وهي سرّ. فامتنع عمر أن يسمع منه، فقال له عبيد الله: لم تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمك؟ فقام معه فجلس حيث ينظر إليهما ابن زياد، فقال له: إن عليّ ديناً بالكوفة استدنته منذ قدمت الكوفة سبعمائة درهم، فاقضها عني، وإذا قُتلت فاستوهب جثتي من ابن زياد فوارها، وابعث إلى الحسين من يردّه، فإنّي قد كتبت إليه أعلمه أنّ الناس معه، ولا أراه إلا مقبلاً، فقال عمر لابن زياد: أتدري أيها الأمير ما قال لي؟ إنه ذكر كذا وكذا. فقال له ابن زياد: إنه لا يخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن! أمّا مالك فهو لك، ولسنا نمنعك أن تصنع به ما أحببت، وأمّا جثته فإنّا لا نبالي إذا قتلناه ما صنّع بها، وأمّا حسين فإن هو لم يردنا لم نردّه. ثم قال ابن زياد: إيه يا ابن عقيل، أتيت الناس وهم جميع، فنتت بينهم، وفترقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض. قال: كلا، لستُ لذلك أتيت، ولكنّ أهلَ المصر زعموا أنّ أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناها لنأمر بالعدل، وندعو إلى حكم الكتاب. فقال له ابن زياد: وما أنت وذاك يا فاسق؟ لم لم تعمل فيهم بذاك إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟ قال: أنا أشرب الخمر؟! أما والله إنّ الله ليعلم أنّك تعلم أنّك غير صادق، وأنك قد قلت بغير علم، وأنّي لست كما ذكرت، وأنك أحقّ بشرب الخمر مني، وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً، فيقتلُ النَّفْسَ التي حرّم الله قتلها، ويسفكُ الدّمَ الحرامَ على الغضب والعداوة وسوء الظن، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئاً.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *

فقال له ابن زياد: يا فاسق، إِنَّ نَفْسَكَ تَمْنِيكَ مَا حَالَ اللَّهُ دُونَهُ، ولم يرك الله له أهلاً. فقال مسلم: فمن أهله إذا لم نكن نحن أهله؟! فقال ابن زياد: أمير المؤمنين يزيد. فقال مسلم: الحمد لله على كلِّ حال، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم. فقال له ابن زياد: قتلي الله إن لم أقتلك قتلةً لم يقتلها أحدٌ في الإسلام من الناس. قال له مسلم: أما إنك أحقّ من أحدث في الإسلام ما لم يكن، وإنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخبث السيرة ولؤم الغلبة. فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعلياً وعقيلاً عليهم الصلاة والسلام، وأخذ مسلم لا يكلمه. ثم قال ابن زياد: اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه، ثم أتبعوه جسده. فقال مسلم بن عقيل رحمة الله عليه: لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني، فقال ابن زياد: أين هذا الذي ضرب ابن عقيل رأسه بالسيف؟ فدعى بكر بن حمران الأحمري فقال له: اصعد فلتكن أنت الذي تضرب عنقه. فصعد به وهو يكبر ويستغفر الله ويصلي على رسوله ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غررنا وكذبونا وخذلونا. وأشرفوا به على موضع الحذائين اليوم، فضربت عنقه وأتبع جسده رأسه^(١).

* فإننا لله وإنا إليه راجعون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين. السلام على رسول الحسين مسلم بن عقيل المقتول صبراً ورحمة الله وبركاته.



(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٦١-٦٣.



خطر عقيدة الإرجاء



﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٥].

• في هذه الآيات مختصر للتصوّر الإسلامي في معنى الانتماء إلى الدين، فليس معناه أن ينتسب الإنسان إليه ليمثّل ذلك امتيازاً ذاتياً يكتفي به في عملية الالتزام، ليباح له - بعد ذلك - كلّ شيء، بل إنّ معناه، هو الالتزام العملي، بجانب الالتزام الفكري والعملي، وهي رسالة لكلّ أتباع الأديان أن لا يستسلموا للأماني الذاتية بأنّ انتسابهم إليه يحقّق لهم النتائج الجيدة على مستوى النعيم والفوز بالجنة في الآخرة، بعيداً عن العمل في هذا الاتجاه.

• ويتفرّع عن ذلك، أنّ الإنسان المؤمن لا يخضع في تقييمه للعلاقات الإيمانية لمجرّد الانتماء إلى الدين، بل يحاول أن يركّز على العمل كأساس للتقييم، لأنّ المبدأ الذي تتحدّث عنه الآية ليس مجرد مبدأ يتّصل بتعامل الله مع الإنسان، بل يتّصل بالصفة الحقيقية للانتماء؛ وفي ضوء ذلك يمكن أن تكون الآية واردة في

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

الإشارة إلى قصة المسلم الذي سرق وأراد قومه تبرئته وإلصاق التهمة باليهودي، على أساس أنّ انتماءه للإسلام يبرّر ذلك؛ فجاءت الآيات هنا لتقول لهم: إنّ قيمة الانتماء إلى الإسلام تتحدّد بمقدار الإخلاص العملي له، وذلك بالالتزام بالأمانة، وعدم الدفاع عن الخائنين، وعدم اتّهام الناس بدون حقّ، أيّاً كان دينهم وعقيدتهم.

• الأمويّون وتشويه الدين

• وقد عمل بنو أمية على تشويه هذا المفهوم القرآني ضمن ما عملوا عليه من جهود متواصلة لمسح الصورة الحضارية للإسلام، فكان أن وُلدت عقيدة الإرجاء.

• الإرجاء لغةً بمعنى التأخير، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وأما اصطلاحاً: فهو يرمز إلى عقيدة فرقة إسلامية عُرفت بالمرجئة، ويبدو من خلال التتبّع التاريخي أنّ اللفظ في دلالاته على ذلك المعنى أُطلق على أكثر من جماعة قبل أن يستقر في نهاية المطاف على معنى محدّد.

• فقد أُطلق عنوان (المرجئة) على الذين توقّفوا بشأن الحكم على بعض الشخصيات، مرجئين الحكم عليهم إلى أن تنكشف الحقائق يوم الحساب. ونُسب ذلك إلى الحسن بن محمد بن الحنفية حتى قيل: إنّ أول من قال بالإرجاء.

• ولكنه استقرّ على جماعة شكّلت تياراً واسعاً نسبياً في الوسط الإسلامي وتميزت بالاعتقاد بأنّ الإيمان فعل القلب واللّسان ولا علاقة له بالعمل، فهم قدّموا الإذعان القلبي وأخروا وأرجأوا العمل.

• تشير الدلائل والشواهد التاريخية إلى دور السلطة الأموية في صناعة هذا

المفهوم، ثم تبّيه من قبل العباسيين أيضاً. وينقل ابن أبي الحديد المعتزلي عن شيخه وأستاذه أنّ «أول من قال بالإرجاء المحض: معاوية وعمرو بن العاص، كانا يزعمان أنّه لا يضرب مع الإيمان معصية، ولذلك قال معاوية لمن قال له: حاربت من تعلم، وارتكبت ما تعلم، قال: وثقتُ بقوله تعالى: إن الله يغفر الذنوب جميعاً. ولما أنكرت السيدة عائشة على معاوية قتله حجر بن عدي أجابها بما يوافق عقيدة الإرجاء، قائلاً: «دعيني وحجراً حتى نلتقي عند ربنا وعجل»^(١).

• وبين أيدينا النص التاريخي التالي المروي في البداية والنهاية لابن كثير حيث سأل المأمون النضر بن شميل: «أتدري ما الإرجاء؟ فأجابه النضر: دين يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقص من دينهم، قال: صدقت»^(٢).

• خطورة هذه العقيدة أنّها:

- ١- تبرّر للحاكم استبداده بالسلطة وممارساته القمعيّة بحق معارضيّه.
- ٢- كما تبرّر له انحرافه على مستوى سلوكه الشخصي، فالعصيان - عنده - لا ينافي الإيمان وأنّ الأمر بيد الله. ويظهر من بعض الأحاديث أنّ تيار الإرجاء أخطر من تيار الجبر، لأنّ المرجئة لا يكتفون برفع المسؤولية عن المستبدّين كما يفعل القدريّة الجبرية بل يقدّمون لهم الأعذار على جرائمهم ويحكمون بإيمانهم، قال الصادق عليه السلام فيما روي عنه بشأن المرجئة: «إنّ هؤلاء يقولون إنّ قتلنا مؤمنون، فداؤنا متلطخة بشياهم إلى يوم القيامة»^(٣).

٣- تساعد على التحلل الخُلقي وتحرّر الناس من الضوابط الشرعية، وهذا

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٧٦.

(٣) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٤٠٩.

في الحقيقة يمثل تخريباً للدين وتجاوزاً للقيم وإشاعةً للفاحشة، لذا لم يتوان أئمة أهل البيت عن مجابهة تيار الإرجاء وبيان مخاطره على عامة المسلمين وعنصر الشباب تحديداً، على اعتبار أنه يقدم لهم غطاءً شرعياً لجنوحهم الغرائزي وانسياقهم وراء الشهوات والملذات، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «بادروا أولادكم الحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة»^(١).

• مفاهيم مغلوطة

• ونحن لا نتحدّث عن عقيدة وُجدت واندثرت، بل إنّ امتداداتها ماثلة اليوم في مجموعة من التعبيرات ومنعكسة على مجموعة من السلوكيات. ومثال ذلك قول أحدهم: «إنّ الإيمان في القلب لا في المظاهر الشكلية والممارسات الخارجية». فالمهم أن يطهّر المرء قلبه من الغلّ والدنس ويلتزم القوانين العامة ولا يعتدي على الآخرين.

• هذا المنطق رغم أنّه يبدو جميلاً وبراقاً لكنّه لا يعكس الحقيقة كاملة، بل يخفي في ثناياه محاولة التهرّب من الشريعة وفرائضها العبادية مع الاستهانة بالمحرّمات والواجبات.

• إنّ الإسلام لا يُغفل إطلاقاً دور القلب ومحوريته في فعل الإيمان، وهو يؤكّد على دور العمل الصالح وحفظ النظام في تفعيل الإيمان، لكنّه في الوقت عينه يرى أنّ الالتزام بشريعة الله وحلاله وحرامه جزء لا يتجزأ من مفهوم الإيمان، وله دوره الكبير في تعزيز روح المسؤولية الإنسانية والالتزام بالقوانين العامة واحترام الآخرين، وقد ورد في الحديث: «الإيمان هو: الإقرار باللسان

(١) الكليني: الكافي، ج ٦، ص ٤٧.

وعقد في القلب وعمل بالأركان»^(١).

• ومثال آخر على تغلغل هذا المفهوم المشوّه ما يشيعه البعض من أنّ الشيعة بأجمعهم ناجون يوم القيامة، المؤمن منهم والفاسق، المطيع والعاصي، فلتكن في قلبك محبة آل البيت واذرف الدمع على الحسين فهذا سبيل نجاتك مهما ارتكبت من معصية، وتجاوزت من حدّ، على طريقة: «سودت صحيفة أعمالِي ووكلت الأمر إلى حيدر»^(٢).

• وهذه مفارقة عجيبة، حيث إنه وفي الوقت الذي نلاحظ أنّ الأئمة عليهم السلام حاربوا الإرجاء وحذّروا من مخاطره، وإذا بهذا المفهوم يقتحم ساحة الجماعة الموالية لهم، ليصبح الأئمة - عند هؤلاء - عنوان الإرجاء وبابه الواسع، بعد أن كانوا عنوان محاربتة وأشدّ الناس في مواجهته.

• هذا المفهوم المسيء لأئمة أهل البيت عليهم السلام مخالف للعقل والنقل. أمّا العقل فباعتبار أنّ مقتضى العدل الإلهي أن لا يتساوى المحسن والمسيء في جنس الجزاء ثواباً أو عقاباً، كما أنّ حكمته تعالى تأبى أن يسمح بتجاوز شريعته.

• وأمّا النقل فيكفيك قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

• على أنّ الأئمة عليهم السلام قد واجهوا هذا النمط من الإرجاء كما واجهوا الإرجاء المعروف، ففي الحديث عن جابر الجعفي عن الإمام الباقر عليه السلام: «يا جابر، أيكثفي

(١) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٢٧.

(٢) رضا الهندي: القصيدة الكثرية.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

* من يتحلل التشيع أن يقول بمحبتنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشّع والأمانة والإنابة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائريهم في الأشياء». قال جابر: فقلت يا بن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الأوصاف! فقال ﷺ: «يا جابر، لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول أحبّ علياً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعّالاً. فلو قال إنّي أحب رسول الله فرسول الله ﷺ خير من علي صلي الله عليهما وعلى آلهما وسلم، ثم لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنته، ما نفعه حبّه شيئاً، فاتقوا واعملوا لما عند الله ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحبّ العباد إلى الله ﷻ أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر، فوالله ما يُتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، وما لنا على الله من حجة. من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تُنال ولايتنا إلا بالعمل والورع»^(١).

● وسئل الصادق ﷺ: «حديثٌ روي لنا أنك قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت؟ فقال: قد قلت ذلك. قال: قلت: وإن زنوا أو سرقوا أو شربوا الخمر! فقال لي: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله ما أنصفونا أن نكون أخذنا بالعمل ووضع عنهم، إنما قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره فإنه يُقبل منك»^(٢).

● هذا منطلق أهل البيت ﷺ المتناغم مع كتاب الله، وليس أمرهم إلا أمر الإسلام، وليس عندهم إلا الإسلام، وليس منهجهم إلا الإسلام، والقرآن هو المنبع الأصيل لمفاهيم وحقائق الإسلام، وما عارضه فهو زخرف.

(١) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٧٤

(٢) م. ن، ج ٢، ص ٤٦٤، ح ٥.

• إنَّ الإسلام (وبالتالي التشيع) ليس إيماناً مجرداً.. ولا هو مجرد مشاعر حبّ وبغض.. ولا هو صرف دموعه عين تُذرف على مصاب الحسين عليه السلام.. بل هو مزيج من ذلك كله مع التقوى والورع والعمل الصالح وطاعة الله في أوامره ونواهيه.. ولتذكّر أنّ ممّن كان في جيش الأمويين ممّن قاتل الحسين وصحبه قد ذرفوا الدمع على الحسين، وكانت قلوبهم - بتعبير الفرزدق - مع الحسين.. ولكن الجريمة الكبرى كانت متمثلة في أنّ سيوفهم على الحسين.. أي إنّهم لم يترجموا إيمانهم بالحسين، ولم يترجموا مشاعرهم تجاه الحسين إلى عمل إيجابيّ، بل انطلقوا في الباطل وارتكبوا جريمتهم.. فهل يدخل هؤلاء الجنّة برفقة العباس وعليّ والحرّ؟

• حُسن العاقبة

• نعم استطاع الحرّ الرياحي أن يقلب الموازين، ويتمرد على ذلك المنهج، ويوافق بين إيمانه ومشاعره وسلوكه، واختار في اللحظات الأخيرة والحاسمة أن يزاوج بينها مزاجاً حقيقياً عملية، قال الشيخ المفيد: «فلما رأى الحرّ بن يزيد أنّ القوم قد صمّموا على قتال الحسين عليه السلام قال لعمر بن سعد: أي عمر، أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: إي والله قتالاً شديداً أسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي. قال: أفما لكم فيما عرضه عليكم رضى؟ قال عمر: أمّا لو كان الأمر إليّ لفعلت، ولكنّ أميرك قد أبى. فأقبل الحر حتى وقف من الناس موقفاً، ومعه رجل من قومه يقال له قرّة بن قيس فقال له: يا قرّة هل سقيت فرسك اليوم؟ قال: لا، قال: فما تريد أن تسقيه؟ قال قرّة: فظننت والله إنّه يريد أن يتنحى ولا يشهد القتال، فكره أن أراه حين يصنع ذلك. فقلت له: لم أسقه وأنا منطلق فأسقيه. فاعتزل ذلك المكان الذي كان فيه. فوالله لو أنه اطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين. فأخذ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً، فقال له مهاجر بن أوس: ما

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * _____

تريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فلم يجبه، فأخذه مثل الأفكل، وهي الرعدة، فقال له المهاجر: إنَّ أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا، ولو قيل لي: مَنْ أشجع أهل الكوفة؟ لَمَا عدوتك، فما هذا الذي أرى منك؟ فقال له الحرّ: إنِّي والله أخير نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قُطعت وأُحرقت. ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام فقال له: جُعلت فداك يا ابن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجت بك في هذا المكان، وما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم، ولا يبلغون منك هذه المنزلة، والله لو علمت أنهم يتتهون بك إلى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت، وأنا تائب إلى الله ممّا صنعت، فترى لي من ذلك توبة؟ فقال له الحسين عليه السلام: نعم يتوب الله عليك. فانزل. فقال: أنا لك فارساً خيراً مني راجلاً. أقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النزول ما يصير آخر أمري. فقال له الحسين عليه السلام: فاصنع يرحمك الله ما بدا لك. فاستقدم أمام الحسين عليه السلام فقال: يا أهل الكوفة لأمكم الهبل والعبر - أي الموت - أدعوتم هذا العبد الصالح حتى إذا أتاكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه؟ أمسكتم بنفسه، وأخذتم بكلكله، وأحطتم به من كل جانب لتمنوه التوجه إلى بلاد الله العريضة، فصار كالأسير في أيديكم: لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرراً، وحلّأتموه ونساءه وصبيته وأهله عن ماء الفرات الجاري تشربه اليهود والنصارى والمجوس، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابهم، وها هم قد صرعهم العطش، بسّما خلفتم محمداً في ذريته، لا سقاكم الله يوم الظمأ. فحمل عليه رجال يرمونه بالنبل، فأقبل حتى وقف أمام الحسين عليه السلام ^(١). ثم قاتل حتى قُتل رحمته الله.. السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين جميعاً ورحمة الله وبركاته.

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٩٩-١٠١.

نقد شعر الطف: مفاهيم قلقة

• ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

• جاءت هذه الآيات في معرض الرد على المشركين الذين اتهموا النبي بأنه شاعر، وأن القرآن من شعره، فقدّمت صورة مقارنة بين ما هو معهود بالنسبة إلى العرب من حال الشعراء في ذلك الزمان وبين حال النبي، فإنّ المعهود من أولئك الشعراء السفر من مكان لآخر استرزاقاً من خلال مدح هذا وذم ذلك، وليثيروا الأوهام والخيالات على حساب الحقائق، وعندما تدقق في سلوكهم ستجدهم في تناقض مع ما يمتدحونه من أخلاقيات وقيم كالشجاعة والوفاء والصدق.. فهل رأيتم ملامح الشاعر في روحية النبي ووجدانه وصدقه وصفائه وإشراقه فكره وتعلق قلبه بالخير والرحمة والحق؟ هل تمثلتم في شخصيته الملائكية شخصية الشاعر الذي يلوّن الكلمة بألوان الباطل؟ فكيف لكم أن تعتبروه من الشعراء؟ وكيف لكم أن تحكموا على القرآن المنزل عليه بأنه من الشعر؟

• الشعر الهادف

• ثم تقدّم الآيات الصورة المشرقة للشعر حين يتحوّل إلى كلمة صادقة وموقف مبدئي، ليكون الشاعر - بذلك - هو الإنسان المؤمن المخلص لقضيته

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
 والمدافع عن قيمه. وهذا بمثابة نقلة نوعية للشعر العربي إذ تحوّل من وسيلة
 ارتزاقية أو شخصية إلى وسيلة مبدئية أخروية. وقد رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ
 عَنِ الشَّعْرِ فَقَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مُجَاهِدٌ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّمَا
 يَنْضَحُونَهُمْ - الشعراء الرساليون - بالنَّبْلِ»^(١).

• بل من النصوص الإسلامية ما يدلّ على أَنَّ الشاعر لربّما يتلقّى تسديداً غيبياً
 في شعره إن كان منطلقه سديداً، وتجسّد ذلك في ما رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ لِحَسَانِ بْنِ
 ثَابِتٍ: «رُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ مَا دَمْتَ تَنَافِحَ عَنِ نَبِيِّهِ»^(٢). وقول الباقر للكميت: «لا
 تزال مؤيداً بروح القدس ما دمت تقول فينا»^(٣).

• ومن هناك كان شعر الطف ذا قيمةً علياً حين ينطلق من هذا المنطلق المبدئي،
 لا سيّما وهو يمثّل نوعاً من شعر المعارضة للباطل وللحكومات الظالمة، وقائله
 قد يتعرّض للاضطهاد بل القتل أيضاً، خاصةً إذا انطلق منه إلى نقد الواقع السياسي
 الحاكم في زمانه.

• وكأنيّ وسيلة ثقافية ومنبر إعلامي، فإنّ شعر الطف معرّض أن يُخطئ في
 تقديم الصورة والمفاهيم.. عن حُسن نيّة، لشدّة العاطفة، أو للجهل بالحقائق،
 أو للرغبة في تقديم الجديد ولغير ذلك، الأمر الذي يستدعي الوقوف للتقييم
 والتقويم، كي لا يحيد هذا الشعر عن منطلقاته وأهدافه السامية.

• نقد بناء

• ويمكن تسجيل الملاحظات التالية بخصوص بعض سلبيات ما هو دارج
 في شعر الطف:

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٥، ح ١٩٣٦.

(٢) صحيح البخاري، ح ٤٥٣.

(٣) الكشي: الرجال، ص ١٣٦.

١- إقحام بعض المفاهيم القلقة المتنافية مع المفاهيم الإسلامية الأصيلة، ومثال ذلك ما جاء في عينية السيد حيدر الحلي، وهي قصيدة رائعة في التصوير يخاطب بها الإمام الحجّة عجل الله فرجه:

الله يا حامي الشريعة...

بك تستغيثُ وقلبُها	لك عن جوى يشكو صدوعه
أين الذريعة لا قرا	رَ على العدى أين الذريعة؟
ماتَ التَّصَبُّرُ بانتظا	رِكَ أيُّها المحيي الشريعة
فانهض فما أبقى	التحمُّلُ غيرَ أحشاءٍ جزوعه
قدمزقت ثوبَ الأسي	وشكت لواصلها القطيعه
فالسيفُ إنَّ به شفا	ءَ قلوبِ شيعتك الوجيعه
كم ذا القعودُ ودينكُم	هُدمت قواعده الرفيعه
تنعى الفروعُ أصوله	وأصوله تنعى فروعَه
فأشحدُ شَبَا غَضِبٍ له الـ	أرواحُ مذعنةٌ مطيعه
واطلبُ به بدم القتيـ	لِ بكر بلا في خيرِ شيعه
ماذا يُهيجُك إن صبر	تَ لوقعةِ الطَّفِّ الفظيعه
أترى تجيءُ فجيعهٌ	بأمرٍ من تلكَ الفجيعه؟
حيثُ الحسينُ على الثرى	خيلُ العدى طَحَنَتْ ضلوعه
قتلته آلُ أمييةٍ	ظام الى جنبِ الشريعة
ورضيعةُ بدم الوريـ	مخضَّبُ فاطلبِ رضيعه
يا غيرةَ الله اهتفي	بحميّةِ الدينِ المنيعه

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

ودعي جنودَ الله تمّ لاً هذه الأرضَ الوسيعةً
واستأصلي حتى الرضي مع لآل حربٍ والرّضيعة^(١)

• من الواضح أنّ البيت الأخير يحتوي مضموناً لا يتناسب والمبادئ الإسلامية، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥].

٢- ركاكة الأسلوب والنظم، ولعلّ الانفتاح الإعلامي والسوق الرائجة للتسجيلات دفعت البعض للنزول إلى ميدان الشعر في نظم قصائد اللطميات وغيرها دون امتلاك خبرة كافية أو معرفة ضرورية لأصول نظم الشعر وقواعده، يشجعهم في ذلك حبههم للحسين وتحمّسهم لهضته ورغبتهم فيما رغب فيه أهل البيت عليه السلام من قول الشعر في ذلك كالذي رواه الشيخ الطوسي في اختيار معرفة الرجال: «أنّ جعفر بن عفان دخل على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: إنك تقول الشعر في الحسين عليه السلام وتجيده. قال: نعم.. فاستنشدّه، فلما قرأ عليه بكى حتى جرت دموعه على خديه ولحيته وقال له: لقد شهدت ملائكة الله المقربون قولك في الحسين عليه السلام، وإنهم بكوا كما بكينا، ولقد أوجب الله لك الجنة. ثم قال عليه السلام: من قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى غفر الله له ووجبت له الجنة»^(٢).

• ولو قارنا بين ما يُنظم من الشعر حالياً وبين ما نُظِم في القرون الماضية لأدركنا البون الشاسع بينها من حيث اللغة والبديع وقوة التصوير والقواعد الشعرية. ولكن من الواضح أنّه يصعب ضبط هذا الأمر لا سيما في المجتمعات التي لا تملك ثقافة شعرية وأدبية كافية، ولذا يبقى أن نوجّه وننبّه كي يبقى هذا الرافد المهم في خطّه السليم.

(١) ديوان السيد حيدر الحلبي: ج ١، ص ٩٠.

(٢) الطوسي: اختيار معرفة الرجال، ج ٢، ص ٥٧٤.

٣- تحريف منطلقات النهضة الحسينية، ومثال ذلك ما جاء على لسان أبي العلاء المعري وهو يصور القضية وكأنها نزاع عائلي، وثارَات أُسْرية انطلق فيها الحسين ويزيد استكمالاً لكل ماضي الصراع بين بني أمية وبني هاشم، قال:

عبدُ شمسٍ قد أضرمت لبني هاشم حرباً يشيبُ فيها الوليدُ
فابنُ حربٍ للمصطفى وابنُ هندٍ لعليٍّ، وللحسينِ يزيدٌ^(١)

• ولربما كان من التأثيرات السلبية لتصوير الطف بأنه انعكاس لصراع أُسْري أن تم اعتبار الدين - من قبل البعض - كخصوصية من خصوصيات العائلة، لا كحالة رسالية قائمة على مصداقية الإيمان والعمل، وهذا ما دفع البعض لتأييد الخارجين على البيت العباسي والتعصب لهم لمجرد انتمائهم للبيت العلوي، حتى لو انحرفوا، ويمكن أن نرى هذا ماثلاً في الحوار التالي بين الإمام الرضا وأخيه زيد المعروف بزيد النار، الذي استولى مع أنصاره على البصرة فأضرم النار في بيوت بني أمية وبني زياد وبني العباس ثم اعتقل وسُلم إلى المأمون فعفى عنه وأبقاه في مرو إلى جانب أخيه الرضا والنص هكذا: «عن حسن البغدادي قال: كنت بخرسان مع الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في مجلسه وزيد بن موسى حاضر قد أقبل على جماعته يفتخر عليهم ويقول: نحن ونحن. وأبو الحسن عليه السلام مقبل على قوم يحدثهم فسمع مقالة زيد فالتفت إليه فقال: يا زيد، أعرك قول ناقل الكوفة أن فاطمة عليها السلام أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار؟ فوالله ما ذاك إلا للحسن والحسين عليهما السلام وولد بطنها خاصة.. فأما أن يكون موسى بن جعفر عليه السلام يطيع الله ويصوم نهاره ويقوم ليله، وتعصيه أنت، ثم تجيئان يوم القيامة سواء، لأنك إذن أعز على الله عز وجل منه. إن علي

(١) المقرئزي: النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، ص ٦٢.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

بن الحسين عليه السلام كان يقول: لِمُحْسِنِنَا كِفْلَان - ضعفان - من الأجر، ولِمُسِيئِنَا ضعفان من العذاب. ثم التفت إليّ فقال لي: يا حسن، تقرؤون هذه الآية «قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ»؟ فقلت: من الناس مَنْ يقرأ «إنه عملٌ غير صالح»، ومنهم مَنْ يقرأ «إنه عملٌ غير صالح»، فمن قال إنه عملٌ غير صالح فقد نفاه عن أبيه. فقال عليه السلام: كلا، لقد كان ابنه، ولكنه لما عصى الله عز وجل نفاه عن أبيه. كذا مَنْ كان منّا لم يطع الله عز وجل فليس منا، وأنت إذا أطعت الله عز وجل فأنت منا أهل البيت^(١).

• وفي التاريخ الحديث نجد هذا التصور القاصر نفسه يعود ليشكل عاملاً لتكرار ذات الخطأ، إذ حصل الملك فيصل الأول على الحماس الشيعي الذي تصدره علماء الدين في جبل عامل عندما أعلن ملكاً على سورية، كما حصل على تأييد مماثل أو أكثر منه، لدى بعض علماء وشيعة العراق، وذلك لمجرد انتمائه إلى البيت العلوي دون تدقيق في خلفياته السياسيّة المرتبطة بالاستعمار البريطاني الذي أراده أن يكون حارساً لمصالحه، وواجهةً لحكمه، وجسراً لمخططاته.

• وبكلمة مختصرة: إنّ علاقتنا بأهل البيت عليهم السلام لا تنطلق من هاشميتهم، بل تنطلق من رسالتهم.

• العباس عنوان للوفاء

• ونحن عندما نزور أبا الفضل العباس كما جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام نقول: «السلام عليك أيها العبد الصالح المطيع لله ولرسوله ولأمير المؤمنين وللحسن والحسين، فنعم الأخ المواسي»^(٢) نلاحظ ترسيخ

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٢١٨، ح ٣.

(٢) القمي: مفاتيح الجنان، ص ٤٣٥.

ليالي عَاشُورَاءِ _____ *

هذه الحالة من الولاء المبني على العبودية لله والطاعة له ولرسوله ولأوليائه، فالمسألة ليست مسألة تعصّب لأخ أو لأبناء عمومة أو لقبيلة أو ما شابه، وموقف قمر بني هاشم لم يبن على هذا الأساس.

• لقد أعطى العباس كلَّ حياته للإسلام، وضحّى بنفسه في سبيل إمام الإسلام، ويروي ابن شهر آشوب في (مناقب آل أبي طالب) عن لسانه عندما قُطعت يمينه: «والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأمين»^(١)

• وقد روى الشيخ الصدوق في خصاله عن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «رحم الله العباس - يعني ابن علي - فلقد آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يده، فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة، كما جعل لجعفر بن أبي طالب، وإن للعباس عند الله تبارك وتعالى لمنزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة. والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة، وقد أخرجته بتمامه مع ما رويته في فضائل العباس بن علي عليه السلام في كتاب مقتل الحسين بن علي عليه السلام»^(٢). وللأسف يبدو أن تتمة الحديث مفقودة.

• وفي حديث آخر رواه ابن عنبه في كتابه (عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب) عن الإمام الصادق عليه السلام وهو يتحدث عنه: «كان عمنا العباس بن علي نافذ البصيرة صلب الإيمان، جاهد مع أبي عبدالله عليه السلام، وأبلى بلاء حسناً، ومضى شهيداً»^(٣).

• نعم هكذا كان العباس البطل الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، وجاء في

(١) ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ص ١٠٠.

(٢) الصدوق: الخصال، ج ١، ص ٦٨.

(٣) ابن عنبه: عمدة الطالب، ص ٣٥٦.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
الإرشاد للشيخ المفيد في أحداث ليلة عاشوراء: «وجاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين عليه السلام فقال: أين بنو أختنا؟» وفي نصّ اللّهُوف للسيد ابن طاووس أنّهم امتنعوا عن الردّ عليه فقال لهم الحسين عليه السلام: «أجيبوه، وإن كان فاسقاً، فإنّه بعض أخوالكم»، «فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي بن أبي طالب عليه وعليهم السلام فقالوا: ما تريد؟ فقال: أنتم يا بني أختي آمنون، فقالت له الفتية: لعنك الله ولعن أمانك، أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟». وعندما أحلّ الحسين البيعة لأهل بيته وأصحابه، وقف العباس وقال: «أنبئني بعدك يا ابن رسول الله، لا والله، حتى نجاهد بين يديك»^(١).

• لقد كان العباس عليه السلام يمثّل بطولة الإسلام بوعيه وإخلاصه، وكان يمثّل في عاشوراء القائد الذي كان يقود جيش الإمام الحسين عليه السلام. ولذلك، فإنّ علينا أن لا نتحدّث عن بطولة العباس القتالية فقط، ولكن أن نتحدّث عن بطولته الروحية والإيمانية، إضافة إلى بطولته الجهادية، ليكون العباس قدوة لشبابنا في مواجهة الباطل والاستكبار والظلم.

* لقد جاهد العباس مع أبي عبد الله عليه السلام، وأبلى بلاءً حسناً، ومضى شهيداً، فإنّنا لله وإنّا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون والعاقبة للمتّقين، السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين، السلام على أبي الفضل العباس ورحمة الله وبركاته.



(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٨٩.

نقد شعر الطف: تشويه التاريخ

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

• الظنّ يشمل كلّ ما هو غير علميٍّ، ممّا لا يمكن الاعتماد عليه لأنّه لا يكشف عن الحقيقة من مواقع الفطرة والوجدان، أو من مواقع الحجّة المنتهية إلى الوجدان. وهذا هو الذي يريد الإسلام للإنسان أن يسير عليه في تحصيل القناعة، أو تحقيق الانتماء، ولا بدّ له من مواجهة الفكرة المتبنّاة من الإجابة على كلّ علامة استفهام مطروحة أمامه، بما يطمئن إليه العقل، وتستقرّ به النفس، ويعذر فيه العقلاء، فإذا لم يحصل ذلك وبقيت الاحتمالات المضادة مفتوحة عنده، كان الموقف الطبيعيّ لديه أن يأخذ جانب الحذر ليلحق الآفاق المتنوعة التي تقف به عند خطّ اليقين. ومن خلال ذلك، نفهم جيّداً كيف يريد الإسلام للإنسان أن يحترم الحقيقة في الحياة، باحترام مسؤوليّة الفكر لديه، والتأكيد على أدواته وأساليبه في الوصول إلى النتائج.

• ملاحظات إضافية

• تحدثت سابقاً عن بعض الملاحظات المسجّلة على شعر الطف، والتي تترتب عن حسن نية لا بقصد الإساءة للنهضة الحسينية ولأبطالها، وذكرت حينها ثلاث ملاحظات:

١- إقحام بعض المفاهيم القلقة المتنافية مع المفاهيم الإسلامية الأصيلة

٢- تحريف منطلقات النهضة الحسينية وغاياتها

٣- ركافة الأسلوب والنظم

٤- تشويه حقائق التاريخ، وقد يكون ذلك إمعاناً في الصورة العاطفية التي تريد استدرار الدمعة ولو على حساب الحقيقة، أو بالاعتماد على نصوص تاريخية واضحة الوهن في مضمونها، أو متنافية مع نصوص أخرى أكثر دقة ووثاقة.

ومثال ذلك ما جاء في ميمية السيد جعفر الحلبي حيث يتمثل فيها الحسين عليه السلام شخصاً ضعيفاً خائفاً باحثاً عن المأوى ولا مأوى له، تماماً كما هو الإنسان الهائم على وجهه الهارب من أعدائه:

مثل ابن فاطمة بيت مشرداً ويزيد في ذاته متنعم
ويضيّق الدنيا على ابن محمدٍ حتى تقاذفه الفضاء الأعظم
خرج الحسين من المدينة خائفاً كخروج موسى خائفاً يتكتم
وقد انجلى عن مكة وهو ابنها وبه تشرفت الحطيم وزمزم
لم يدر أين يريخ بُدن ركابه فكأنما المأوى عليه محرّم^(١)

• وعلى الرغم من هذه الصورة المؤثرة في مضمونها إلا أنها لا تقدّم الحسين في صورة الثائر الذي يتحرك ليواجه السلطة الجائرة المنحرفة بقوة وإرادة، من أجل تغيير الواقع الفاسد في الحكم وفي السلوك والحركة، على النحو الذي جاء في خطبته التي استقبل بها حركته، فيما جعله عنوان الشرعية

(١) ديوان السيد جعفر الحلبي، ص ٤٢٩.

للحركة من خلال كلام رسول الله ﷺ، ففي رواية أبي مخنف عن عقبة بن أبي العيزار: «إنّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنّ رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»^(١). فهل هذه صورة الإنسان الخائف الباحث عن الملجأ هرباً من الظالمين.. أم صورة المؤمن القوي الذي يحمل الإرادة الصلبة لاقتحام مواقع الظلم والباطل؟

• وهكذا ترسخ ذات الفكرة كلمات أخرى للإمام الحسين كتلك التي أطلقها في يوم عاشوراء كما رواها السيد ابن طاووس في (التهذيب) قال: «فركب الحسين ﷺ ناقته وقيل فرسه فاستنصتهم فأنصتوا، فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله وصلى على محمد ﷺ وعلى الملائكة والأنبياء والرسل، وأبلغ في المقال ثم قال: تبا لكم أيها الجماعة وترحاً، استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدلٍ أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، فهلاً لكم الويلات تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لما يستحصف. ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم إليها كتهافت الفراش، فسحقاً يا عبدة الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ومحرفي الكلم وعصبة الآثام ونفثة الشيطان ومطفئي السنن، أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون؟ أجل والله، الغدر فيكم قديم، وشجّت عليه أصولكم وتأزرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر شجى للناظر، وأكلة للغاصب. ألا وإنّ الدعويّ ابن

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ٣٠٦.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م _____ *
 الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله ذلك لنا،
 ورسوله والمؤمنون وحجوز طابت وطهرت، وأنوفٌ حمية، ونفوسٌ أبية من أن
 نُؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام. ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد
 وخذلان الناصر»^(١).

• إننا لا نكر أن الإنسان، حتّى لو كان نبياً، قد يخضع للضعف البشريّ
 من خلال بشرّيته، كما في قصة النبي موسى ﷺ حيث جاء وصفه: ﴿فَخَرَجَ
 مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، ولكنّ الحسين ﷺ قد اتخذ قراره في
 المواجهة الصعبة، بعد دراسة عميقة لكلّ النتائج المترتبة عليه، وعرف طبيعة
 الوحشيّة الهمجيّة المتمثلة في عناصر الشخصيّة الطاغية لهؤلاء.. والصورة
 الحقيقيّة للإمام الحسين ﷺ، هي تلك الصورة التي عبّر عنها أحد أعدائه من
 جيش يزيد حيث قال: «فوالله ما رأيت مكثوراً قطّ قد قُتل ولده وأهل بيته، أربط
 جأشاً، ولا أشدّ بأساً من الحسين، فلقد كانت الرّجالة تشدّ عليه، فيشدّ عليها،
 فتتكشف من بين يديه انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذّب»^(٢).

• وللأسف فإنّ ذات الصورة التي قدّمها بعض الشعراء عن الحسين ﷺ
 كإنسان ضعيف هارب من المواجهة، تمّ تقديمها عن السيّدّة زينب ﷺ في
 شعر الطفّ، ولا سيّما الشعر الشّعبيّ، فلا نجد فيها - إلا نادراً - صورة البطلة
 القويّة المتحدّية التي وقفت في قوّة وصلابة وثباتٍ في مجلس ابن زياد لتحدّي
 سلطانه، وفي مجتمع أهل الكوفة لتواجه انحرافهم وخذلانهم، وفي مجلس يزيد
 لتهاجم مواقعه، بل نجد صورة الإنسانيّة التي تتحدّث بالأسلوب الضّعيف الواهن
 الثاكل الذي يبحث عن العشيرة فلا يجدها، وعن النّصير فلا يلتقي به، ويواجه

(١) ابن طاووس: اللهوف، ص ٩٦-٩٧.

(٢) م.ن، ص ١١٩.

القضية بلسان الدعوة إلى الثأر على الطريقة العشائرية.. بعيداً عن القضية الكبرى في نهضة الحسين وفي مسؤوليتها الرسالية بعد الطف.

• وإذا كنا نوافق على أنّ الحديث عن الجانب المأساوي في الطف وما بعده بهذه الصورة العميقة يمثل لوناً من ألوان التعبئة النفسية ضدّ الذين صنعوا المأساة، أو الذين يصنعون ما يماثلها، إلاّ أنّه لا بدّ أن لا نستغرق في تصوير المأساة بالطريقة التي نُبعد من خلالها المأساة عن جوّ القضية في مواقع القوة والعنفوان، ولا عن مبادئ الإسلام وقيمه التي من أجلها كانت نهضة الحسين عليه السلام.

• ويأتي عرسُ القاسم ليمثّل واحدة من المفردات التي أُفحمت في تفاصيل النهضة الحسينية، وفي شعر الطف كقول الشاعر:

زفّت الجاسم ما حضرها داحي الباب
يا ليت شخصه عن محاني الطفّ ما غاب
زفّت الجاسم وافقت ساعة مشومه
واذباح عرسه من هله ويا اعمومه
واخضاب عرسه يا علي جاري ادمومه
يَمتى سمعنا يا علي جاري الدما اخضاب^(١)

لا شك أنّها صورة مأساوية مؤلمة ولكن المشكلة في إثبات أصل القضية.

• وقد نهض بعض العلماء - لاسيما من المتحدّثين باللغة الأردية - للانتصار لرأيهم إيجاباً أو رفضاً، فقد ألف السيد ظهور الحسين البارهيوي كتاباً بعنوان «التقرير الحاسم في عرس القاسم» وكتاب «قول صواب في نفي عرس

(١) الملا علي بن فايز: ديوان الفائزيات الكبرى، الفصل ١٥.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
القاسم»، فانبرى له مجموعة في الردّ عليه كالسيد علي الكشميري اللكنهوي في كتابه «الحجج القاطعة في إثبات وقوع عرس القاسم بن الحسن»، وكتاب «دق الخيشوم في جواز قراءة عرس القاسم المظلوم» لبعض علماء الهند كما ذكر الآغا بزرك في الذريعة، وكتاب «دفع المغالطة في مسألة عرس القاسم بن الحسن بكربلاء» للحكيم محمد اللكنهوي، و«القاسمية» في تحقيق عرس القاسم بن الحسن للسيد علي بن محمد اللكنهوي، وغير ذلك.

• ظهر الخبر أولاً في الكتاب الفارسي «روضة الشهداء» للشيخ حسين البيهقي الكاشفي الصوفي (ت ٩١٠ هـ) على ما نصّ عليه الميرزا حسين النوري، وهو على حدّ تعبير الشهيد المطهري: «كتاب مخصّص للأكاذيب والتحريف والتزوير حول واقعة كربلاء التاريخية»^(١)، ونقل عنه الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ) في المنتخب، ثم ذكره الدرّبندي (١٢٨٥ هـ) في كتابه «أكسير العبادات في أسرار الشهادات» الذي قال: «تلك الحكاية لم أخلف فيها بأثر معتبر» ولكنه حاول تقويته بأدلة عقلية. وقد علّق النوري في «اللؤلؤ والمرجان» على كتاب «أكسير العبادات» بقوله: «ليس له أي وقع ولا اعتبار لدى علماء هذا الفن وجهابذة الحديث والسير، بل إنّ الأخذ منه والاعتماد عليه يدل على ضعف الناقل وقلة بصيرته في الأمور.. بل إنّ نفس المؤلف يعترف في كتابه بضعف رواياته ويبرز بعض العلامات الدالة على كذبها ووضعها»^(٢).

• وقد ذكر الشيخ عباس القمي في كتابه: «منتهى الآمال» ونقلًا عن مقدمة «الأربعين الحسينية» ما نصّه: «وتتجه أنظار الجهال وطلبة الدنيا إلى كلّ ذي منفعة دنيوية فحتّى ذكر مصائب أهل البيت عليهم السلام أصبح اليوم وسيلة لتحصيل

(١) المطهري: الملحمة الحسينية، ج ١، ص ٤٣-٤١.

(٢) النوري: اللؤلؤ والمرجان، ص ٢٠١.

المعاش والتكسب، ولم تلحظ جهة العبودية فيه غالباً، وبلغ الأمر إلى حدّ بحيث تذكر الأكاذيب الصريحة في مجاميع العلماء دون أن يُنهي عن المنكر ويتجاوز البعض من الخطباء حدّه ويخلق الحكايات المبكية ويزعم دخوله في من أبكى فله الجنة. ويتداول هذا الكلام الكاذب وهذه الحكايات المختلفة لفترة زمنية حتى يشيع ويُذكر في التأليف الجديدة، وكلّما منع من ذكر هذه الأكاذيب محدثٌ مطّلعٌ أمين نسبوه إلى كتاب مطبوع أو كلام مسموع أو تمسكاً بقاعدة التسامح في أدلة السنن، وذلك يؤدّي إلى ذمّ ولوم الأقوام الأخرى من سائر المذاهب، كالوقائع المعروفة المتداولة في الكتب الجديدة التي لا أثر لها لدى أهل العلم والحديث، كعرس القاسم في كربلاء الذي ذُكر في كتاب روضة الشهداء للفاضل الكاشفي، ونقل عنه الشيخ الطريحي الذي هو من المعتمدين والعلماء، لكن توجد مسامحات كثيرة في كتابه المنتخب، كما لا يخفى على أهل البصيرة والاطلاع^(١).

• وقد تساءل الباحثون عن فاطمة بنت الإمام الحسين التي ذكر الدربندي أنها زوّت للقاسم، ففاطمة الكبرى كانت زوجة الحسن بن الحسن، وفاطمة الصغرى خلفها الحسين عليه السلام في المدينة لمرضها، وسكينة كانت زوجة لعبد الله بن الحسن.

• إنّ استعراض أحداث النهضة الحسينية، ومنه موقف القاسم، لا يحتاج إلى إقحام نصوص وأخبار لا مستند لها، فلقد كان القاسم بطلاً من أبطال كربلاء، وهو الذي لم يبلغ الحلم، وقد جاء في الإرشاد للشيخ المفيد عن حميد بن مسلم: «خرج علينا غلام كأنّ وجهه شقّة قمر، في يده سيف وعليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع إحداهما، فقال لي عمر بن سعيد بن نفيل الأزدي: والله

(١) القمي: منتهى الآمال، ج ١، ص ٨٢٩.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * ————— *

لأشدنّ عليه، فقلت: سبحان الله، وما تريد بذلك؟! دعه يكفيكه هؤلاء القوم الذين ما يُيقون على أحد منهم، فقال: والله لأشدنّ عليه، فشددّ عليه فما ولّى حتى ضرب رأسه بالسيف ففلقه، ووقع الغلام لوجهه فقال: يا عمّاه! فجلى الحسين عليه السلام كما يجلي الصقر، ثم شدّ شدّة ليث أغضب، فضرب عمر بن سعيد بن نفيل بالسيف فاتّقاها بالساعد فأطّنها من لدن المرفق، فصاح صيحة سمعها أهل العسكر، ثم تنحّى عنه الحسين عليه السلام. وحملت خيل الكوفة لتستنقذه فتوطّأته بأرجلها حتى مات. وانجلت الغبرة فرأيت الحسين عليه السلام قائماً على رأس الغلام وهو يفحص برجله والحسين يقول: بُعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك. ثم قال: عزّ - والله - على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا ينفحك، صوتٌ - والله - كثر وأتروه وقلّ ناصره. ثم حمله على صدره، فكأنني أنظر إلى رجلي الغلام تخطان الأرض، فجاء به حتى ألقاه مع ابنه علي بن الحسين والقتلى من أهل بيته، فسألت عنه فقيل لي: هو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام»^(١).

* فإنّا لله وإنا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين، السلام على القاسم بن الحسن ورحمة الله وبركاته.



(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٠٦-١٠٧.

نقد شعر الطف: لسان الحال

• ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

• في هذه الآية المباركة استعمال لسان الحال، وهو المصطلح الذي يقابل مصطلح (لسان المقال) والذي يعني ما ينطق به الإنسان، أما (لسان الحال) فهو ما يدل عليه ظاهر أمره دون أن يتفوه بشيء، وهذا الظاهر - بالنسبة إلينا كبشر - يمكن تلمسه ومعرفته من خلال سلوك الطرف الآخر ومواقفه وقسمات وجهه ونحو ذلك، وعلى حد تعبير الشيخ كاظم الأزري في قصيدة له:

كاد المتيّم أن يكتّم سرّه لولا ينمُّ به لسان الحال

• أمّا البارئ سبحانه وتعالى فإنه محيط بكلّ شيء، عليم بالسرّ وأخفى، ولذا حين تستعمل الآيات القرآنية أسلوب لسان الحال، كما في الآية السابقة، فإنها تعكس حقيقة الحال في ظاهره وباطنه.

• ويأتي استعمال هذا الأسلوب لتقريب الصورة وجعلها حسّية، وإلا فإنّ السماء والأرض لا يصدر منهما الكلام.

• ونجد هذا الأسلوب أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، فمن الواضح أنّ جهنم ليست مخلوقاً عاقلاً ناطقاً، ولكن تقريب الصورة وجعلها قويّة في التأثير تستدعي مثل هذا التعبير البليغ.

• وقد وقع بعض المفسّرين وعلماء المسلمين في خطأ الأخذ بظاهر هذه الآيات القرآنية، واصفين جهنّم مثلاً بالمخلوق الذي يتكلّم اعتماداً على الآية، والمخلوق الذي يتنفّس كتنفّس الإنسان، أخذاً بالمرويّ في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: اشتكت النار إلى ربّها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشدّ ما تجدون من الحرّ، وأشدّ ما تجدون من الزمهرير»^(١).

• وهكذا فعلوا في خصوص موارد أخرى تتعلّق بمخلوقات غير عاقلة. صحيح أنّ الأصل هو الأخذ بالظاهر، وأنّ الأخذ بالظاهر يستدعي ذلك المعنى، ولكن هناك قاعدة أخرى وهي الانصراف عن الظاهر والأخذ بالمعنى المجازي في حال وجود قرينة صارفة، تماماً كما يقول القائل: (من عيوني) أو (عيوني لك) أو (على راسي) وهكذا. فالعقل يقدّم قرينة واضحة على أنّ المتكلّم لا يريد المعنى الحرفي الحقيقي بل المعنى المجازي. والقرائن بخصوص السماء والأرض وجهنّم وغير ذلك موجودة.

• تحدّث سابقاً عن بعض الملاحظات المسجّلة على شعر الطّف، والتي تترتّب عن حسن نيّة لا بقصد الإساءة للنهضة الحسينيّة ولأبطالها، وذكرت حينها ثلاث ملاحظات:

- ١- إقحام بعض المفاهيم القلقة المتنافية مع المفاهيم الإسلامية الأصيلة.
- ٢- تحريف منطلقات النهضة الحسينية وغاياتها.
- ٣- ركافة الأسلوب والنظم في كثير مما يتم تداوله من خلال اللطميات وما شابهها.
- ٤- تشويه حقائق التاريخ.

(١) صحيح البخاري، ح ٥٣٦.

٥- نظم الشعر بلسان الحال، وقد يُقال: ما الضرر في اعتماد لسان الحال في الشعر، وقد اعتمدتُ بعضُ الآيات القرآنية هذا الأسلوب كما اتضح لنا قبل قليل؟ كما أنّ الشعراء دأبوا على ذلك، ومنه قول الشاعر:

جاءت سليمان يومَ العرض هدهدٌ أهدت إليه جراداً كان في فيها
وأنشدت - بلسان الحال - قائلةً إنّ الهدايا على مقدار مهديها^(١)

• مفاهيم خاطئة

وهكذا في الاستفتاءات ما يؤكد إباحة الأمر حيث سُئل المرجع الراحل السيد الخوئي عن ذلك فقال: «لا بأس ما لم يقصد واقع النسبة»^(٢). ولكن المرجع الراحل يجيب على افتراض أنّ المسألة ترتبط بالخطيب فقط، فإن قصد كون الكلام للمعصوم دخل فعله تحت عنوان الكذب، وإن لم يقصد ذلك فلا بأس، لعدم الدليل على الحرمة.

• ولكن القضية لا ترتبط بقصد الخطيب فحسب، بل تمتد إلى المتلقي أيضاً، ولذا فنحن بحاجة إلى أن نقرأ الموضوع من هذه الزاوية أيضاً. وما يلاحظ على استعمال هذا الأسلوب:

أ- أنّ لسان الحال قد يتحوّل بمرور الزمان إلى قول منسوب للشخصية نفسها، ومثال ذلك هذا البيت الذي يتداوله الناس على أنّه من كلمات الحسين عليه السلام:

«إن كان دينُ محمّد لم يستقم إلّا بقتلي يا سيوفُ خديني»^(٣)

وقد قرأت مقالةً لأحد الباحثين يبيّن فيها بالأدلة أنّ هذه الكلمة لم تنسب

(١) الحسن اليوسي: زهر الأكم في الأمثال والحكم، باب الألف: الجزء ٢٦.

(٢) التبريزي: صراط النجاة، ج ٢، ص ٤٤.

(٣) ديوان الشيخ محسن أبو الحب الكبير، ص ١٦٩.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
للإمام الحسين عليه السلام في المصادر التاريخية، وأن نسبتها إليه شاعت في العقود
الأخيرة، وأنها في حقيقتها أحد أبيات قصيدة للشيخ محسن أبو الحَب الحائري
المُلقب بـ(الكبير) (ت ١٣٠٥ هـ) والقصيدة من ٦٢ بيتاً ومن أبياتها:

قال لنفسه من بعد ما أدى بها حقّ المعالي بيني
أعطيتُ ربّي موثقاً لا ينقضي إلا بقتلي فاصعدي وذريني،
إن كان دينُ محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوفُ خذيني
هذا دمي فلترو صاديةً الطبي منه وهذا للرماح وتيني....^(١)

• وفي ذلك قال العلامة السيد محسن الأمين: وتوقف قائلاً بلسان حاله:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بنفسي يا سيوف خذيني^(٢)
وهكذا قال العلامة السيد عبدالحسين شرف الدين: ولسان حاله يقول:
إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني^(٣)

وهكذا قال العلامة السيد مرتضى العسكري في معالم المدرستين: «ولنعن ما
قال الشاعر على لسانه:

إن كان دينُ محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوفُ خذيني^(٤)

ب - الخوف من أخذ المستمع لمضمون لسان الحال وكأنه فعلاً يمثل حال
وتفكير ونية وهدف الإمام أو العباس أو الحوراء عليها السلام أو غيرهم، ولعلّ الذي
نظّم الأبيات الشعرية لا يملك من الوعي والمعرفة الدينية والدراية التاريخية
والدقة في التعبير ما يؤهله لكي يعكس الصورة بشكلٍ سليم، ممّا يوصل رسائل

(١) ديوان الشيخ محسن أبو الحب الكبير، ص ١٦٩.

(٢) الأمين: أعيان الشيعة، ج ١، ص ٥٨١.

(٣) شرف الدين: المأتم الحسيني، ص ١٠٠.

(٤) العسكري: معالم المدرستين، ج ٣، ص ٣٠٢.

خاطئة إلى المتلقي حول النهضة الحسينية وشخصياتها. ولنلاحظ البيتين التاليين
حكاية على لسان أهل البيت عليهم السلام:

سادة نحنُ والأنامُ عبيدُ ولنا طرفُ العُلى والتَّليدُ
وأبونا محمَّدُ سيِّدُ النَّاسِ وأجدَرُ بؤلِدِه أن يسودوا

● فهل فعلاً كان الأئمة عليهم السلام يفكرون بهذه الطريقة، وينظرون إلى الناس هذه النظرة الاستعلائية بأنهم عبيد لهم؟ لقد درج الأنبياء والأئمة عليهم السلام على الابتعاد عن هذا الأسلوب في حديثهم عن النَّاس، كما درج القرآن على الحديث عنهم بغير هذه الطريقة؛ فلم نلاحظ في كلِّ التراث الدينيِّ بشكل عام، والإسلاميِّ بشكل خاص، مثل هذا التَّعالي على النَّاس، بحيث تكون النَّظرة إلى النَّاس أنَّهم العبيد، وهم السَّادة.

● نعم نحن نعتقد - من خلال الحقيقة الدينيَّة - أنَّ الأنبياء والأئمة هم الفئة المميَّزة في الدَّرجات العليا عند الله، بحيث يرتفعون عن النَّاس في قربهم إلى الله، كما نعرف أنَّ طاعتهم واجبة من موقع رسالة الله التي يحملونها ليلبغوها للنَّاس، ومن موقع الشريعة التي أوكل الله إليهم أن يجسّدوها في الحياة.. ولكنَّ الطَّاعة شيء والعبوديَّة شيء آخر.

● وهذا ما يتجسّد في قول النبي لمن ارتعد حين أراد أن يكلمه بعد فتح مكة:
«هُوَ عَلَيكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»^(١)
وقول أمير المؤمنين كما في نهج البلاغة حين خاطبه رجُلٌ من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه و يذكرُ سمعه وطاعته له فقال عليه السلام: «... وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحَبُّ الْإِطْرَاءِ وَإِسْتِمَاعِ الثَّنَاءِ

(١) ابن ماجه: السنن، ح ٣٣١٢.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
 وَ لَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ، وَ لَوْ كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطًا لِلَّهِ
 سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظْمَةِ وَ الْكِبَرِيَاءِ، وَ رَبَّمَا اسْتَحَلَى النَّاسُ
 الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ
 وَ إِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ الْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ آدَائِهَا، وَ فَرَائِضٍ لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا،
 فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ وَ لَا تَتَحَفَّظُوا بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَ لَا
 تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَ لَا تَطْنُوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقِّ قِيلٍ لِي وَ لَا التَّمَّاسِ إِعْظَامِ
 لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنْ اسْتِثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا
 أَثْقَلَ عَلَيْهِ، فَلَا تَكْفُوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقِّ أَوْ مَشُورَةٍ بَعْدَلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ
 أَنْ أُخْطِئَ وَ لَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي إِلَّا أَنْ يَكْفِيَنِي اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي،
 فَإِنَّمَا أَنَا وَ أَنْتُمْ عِبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا
 وَ أَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَّحْنَا عَلَيْهِ فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى، وَ أَعْطَانَا
 الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى»^(١).

• وإذا كان الأسلوب الأدبي يبرّر للإنسان أن يتواضع لإنسانٍ آخر رفيع القدر،
 ليقول له: إنّي عبدك، فيعترف له بذلك، تنزيلاً لنفسه بمنزلة المملوك تواضعاً،
 فإنّ التربية الإسلامية لا تتناسب مع كلام الشخص الكبير عن نفسه بهذه الطريقة.
 ولذلك، فإنّ تصوير أهل البيت عليهم السلام للناس بأنّهم يتحدّثون عن أنفسهم وعن
 الناس بهذا الأسلوب، لا ينسجم مع النظرة الروحية العالية لروحانيّاتهم الرفيعة
 في التواضع لله في علاقتهم بالناس.

• وهكذا نجد لسان الحال يسيء إلى حقيقة موقف العقيلة وكذلك الإمام
 الحسين من استشهاد ابنه علي الأكبر من خلال تصوير الموقف بلسان حال
 العقيلة زينب: «والله عجب يا غرة العين، نايم أو يمك واجف احسين، يصفج

(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة، خ ٢٠٩.

ليالي عَاشُورَاءُ ❁

اليسره فوگ اليمين، من الوسف ويجر الونين، يعتب عليك أو نوب عليين، أو تجري ادموعه اعله الوجنتين».

• ثم على لسان سيد الشهداء: «راح اللي تعبت اعليه ربيت، ومن گلبني عليه اهموم ربيت، گلت عندي ولد ويصير ربيت، يباريني لمن تدنه المنيّه».

• علام يعتب الإمام على ابنه؟ لخروجه للقتال أم لعدم قدرته على البقاء حيًّا بعد مواجهة أعدائه في ساحة المعركة؟ أم علام؟ وهل كان الحسين عليه السلام يفكر بهذه الطريقة؟ أم أنه كان يفدي الإسلام والمبادئ التي يحملها بنفسه وأقرب الناس إليه بكل إقدام وصلابة؟

• وكما كان سيد الشهداء القوي في الحق، كان ابنه علي الأكبر كذلك، وينقل الشيخ المفيد في الإرشاد في معرض حديثه عن المنازل التي طواها سيد الشهداء في الطريق إلى كربلاء: «ولما كان في آخر الليل أمر فتيانہ بالاستقاء من الماء، ثم أمر بالرحيل، فارتحل من قصر بني مقاتل، فقال عقبه بن سمعان: سرنا معه ساعة فخفق وهو على ظهر فرسه خفقة ثم انتبه، وهو يقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين عليه السلام على فرس فقال: ممَّ حمدت الله واسترجعت؟ فقال: يا بني، إني خفقتُ خفقة، فعنَّ لي فارسٌ علي فرس وهو يقول: القوم يسرون، والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نُعيت إلينا. فقال له: يا أبت لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟ قال: بلى، والذي إليه مرجع العباد. قال: فإننا إذاً لا نبالي أن نموت محقِّين، فقال له الحسين عليه السلام: جزاك الله من ولدٍ خير ما جزى ولداً عن والده»^(١). وبمثل هذه الصلابة الإيمانية انبرى الأكبر في يوم الطف، قال الشيخ المفيد: «ولم يزل يتقدّم رجل رجل من أصحابه فيقتل، حتى لم يبقَ مع الحسين عليه السلام إلا أهل بيته خاصة. فتقدّم ابنه علي بن الحسين عليه السلام،

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٨٢.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

وأمه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي، وكان من أصبح الناس وجهاً، وله يومئذ بضع عشرة سنة، فشدّ على الناس، وهو يقول:

أنا عليُّ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ نحنُ وبيتِ اللهِ أُولى بالتَّبي
تاللهِ لا يحكمُ فينا ابنُ الدَّعي أضربُ بالسَّيفِ أحامي عن أبي
ضَربَ غلامٍ هاشميٍّ قرشيٍّ

ففعل ذلك مراراً وأهل الكوفة يتقون قتله، فبصّر به مرّة بن منقذ العبدي فقال: عليّ آثمُ العرب إن مرّ بي يفعل مثل ذلك إن لم أأكله أباه، فمر يشتدّ على الناس كما مرّ في الأول، فاعترضه مرّة بن منقذ فطعنه فصرع، واحتواه القوم فقطعوه بأسيافهم، فجاء الحسين عليه السلام حتى وقف عليه فقال: قتل الله قوماً قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول! وانهملت عيناه بالدموع ثم قال: علي الدنيا بعدك العفاء. وخرجت زينب أختُ الحسين مسرعة تنادي: يا أخيّه وابن أخيّه! وجاءت حتى أكبّت عليه، فأخذ الحسين برأسها فردّها إلى الفسطاط، وأمر فتيانَه فقال: احمِلوا أخاكم. فحملوه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه^(١).

* إنّا لله وإنا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين، جميعاً ورحمة الله وبركاته.



(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٠٦-١٠٧.



عصمة الدماء والنفوس



• ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

- من المبادئ الإسلامية الهامة، على المستوى الإنساني، مبدأ عصمة الدماء والنفوس والأعراض.
- الحديث عن هذا المبدأ يكتسب أهمية خاصة في وقتنا الراهن، بعدما شهدته وتشهده بلدان شتى من أعمال عنف تتسم بالوحشية المفرطة، تُنسب إلى بعض الجماعات التي تُسمّى أحياناً بالجهادية وغير ذلك من مصطلحات مشتقة من الثقافة الإسلامية. ومن المعلوم أنها شوّهت - وما زالت تشوّه - صورة الإسلام، حتى تمّ تصوير الإسلام في الإعلام الغربي بالملة التي تسترخص الدماء وتستهين بإنسانية الإنسان.

• القاعدة الأساسية في الإسلام هي عصمةُ الدماء ومحقوقيتها وحرمتها، بغض النظر عن هوية أصحابها الدينية والمذهبية، لأنّ القتل وسفك الدماء ظلم بحكم العقل، وما كان ظلماً كان قبيحاً بحكم العقل أيضاً. ومن جهة أخرى،

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

فإنّ حفظ النفوس من أهمّ المقاصد التي هدف إليها الإسلام في تشريعاته، لهذا اعتبر الله سبحانه أنّ قتل نفس واحدة تعادل قتل البشر جميعاً.. وفي المقابل فإنّ إحياء نفس واحدة يعادل إحياءهم جميعاً: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

• حرمة الدماء

• يلاحظ أنّ الآية لم تُصِفْ أيّ قيد على كلمة (نفس) في دلالة واضحة على أنّ عصمة الدماء تتجاوز كل الأطر الدينية، أو غيرها.

• وتبقى إباحة القتل في بعض الموارد، استثناءً، تجوّزه بعض الضرورات الإنسانية، وتفرضه المصالح النوعية النظامية، من قبيل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ومن قبيل: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ومن قبيل: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ [المائدة: ٣٣].

• ولدفع الناس إلى مزيد من الاهتمام بالنفس الإنسانيّة، وردت في النصوص الإسلامية تحذيرات شديدة اللهجة بشأن الإقدام على سفك الدماء، والاستهانة بالأرواح والإعانة على الجريمة ولو بكلمة، ففي الحديث النبوي: «إنّ من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها، سفك الدّم الحرام بغير حلّه»^(١)، وعنه عليه السلام: «لَرَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ دَمٍ يُسْفَكُ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(٢). وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يغرنكم رحب الذراعين بالدم،

(١) صحيح البخاري، ح ٦٤٧٠.

(٢) ابن أبي عاصم: الديات، ح ٤.

فإنَّ له عند الله قاتلاً لا يموت! قالوا: يا رسول الله، وما قاتل لا يموت؟ قال: الموت^(١). وعن الباقر عليه السلام: «أول ما يحكم الله فيه يوم القيامة: الدماء، فيوقف ابني آدم فيقضي بينهما، ثم الذين يلونهما من أصحاب الدماء حتى لا يبقى منهم أحد..»^(٢). وعنه عليه السلام: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة ومعه قدر محجمة من دم فيقول: والله ما قتلت ولا شركت في دم، فيقال له: بل ذكرت عبدي فلاناً، فترقى ذلك حتى قُتل فأصابك دمه»^(٣).

● «انطلاقاً من هذه النصوص وغيرها، أسس الفقهاء قاعدة خاصة في باب النفوس والدماء، وهي قاعدة الاحتياط، خلافاً للقاعدة العامة المحكَّمة في أكثر الأبواب الفقهية، وهي قاعدة البراءة والإباحة، ومفاد الاحتياط هنا: إن أدنى شبهة كفيلة بحقن دم الإنسان، ولو كان متَّهماً بالقتل.

● كل ذلك لا بدّ وأنّ يؤسّس لذهنية إسلامية تتورّع عن سفك الدماء، وتتجنّب الخوض في كل ما يؤدي، أو يعين على سفكها بغير حقّ.

● وهناك قاعدة شرعية أخرى متسالم عليها، وهي قاعدة (درء الحدود بالشبهات)، لقوله ﷺ: «ادروا الحدود بالشبهات»^(٤)، فإقامة الحدّ منوطة بعدم وجود شبهة، وبالتالي فلو أنّ التحقيقات القضائية لم توصل القاضي إلى قناعة بأنّ القاتل قد قام بالقتل العمد، بل احتمال قويّاً أن يكون ذلك شبهةً أو دفاعاً عن النفس، فلا يُصار إلى القصاص منه»^(٥).

(١) الكليني: الكافي، ج٧، ص ٢٧٢، ح ١١٩.

(٢) م. ن، ج٧، ص ٢٧١، ح ١١٧.

(٣) م. ن، ج٧، ص ٢٧٢، ح ١٢٥.

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٢٧، ص ١٣٠.

(٥) حسين الخشن: العقل التكفيري، ص ١٣٣ - ١٣٤.

• العقول التكفيرية

• وفي مقابل هذا كلّه نجد سلوك الجماعات التكفيرية التي تعتبر أنّ عامة المسلمين ممّن لا يوافقونها الرأي والفكر، بحكم الكفار الحربيين، وربما كانوا - عندهم - شرّاً منهم، على الرغم من قوله ﷺ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

• وفي الحديث عن أبي حمزة عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليه السلام) قال: «أُتِيَ رسول الله فقيل له: يا رسول الله، قتيلٌ في جهينة. فقام رسول الله يمشي حتى انتهى إلى مسجدهم، وتسامع الناس فأتوه فقال: من قتل ذا؟ قالوا: يا رسول الله ما ندري. فقال: قتيل بين المسلمين لا يُدرى من قتله؟! والذي بعثني بالحق لو أنّ أهل السماء والأرض شركوا في دم امرئ مسلم ورضوا بذلك لأكبهم الله على مناخرهم في النار، أو قال: على وجوههم»^(١).

• بل قد نُهي عن مجرد ترويع المسلم وتخويفه، ففي الحديث النبوي: «مَنْ رَوَّعَ مُؤْمِنًا لَمْ يَأْمُرْهُ اللَّهُ رُوعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

• أين هذا كلّه من ثقافة قطع الرؤوس، والتمثيل بالأجساد، وغير ذلك من مظاهر الوحشية التي يمارسها البعض باسم الله واسم رسوله؟

• الآن نحن بين هذه المبادئ الإسلامية والقيم الرفيعة وبين سلوكيات الجماعات التكفيرية والإرهابية التي ارتكبت وما زالت تُرتكب جرائم يندى لها الجبين، وتستقي الشرعية الموهومة لتلك الجرائم من المنبع الآسن لسلوك المجرمين من آل أمية وحزبهم، الذين لم يتورّعوا عن ارتكاب كلّ قبيح وكلّ

(١) الصدوق: مَنْ لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٩٧.

(٢) المتقي الهندي: كنز العمال، ج ١٦ ص ٢١.

ليالي عَاشُورَاءُ _____ ❁

جريمة في يوم عاشوراء وقبله وبعده.. فالحزب واحد، والمدرسة واحدة، وما دفاعهم عن يزيدٍ إلا لأنهم من سنخه، وما تخلّوهم عن تعاليم القرآن إلا لأنهم إذا قرأوا القرآن لم يجاوز تراقيهم، فقد مرّوا من الإسلام مروق السهم من الرمية.

• وها هم يستعدّون اليوم ليعودوا من جديد بثوب جديد ومن باب جديد ليمارسوا هوايتهم في ذبح الحقّ باسم الإسلام، وتحطيم أجساد ضحاياهم بسنابك التعصّب، وتعليق رؤوسهم على أسنة الحقد الدفين لكلّ ما هو إنسانيّ.

• لقد تعلّموا في مدرسة يزيد هدر كرامة الإنسان، وتعلّمنا في مدرسة الحسين أن لا نطأ طيء رؤوسنا لظالم.

• لقد تعلّموا في مدرسة يزيد دروس الحقد، وتعلّمنا في مدرسة الحسين دروس الرحمة.

• لقد تعلّموا في مدرسة يزيد دروس استرخا ص دماء الأبرياء، وتعلّمنا في مدرسة الحسين كيف ندافع عن المستضعفين.

• لقد تعلّموا في مدرسة يزيد كيف يستغلّون الدين لخدمة مصالحهم الخاصة، وتعلّمنا في مدرسة الحسين كيف يرتقي الدين بإنسانيّتنا.

• ليلة العاشر

• روى الشيخ المفيد في الإرشاد أنّه لما علم الحسين عليه السلام عصر التاسع من المحرم بتحرّك قوات عمر بن سعد للشروع في القتال قال لأخيه العباس: «ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّره إلى الغدوة وتدفعهم عنّا العشية، لعلنا نصليّ لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنّي قد أحب الصلاة له وتلاوة كتابه والدعاء والاستغفار». فمضى العباس إلى القوم ورجع من عندهم ومعه رسول من قبل

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

عمر بن سعد يقول: إنّنا قد أجّلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرّحناكم إلى أميرنا عبيد الله بن زياد، وإن أبيتم فلسنا تارككم، وانصرف. فجمع الحسين عليه السلام أصحابه عند قرب المساء. قال عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «فدنوت منه لأسمع ما يقول لهم، وأنا إذ ذاك مريض، فسمعت أبي يقول لأصحابه: أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إنّني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسمعاً وأبصاراً وأفئدة، فاجعلنا من الشاكرين. أمّا بعد: فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني خيراً، ألا وإنّي لأظنّ أنّه آخر يوم لنا من هؤلاء، ألا وإنّي قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً».

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر: لم نفعل ذلك؟! لنبقى بعدك؟! لا أرانا الله ذلك أبداً. بدأهم بهذا القول العباس بن علي رضوان الله عليه وأتبعته الجماعة عليه فتكلّموا بمثله ونحوه. فقال الحسين عليه السلام: «يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، فاذهبوا أنتم فقد أذنت لكم». قالوا: سبحان الله، فما يقول الناس؟! يقولون إنّنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومنا - خير الأعمام - ولم نرّم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندرى ما صنعوا، لا والله ما نفعل ذلك، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نردّ موردك، فقبح الله العيش بعدك. وقام إليه مسلم بن عوسجة فقال: أنخليّ عنك ولما نعدر إلى الله سبحانه في أداء حقّك؟! أما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمهم في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتمهم بالحجارة، والله لا نخليّك حتى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك، والله لو علمت أنّي أقتل ثم أحيأ ثم أأحرق ثم أحيأ ثم

أُذرى، يُفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً. وقام زهير بن القين البجلي - رحمة الله عليه - فقال: والله لو ددت أني قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت حتى أُقتل هكذا ألف مرة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك. وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فجزاهم الحسين عليه السلام خيراً وانصرف إلى مضربه. قال علي بن الحسين عليه السلام: «إني لجالس في تلك العشية التي قُتل أبي في صبيحتها، وعند عمي زينب تمرّضني، إذ اعتزل أبي في خباء له وعنده جوين (جون) مولى أبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبي يقول:

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل وكلُّ حيٍّ سالك سبيلي

فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد، فخنقني العبرة فرددتها ولزمت السكوت، وعلمت أنّ البلاء قد نزل، وأما عمّي فإنّها سمعت ما سمعت وهي امرأة ومن شأن النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها وأنّها لحاسرة، حتى انتهت إليه فقالت: وا ثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي عليّ وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمان الباقي. فنظر إليها الحسين عليه السلام فقال لها: يا أختي لا يُذهبن حلمك الشيطان، وترقرقت عيناه بالدموع وقال: لو ترك القطا لنام^(١).

آه يا ليلة الأسى والدموع أطفئي في دم الطُفوف شموعي

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٩١-٩٣.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

ودعيني أعيشُ في ظُلْمَةِ الحُزْ نِ فَعُمْرِي شَمْسٌ بغيرِ طلوع
وانثري في عيونِي الجَمَرِ وقًا دَاً وخَلِي اللهيَبَ بينَ ضلوعي
وامسحي بالسوادِ لونَ وجودي فلقد كَفَّنَ الرَّمَادُ ربيعي

* إِنَّا لله وَإِنَّا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أَيَّ منقلبٍ ينقلبون، ولا حول
ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم. السلام على الحسين وعلى عليّ بن الحسين وعلى
أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين، جميعاً ورحمة الله وبركاته.





مشروعية الثورة الحسينية



• ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤-١٩٥].

- هل كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم بما يصيبه في نهاية المطاف عندما بدأ مسيرته إلى كربلاء؟ وإذا كان يعلم ذلك فكيف جاز له أن ينطلق في مسيرته التي تؤدّي به إلى القتل وذلك وقد نهت الآية عن إلقاء النفس في التهلكة؟
- في السيرة الحسينية عدّة نصوص تفيد أنّه كان عالماً بمصيره، سواء من خلال أقوال جدّه رسول الله ﷺ أو غير ذلك. فكيف نفسّر المسألة من الناحية الفقهية؟
- قال البعض: هذه من خصوصيات الإمام الحسين عليه السلام في تكاليفه الشرعية، فهو إمام، يجوز له ما لا يجوز لغيره، لأنّ دوره يختلف عن دور الآخرين، وهو أعرف بتكاليفه، فليس لنا أن نخوض في الموضوع في دائرة التصوّر الشرعي في تكاليفنا.
- وأضاف آخرون أنّ ما يؤكد ذلك أنّ من النصوص ما يدلّ على أنّ كلّ إمام تصله التكاليف مكتوبة يرثها عن رسول الله ﷺ أن افعل كذا أو لا تفعل كذا،

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

* فيلتزم بها. كالخبر المروي في الأصول من الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله عزّ وجلّ أنزل على نبيّه ﷺ كتاباً قبل وفاته، فقال: يا محمد، هذه وصيتك إلى النجبة من أهلك، قال: وما النجبة يا جبرئيل؟ فقال: علي بن أبي طالب وولده عليه السلام، وكان على الكتاب خواتيم من ذهب. فدفعه النبي ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأمره أن يفكّ خاتماً منه ويعمل بما فيه، ففكّ أمير المؤمنين عليه السلام خاتماً وعمل بما فيه، ثم دفعه إلى ابنه الحسن عليه السلام ففكّ خاتماً وعمل بما فيه، ثم دفعه إلى الحسين عليه السلام، ففكّ خاتماً فوجد فيه أن اخرج بقوم إلى الشهادة، فلا شهادة لهم إلا معك وأشر نفسك لله عزّ وجلّ، ففعل، ثم دفعه إلى عليّ بن الحسين عليه السلام ففكّ خاتماً فوجد فيه أن أطرق واصمت والزم منزلك واعبد ربك حتى يأتيك اليقين، ففعل، ثم دفعه إلى ابنه محمد بن عليّ عليه السلام، ففكّ خاتماً فوجد فيه حدّث الناس وافتهم ولا تخافنّ إلا الله عزّ وجلّ، فإنّه لا سبيل لأحد عليك، ففعل، ثم دفعه إلى ابنه جعفر ففكّ خاتماً فوجد فيه حدّث الناس وافتهم وانشر علوم أهل بيتك وصدّق آباءك الصالحين ولا تخافنّ إلا الله عزّ وجلّ وأنت في حرز وأمان، ففعل، ثم دفعه إلى ابنه موسى عليه السلام. وكذلك يدفعه موسى إلى الذي بعده، ثم كذلك إلى قيام المهدي صلى الله عليه»^(١).

• وقد بيّنت في بحث لي مفصّل حول هذه النصوص أنها روايات ضعيفة من حيث السند، وأن في دلالتها إشكالاً. وعموماً لا أتفاعل مع الإجابة عن هذا التساؤل بهذه الطريقة، وهي أقرب إلى التهرّب منها إلى الجواب، وهي:

١- تجعل سيرة المعصوم وسلوكه ومواقفه خارج نطاق الاقتداء، وهذا من دون شكّ مخالف للغرض من جعلهم موضع الأسوة الحسنة.

٢- كما تجعل الفقهاء في ورطة حين يريدون الاعتماد على سنة

(١) الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٨٠-٢٨١، ح ٢.

ليالي عاشوراء * _____

المعصوم عليه السلام كمصدر ثان للاستنباط بعد القرآن الكريم، إذ لن يكون حينئذ معنىً لحجية فعل المعصوم الذي يمثل أحد عناصر سنته، وهي: قول المعصوم وفعله وتقريره، ما دام أن تكليف المعصوم يختلف عن تكليف عامة الناس.

• وبالتالي نحن بحاجة إلى أن نبحث عن إجابة أخرى للإشكال المطروح، وهو: كيف نوفق بين النهي عن التهلكة وبين علم الإمام الحسين عليه السلام بأنه سيقتل وإصراره على المضي قدماً في هذا الاتجاه؟

• ويمكن أن يجاب عن ذلك بسؤال مقابل: ما المشكلة في أن يُقدّم الإنسان الرسالي الثائر المؤمن بأنّ قضيّته تحتاج إلى توضيح بحجم ما جرى في يوم عاشوراء - أو أقل من ذلك - إن كان إصلاح الخلل الحاصل أو مواجهة الباطل المستكبر تستدعي ذلك؟ ولماذا نعتبرها من مصاديق الآية الناهية عن إلقاء النفس في التهلكة كي نعتبر ذلك إشكالاً يواجه حركة الإمام الحسين الثورية؟

• وبمعنى آخر، إذا كان تعريض النفس لمواطن الموت بدافع شخصي بعيداً عن رسالية الغاية، وعن الدوافع التي يحكم العقل والشرع بضرورة العمل وفقها، فحينذاك يأتي الإشكال.. وإلا فلا.

• فلو أراد شخص يحمل السلاح القاتل أن يعتدي على عرض الآخر وحرماته، فهل يُشكلون عليه عند إقدامه على الدفاع عن عرضه وحرماته وتعريض نفسه للقتل على يد المعتدي بأنّ ذلك من إلقاء النفس في التهلكة، وأنّ هذا منهي عنه شرعاً؟ أم أنّه قد قام بتحمّل مسؤوليته، ويتحوّل إلى بطل وشهم حتى لو زُهقت روحه في هذا الطريق؟

• نعم لو أنّه عرّض نفسه للموت لأنّه لم يتحمّل خسارة مبلغ من المال، أو لأنّه فشل في اختبار دراسي، أو لأنّ حبيبته هجرته أو لغير ذلك من العناوين المشابهة،

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م ————— *
فإنّ الإشكال يكون في محلّه، وفعله سيكون من مصاديق الآية الناهية عن إلقاء النفس في التهلكة.

• ومن هنا كان الجهاد في ساحات الوغى من أعظم القربات إلى الله سبحانه، قال عزّ اسمه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴿[التوبة: ٥١-٥٢]، إمّا النصر وإمّا الشهادة.. حتى في الظرف الذي كانت فيه قوّة المسلمين هي الأقل والأضعف عتاداً كما في غزوة بدر الكبرى، وفي الخندق، وفي مؤتة التي واجه فيها المسلمون بقيادة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة مع ٣٠٠٠ مسلم جيش الروم وحلفائهم من العرب وقوامه ٢٠٠ ألف مقاتل.. الروم بما كانت تمثله من قوّة عظمى في العالم أجمع، وفي عقر دارهم.. بما يتخطى به حدود الجزيرة العربية.

• في تاريخ الطبري أنّه لما بلغ المسلمين عدد الروم وحلفائهم أرادوا أن يكتبوا للنبي ﷺ ليرى فيهم رأيه: «فشجّع الناسَ عبدالله بن رواحة وقال: يا قوم والله إنّ الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنّما هي إحدى الحسينين، إمّا ظهور وإمّا شهادة. فقال الناس: قد والله، صدق ابن رواحة.. ثم التقى الناس فاقتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قُتل» قال الرواي: «والله لكأنّي أنظر إلى جعفر حين اقتحم على فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قُتل فلما قُتل جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة ثم تقدّم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردّد بعض التردّد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلن طائعة أو فلتكرهنه
 إن أجلب الناس وشدوا الرنه مالي أراك تكرهين الجنة
 قد طال ما قد كنت مطمئنه هل أنت إلا نطفة في شنه»^(١)

• فالمهم هو تحمّل المسؤولية الجهادية في الموقف الذي يستدعي ذلك، حتى لو أدّى ذلك إلى الموت.

• يوم العاشر

• وفي ضوء ذلك نقول إنّ الإمام الحسين عليه السلام حدّد لنفسه ولأصحابه من أهل بيته وغيرهم المهمّة الجهادية الموكولة إليه، ورأى فيها إلزاماً شرعياً فيما هي الأهمية الكبرى للمصلحة الإسلامية العليا.

• روى الطبري في تاريخه: «عن عقبة بن أبي العيزار أنّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيّها الناس، إنّ رسول الله ﷺ قال: مَنْ رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري. وقد أتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنّكم لا تُسلموني ولا تخذلوني، فإن تمتمت على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، فلکم في أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٦-٣٧.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيُغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»^(١).

• وفي كلمته الأخيرة أكد أنه ماضٍ في طريق مواجهة السلطان الجائر المستحلّ لحرم الله الناكث لعهد الله المخالف لسُنّة رسول الله، ولو لم ينصروه، فهذه مسؤوليته التي لن يتخلّى عنها ولو أدّت إلى شهادته.

• واستشهد الحسين صلوات الله عليه، واستشهد أغلب من معه من الرجال، وسُبيت النسوة والأطفال. كتب الطبري في تاريخه روايةً عن أبي مخنف: «ما هو إلا أن قُتل الحسين فسُرح برأسه من يومه ذلك مع خولي بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدي إلى عبيد الله بن زياد، فأقبل به خولي فأراد القصر، فوجد باب القصر مغلقاً، فأتى منزله فوضعه تحت إجانة في منزله، وله امرأتان، امرأة من بني أسد والأخرى من الحضرميين يقال لها النوار ابنة مالك بن عقرب، وكانت تلك الليلة ليلة الحضرمية. قال هشام فحدّثني أبي عن النوار بنت مالك قالت: أقبل خولي برأس الحسين فوضعه تحت إجانة في الدار ثم دخل البيت فأوى إلى فراشه، فقلت له: ما الخبر؟ ما عندك؟ قال: جئتُك بغنى الدهر. هذا رأس الحسين معك في الدار! قالت: فقلت: ويلك! جاء الناس بالذهب والفضة، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ؟ لا والله لا يجمعُ رأسي ورأسك بيتاً أبداً. قالت: فقممت من فراشي فخرجت إلى الدار فدعا الأسدية فأدخلها إليه، وجلستُ أنظر. قالت: فوالله ما زلت أنظر إلى نور يسطعُ مثل العمود من السماء إلى الإجانة، ورأيت طيراً بيضاً ترفرف حولها. قال: فلما أصبح غداً بالرأس إلى عبيد الله بن زياد وأقام عمر بن سعد يومه ذلك والغد، ثم أمر حميد بن

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٣٠٦-٣٠٧.

ليالي عَاشُوراء _____ *

بكير الأحمرري فأذن في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان، وعلي بن الحسين مريض. قال أبو مخنف: فحدثني أبو زهير العبسي عن قرّة بن قيس التميمي قال: نظرتُ إلى تلك النسوة لَمَّا مررن بحسينٍ وأهله وولده صِحْنٍ ولطمن وجوههن. قال: فاعترضتُهن على فرس..

قال: فما نسيت من الأشياء لا أنسى قولَ زينب ابنةِ فاطمة حين مرّت بأخيها الحسين صريعاً وهي تقول: يا محمّده يا محمّده صلّى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعرا، مرّمل بالدمّ مقطّع الأعضاء. يا محمّده وبناتك سبايا، وذريّتك مقتلة، تسفي عليها الصبا. قال: فأبكت والله كلّ عدوّ وصديق. قال: وقُطف رؤوس الباقين، فسرح باثنين وسبعين رأساً مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمر بن الحجاج وعزرة بن قيس، فأقبلوا حتى قدموا بها على عبيد الله بن زياد^(١).

* إنّا لله وإنا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. السلام على الحسين وعلى عليّ بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين، جميعاً ورحمة الله وبركاته.



(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٤٥٥.



توثيق المقتل الجزء الأول



يطرح كثيرون تساؤلاً حول مصادر توثيق الثورة الحسينية، فمن الذي نقل الأحداث والحوارات بهذه الصورة التفصيلية، مع أنّ الرجال في معسكره قد قُتلوا، والنساء لا يتصوّر حضورهن في كثير من تلك المواقف؟ كما أنّ مَنْ في معسكر الأمويين لا يمكن لهم أن ينقلوا ما جرى بين أصحاب الإمام في الطريق إلى كربلاء وكذلك فيها.

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول إجمالاً إنّ مَنْ كان مع الإمام الحسين عليه السلام من الرجال لم يُستشهدوا بأجمعهم، بل بقي بعضٌ منهم على قيد الحياة كما سنبيّن ذلك، وهم يمثّلون بعضاً ممّن نقل من الأخبار، وتكفّل بالباقي بعضٌ من النساء والصغار وممّن كانوا من معسكر الأمويين وبعض الذين التقوا بالإمام أو صحبه في الطريق.

• كُتِبَ المقاتل

وقد قام بعض المؤرّخين بجمع هذه الشهادات في كتب مخصّصة للمقتل، أو في كتب أخرى للتاريخ أو للحديث وغير ذلك. وأقدم كتاب مقتل صنّفه الأصغ بن نباتة المجاشعي (ت ٦٤ هـ)، ولكنّه للأسف الكتاب مفقود. وأمّا أهمّ كتاب مقتل في البين فهو المقتل الذي صنّفه شيخ الأخباريين في الكوفة أبو مخنف

ليالي عَشُوراء _____ *

لوط بن يحيى الأزدي (ت ١٥٧ هـ) نقل أحداثه بواسطة أو واسطتين من معسكر الإمام الحسين ومعسكر الأمويين. والكتاب أيضاً مفقود إلا أنّ الطبري في تاريخه اعتمد عليه في سرد أحداث النهضة الحسينية، ولعله يروي كلّ الكتاب. وقد رواه عن أستاذه هشام الكلبي الذي كان تلميذاً لأبي مخنف.

لأبي مخنف كتب كثيرة في السير، منها: كتاب المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وكتاب مقتل محمد بن أبي بكر، وكتاب مقتل عثمان، وكتاب الجمل، وكتاب صفين، وكتاب خطبة الزهراء، وكتاب خطب أمير المؤمنين، وكتاب المغازي، وكتاب الردّة، وكتاب السقيفة، وغير ذلك. وقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام.

• رُواة المقتل

وأما الذين نقلوا لنا الحادثة فسنصنّفهم إلى مَنْ هم من معسكر الإمام الحسين، ومَنْ هم من معسكر الأمويين من المقاتلين وغيرهم، وكذلك ممن شهدوا جانباً من الأحداث قبل وبعد الواقعة ونقلوا لنا شيئاً منها.

• من معسكر الإمام الحسين عليه السلام

١ - الإمام زين العابدين عليه السلام

نقل عنه الطبري عن أبي مخنف عدّة روايات منها: «أتانا رسولٌ من قبل عمر بن سعد فقام مثل حيث يُسمَع الصوت فقال: إنا قد أجّلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرّحنا بكم إلى أميرنا عبيدالله بن زياد، وإن أبيتم فلنسنا بتارككم»^(١).

وروى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف: «جمع الحسين أصحابه بعدما رجع

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٦٨.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * _____

عمر بن سعد، وذلك عند قرب المساء قال عليّ بن الحسين: فدنوتُ منه لأسمع وأنا مريض فسمعتُ أبي وهو يقول لأصحابه: أنني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء.. ألا وإنّي أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإنّي قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم منّي ذمام. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً..»^(١).

وكذا روى عنه خبر ما جرى ليلة العاشر من حديث بين الحسين والعقيلة عليها السلام والذي فيه: «إني جالس في تلك العشية التي قُتل أبي صبيحتها، وعمّتي زينب عندي تمرّضني... وأما عمّتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة، وفي النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها..»^(٢). وقد نقلت الخبر في بحث سابق فلا نكرّر.

٢ - فاطمة بنت الإمام علي بن أبي طالب

وهي تُعرف بفاطمة الصغرى، وأمّها أم ولد. كانت زوجة أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب، ثم خلف عليها سعيد بن الأسود بن أبي البختری. ثم خلف عليها المنذر بن عبيدة بن الزبير بن العوام. قال محمد بن جرير الطبري: توفيت سنة سبع عشرة ومائة.

روى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف أنّها قالت: «إنّ رجلاً من أهل الشام أحمر قام إلى يزيد فقال: يا أمير المؤمنين هب لي هذه يعنيني وكنت جارية وضيئة فأرعدت وفرقت وظننت أنّ ذلك جائز لهم وأخذت بثياب أختي زينب، قالت: وكانت أختي زينب أكبر مني وأعقل وكانت تعلم أنّ ذلك لا يكون، فقالت: كذبت والله ولؤمت ما ذلك لك وله. فغضب يزيد فقال: كذبت والله إنّ ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلت.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٧.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٣١٦.

ليالي عَشُوراء _____ *

قالت: كلا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا، قالت: فغضب يزيد واستطار ثم قال: إياي تستقبلين بهذا إنما خرج من الدين أبوك وأخوك، فقالت زينب: بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدّي اهتديت أنت وأبوك وجدك، قال: كذبت يا عدوّ الله، قالت: أنت أمير مسلّط تشتم ظالماً وتقهر بسطانك، قالت: فوالله لكأنّه استحيا فسكت، ثم عاد الشامي فقال: يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية، قال: اعزّب، وهب الله لك حتفاً قاضياً^(١).

٣- فاطمة بنت الإمام الحسين

وأما أم إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله، كانت أم إسحق زوجة للإمام الحسن ثم تزوّج بها الحسين بعد استشهاده.

تزوّجت السيدة فاطمة ابن عمّها الحسن المثنى ابن الإمام الحسن المجتبي بن علي بن أبي طالب، وعن كتاب (مقاتل الطالبين) لأبي فرج الأصفهاني: (خطب الحسن بن الحسن إلى عمّه الحسين وسأله أن يزوجه إحدى ابنتيه فقال له الحسين اختر يا بني أحبهما إليك فاستحى الحسن ولم يحر جواباً. فقال له الحسين: فإنّي قد اخترت لك ابنتي فاطمة فهي أكثرهما شبيهاً بأبي فاطمة بنت رسول الله)^(٢).

ومات عنها ابن عمها الحسن المثنى عام ٩٧ هـ، ثم تزوّج بها عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وفي مقاتل الطالبين: «أنّ فاطمة بنت الحسين لما خطبها عبدالله أبت أن تتزوّجه فحلفت أمها عليها أن تزوّجه، وقامت في الشمس وآلت ألا تبرح حتى تزوّجه فكرهت فاطمة أن تخرج فتزوجته)^(٣).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣٩.

(٢) الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ج ١، ص ١٦٧.

(٣) م.ن، ج ١، ص ٥٥.



• زيجات وحسب

والملاحظة التي أسجّلها هنا هي أنّ الاستدلال بالمصاهرات على أنّ العلاقات كانت طبيعية بين أهل البيت عليهم السلام وبين بعض أسر الصحابة استدلال غير تام، فلتلك الزيجات ظروفها الخاصّة، كما أنّه لم تُلحظ في الزيجات عموماً وجود الخلافات والصراعات التي لا مفرّ من حصولها كمعركة الجمل وصفين والطفّ، فقد كانت النظرة الاجتماعية للزواج تختلف عمّا هي عليه اليوم، ولا يُلحظ في المصاهرات ما تلحظه الأسر في الزمن المعاصر، وقد تزوّج النبي صفيّة بنت يهودي كان يقاتله في خيبر وهو حيي بن أخطب، وتزوّج بريرة بنت الحارث سيد بني المصطلق وهي أسيرة بعد أن خاض معركة مع أهلها، كما تزوّج الإمام الحسن خولة الفزارية بعد معركة الجمل، وكانت زوجة لمحمد بن طلحة بن عبيدالله المقتول في ذات المعركة، وهكذا. بالإضافة إلى أنّ الأرملة والمطلّقة عموماً لم يكن لها خيار البقاء بلا زوج، إذ غالباً ما ستغدو بلا مأوى ولا مصدر رزق، فضلاً عمّا لو كانت ذات عيال، ولذا تجد أنّ الواحدة منهن تتزوّج خلال حياتها أكثر من رجل، مع وجود التباين بين الأزواج في الانتماءات الأسرية وفي الصراعات العنيفة التي كانوا يشهدونها.. تلك الصراعات والحروب التي أثبتتها كتب التاريخ والأدب والحديث بما لا تقبل الشك ولا يمكن إنكارها.

فزوجة أبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين مثلاً هي لبابة بنت عبيدالله بن العباس بن عبدالمطلب، وقيل ابنة عبدالله بن عباس، وتذكر بعض كتب الأنساب أنّه بعد استشهاد أبي الفضل تزوّجت الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وهو يومئذ والٍ على المدينة ومكة؛ فولدت له القاسم بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان؛ ولما مات تزوّجها زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب؛ فولدت له نفيسة بنت زيد بن حسن؛ وتزوّجت نفيسة الوليد بن عبد الملك بن مروان، وهو خليفة؛ ثم فارقتها!

• ما رُوي عنها حول الطف

في أمالي الشيخ الصدوق عن عبد الله بن الحسن المثنى عن أمه فاطمة بنت الحسين عليه السلام قالت: «دخلت العائمة علينا الفسطاط وأنا جارية صغيرة وفي رجلي خلخالان من ذهب فجعل رجل يفضّ الخلخالين من رجلي وهو يبكي فقلت: ما يبكيك يا عدو الله؟ فقال: كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله؟! فقلت: لا تسلبني، قال: أخاف أن يجيء غيري فيأخذه. قالت: وانتهبوا ما في الأبنية حتى كانوا ينزعون الملاحف عن ظهورنا»^(١).

٤ - الحسن المثنى بن الحسن بن علي

أمه خولة بنت منظور الفزاري. وفي كتاب (عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب لابن مهنا الداودي): «وكانت تحت - زوجة - محمد بن طلحة بن عبيدالله، فقتل عنها يوم الجمل ولها منه أولاد، فتزوجها الحسن بن علي بن أبي طالب، فسمع بذلك أبوها منظور بن زيان، فدخل المدينة وركز رايته على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يبق في المدينة قيسي إلا دخل تحتها، ثم قال: أمثلي يغتال عليه في ابنته؟ فقالوا: لا.

فلما رأى الحسن ذلك سلّم إليه ابنته فحملها في هودج وخرج بها من المدينة فلما صار بالبقيع قالت له: يا أبة أين تذهب إنّه الحسن بن أمير المؤمنين علي وابن بنت رسول الله. فقال: إن كان له فيك حاجة فسيلحقنا. فلما صاروا في نخل المدينة إذ بالحسن والحسين وعبدالله بن جعفر قد لحقوا بهم فأعطاه إياها فردّها إلى المدينة».

والحسن المثنى هو جد إدريس بن عبدالله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب، وإليه تنتسب الأسرة الحاكمة في المغرب حالياً.

(١) الصدوق: الأمالي، ص ١٣٩، ح ٢.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * _____

حضر الحسن المثنى واقعة الطف وشارك فيها فُجرح، رُوي عن أبي مخنف أن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام قاتل بين يدي عمّه الحسين وهو فارس، وله يومئذ عشرون سنة، وقيل: تسع عشرة سنة، وأصابته ثمان عشرة جراحة حتى ارتث ووقع في وسط القتلى، فحمله خاله أسماء بن خارقة الفزاري - وفي نص أنّ أسماء قال: والله لا يوصل إلى ابن خولة أبداً. فقال عمر بن سعد: دعوا لأبي حسان ابن أخته - وهكذا أخلي سبيله وردّه إلى الكوفة وداووا جراحه، وبقي عنده ثلاثة أشهر حتى عُوفي وسلم، وانصرف إلى المدينة، فبنى بعد انصرافه بسنة بفاطمة بنت الحسين بن علي بنت عمه، وكان عمه الحسين بن علي زوجة إياها.

في مقتل الخوارزمي وكتب أخرى أنّه روى خطبة عمّه الحسين حين طلب من الجيش الأمويّ في صبيحة عاشوراء أن ينصتوا فأبوا، حتى قال لهم: «ويلكم، ما عليكم أن تنصتوا إليّ فتسمعوا قولي، فإنّي إنّما أدعوكم إلى سبيل الرشاد».

فلما أنصتوا قال: «تباً لكم أيّها الجماعة وترحاً، أفحين استصرختمونا ولهين متحيرين، فأصرخناكم موجفين مستعدّين، سللتم علينا سيفاً كان لنا في أيّمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم..»^(١).

٥ - محمد بن الإمام الحسن المجتبي

لعله محمد الأصغر وأمه أم ولد. حضر المعركة ولم يشارك فيها لأنّه كان صغيراً. وفي (العقد الفريد) للأندلسي قال: «أتى بنا إلى يزيد بن معاوية بعد ما قتل الحسين ونحن اثنا عشر غلاماً، وكان أكبرنا علي بن الحسين وكلّ واحد قد غلّت يده إلى عنقه..»^(٢).

(١) الداودي: عمدة الطالب، ص ٩٩-١٠٠.

(٢) الأندلسي: العقد الفريد، ج ٢، ص ١٣٥.

وفي الكتاب نفسه أنه روى خطبة الإمام الحسين، قال: «لما نزل ابن سعد بالحسين وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد نزل بي ما ترون من الأمر وإن الدنيا قد تغيرت وتكثرت وأدبر معروفها واشمعلت فلم يبقَ منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الويل. ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يُنهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله فإنني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا ذلاً وبرماً...»^(١).

٦ - عقبه بن سمعان

مولى الرباب بنت امرئ القيس الكلبية زوجة الإمام الحسين. عادت إلى المدينة، فخطبها الأشراف، فأبت، وبقيت بعد الحسين سنة لم يظللها سقف بيت حتى بليت وماتت كمدماً، وكانت شاعرة ولها رثاء في الحسين عليه السلام.

في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور: «قال عوف بن خارجة: إنني عند عمر بن الخطاب في خلافته إذ أقبل رجل أصعر يتخطى رقاب الناس حتى قام بين يدي عمر، فحيّاه تحية الخلافة، فقال عمر: ما أنت؟ فقال: امرؤ نصراني، وأنا امرؤ القيس بن عدي الكلبي، فلم يعرفه عمر، فقال له رجل من القوم: هذا صاحب بكر بن وائل الذي أغار عليهم في الجاهلية يوم فلج، فما تريد؟ قال: أريد الإسلام، فعرض عليه، فقبله ثم دعا له برمح، فعقد له على من أسلم من قضاة. قال: فأدبر الشيخ واللواء يهتز على رأسه. قال عوف بن خارجة: ما رأيت رجلاً لم يصل سجدَةً أمر على جماعة من المسلمين قبله. قال: ونهض علي بن أبي طالب ومعه ابنه الحسن والحسين رضي الله عنهما من المجلس حتى أدركه، فأخذ برأسه فقال: أنا علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وصهره، وهذان ابناي من ابنته، وقد رغبتنا في صهرك فأنكحنا، قال: قد أنكحتك يا علي المحياة بنت امرئ

(١) الأندلسي: العقد الفريد، ج ٢، ص ١٣٤.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
القيس، وأنكحتك يا حسن سلمى بنت امرئ القيس، وأنكحتك يا حسين الرباب
بنت امرئ القيس»^(١).

نجا عقبة بن سمعان من كربلاء فأخذ إلى عمر بن سعد فقال له: ما أنت؟ قال
أنا عبد مملوك. فخلّى سبيله.

روى عنه أبو مخنف كما في تاريخ الطبري أنه قال: «صحبت حسيناً فخرجت
معه من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق ولم أفارقه حتى قُتل، وليس من
مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر
إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتها ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون
من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية ولا أن يسيره إلى ثغر من ثغور المسلمين،
ولكنّه قال: «دعوني فلاذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير أمر
الناس».

وروى عنه أبو مخنف أيضاً برواية الطبري أنه قال: «فلما كان في آخر الليل
أمر الحسين بالاستقاء من الماء، ثم أمرنا بالرحيل، ففعلنا، قال: فلمّا ارتحلنا من
قصر بني مقاتل، وسرنا ساعة خفق الحسين برأسه خفقة ثم انتبه وهو يقول: إنّنا
لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، فأقبل
إليه ابنه علي بن الحسين على فرس له فقال: إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله
رب العالمين، يا أبت! جعلت فداك ممّ حمدت الله واسترجعت؟»^(٢) وقد ذكرت
تمام الخبر في بحث سابق فلا نكرّر.

(١) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ٨، ص ٣٥٠.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٢.

٧ - الضحاك بن عبدالله المشرقي

أحد الناجين من المعركة، وروى أحداثاً كثيرة، وكان قد اشترط لنفسه على الإمام الحسين أن يقاتل دونه ما دام قتاله ينفعه، ففي تاريخ الطبري عن أبي مخنف: «عن الضحاك بن عبد الله المشرقي قال: قدمت ومالك بن النضر الأرحبي على الحسين فسلمنا عليه ثم جلسنا إليه فردّ علينا ورحب بنا وسألنا عما جئنا له فقلنا جئنا لنسلم عليك وندعو الله لك بالعافية ونحدّث بك عهداً ونخبرك خبر الناس وإننا نحدّثك أنّهم قد جمعوا على حربك فما رأيك. فقال الحسين عليه السلام: حسبي الله ونعم الوكيل قال فتذمنا وسلمنا عليه ودعونا الله له. قال: فما يمنعكما من نصرتي؟ فقال مالك بن النضر: عليّ دينٌ ولي عيال. فقلت له: إنّ عليّ ديناً وإنّ لي لعيالاً، ولكنك إن جعلتني في حل من الانصراف، إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك ما كان لك نافعاً وعنك دافعاً. قال: قال: فأنت في حل. فأقمت معه^(١).

نقل ردود أصحاب الإمام الحسين حين عرض عليهم ليلة العاشر أن يخلّوه كما رواه الطبري عن أبي مخنف، كقول مسلم بن عوسجة: «أنحن نخلي عنك ولما نعدر الله في أداء حقك؟» وقول سعيد بن عبدالله الحنفي: «والله لو علمت أنّي أقتل ثم أحيأ ثم أأحرق ثم أأذر ويُفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارتكت» وقول زهير بن القين: «والله لو ددت أنّي قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت حتى أُقتل كذا ألف قتلة، وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك»^(٢).

نقل الخبر التالي عن ليلة عاشوراء وصبيحة ذلك اليوم، ففي تاريخ الطبري عن أبي مخنف عن الضحاك بن عبد الله المشرقي قال: «فلما أمسى حسين وأصحابه

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٥.

(٢) م.ن، ج ٣، ص ٣١٥.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * _____

قاموا الليل كله يصلّون ويستغفرون ويدعون ويتضرّعون. قال: فتمرّ بنا خيل لهم تحرسنا وإنّ حسيناً ليقراً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمْ تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّكُمْ تُمْلِي لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٨ - ١٧٩]، فسمعها رجل من تلك الخيل التي كانت تحرسنا فقال: نحن وربّ الكعبة الطيّبون، ميزنا منكم.

قال: فعرفته، فقلت لبرير بن حضير: تدرى من هذا؟ قال: لا. قلت: هذا أبو حرب السبيعي عبد الله بن شهر وكان مضحاكاً بطّالاً وكان شريفاً شجاعاً فاتكاً، وكان سعيد بن قيس ربما حبسه في جناية.

فقال له برير بن حضير: يا فاسق أنت يجعلك الله في الطيبين؟ فقال له: من أنت؟ قال أنا برير بن حضير. قال: إنّنا لله، عزّ علي، هلكت والله، هلكت والله يا برير.

قال: يا أبا حرب، هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام؟ فوالله إنّنا لنحن الطيبون ولكنكم لأنتم الخبيثون. قال: وأنا على ذلك من الشاهدين. قلت: ويحك أفلا ينفعك معرفتك؟ قال: جعلت فداك فمن ينادم يزيد بن عذرة العنزي من عنز بن وائل؟ قال: ها هو ذا معي. قال: قبح الله رأيك على كلّ حال. أنت سفيه. قال: ثم انصرف عنا.

وكان الذي يحرسنا بالليل في الخيل عذرة بن قيس الأحمسي، وكان على الخيل، قال فلما صلّى عمر بن سعد الغداة يوم السبت، وقد بلغنا أيضاً أنّه كان يوم الجمعة، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء خرج فيمن معه من الناس قال وعباً الحسين أصحابه وصلّى بهم صلاة الغداة وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون

ليالي عاشرآء

رجلاً فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه وحبیب بن مظاهر في ميسرة أصحابه وأعطى رايته العباس بن علي أخاه وجعلوا البيوت في ظهورهم وأمر بحطب وقصب كان من وراء البيوت تُحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم قال وكان الحسين عليه السلام أتى بقصب وحطب إلى مكان من ورائهم منخفض كأنه ساقية فحفروه في ساعة من الليل فجعلوه كالخندق ثم ألقوا فيه ذلك الحطب والقصب وقالوا إذا عدوا علينا فقاتلونا ألقينا فيه النار كيلا نؤتى من ورائنا وقاتلونا القوم من وجه واحد ففعلوا وكان لهم نافعاً.

نقل بعض خطب الإمام الحسين، ومنها كما نقله الطبري عن أبي مخنف: «أما بعد فانسبوني فانظروا من أنا، ثم راجعوا أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟»^(١) وقد نقلت الخطبة في بحث سابق فلا نكرّر.

نقل كيفية تركه لساحة القتال كما في تاريخ الطبري: «لما رأيت أصحاب الحسين عليه السلام قد أصيبوا، وقد خلص إليه وإلى أهل بيته، ولم يبق معه غير سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي وبشير بن عمرو الحضرمي، قلت له: يا ابن رسول الله، قد علمت ما كان بيني وبينك، قلت لك: أقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أرَ فأنا في حلٍّ من الانصراف، فقلت لي: نعم. قال: فقال: صدقت، وكيف لك بالنجاء؟! إن قدرت على ذلك فأنت في حلٍّ.

قال: فأقبلت إلى فرسي وقد كنت حيث رأيت خيل أصحابنا تُعقر، أقبلت بها حتى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا بين البيوت، وأقبلت أقاتل معهم رجلاً، فقتلت يومئذ بين يدي الحسين عليه السلام رجلين، وقطعت يد آخر، وقال لي الحسين عليه السلام يومئذ مراراً: لا تشلل، لا يقطع الله يدك، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيك ﷺ!

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣١٧-٣١٩.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

فلما أذن لي استخرجت الفرس من الفسطاط، ثم استويت على متنها، ثم ضربتها حتى إذا قامت على السناك رميت بها عرض القوم، فأفرجوا لي، واتبعتني منهم خمسة عشر رجلاً حتى انتهيت إلى شفية، قرية قريبة من شاطئ الفرات، فلما لحقوني عطف عليهم، فعرفني كثير بن عبد الله الشعبي وأيوب بن مشرح الخيواني وقيس بن عبد الله الصائدي، فقالوا: هذا الضحاك بن عبد الله المشرقي، هذا ابن عمّنا، نشدكم الله لما كففتم عنه! فقال ثلاثة نفر من بني تميم كانوا معهم: بلى والله لنجيبن إخواننا وأهل دعوتنا إلى ما أحبّوا من الكفّ عن صاحبهم. قال: فلما تابع التميميون أصحابي كفّ الآخرون، قال: فنجانني الله»^(١).

أقول: الضحاك المشرقي شارك وفق ما شارط به الإمام الحسين عليه السلام، إلا أنّ هناك من طلب الإمام الحسين نصرته فتهرّب من ذلك بحجج واهية، فخر نصرته سيّد الشهداء وخر الشهادة بين يديه وخر الخلود في التاريخ بالذكر الحسن، إلا أنّ الندم كان نصيبه، ومنهم عبيد الله بن الحر الجعفي الذي يُعدّ من شخصيات الكوفة، وقد التقاه الإمام في منطقة قصر مقاتل، وفي كتاب الفتوح لابن أعمش الكوفي أنّه عرض أن يُعطي الإمام فرساً مسرّجاً وسيفاً بتّاراً، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «يا ابن الحرّ، ما جئناك لفرسك وسيفك، وإنما أتيناك لنسألك النصره، فإن كنت بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في شيء من مالك، ولم أكن بالذي اتّخذ المضلين عضداً؛ لأنّي قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: من سمع داعية أهل بيتي ولم ينصرهم على حقّهم إلا أكّبه الله على وجهه في النار»^(٢).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٢) ابن أعمش: الفتوح، ج ٥، ص ٧٤.

ولكنه بعد استشهاد الحسين ندم أشدّ الندم، يروي الطبري في تاريخه: «حدثني عبد الرحمن بن جندب الأزدي أنّ عبيد الله بن زياد بعد قتل الحسين تفقّد أشرف أهل الكوفة فلم يرَ عبيد الله بن الحر ثم جاءه بعد أيام حتى دخل عليه فقال: أين كنت يا ابن الحرّ؟ قال: كنت مريضاً. قال: مريض القلب أو مريض البدن؟ قال: أمّا قلبي فلم يمرض وأما بدني فقد منّ الله عليّ بالعافية. فقال له ابن زياد: كذبت ولكنك كنت مع عدوّنا. قال: لو كنت مع عدوّك لرؤي مكاني وما كان مثل مكاني يخفى. قال: وغفل عنه ابن زياد غفلة فخرج ابن الحرّ فقعد على فرسه فقال ابن زياد: أين ابن الحرّ؟ قالوا: خرج الساعة. قال: عليّ به. فأحضرت الشُّرط فقالوا له: أجب الأمير. فدفع فرسه ثم قال: أبلغوه أنّي لا آتية والله طائعاً أبداً. ثم خرج حتى أتى منزل أحمر بن زياد الطائي، فاجتمع إليه في منزله أصحابه ثم خرج حتى أتى كربلاء فنظر إلى مصارع القوم فاستغفر لهم هو وأصحابه ثم مضى حتى نزل المدائن وقال في ذلك:

يقول أميرٌ غادرٌ حقّ غادرٍ	ألا كنت قاتلتَ الشهيدَ ابن فاطمة
فيا ندمي أن لا أكون نصرته	ألا كلُّ نفسٍ لا تسدّد نادمه
وإنّي لأنّي لم أكن من حُماته	لذو حسرة ما إن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تآزروا	على نصره سقيا من الغيث دائمه
وقفت على أجداتهم ومجالهم	فكاد الحشى ينفض والعين ساجمه
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى	سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمه
تأسّوا على نصر ابن بنت نبيهم	بأسيا فهم آساد غيل ضراغمه
فإن يُقتلوا فكلّ نفسٍ تقيّة	على الأرض قد أضحّت لذلك واجمه
وما إن رأى الراؤون أفضل منهم	لدى الموت سادات وزهرا قماقمه

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م



أتقتلهم ظلماً وترجو وداذنا فدع خطّة ليست لنا بملائمه
لعمري لقد راغتمونا بقتلهم فكم ناقمٌ منّا عليكم وناقمه
أهّمُّ مراراً أن أسيرَ بجَحْفَلٍ إلى فئّة زاغت عن الحقّ ظالمه
فكفوا وإلا ذدتكم في كتائبٍ أشدُّ عليكم من زحوف الديالمه^(١)

٨ - غلام لعبد الرحمن بن عبد ربه (رب) الأنصاري

مولاه صحابي، وجاء في كتاب الإصابة لابن حجر عن الأصبع بن نباتة قال: «لما نشد علي الناس في الرحبة من سمع النبي ﷺ يقول يوم غدیر خم ما قال إلا قام، ولا يقوم إلا من سمع. فقام بضعة عشر رجلاً منهم أبو أيوب وأبو زينب وعبد الرحمن بن عبد رب فقالوا نشهد أنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إن الله وليي وأنا ولي المؤمنين. فمن كنت مولاه فعلي مولاه»^(٢).

يروى أبو مخنف عن هذا الغلام خبراً عن ليلة وصبيحة عاشوراء: «كنت مع مولاي فلما حضر الناس وأقبلوا إلى الحسين أمر الحسين بفسطاط فضرب، ثم أمر بمسك فميث في جفنة عظيمة أو صُحفة، قال: ثم دخل الحسين ذلك الفسطاط فتطلّى بالنورة، قال: ومولاي عبد الرحمن بن عبد ربه وبرير بن حضير الهمداني على باب الفسطاط تحتك مناكبهما، فزدحما أيهما يطلّى على أثره.

فجعل برير يهازل عبد الرحمن، فقال له عبد الرحمن: دعنا فوالله ما هذه بساعة باطل. فقال له برير: والله لقد علم قومي أنّي ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلاً، ولكن والله إنني لمستبشر بما نحن لاقون، والله إن بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت أنّهم قد مالوا علينا بأسيافهم.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٢) ابن حجر: الإصابة في معرفة الصحابة، ج، ص ٤٠٨.

ليالي عاشوراء _____ *

قال: فلما فرغ الحسين دخلنا فأطيننا. قال: ثم إنَّ الحسين ركب دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه. قال: فاقتتل أصحابه بين يديه قتالاً شديداً، فلما رأيت القوم قد صرعوا أفلتُّ وتركتهُم»^(١).



(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٨.



توثيق المقتل الجزء الثاني



• من لم يشترك في واقعة الطف

١ - دلهم - أو ديلم - بنت عمرو

زوجة زهير بن القين، روت كيفية انتقال زهير بن القين وضّم رحله إلى الحسين. قال أبو مخنف: «فحدثني السديّ عن رجل من بنى فزارة قال: لما كان زمن الحجاج بن يوسف كُتِّبَ في دار الحارث بن أبي ربيعة التي في التمارين التي أقطعت بعد زهير بن القين من بني عمرو بن يشكر من بجيلة وكان أهل الشام لا يدخلونها فكُتِّبَ محبتين فيها، قال: فقلت للفرزاري حدثني عنكم حين أقبلتم مع الحسين بن علي. قال: كُتِّبَ مع زهير بن القين البجلي حين أقبلنا من مكة نساير الحسين، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدّم زهير، حتى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بُدًّا من أن ننازله فيه، فنزل الحسين من جانب ونزلنا في جانب، فبينما نحن جلوس نتغذى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين حتى سلّم ثم دخل فقال: يا زهير بن القين إنّ أبا عبدالله الحسين بن عليّ بعثني إليك لتأتيه. قال: فطرح كلّ إنسان ما في يده حتى كأنّ على رؤوسنا الطير».

قال أبو مخنف: «فحدثني دلهم بنت عمرو امرأة زهير بن القين قالت: فقلت له: أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه؟ سبحان الله! لو أتيته فسمعت من

ليالي عَشُوراء _____ *

كلامه ثم انصرفت. قالت: فأتاه زهير بن القين فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه، قالت: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فُقِّدَ وحُمِلَ إلى الحسين^(١).

٢ - عبدالله بن حازم البكري

من الثائرين في الكوفة في وجه الحكم الأموي، وثبت على موقفه، وأعان مسلم بن عقيل في بعض مهامه، ثم شارك مع التوابين في ثورتهم واستشهد.

روى عنه أبو مخنف، وكان ممّا قاله كما في الطبري: «أنا والله رسول ابن عقيل إلى القصر لأنظر إلى ما صار أمر هانئ. قال: فلما ضرب وحُجِس، ركبت فرسي وكنت أول أهل الدار دخل على مسلم بن عقيل بالخبر، وإذا نسوةٌ لمراد - قبيلة هانئ - مجتمعات ينادين ياعثرته يا ثكلاه. فدخلت على مسلم بن عقيل بالخبر فأمرني أن أنادي في أصحابه، وقد ملأ منهم الدور حوله، وقد بايعه ثمانية عشر ألفاً. وفي الدور أربعة آلاف رجل. فقال لي: نادِ «يا منصور أمت». فناديت «يا منصور أمت»، وتنادي أهل الكوفة، فاجتمعوا إليه، فعقد مسلم لعبيد الله بن عمرو بن عزيز الكندي على رُبع كندة وربيعة وقال: سرّ أمامي في الخيل، ثم عقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على ربع مذحج وأسد، وقال: انزل في الرجال فأنت عليهم، وعقد لأبي ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان، وعقد لعباس بن جعدة الجدلي على ربع المدينة، ثم أقبل نحو القصر فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرّز في القصر وغلق الأبواب^(٢).

وفي مقاتل الطالبين: «وأقبل مسلم حتى أحاط بالقصر، فوالله ما لبثنا إلا قليلاً حتى امتلأ المسجد من الناس والسوقة، ما زالوا يتوثبون حتى المساء فضاق بعبيدالله أمره ودعا بعبيد الله بن كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج فيمن

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٣٩٦.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٢٨٦.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
أطاعه من مذحج فيُخذل الناس عن ابن عقيل ويخوّفهم الحرب وعقوبة السلطان، فأقبل أهل الكوفة يفترون على ابن زياد وأبيه. قال أبو مخنف: فحدّثني سليمان بن أبي راشد عن عبد الله بن حازم البكري قال: أشرف علينا الأشراف، وكان أوّل من تكلم كثير بن شهاب. فقال: أيّها الناس الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا، انتشروا ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل، فهذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهداً لئن أقمتهم على حربيه ولم تنصرفوا من عشيتكم هذه أن يحرم ذريّتكم العطاء ويفرّق مقاتليكم في مغازي الشام على غير طمع ويأخذ البريء بالسقيم والشاهد بالغائب حتى لا يبقى فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جنت. وتكلم الأشراف بنحو من كلام كثير، فلما سمع الناس مقاتلهم تفرقوا»^(١).

أما عبيد الله والعباس اعتقلا من قبيل ابن زياد وقتلا، وابن عوسجة والصائدي استشهدا بكر بلاء، والبكري استشهد في ثورة التوابين.

٣- الفرزدق همام بن غالب التميمي الحنظلي

سُمّي الفرزدق لضخامة وجهه، ومعناها الرغيف وواحدته فرزْدَقَة وأصل الكلمة بالفارسية (برازْدَه) وفي المعجم الفارسي أنّها بمعنى العجينة الكروية المعدة للخبز.

ولد في كاظمة - شمال شرق الكويت - وكان جدّه صعصعة معروفاً بمحبي المؤوودات، وتحوّل قبره إلى ملاذ للاستجارة، فكان أبو الفرزدق يجير من يستجير بذاك القبر. توفي الفرزدق عام ١١٠ هـ.

كتب الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد أنّه في اليوم الثامن من ذي الحجّة سنة

(١) الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ج ١، ص ١٠٣.

ليالي عَاشُورَاءِ _____ ❁

ستين للهجرة: «خرج عليه السلام مبادراً بأهله وولده ومن انضم إليه من شيعته.. فرؤي عن الفرزدق الشاعر أنه قال: حججت بأمي في سنة ستين، فيينا أنا أسوق بعيرها حين دخلت الحرم إذ لقيت الحسين بن علي عليه السلام خارجاً من مكة معه أسيافه وتراسه...»^(١) وقد نقلت الخبر في بحث سابق، فلا نكرّر.

٤ - الصحابي أنس بن مالك

في سنن الترمذي عن حفصة بنت سيرين قالت: حدّثني أنس بن مالك قال: «كنت عند ابن زياد فجيء برأس الحسين فجعل يقول بقضيب في أنفه. يطلق العرب على الفعل كلمة قول والمعنى هنا أنه كان يحرك القضيب ويعبث به ويقول: ما رأيت مثل هذا حسناً لم يذكر. قال: قلت: أمّا إنّه كان من أشبههم برسول الله ﷺ»^(٢).

٥ - عبدالله بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديان

روى عنهما الطبري خبر خروج الحسين عليه السلام من مكة، قالوا: «خرجنا حاجين من الكوفة حتى قدمنا مكة فدخلنا يوم التروية فإذا نحن بالحسين وعبد الله بن الزبير قائمين عند ارتفاع الضحى فيما بين الحجر والباب، قالوا: فتقرّبنا منهما فسمعنا ابن الزبير وهو يقول للحسين: إن شئت أن تقيم أقمّت فوليت هذا الأمر فأزرنك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك. فقال له الحسين: إن أبي حدّثني أنّ بها كبشاً يستحل حرمتها، فما أحبّ أن أكون أنا ذلك الكبش.

فقال له ابن الزبير: فأقم إن شئت وتولينني أنا الأمر فتطاع ولا تُعصى. فقال: وما أريد هذا أيضاً. قالوا: ثم إنهما أخفيا كلامهما دوننا فما زالا يتناجيان حتى سمعنا دعاء الناس رائحين متوجّهين إلى منى عند الظهر.

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٦٧.

(٢) الترمذي: السنن، ح ٣٧٧٨.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * _____

قالا: فطاف الحسين بالبيت وبين الصفا والمروة وقصّ من شعره وحلّ من عمرته ثم توجه نحو الكوفة، وتوجّهنا نحو الناس إلى منى»^(١).

ورويًا - كما في تاريخ الطبري - التقاء الحسين عليه السلام بالحرّ بن يزيد، قال: «أقبل الحسين عليه السلام حتى نزل شراف فلما كان في السحر أمر فتياه فاستقوا من الماء فأكثروا ثم ساروا منها فرسموا صدر يومهم حتى انتصف النهار ثم إن رجلاً قال: الله أكبر. فقال الحسين: الله أكبر، ما كبرت؟ قال: رأيت النخل»^(٢). إلخ الخبر المنقول في بحث سابق فلا نكر.

وفي (البداية والنهاية) لابن كثير نقلهما خبر مقتل للإمام الحسين عليه السلام: «لما قضينا حجننا لم يكن لنا همّة إلا اللحاق بالحسين، فأدر كناه وقد مرّ برجل من بني أسد، فهتمّ الحسين أن يكلمه ويسأله ثم ترك، فجنّنا ذلك الرجل فسألناه عن أخبار الناس فقال: والله لم أخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة ورأيتهما يُجرّان بأرجلهما في السوق. قالوا فلحقنا بالحسين فأخبرناه...»^(٣) إلخ الخبر الذي نقلناه في بحث سابق، فلا نكر.

٦ - النوار بنت مالك

زوجة خولي بن يزيد الأصبحي. روت قدوم زوجها برأس الحسين عليه السلام كما في تاريخ الطبري: «عن النوار بنت مالك قالت: أقبل خولي برأس الحسين فوضعه تحت إجانة في الدار.. إلخ»^(٤). وقد نقلناه في بحث سابق، فلا نكر.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ٢٩٥.

(٢) م. ن، ج ٣، ٣٠٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٣٧.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٥، ص ٤٥٥.

٧- الغاز بن ربيعة الجرشي من حمير

روى عنه الطبري عن أبي مخنف، قال: «والله إننا لعند يزيد بن معاوية بدمشق إذ أقبل زحر بن قيس حتى دخل على يزيد بن معاوية فقال له يزيد: ويلك ما وراءك، وما عندك؟ فقال: أبشريا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره..»^(١).

٨- يحيى بن الحكم

أخو مروان بن الحكم، روى عنه الطبري في تاريخه أنه قال لما أدخل رأس الحسين على يزيد:

لهامٌ بجنب الطفّ أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سمية أمسى نسلها عدد الحصى وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

قال فضرب يزيد بن معاوية في صدر يحيى بن الحكم وقال: اسكت. قال: ولما جلس يزيد بن معاوية دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله، ثم دعا بعلي بن الحسين وصبيان الحسين ونساءه فأدخلوا عليه والناس ينظرون فقال يزيد لعلي: يا علي، أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت. قال: فقال علي: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢].

فقال يزيد لابنه خالد: اردد عليه. قال: فما درى خالد ما يرد عليه فقال له يزيد: قل ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]^(٢).



(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣٨.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٣٣٩.



توثيق المقتل الجزء الثالث



• من المعسكر الأموي

١ - حميد بن مسلم الأزدي

سيرة عمر بن سعد وسرحه إلى أهله ليبشرهم بعافيته، وأشركه مع خولي بن يزيد لحمل رأس الحسين إلى ابن زياد.

انضم لحركة التوابين بعد معركة كربلاء، ولم يؤثر عنه موقف قتالي مهم، وقد نجا من المعركة التي استشهد فيها أكثر التوابين حيث هرب في الظلام مع من هرب منهم.

بقي يتردد مع إبراهيم بن مالك الأشتر على المختار، ولما بدأ المختار الثقفي حملته في قتل من كان في معسكر الأمويين في كربلاء هرب حميد، وبقي حياً إلى أيام حكم عبد الملك بن مروان، وله قصيدة في رثاء قائد عسكري من قادة الحجاج الثقفي سنة ٧٥ هـ تقريباً.

روى عنه أبو مخنف عدّة روايات في خصوص واقعة كربلاء. منها وصول أمر ابن زياد لعمر بن سعد بالحوول بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ودعاء الإمام على الأزدي الذي تحدّى الإمام أن يشرب من الماء حيث قال: «يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء؟ والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً. فقال

حسين: اللهم اقتله عطشاً ولا تغفر له أبداً. قال حميد بن مسلم: والله لُعدته بعد ذلك في مرضه، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيتَه يشرب حتى بغر - أكثر من الماء دون ارتواء - ثم يقيء ثم يعود فيشرب حتى يبغر، فما يروى. فما زال ذلك دأبه حتى لفظ غصّته، يعنى نفسه. قال: ولما اشتدّ على الحسين وأصحابه العطش دعا العباس بن علي بن أبي طالب أخاه فبعثه في ثلاثين فارساً وعشرين رجلاً وبعث معهم بعشرين قربة فجاءوا حتى دنوا من الماء ليلاً، واستقدم أمامهم باللواء نافع بن هلال الجملي، فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي: مَنْ الرجل؟ فجيء ما جاء بك. قال: جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلّأتمونا عنه. قال: فاشرب هنيئاً. قال: لا والله لا أشرب منه قطرة وحسين عطشان ومن ترى من أصحابه. فطلعوا عليه. فقال: لا سبيل إلى سقي هؤلاء. إنّما وضعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء. فلمّا دنا منه أصحابه قال لرجاله املاؤا قربكم، فشدّ الرجال فملاؤا قربهم وثار إليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه، فحمل عليهم العباس بن علي ونافع بن هلال فكفّوهم ثم انصرفوا إلى رحالهم.. وجاء أصحاب حسين بالقرب فأدخلوها عليه»^(١).

روى مقتل علي الأكبر، ففي الطبري عن حميد بن مسلم قال: «سماغ أذني يومئذ من الحسين يقول: قتل الله قوماً قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول. على الدنيا بعدك العفاء. قال: وكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس الطالعة تنادي: يا أخياه، ويا ابن أخاه. قال: فسألت عليها فقيل: هذه زينب ابنة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ. فجاءت حتى أكبت عليه، فجاءها الحسين فأخذ بيدها فردّها إلى الفسطاط. وأقبل الحسين إلى ابنه وأقبل فتیانه إليه فقال: احملاؤا أخاكم، فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه»^(٢).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣١١-٣١٢.

(٢) م.ن، ج٣، ص٣٣١.

وروى استشهاد فتية من بني هاشم: «ثم إن عمرو بن صبيح الصدائي رمى عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفه على جبهته فأخذ لا يستطيع أن يحرك كفيه، ثم انتحى له بسهم آخر ففلق قلبه، فاعتورهم الناس من كل جانب، فحمل عبد الله بن قطبة الطائي ثم النبھاني على عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقتله، وحمل عامر بن نهشل التيمي على محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقتله. قال: وشدّ عثمان بن خالد بن أسير الجهني وبشر بن سوط الهمداني ثم القابضي على عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب فقتلاه، ورمى عبد الله بن عزرة الخثعمي جعفر بن عقيل بن أبي طالب فقتله»^(١).

وروى مقتل القاسم بن الحسن، ففي تاريخ الطبري عنه قال: «خرج إلينا غلام كأن وجهه شقة قمر في يده السيف عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شمع أحدهما ما أنسى أنها اليسرى..»^(٢) ونقل خبر استشهاد الذي نقلته في بحث سابق، ثم قال: «فسألت عن الغلام فقيلاً هو القاسم ابن الحسن بن علي بن أبي طالب»^(٣).

وروى جانباً من استشهاد الإمام الحسين عليه السلام: «قال: ومكث الحسين طويلاً من النهار كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه وكره أن يتولّى قتله وعظيم إثمه عليه، قال: وإن رجلاً من كندة يقال له مالك بن النسير من بني بدياء أتاه فضربه على رأسه بالسيف، وعليه برنس له، فقطع البرنس وأصاب السيف رأسه فأدمى رأسه، فامتلاً البرنس دماً، فقال له الحسين: لا أكلت بها ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣١.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٣٣١.

(٣) م. ن، ج ٣، ص ٣٣١.

ليالي عَاشُورَاءُ ❁

قال: فألقى ذلك البرنس ثم دعا بقلنسوة فلبسها واعتم وقد أعيا وبلد. وجاء الكندي حتى أخذ البرنس وكان من خز فلما قدم به بعد ذلك على امرأته أم عبد الله ابنة الحر أخت حسين بن الحر البدي أقبل يغسل البرنس من الدم فقالت له امرأته أَسْلُبُ ابنِ بنتِ رسولِ الله ﷺ تدخل بيتي؟ أخرجني عني.

فذكر أصحابه أنه لم يزل فقيراً بشراً حتى مات. قال: ولما قعد الحسين أتني بصبي له فأجلسه في حجره زعموا أنه عبد الله بن الحسين^(١).

وروى دعاء الإمام عليهم بعد إصابته: «قال: سمعت الحسين يومئذ وهو يقول: اللهم امسك عنهم قطر السماء وامنعمهم بركات الأرض اللهم فإن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقاً واجعلهم طرائق قديداً ولا تُرض عنهم الولاية أبداً فإنهم دعونا لينصرونا فعدوا علينا فقتلونا. قال: وضارب الرجال حتى انكشفوا عنه.

قال: ولما بقى الحسين في ثلاثة رهط أو أربعة دعا بسر اويل محققة - محكمة النسيج - يلمع فيها البصر، يمانى محقق ففرزه ونكته لكيلا يُسلبه. فقال له بعض أصحابه: لو لبست تحته تُبَّاناً - سروال قصير مقدار شبر يستر العورة - قال: ذلك ثوب مذلة، ولا ينبغي لي أن ألبسه. قال: فلما قتل أقبل بحر بن كعب فسلبه إياه فتركه مجرداً^(٢).

وروى تسيير رأس الإمام إلى الكوفة مع خولي بن يزيد ومعه، قال: «دعاني عمر بن سعد فسرحني إلى أهله لأبشرهم بفتح الله عليه وبعافيته، فأقبلت حتى أتيت أهله فأعلمتهم ذلك. ثم أقبلت حتى أدخل فأجد ابن زياد قد جلس للناس وأجد الوفد قد قدموا عليه فأدخلهم وأذن للناس فدخلت فيمن دخل فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه وإذا هو ينكت بقضيب بين ثناييه ساعة فلما رآه زيد بن

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٣٣٣.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
 أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب قال له: اعلُ بهذا القضيب عن هاتين الشيتين،
 فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما.
 ثم انفضخ الشيخ يبكي فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك، فوالله لولا أنّك شيخ
 قد خرفت وذهب عقلك لضربتُ عنقك.

قال: فنهض فخرج فلما خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد بن
 أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله. قال: فقلت: ما قال؟ قالوا: مرّ بنا وهو يقول:
 ملكٌ عبدٌ عبداً فاتّخذهم تلدأً. أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم. قتلتم ابن
 فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم فرضيتم بالذل،
 فبُعداً لمن رضي بالذل».

وروى دخول العقيلة على ابن زياد قال: «فلما دخل برأس حسين وصبيانه
 وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها
 وتنكرت وحف بها إمؤها فلما دخلت جلست فقال عبيد الله ابن زياد: من هذه
 الجالسة؟ فلم تكلمه.

فقال ذلك ثلاثاً، كلّ ذلك لا تكلمه، فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة.
 قال: فقال لها عبيد الله: الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأكذب أحدوثكم.
 فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمّد ﷺ وطهرنا تطهيراً، لا كما تقول أنت.
 إنما يُفتضح الفاسق ويكذب الفاجر..» إلخ الخبر^(١).

٢ - كثير بن عبد الله الشعبي

أحد مقاتلي الجيش الأموي. بعثه عمر بن سعد أول وصوله إلى كربلاء ليسأل
 الحسين عليه السلام عن غرض قدومه إلى العراق. فلما أقبل قال أبو ثمامة الصائدي

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣٦.

للإمام الحسين: «أصلحك الله أبا عبدالله، قد جاءك شرُّ أهل الأرض وأجرأهم على دم وأفتكهم»^(١). وقد اشترك لاحقاً مع مهاجر بن أوس في قتل زهير بن القين.

مما رواه في شأن أحداث كربلاء برواية أبي مخنف أنه قال: «لما زحفنا قبل الحسين خرج إلينا زهير بن القين على فرس له ذنوب شاك في السلاح. فقال: يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار، إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة وعلى دين واحد وملة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة.

إنّ الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيّه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيدالله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمرٍ سلطانهما كلّهُ. ليسمّان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثّلان بكم ويرقعانكم على جذوع النخل ويقتلان أمثالكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانئ بن عروة وأشباهه.

قال: فسبّوه وأثنوا على عبيدالله بن زياد ودعوا له وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيدالله سلماً.

فقال لهم: عباد الله وإنّ ولد فاطمة رضوان الله عليها أحقّ بالودّ والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأعيذكُم بالله أن تقتلوهم. فخلّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمّه يزيد بن معاوية فلعمري إنّ يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين.

قال: فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال: اسكت أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك. فقال له زهير: يابن البوال على عقبه ما أياك أخاطب، إنّما

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١١.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م *
أنت بهيمة، والله ما أظنك تُحكّم من كتاب الله آيتين. فأبشر بالخزي يوم القيامة
والعذاب الأليم.

فقال له شمر: إنّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة، قال: أقبال موت تخوّفني؟
فوالله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم. قال: ثم أقبل على الناس رافعاً
صوته فقال: عباد الله لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الخافي وأشباهه، فوالله
لا تنال شفاعة محمّد ﷺ قوماً أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم
وذبح عن حريمهم. فناده رجل فقال له: إنّ أبا عبد الله يقول لك أقبل فلعمري لئن
كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت
لو نفع النصح والإبلاغ»^(١).

لعلّ قوله: «فلعمري إنّ يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين» ناشئ
من كونه عثمانياً فيما سبق.

٣ - مسروق بن وائل الحضرمي

من مقاتلي الجيش الأموي ولكنّه انسحب في لحظة حاسمة. ففي تاريخ
الطبري أنّه قال: «كنت في أوائل الخيل ممّن سار إلى الحسين فقلت أكون في
أوائلها لعلّي أصيب رأس الحسين فأصيب به منزلة عند عبيد الله بن زياد قال فلمّا
انتهينا إلى حسين تقدّم رجل من القوم يقال له ابن حوزة فقال: أفيكم حسين؟

قال: فسكت حسين. فقالها ثانية فسكت حتى إذا كانت الثالثة قال: قولوا له
نعم هذا حسين فما حاجتك. قال: يا حسين أبشر بالنار. قال: كذبت. بل أقدم
على ربّ غفور وشفيع مطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزة.

قال: فرفع الحسين يديه حتى رأينا بياض إبطيه من فوق الثياب ثم قال: اللهم

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٩-٣٢٠.

ليالي عَشُوراء

حُزُّهُ إِلَى النَّارِ. قَالَ فغضب ابن حوزة فذهب ليقحم إليه الفرس وبينه وبينه نهر، قال: فعلقت قدمه بالركاب وجالت به الفرس فسقط عنها. قال: فانقطعت قدمه وساقه وفخذه وبقي جانبه الآخر متعلقاً بالركاب. قال: فرجع مسروق وترك الخيل من ورائه. قال: فسألته فقال: لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئاً لا أقاتلهم أبداً. قال: ونشب القتال»^(١).

٤ - عفيف بن زهير بن أبي الأخنس

شهد مقتل الإمام الحسين، وروى مقتل برير بن حضير. فعن أبي مخنف أنه قال: «وخرج يزيد بن معقل من بني عميرة بن ربيعة وهو حليف لبني سليمة من عبد القيس فقال: يا برير بن حضير كيف ترى الله صنع بك؟ قال: صنع الله بي خيراً وصنع الله بك شراً. قال: كذبت وقبل اليوم ما كنت كذاباً. هل تذكر وأنا أماشيك في بني لوزان وأنت تقول إن عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفاً وإن معاوية بن أبي سفيان ضالٌّ مضلٌّ وإن إمام الهدى والحقّ عليّ بن أبي طالب؟ فقال له برير: أشهد أنّ هذا رأيي وقولي. فقال له يزيد بن معقل: فإني أشهد أنّك من الضالين. فقال له برير بن حضير: هل لك فلأباهلك ولدنّع الله أن يلعن الكاذب وأن يقتل المبطل ثم اخرج فلأبارزك.

قال: فخرجا فرفعا أيديهما إلى الله يدعوانه أن يلعن الكاذب وأن يقتل المحقّ المبطل ثم برز كل واحد منهما لصاحبه فاختلفا ضربتين فضرب يزيد بن معقل برير بن حضير ضربة خفيفة لم تضربه شيئاً وضربه برير بن حضير ضربة قدت المغفر وبلغت الدماغ فخرّ كأنما هوى من حالق وإن سيف ابن حضير لثابت في رأسه فكأني أنظر إليه ينضنضه من رأسه.

وحمل عليه رضيُّ بن منقذ العبدي فاعتق بريراً فاعتركا ساعة ثم إن بريراً قعد

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٢٢.

على صدره فقال رضي: أين أهل المصارع والدفاع؟

قال: فذهب كعب بن جابر بن عمرو الأزدي ليحمل عليه فقلت: إن هذا برير بن خضير القارئ الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد فحمل عليه بالرمح حتى وضعه في ظهره فلمّا وجد مسّ الرمح بك عليه فعض بوجهه وقطع طرف أنفه، فطعنه كعب بن جابر حتى ألقاه عنه وقد غيب السنّان في ظهره. ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله. قال عفيف: كأنّي أنظر إلى العبد الصريع قام ينفض التراب عن قبائه ويقول أنعمت علي يا أبا الأزدي نعمت لن أنساها أبداً. قال: فقلت: رأيت هذا؟ قال: نعم رأي عيني وسمع أذني»^(١).

٥ - ثابت بن هبيرة

روى مقتل عمرو بن قرظة بن كعب. روى عنه أبو مخنف قوله: «وكان مع الحسين وكان عليّ أخوه مع عمر بن سعد فنأدى علي بن قرظة: يا حسين يا كذاب ابن الكذاب أضللت أخي وغررتي حتى قتلتني؟ قال: إن الله لم يضل أخاك ولكنّه هدى أخاك وأضلك. قال: قتلتني الله إن لم أقتلك أو أموت دونك. فحمل عليه فاعترضه نافع بن هلال المرادي فطعنه فصرعه فحمله أصحابه فاستنقذوه فدووي بعد فبراً»^(٢).

٦ - عبد الله بن عمار بن عبد يغوث البارقي

روى عنه أبو مخنف: «واعتب علي عبد الله بن عمار بعد ذلك مشهده قتل الحسين فقال عبد الله بن عمار: إن لي عند بني هاشم كيداً. قلنا له: وما يدك عندهم؟ قال: حملت علي حسين بالرمح فانتهيت إليه فوالله لو شئت لطحنته ثم انصرفت عنه غير بعيد وقلت: ما أصنع بأن أتولى قتله؟ يقتله غيري!

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٣٢٤.

قال: فشد عليه رجالة من عن يمينه وشماله فحمل علي من عن يمينه حتى ابدعروا، وعلى من عن شماله حتى ابدعروا، وعليه قميص له من خز وهو معتم.
قال: فوالله ما رأيت مكسوراً قط قد قُتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناحاً منه ولا أجراً مقدماً. والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتتكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شدَّ فيها الذئب.

قال: فوالله إنَّه لكذلك إذ خرجت زينب ابنة فاطمة أخته وهي تقول لیت السماء تطابقت على الأرض. وقد دنا عمر بن سعد من حسين فقالت: يا عمر بن سعد، أيتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟ قال: فكأنني أنظر إلى دموع عمر وهي تسيل على خدي ولحيته. قال: وصرف بوجهه عنها^(١).

٧ - هاني بن ثابت الحضرمي

قتل عبد الله بن علي بن أبي طالب وجعفر بن علي بن أبي طالب. روى عنه هشام الكلبي: «حدثني أبو الهذيل رجل من السكون عن هاني بن ثابت الحضرمي قال: رأيت جالساً في مجلس الحضرميين في زمان خالد بن عبد الله وهو شيخ كبير قال فسمعته وهو يقول: كنت ممن شهد قتل الحسين.

قال: فوالله إنني لواقف عاشر عشرة ليس منّا رجل إلا على فرس وقد جالت الخيل وتصعصعت إذ خرج غلام من آل الحسين وهو ممسك بعود من تلك الأبنية عليه إزار وقميص وهو مذعور يتلفت يميناً وشمالاً فكأنني أنظر إلى درتين في أذنيه تذبذبان كلما التفت، إذ أقبل رجل يركض حتى إذا دنا منه مال عن فرسه ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف. قال هشام: قال السكوني: هاني بن ثابت هو صاحب الغلام فلما عتب عليه كنى عن نفسه^(٢).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣٤.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٣٣٢.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * _____

وروى عنه أبو مخنف: «بعث الحسين إلى عمر بن سعد عمرو بن قرظة بن كعب الأنصاري أن ألقني الليل بين عسكري وعسكريك. قال: فخرج عمر بن سعد في نحو من عشرين فارساً وأقبل حسين في مثل ذلك فلمّا التقوا أمر حسين أصحابه أن يتنحّوا عنه وأمر عمر بن سعد أصحابه بمثل ذلك.

قال: فانكشفنا عنهما بحيث لا نسمع أصواتهما ولا كلامهما فتكلّمنا فأطالا حتى ذهب من الليل هزيع ثم انصرف كلّ واحد منهما إلى عسكريه بأصحابه.

وتحدّث الناس فيما بينهما ظناً يظنّونه أنّ حسيناً قال لعمر بن سعد: اخرج معي إلى يزيد بن معاوية وندع العسكريين. قال عمر: إذن تهدم داري. قال: أنا أبنيتها لك. قال: إذن تؤخذ ضياعي. قال: إذن أعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز. قال: فتكرّه ذلك عمر.

قال: فتحدّث الناس بذلك وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئاً ولا علموه»^(١).

٨ - قرّة بن قيس التميمي

أرسله عمر بن سعد إلى الإمام الحسين عليه السلام فلما رآه سأله عنه: «أتعرفون هذا؟ فقال حبيب بن مظاهر: نعم، هذا رجل من حنظلة، تميمي، وهو ابن أختنا، ولقد كنت أعرفه بحسن الرأي وما كنت أراه يشهد هذا المشهد»^(٢).

وروى عنه أبو مخنف ما نقلناه مسبقاً حول منظر النسوة من آل الحسين بعد استشهاده عليه السلام. قال: «نظرت إلى تلك النسوة لمّا مررن بحسين وأهله وولده صحن

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٢.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٣١١.

ليالي عَشُوراء * _____

ولطمن وجوههن. قال: فاعترضتهن على فرس.. إلخ^(١). ثم قال: «وقطف رؤوس الباقين فسرح بائنين وسبعين رأساً مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمر بن الحجاج وعزرة بن قيس فأقبلوا حتى قدموا بها على عبيد الله بن زياد»^(٢).

٩ - أبو خالد الكاهلي

قال: «لما صبَّحت الخيل الحسين رفع الحسين يديه فقال: اللهم أنتَ ثقتي في كلِّ كرب ورجائي في كلِّ شدة وأنتَ لي في كلِّ أمر نزل بي ثقة وعدة كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقلُّ فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك عمّن سواك ففرّجته وكشفته فأنتَ وليّ كلِّ نعمة وصاحب كلِّ حسنة ومنتهى كلِّ رغبة»^(٣).

١٠ - عمرو الحضرمي

روى عنه أبو مخنف تقسيمه قادة الجيش الأموي كالتالي، قال: «لما خرج عمر بن سعد بالناس كان على رُبع أهل المدينة يومئذ عبد الله بن زهير بن سليم الأزدي، وعلى ربع مذحج وأسد عبد الرحمن بن أبي سبرة الحنفي، وعلى رُبع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث بن قيس، وعلى رُبع تميم وهمدان الحرّ بن يزيد الرياحي، فشهد هؤلاء كلهم مقتل الحسين إلا الحرّ بن يزيد فإنه عدل إلى الحسين وقتل معه، وجعل عمر على ميمته عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن بن شرحبيل بن الأعور بن عمر بن معاوية وهو الضباب بن كلاب، وعلى الخيل عزرة بن قيس الأحمسي وعلى الرجال شيب بن ربيعي اليربوعي، وأعطى الراية ذويداً مولاه»^(٤).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣٦.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٣٣٦.

(٣) م. ن، ج ٣، ص ٣١٨.

(٤) م. ن، ج ٣، ص ٣١٧.



١١ - الزبيدي

روى عنه أبو مخنف بسنده مصرع مسلم بن عوسجة. قال: «فمشى إليه الحسين فإذا به رمق فقال: رحمك ربك يا مسلم بن عوسجة منهم من قضى نَحْبَهُ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً. ودنا منه حبيب ابن مظاهر فقال: عزّ عليّ مصرعك يا مسلم أبشّر بالجنة. فقال له مسلم قولاً ضعيفاً: بَشْرُك الله بخير. فقال له حبيب: لولا أنّي أعلم أنّي في أثرك لاحق بك من ساعتى هذه لأحببت أن توصيني بكلّ ما أهمّك حتى أحفظك في كلّ ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين. قال: بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله - وأهوى بيده إلى الحسين - أن تموت دونه. قال: أفعل وربّ الكعبة.

قال: فما كان بأسرع من أن مات في أيديهم، وصاحت جارية له فقالت: يا ابن عوسجته يا سيدها. فتنادى أصحاب عمرو بن الحجاج: قتلنا مسلم بن عوسجة الأسدى. فقال شبت لبعض من حوله من أصحابه: ثكلتكم أمهاتكم إنّما تقتلون أنفسكم بأيديكم وتذلّلون أنفسكم لغيركم تفرحون أن يُقتل مثل مسلم بن عوسجة؟ أما والذي أسلمت له، لرُبّ موقفٍ له قد رأيتَه في المسلمين كريم، لقد رأيتَه يوم سلق أذربيجان - اسم جبال تقع على الحدود مع الموصل - قتل ستة من المشركين قبل تمام خيول المسلمين، أفيقتل منكم مثله وتفرحون؟!^(١).

• خاتمة

كانت هذه جملة من أهمّ الشهادات والأخبار التي نُقلت حول معركة كربلاء في مقدّماتها وأحداثها وتبعاتها، وهي تثبت مصادر تلك الأخبار عن الشهود العيان الذين حضروا الوقائع المختلفة وفق ما رُوي عنهم، وتدفع بذلك الإشكال أو التساؤل الذي قدّمناه في بداية البحث حول ناقلي تفاصيل الأحداث.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٢٥



المصادر والمراجع



- ١- القرآن الكريم.
- ٢- أحداث كربلاء، النص التاريخي ووثيقة مصادره: محمد الحسيني.
- ٣- اختيار معرفة الرجال: محمد بن الحسن الطوسي.
- ٤- أدب الطف: جواد شبر.
- ٥- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: محمد بن محمد بن نعمان المفيد.
- ٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: يوسف بن عبدالله بن عبدالبر الأندلسي.
- ٧- الإسلام والعنف، قراءة في ظاهرة التكفير: حسين الخشن.
- ٨- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
- ٩- الأموال: محمد بن علي الصدوق.
- ١٠- الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدينوري.
- ١١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ابن أبي الدنيا.
- ١٢- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: محمد باقر المجلسي.
- ١٣- البداية والنهاية: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير.
- ١٤- تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري): محمد بن جرير الطبري.
- ١٥- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله: محمد بن إسماعيل البخاري.

- ١٦- حديث عاشوراء: محمد حسين فضل الله.
- ١٧- خصائص الإمام علي: أحمد بن شعيب النسائي.
- ١٨- الخصال: محمد بن علي الصدوق.
- ١٩- دراسات في النقد الأدبي القديم: حسين جداوله.
- ٢٠- الدررة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية: تقي الدين أحمد ابن تيمية.
- ٢١- الديات: ابن أبي عاصم.
- ٢٢- ديوان الشيخ محسن أبو الحب الكبير: محسن أبو الحب.
- ٢٣- ديوان السيد جعفر الحلبي: جعفر الحلبي.
- ٢٤- ديوان السيد حيدر الحلبي: حيدر الحلبي.
- ٢٥- ديوان الفاتزيات الكبرى: الملا علي بن فايز.
- ٢٦- الرجال: محمد بن عمرو الكشي.
- ٢٧- زهر الأكم في الأمثال والحكم: الحسن اليوسي.
- ٢٨- السنن: أبو داود سليمان بن الأشعث.
- ٢٩- السنن: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي.
- ٣٠- السنن: محمد بن يزيد ابن ماجه.
- ٣١- شرح نهج البلاغة: عبدالحميد بن أبي الحديد المعتزلي.
- ٣٢- الشيعة نص الحوار مع المستشرق كوربان: محمد حسين الطباطبائي.
- ٣٣- صراط النجاة: الميرزا جواد التبريزي.
- ٣٤- عاشوراء، قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء: حسين الخشن.
- ٣٥- العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي.
- ٣٦- علم الكلام الجديد: عبدالجبار الرفاعي.

الكتاب الأول - محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م * —————

- ٣٧- عمدة الطالب في أَسْنَاب آل أبي طالب: أحمد بن علي ابن عنبه.
- ٣٨- قيام عاشوراء در كلام وبيام إمام خميني (ثورة عاشوراء عند الإمام الخميني).
- ٣٩- مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني.
- ٤٠- الكافي: محمد بن يعقوب الكليني.
- ٤١- كنز العمال: المتقي الهندي.
- ٤٢- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري.
- ٤٣- اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر: حسين النوري.
- ٤٤- المآتم الحسينية: عبدالحسين شرف الدين.
- ٤٥- مجالس الدين والحياة: فيصل الكاظمي.
- ٤٦- المجالس العاشورية في المآتم الحسينية: عبدالله آل درويش.
- ٤٧- المسند الصحيح المختصر من السنن (صحيح مسلم): مسلم بن الحجاج القشيري.
- ٤٨- المصنف: عبدالرزاق الصنعاني.
- ٤٩- مفاتيح الجنان: عباس القمي.
- ٥٠- مقاتل الطالبين: أبو الفرج الأصفهاني.
- ٥١- الملحمة الحسينية: مرتضى المطهري.
- ٥٢- من لا يحضره الفقيه: محمد بن علي الصدوق.
- ٥٣- من وحي القرآن: محمد حسين فضل الله.
- ٥٤- مناقب آل أبي طالب: رشيد الدين أبو جعفر محمد ابن شهر آشوب.
- ٥٥- المنبر الحسيني، أفكار ورؤى الفقيه المجدد السيد فضل الله: علي حسن غلوم.
- ٥٦- منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل: عباس القمي.

- ٥٧- ميزان الحكمة: محمد الريشهري.
٥٨- الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي.
٥٩- النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم: أحمد بن علي المقرئ.
٦٠- النقد الذاتي بعد الهزيمة: صادق جلال العظم.
٦١- نهج البلاغة: الشرف الرضي.
٦٢- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: محمد بن الحسن الحر العاملي.





ليالي عاشوراء

الكتاب الثاني

حسينية دار الزهراء عليها السلام - الكويت

محرم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م



- * المقدمة
- * مرجعية القرآن
- * مدى حجية خبر الواحد في تكوين المعتقد
- * العقائد والعلم والتاريخ
- * المعصوم وعلم الغيب
- * الغيب في القرآن
- * المعصوم، هل يعلم وقت وفاته؟! وحيثياتها
- * لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام؟!
- * بين العلم الإجمالي والتفصيلي
- * لماذا أخرج الحسين عليه السلام أهله معه؟!
- * الحرب النفسية
- * من دفن الإمام الحسين عليه السلام؟





مقدّمة



الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وسيّد رُسله نبيّنا وحبیب قلوبنا أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه المنتجبين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

يُعَدُّ التشيع لآل بيت النبي ﷺ المدرسة الأصيلة التي انبثقت من رحم القرآن الكريم والسُنَّة النبويّة الشريفة، ولذا أكّد قاداته دائماً على أنّ التشيع ليس حالةً منفصلةً عن الإسلام، بل هو الإسلام في كلّ مبادئه، وتشريعاته، وأخلاقياته.. وهو الالتزام بوصية النبي الأكرم محمد ﷺ بالثقلين اللذين تركهما في الأمة من بعده معتبراً أنّ ذلك هو الضمانة الوحيدة والأكيدة للهداية: «إني تاركٌ فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، كتاب الله، حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل البيت، ألا وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض» ومؤكّداً - كما في بعض نصوص هذه الوصية - على أنّ مفارقتهما تعني الهلكة: «لا تسابقوهم فتهلكوا، ولا تُقصّروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فهم أعلم منكم»^(١).

وقد تعرّض التشيع لآل البيت ﷺ إلى شتى أنواع الإقصاء والمحرابة،

(١) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة، وروي في الكثير من أمهات المصادر الإسلامية كصحيح مسلم ومسنَد ابن حنبل وسنن الترمذي.

ليالي عَاشُورَاءُ * _____

على مستوى التصنيفات الجسدية لقادته وشخصياته وأتباعه، مروراً بالمحاربة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وانتهاءً بمحاولات التشويه والتحريف لمبادئه وقيمه، وبوسائل مختلفة تنفيذاً لأجندات السلطات الحاكمة أو الخصوم الفكريين أو غير ذلك.

وإذا أضفنا إلى ما سبق طبيعة التباعد الجغرافي بين مراكز تواجد أتباع هذه المدرسة، ووسائل الاتصال التي كانت متوفرة في ذلك الزمان، وكيفية نقل المعلومة وحفظها وتداولها ونسخ مدوناتها، فإنّ مديات نجاح مساعي التحريف والتدليس والنسيان والوضع تكون كبيرة جداً، لا بخصوص تراث التشيع فحسب، بل على المستوى الثقافي والفكري والتراثي العام، ونماذج ذلك عديدة، ومنها على سبيل المثال فقط لا الحصر ما جاء عن إمامنا جعفر الصادق عليه السلام حيث قال: «كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي ويأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه المستترون في أصحاب أبي، يأخذون الكتب من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة فكان يدسّ فيها الكفر والزندقة ويُسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى أصحابه فيأمرهم أن يثبّوها في الشيعة! فكلّ ما كان في كتب أصحاب أبي من الغلوّ فذاك مما دسّه المغيرة في كتبهم» وفي خبر آخر: «لعن الله المغيرة بن سعيد إنّه كان يكذب على أبي، فأذقه الله حرّ الحديد. لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله، الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا ويده نواصينا»^(١). وأما على المستوى الإسلامي العام فنجد نموذج ابن أبي العوجاء الذي قال قبل إعدامه بأمر الخليفة المهدي العباسي: «أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرمّ فيها الحلال وأحلّ فيها

(١) ذكر الكشي في كتابه الرجال (١٩٤-١٩٨) عدة أحاديث حول المغيرة بن سعيد وتحتوي هذا المضمون ومثله.

الحرام، والله لقد فطرْتكم يوم صومكم وصوّمتمكم يوم فطركم!»^(١).

واستمرّت مساعي أعداء الإسلام بشكل عام، ومناوئي الشيع بشكل خاص بهذا الاتجاه طوال قرون مديدة، وبوسائل عديدة، وانضمّ إليهم أصحاب الأهواء وراغبو السّلطة والمال والجاه والشهرة فأضافوا الكثير من المختلّقات والأساطير والنصوص المحرّفة، جُراًة على الله وَعَلَيْكَ وَعَلَى رَسُولِهِ ﷺ وآل بيته عليهم السلام حتّى تراكمت تلك النصوص، بل والكتب الكاملة المنسوبة إلى الأئمّة وأصحابهم والعلماء في بعض الأحيان! من هنا انبرى علماؤنا منذ أمدٍ بعيد بطرُق متعدّدة للتحقيق في ما وصل إليهم، واتبّعوا أساليب خاصة للتأكد من صحّة الخبر أو نسبة الكتاب للمؤلف، كما وضعوا معايير محدّدة للتقييم وغير ذلك ممّا لا مجال للتفصيل فيه.

هذا، وقد استفاد أولئك العلماء المحقّقون - ضمناً - من القواعد التي قدّمها أئمّة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، والتي يبرز فيها سعيهم لتركيز الصورة المتوازنة للمسلم الموالي لهم، من قبيل المرويّ عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «رحم الله عبداً من شيعتنا حبّبنا إلى الناس ولم يُبغضنا إليهم. أما والله لو يروون عنا ما نقول ولا يحرفونه ولا يبدّلونه علينا برأيهم، ما استطاع أن يُتعلّق عليهم بشيء، ولكنّ أحدهم يسمع منّا الكلمة فينيط إليها عشراً ويتأوّلها على ما يراه»^(٢).

وما جاء في إحدى وصاياه أيضاً أنّه قال: «يا معشر الشيعة، شيعة آل محمد، كونوا الثمّرة الوسطى (وهي الوسادة التي يُتكأ عليها) يرجع إليكم الغالي، ويلحق بكم التالي، فقال له رجل من الأنصار يقال له سعد: جعلت فداك، ما الغالي؟ قال: قومٌ يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، فليس أولئك منّا ولسنا منهم.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٤٨.

(٢) القاضي النعمان المغربي: دعائم الإسلام، ج ١ ص ٦١.

قال: فما التالي؟ قال: المرتاد يريد الخير، يبلغه الخير يُوجر عليه. ثم أقبل علينا فقال: والله ما معنا من الله براءة ولا بيننا وبين الله قرابة ولا لنا على الله حجة ولا نتقرب إلى الله إلا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولايتنا، ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا. ويحكم لا تغتروا، ويحكم لا تغتروا». وفي خبر ثالث أنه عليه السلام قال: «.. ولا تحملوا الناس على أعناقنا، وانظروا أمرنا وما جاءكم عنا فإن وجدتموه والقرآن موافقاً فخذوا به، وإن لم تجدوه موافقاً فردّوه، وإن اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردّوه إلينا، حتى نشرح لكم من ذلك ما شرح لنا..»^(١).

وإذا كانت وسائل الاتصال ونقل المعرفة - في هذا العصر - قد عرفت نقلة نوعية مذهلة، فإنها ساعدت على انتشار الكثير من أوعية المعرفة - من قبيل الكتب - والنصوص التي تحتاج إلى التحقيق والتنقيح والمقارنة، وفيها الغث والسمين، ممّا ضاعف من مسؤوليّة العلماء والمفكرين والخطباء والدعاة إلى الدين نحو توجيه الناس وإرشادهم وبيان الحقائق وردّ البدع استجابة لما جاء في المروي عنهم عليهم السلام: «إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سلب نور الإيمان»^(٢).

• هذا الكتاب

يأتي هذا الكتاب الثاني من سلسلة (ليالي عاشوراء) تتويجاً للمحاضرات التي أُلقيت في حسينية دار الزهراء عليها السلام في موسم عاشوراء للعام الثاني على التوالي، واستغرقت ثلاث عشرة ليلة متوالية، دارت في معظمها حول محور رئيسي وهو: هل خرج الإمام الحسين عليه السلام وهو يعلم أنه سيُستشهد في كربلاء؟ وما مدى مشروعية ذلك؟ وبعبارة أخرى، هل خرج من أجل الشهادة، أم خرج لتحقيق

(١) المازندراني: شرح أصول الكافي، ج ٨، ص ٢٤١.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج: ١١، كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب ٤٠، ح ١، ص ٥١٠.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

* انتصار ميداني تترتب عليه إقامة دولة بقيادته؟

هذا التساؤل وإن كان يُعاد طرحه في كلِّ عام، إلا أنَّ معالجته في كثيرٍ من الأحيان تتمُّ بصورة سطحيّة، ولذا فإنّني وجدت:

١- أننا إذا لم نُجِبْ عليه بشكلٍ علميٍّ ومدروس، فستبقى الفكرة مشوشة، ولعلّها تؤدّي - تبعاً - إلى إشكالاتٍ أخرى.

٢- بعض المنتديات على الإنترنت قد طرحت هذا التساؤل من باب التشكيك في أهداف الثورة الحسينيّة، ولم أجد في ما اطلعت عليه ردّاً مقنعاً يدفع الإشكالات المطروحة بشكلٍ علميٍّ دقيق.

٣- هناك خلل في منهجية بحث مثل هذه القضية، وكيفية الوصول إلى الإجابة عن التساؤلات التي تحوم حولها.

٤- أنّها فرصة مناسبة لمعالجة مجموعة من القضايا التي ستأتي كمقدمات للإجابة عن التساؤل الرئيسي، من قبيل موقع القرآن كمرجع لتكوين المعارف الدينية، وقيمة خبر الواحد في تكوين المعتقد، وعلاقة النبي والإمام بعلم الغيب، وغيرها.

بالطبع فإنّ الباحث في هذه المسائل إنّما يلجُ حقل الغام، لحساسية الموضوعات، خاصّةً في ما لو أراد البعض التعامل معها من ناحية عاطفيّة، ولكن واقع البحث العلمي يتطلّب تقبُّل وجود الرأي الآخر المستند على الدليل، وإن كان الدليل بالنسبة لي باطلاً، وهذا جزء من الأجواء التي ننادي بضرورة توافرها ضمن الحوار العلمي. ولا أدعي هنا أنّي أمتلك الحقيقة الكاملة في ما طرحته من موضوعات، وما استعرضتُ من أدلّة، ولكنني بذلتُ جهداً من أجل البحث عن الحقيقة ضمن ما توفّر بيدي من مصادر ورقية وإلكترونية، واستندت إلى

ليالي عاشوراء

كلمات علمائنا المتقدمين في موارد عديدة تعكس ما كانت عليه معارف الإمامية في تلك الفترة، ثم قدّمت نتاج ما توصلت إليه من خلال هذه المحاضرات التي تضمّنت قضايا أخرى تاريخية ومفاهيمية ذات علاقة بالصراع بين الحقّ والباطل الذي تمثّل في قضية الحسين عليه السلام كما تمثّل في صراعات كثيرة عاشتها وما زالت تعيشها البشرية.

أسأل الله تعالى القبول، ولكلّ من ساهم في إخراج هذا الكتاب الأجر الجزيل، والله ولي التوفيق.

المؤلف / الكويت

محرم ١٤٣٤ هـ - ديسمبر ٢٠١٢ م





مرجعية القرآن



من الأسئلة التي تُثار في كلِّ عام في أجواء إحياء ذكرى عاشوراء: هل كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم بأنّه سيقتل في كربلاء؟ وبالتالي هل خرج الإمام - بدايةً - من أجل أن يُستشهد في كربلاء، أم أنّ خروجه كان بغرض إقامة حكمه في الكوفة، ولكن تبدّل الظروف هو الذي حال دون ذلك، ممّا أدّى إلى استشهاده في كربلاء؟ يُطرح هذا التساؤل - تارةً - استفهاماً عن حقيقة ومدى علم الأئمة عليهم السلام بالغيب، ويُطرح - تارةً أخرى - في إطار البحث عن المسوّغ الشرعي للإمام بأن يُكمل مسيرته نحو ذلك المصير مع نهْي القرآن عن إلقاء النَّفس في التَّهلكة، ويُطرح - ثالثةً - في إطار التساؤل عن الهدف الأصليّ لخروج الإمام عليه السلام نحو العراق.

• مسائل بنيوية

والإجابة عن هذه التساؤلات تحتاج إلى طرح عدّة مسائل تكمل الصّورة المعرفية بصورة بنيوية وتأسيسية، وهي:

١- ما موقع القرآن الكريم في تكوين المعرفة الدينيّة؟

٢- هل يصحّ تأسيس المفردة العقديّة من خلال (خبر الواحد)؟

- ٣- كيف نفرّق بين ما هو من العقيدة وبين ما هو من التاريخ؟
- ٤- ما هي حدود علم النبيّ والإمام، لاسيّما باللّحاظ الغيبيّ؟
- ٥- ما مدى علم الإمام بوقت وفاته؟ ولماذا لا يتحرّز عن سبب الوفاة؟
- ٦- ما حدود مشروعيّة الثورة ضدّ الباطل في ضوء هذا العلم؟

• توضيح هام

وسنبحث أولاً حول ما يقع تحت عنوان تأسيس مرجعية القرآن، باعتبار أنّ هذه المسألة هي الأساس في تكوين المعرفة الدينية (العقيدة، فهم القرآن، المسائل الأخلاقيّة، الأحكام الشرعيّة، القضايا التاريخيّة، المفاهيم الإسلاميّة.. إلخ).

وعندما أتحدّث عن هذه المرجعيّة فإنّما أقصد تقديم حاكميّة النصّ القرآني والظاهر القرآني على أيّ دليل آخر، لا بمعنى إبعاد السّنة عن كونها المصدر الآخر للمعرفة الإسلاميّة، بدعوى شبيهة بنداء (حسبنا كتاب الله)، بل بمعنى ترتيب الأولويّة في الاعتماد عليهما نظريّاً وعمليّاً.

• واقع الحال

نظريّاً، لا خلاف بين المسلمين حول كون القرآن الكريم هو المصدر الأوّل والأساسيّ في تكوين المعارف الإسلاميّة في الحقول المختلفة، وأنّه هو الميزان والمعيار في تصويب الآراء والأفكار.

عمليّاً، الواقع يشهد أنّ هذا الدور المرجعيّ ووظيفته المتعدّدة الأطراف أمر غير متحقّق إلّا في موارد محدودة، وهذا يعني أنّ الهجران الذي حدّرت منه بعض النصوص القرآنيّة والنبويّة لا يقتصر على جانب التلاوة فقط، ولا على الجانب التطبيقيّ في حياة المسلمين، بل يشمل حتّى الجانب المعرفيّ أيضاً.



• تحذيرات متكرّرة

وقد أشار أكثر من مفكّر وباحثٍ إسلاميّ إلى خطورة استمرار هذا الوضع، مؤكّدين ضرورة العمل على البحث بدقّة في أمرين مهمّين، وتفعيلهما بعد ذلك: الأمر الأوّل: تقديم حجّية القرآن على حجّية خبر الواحد، وعدم الارتضاء بجعلهما بمستوى واحد من الحجّية، فضلاً عن تقديم الخبر على الكتاب.

الأمر الثاني: إنّ القرآن الكريم هو فعلاً المعيار في تقويم جميع المعارف.

وقد دقّ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسيره الميزان ناقوس الخطر منذ عقود، وأشار بكلّ دقّة إلى موضع الخلل حيث قال: «وقد أفرط في الأمر إلى حيث ذهب جمع إلى عدم حجّية ظواهر الكتاب وحجّية مثل «مصباح الشريعة» و«فقه الرضا» و«جامع الأخبار!»^(١) والكتاب الأوّل يُنسب إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، والثاني إلى الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام دون أن تثبت النسبة إليهما، بل إنّ في مضمونهما الكثير من الملاحظات، أمّا الثالث فقد قال عنه الطهراني في (الذريعة) إنّ المشهور انتسابه إلى الشيخ الصدوق لكنّه ممّا لا أصل له، وقد اختلفت أقوال الأصحاب في تعيين مؤلّفه.

ثم أضاف العلامة الطباطبائي: «وبلغ الإفراط إلى حيث ذكر بعضهم أنّ الحديث يفسّر القرآن مع مخالفته لصريح دلّالته، وهذا يوازن ما ذكره بعض الجمهور: «أنّ الخبر ينسخ الكتاب». ولعلّ المترادف من أمر الأمة لغيرهم من الباحثين كما ذكره بعضهم: «أنّ أهل السنّة أخذوا بالكتاب وتركوا العترة، فآل ذلك إلى ترك الكتاب لقول النبي ﷺ: «إنّهما لن يفترقا» وأنّ الشيعة أخذوا بالعترة وتركوا

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٢٧٦.

الكتاب، فال ذلك منهم إلى ترك العترة لقوله ﷺ: «إنهما لن يفترقا» فقد تركت الأمة القرآن والعترة «الكتاب والسنة» معاً. وهذه الطريقة المسلوكة في الحديث أحد العوامل التي عملت في انقطاع رابطة العلوم الإسلامية وهي العلوم الدينية والأدبية عن القرآن مع أن الجميع كالفروع والثمار من هذه الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تُؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وذلك أنك إن تبصرت في أمر هذه العلوم وجدت أنها نُظمت تنظيمًا لا حاجة لها إلى القرآن أصلاً حتى أنه يمكن لمتعلم أن يتعلمها جميعاً: الصرف والنحو والبيان واللغة والحديث والرجال والدراية والفقه والأصول فيأتي آخرها، ثم يتصلع بها ثم يجتهد ويتمهّر فيها وهو لم يقرأ القرآن، ولم يمَسَّ مصحفاً قط. فلم يبق للقرآن بحسب الحقيقة إلا التلاوة لكسب الثواب أو اتخاذه تميمة للأولاد تحفظهم عن طوارق الحدثنان! فاعتبر إن كنت من أهله»^(١).

• أسباب تفهقر هذا الدور

أما أسباب تفهقر الدور المرجعي للقرآن وتأخير حجّيته مقارنةً بالسنة، فيرجع إلى عوامل، من أهمّها:

١- عامل تاريخي: يتمثل في الاستغراق في تقوية العلاقة بالأئمة من أهل البيت ﷺ ومواجهة الهجمات ضدّهم على حساب الاهتمام بالقرآن، ممّا خلق حالة عاطفية تندفع وراء الخبر حين يتصدّره عنوان (قال أمير المؤمنين) أو (قال الصادق) دون التدقيق غالباً في صحّة المنقول، سنداً أو متناً من خلال عرضه على القرآن، وهو المنهج الذي أكّده أهل البيت أنفسهم كما في الخبر عن النبي ﷺ: «إذا أتاكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله وحجة عقولكم فإن وافقهما فاقبلوه، وإلا

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٢٧٦.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 فاضربوا به عرض الجدار»^(١) وعن الصادق عليه السلام: «كلُّ شيءٍ مردودٌ إلى كتاب الله
 والسُّنة، فكلُّ حديثٍ لا يوافق كتاب الله فهو زُخْرُفٌ»^(٢) وعنه عليه السلام: «ما لم يوافق من
 الحديث القرآن فهو زخرف»^(٣). مع ملاحظة أنّ حديث الثقلين يُرشد إلى هذا الأمر:
 «إنِّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله وعليّ حبل ممدود من
 السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ألا إنَّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»^(٤).
 فكون القرآن هو الثقل الأكبر دليل على ذلك.

٢- عامل معرفي: وهو مقولة عدم الأخذ بظواهر القرآن إلا بالرجوع إلى
 الأحاديث المروية عن أهل بيت النبوة عليهم السلام باعتبار أنّهم هم الراسخون في العلم
 الذين دفعنا القرآن ذاته إلى الرجوع إليهم في فهم متشابهاته.. وكانت النتيجة أنّ
 أصحاب هذا الرأي أنكروا حجّية ظواهر القرآن، وجعلوا الأحاديث حاكمة عليها
 أيضاً.

قال الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ) في (الحدائق الناضرة) مبيناً هذا
 المسلك العلميّ عند بعض الفقهاء: «منهم من منع فهم شيء منه مطلقاً حتّى مثل
 قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [التوحيد: ١]، إلا بتفسيرٍ من أصحاب العصمة عليهم السلام»^(٥).

وقد أثر هذا المنحى على الشيخ الحرّ العاملي فعقد باباً في (وسائل الشيعة)
 تحت عنوان: «عدم جواز استنباط الأحكام النظرية من ظواهر القرآن إلا بعد
 معرفة تفسيرها من الأئمة».

هذا العامل المعرفي أدّى إلى جعل القرآن يعيش في متاهات معرفيّة من خلال

(١) أبو الفتوح الرازي: روض الجنان وروح الجنان، ج ٣، ص ٣٩٢.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٤٢، ح ٣٧.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، صفات القاضي، باب ٩، ح ١٢.

(٤) ابن حنبل: المسند، ج ٣، ص ١٧.

(٥) البحراني: الحدائق الناضرة، ج ١، ص ٢٧.

الأحاديث التي قد لا تكون موثوقة في سندها ولا في متنها.

٣- عامل بنيوي: وهو تأويل النصوص التي تؤكد على مرجعية القرآن وتقديم حجّية ظواهره كحديث: «ما خالف كتاب الله فهو زخرف» إذا اعتبر أنّ المعنى: «ما خالف باطن كتاب الله، وليس ما خالف ظاهر كتاب الله»، الأمر الذي أفقد ظاهر القرآن قيمته عند الناس، وفتح المجال للتأويل غير العلميّ بذريعة المعنى الباطنيّ.

٤- عامل نفسي: النظرة (الدونية) لتفسير القرآن مقارنة بالبحث الفقهيّ، وهو ما أشار إليه الفقيه المعاصر السيد علي الخامنّي متشكّياً أمام طلبة العلوم الدينية في قم قائلاً: «... وإذا أراد أحد كسب مقام علميّ في الحوزة كان عليه أن لا يُفسّر القرآن حتّى لا يُتّهم بالجهل، إذ كان يُنظر إلى المُلّا المحترم والعالم المفسّر الذي يستفيد الناس من تفسيره على أنّه جاهل ولا وزن له علمياً، لذا يضطرّ إلى ترك درسه، ألا تعتبرون أنّ ذلك فاجعة؟»^(١).

• استخلاص ممّا سبق

بتصوّري أنّ وضع البناء الإسلاميّ المعرفي في مساره الصحيح من خلال اعتماد مرجعية القرآن بصورته الحقيقيّة سيقدّم حلولاً منطقيّة للكثير من التساؤلات التي تدور في الأذهان وتُقدّم لها - عادة - إجابات قد تُدخلنا في متاهاتٍ جديدة تحتاج هي بدورها إلى إجاباتٍ أخرى.. كما أنّها ستقدّم الشيع في إطاره القرآنيّ الذي ينسجم مع سيرة النبيّ وآله عليهم السلام ووصاياهم ومعارفهم وآدابهم، ويجعله أقلّ عرضةً للنقد وأكثر إقناعاً للباحث عن الحقيقة.

(١) مجلة نصوص معاصرة: مقال بعنوان الإخفاقات في الدراسات الفقهيّة: مختار الأسدي نقلاً عن خطاب ألقى في ١٢ ربيع الأول ١٤١٢هـ.



مدى حجّية خبر الواحد في تكوين المعتقد



تحدّثت في القسم الأوّل من هذا العنوان عن المقدّمة الأولى التي سنعالج من خلالها مسألة علم الإمام الحسين عليه السلام بمقتله بكر بلاء، ومشروعية ذلك الخروج في ضوء ذلك العلم. وقد بيّنت أنّ مرجعية القرآن في تكوين المعرفة الإسلامية تراجعت بمرور الزمان لحساب الأحاديث، وذلك لعدّة عوامل بيّنت بعضها منها، ولا بدّ من القول إنّ هذه العملية تمّت بهدوء وتدرّج.

وتراجع مرجعية القرآن في المرتبة أدّى إلى نتائج سلبية عديدة على مستويات مختلفة، منها:

• المثال الأوّل، في الدائرة المعرفية

عندما نأتي إلى مسألة معرفة النبي صلى الله عليه وآله بالقراءة والكتابة، نجد القرآن صريحاً في بيان الأمر وحكمته، قال صلى الله عليه وآله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٩].

فالمسألة واضحة، والحكمة بيّنة، ولكن بعض الروايات حين تذكر أنّه كان يعرف القراءة والكتابة، بل إنّّه مارس ذلك أحياناً، فإنّها ستربك الباحث وتُدخله في متاهات، وحين يقدّم حُججَتها على حجّة القرآن سيعمل على تأويل الآيات السابقة وغيرها من قبيل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ليُقَال إنّ الأميّة نسبة إلى أم القرى أو الأمميّ وغير ذلك، مع أنّ ظاهرها هو عدم القراءة والكتابة. ثم يأتي الباحث بأدلة استحسانيّة من قبيل أنّ نسبة الأميّة للنبيّ منقصة بحقه.. إلخ. وأصحاب هذا الرأي لا يلتفتون إلى أمرين:

أولاً: الحكمة الواردة في الآية، أي لئلا يكون لأعدائه أية حجّة في نسبة ما عند الرسول من القرآن إلى تعلّمه وقراءته في كتب الماضين وهذه الحجّة يجب أن تكون صادقة لا خداع فيها وإلا لكان الأمر عبثياً.

وثانياً: إنّ الآية تتضمّن إثباتاً لنبوّته ﷺ من خلال انطباق صفته على ما جاء في سفر التثنية من التوراة: «أَقِيمْ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ» أي مثل موسى صاحب شريعة وهو من نسل إسماعيل أخي إسحق «وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ»^(١) أي إنّ كلام الله يأتيه على فمه لا في اللوح والكتاب لأنّه أميّ. فالقرآن يشير إلى هذا الدليل التوراتي، ولكننا نضّيع قيمته من خلال تقديم حجّة الخبر على الآية.

• المثال الثاني، في الدائرة العقديّة

فعندما نريد دراسة شخصيّة الأنبياء وصفاتهم، نتوه عند تأويل الآيات بسبب الإصرار على تقديم حجّة الخبر الظنّي على ظاهر القرآن فالآية تقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى:

(١) الكتاب المقدس، سفر التثنية، الإصحاح ١٨، الآية ١٨.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 [٥٢]، فالله هو الذي علّم النبي القرآن أو الشريعة الإسلاميّة وتفاصيل العقيدة،
 والنبي لم يكن يعرفها قبل ذلك. ولكن بعض الأحاديث تُربك الباحث في هذا
 المجال، وتدفع الباحث لتبني قولاً آخر.

وهكذا بخصوص مفردات من قبيل العلم الذاتي للنبي والإحاطة بكلّ
 المعارف، وأنّ الفرق بين علمهم وعلم الله هو الذاتية والاكسابيّة، في الوقت
 الذي يقرّر فيه القرآن: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ
 وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، وهو ما سنتناوله في بحث لاحق وبشيء من
 التفصيل بإذن الله.

• المثال الثالث، في الدائرة الفقهية

فللشريعة الإسلامية ثوابت ومقاصد، أشارت الآيات القرآنية إلى بعض منها
 في طيات التشريعات ذاتها، إلا أنّ إلغاء مرجعية القرآن وموقعها المتقدّم، والتركيز
 على الأحاديث المتفرقة في باب الزكاة وقراءتها قراءة تجزيئية، بحيث يُبحث في
 كلّ مسألة في باب الزكاة من خلال الأحاديث بشكلٍ منفرد عن المسائل الأخرى
 في الباب نفسه، كلّ هذا أدّى إلى إضعاف دائرة ثوابت الشريعة ومقاصدها،
 وبالتالي صعوبة الوصول إلى نظريات فقهية شمولية تُبعدنا عن حالة التفكك أو
 التجزؤ الفقهيّ وابتعاد الفتوى أحياناً عن روح الإسلام، أو ما نشهده من تفرغ لها
 من بعدها الإنسانيّ أو الأخلاقيّ أو الاقتصاديّ أو الاجتماعيّ أو التربويّ.

ولو أخذت على سبيل المثال الأحكام الشرعية الماثورة في كتب الفقهاء حول
 الزكاة، فإنّك ستلاحظ:

١- مجموعة من الأحكام المعطّلة.. فكم هي نسبة الذين يزكّون زكاة المال في
 الوسط الشيعيّ في هذا العصر؟

٢- ومجموعة أيضاً من الأحكام المفرّغة من أهدافها، بل وقد تكون من المتعارضة معها.. فهل يمكن لأحد ادّعاء أنّ أحكام زكاة المال كما هي اليوم يمكنها أن تساهم في اجتثاث الفقر؟ أو في تكوين اقتصاد الدولة العصرية؟ أو في تحقيق العدالة الاجتماعية؟ إنّ الفقيه يتعامل مع باب الزكاة كما يتعامل مع باب الطهارة، وهذا النحو من التعامل لا يصحّ، فهذا له بُعد عام، وذلك خاص بالفرد ذاته.

ولعلّ السبب الرئيسي وراء ذلك هو أنّ على الفقيه أن يؤسّس لنفسه نظريّة متكاملة حول تشريع الزكاة تكون نابعة بالأساس من القرآن، يراعي فيها الثوابت الإسلاميّة ومقاصد الشريعة، وأن يُخرج الاجتهاد الفقهيّ من إطار البحث ضمن دائرة التكليف الفرديّ وينقله إلى دائرة المجتمع والدولة، وأن يوسّع دائرة موارد الزكاة بما يتوافق مع المعطيات الاقتصادية المعاصرة، وإلا كيف يمكن لنا أن نهضم الفتاوى التي ما زالت تحصر الزكاة في بعض العناوين ويتحمّلها الفقراء من المزارعين ورعاة الأنعام، وتعفي آخرين قد يكونون أثرياء في عالم الاقتصاد ممّن لا يعملون في تلك النطاقات الاقتصادية المحدودة.

• المثال الرابع، في الدائرة القيمية

فقد مهّد تراجع موقع القرآن في تكوين المعرفة الإسلامية إلى ظهور كثير من الصور غير المتناغمة، إذ ساهم - أحياناً - في خلق حالة من ازدواجية الشخصية عند بعض المتديّنين بين التزامهم الفقهيّ وسلوكهم الأخلاقيّ القيميّ، ودفعَ بآخريّن إلى الابتعاد عن الإسلام وشريعته. ومثال ذلك قوله ﷺ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً ذَلِكَ بِأنَّهُمْ قالوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُميين سَبيلٌ وَيَقولونَ عَلَيَّ

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 اللَّهُ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ [آل عمران: ٧٥]، فعندما تنطرح الآية في البحث
 الأخلاقي يتم التأكيد على قيمة الوفاء وما إلى ذلك، وعندما نأتي إلى المسألة
 الشرعيّة قد تطالعنا - في الدائرة الإسلامية العامّة - فتوى بجواز الاحتيال على
 غير الذمّي، فما هي صورة شخصية المسلم المتربّي على هذا التناقض؟

• استخلاص ممّا سبق

من خلال ما سبق أرجو أن يكون قد اتّضحت لنا أهميّة الاعتماد في
 المقام الأول على القرآن الكريم في فهم المسألة المتعلقة بدائرة علم النبي ﷺ
 والإمام عيسى عليه السلام، ومنه قضية العلم بتوقيت الوفاة ومكانه، مع التأكيد على تقديم
 حجّية ظواهر القرآن على الخبر الظنيّ.

المقدّمة الثانية في بحثنا هذا ترتبط بمدى حجّية خبر الواحد في تكوين
 المعتقد، لاسيّما بلحاظ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا
 يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

بالطبع، لا خلاف حول إمكانية الأخذ بالسنة المنقولة إن كانت يقينيّة أو
 يُطمأن إليها، لأنّها حُجّة، بينما وقع جدل بين الفقهاء حول صحّة الاعتماد عليها
 إن كانت ظنيّة كخبر الواحد الصحيح، وذلك في المجال الفقهيّ والأخلاقيّ.
 وكما لا يخفى فإنّ المسألة باتت شبه محسومة في النظريّات الفقهيّة المعاصرة
 لصالح صحّة ذلك.

• الظنّيات خارج الدائرة الفقهية

ولكن في المقابل هناك بحث حول صحّة ذلك في غير هذين المجالين، وقد
 اشتهر القول بالمنع بين قدماء علمائنا، ومن أدلّتهم التمسك بالآيات الناهية عن

الأخذ بالظنّ، كالأية السابقة. فلو صحّحنا الأخذ بخبر الواحد في الفقه وفق أدلة معيّنة، فإنّه لا مجال للأخذ بهذا الدليل الظنيّ في العقديّات، وإلا فما الذي سيكون مورد هذه الآية وأمثالها؟

بل قد أكّد عددٌ من العلماء على أنّ هذه الآيات إنّما تخصّ العقديّات دون غيرها، كما نقل عن الميرزا النائيني (ت ١٣١٤هـ) والسيد البروجردي (ت ١٣٨٠هـ) وأنه لا مجال للحجج الظنيّة في أصول الدين، وقد اعتبر الآخوند الخراساني (ت ١٣٢٩هـ) صاحب (الكفاية) أن الظاهر أو المتيقّن من آيات التّهي عن الظنّ هو الأصول الاعتقادية.

قال السيد المرتضى (ت ٤٣٦هـ): «ألا ترى أنّ هؤلاء بأعيانهم قد يحتجّون في أصول الدين من التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة بأخبار الآحاد، ومعلوم عند كلّ عاقل أنّها ليست بحجّة في ذلك»^(١).

• تبدّل القول في الدائرة العقديّة

وكان المشهور بين علماء الإماميّة المتقدّمين عدم الأخذ بالسنة الظنيّة لا في أصول العقائد ولا في تفاصيلها. ولكن بعد القرن الثامن الهجري حصل انقسام أوضح في الموقف بين من يؤكّد على الاقتصار على اليقينيّات، كالشهيد الأول (٧٨٦هـ) والشهيد الثاني (٩٣٨هـ) والسيد أبو الحسن الأصفهاني (ت ١٣٦٥هـ) والسيد محسن الحكيم (ت ١٣٩٠هـ) والإمام الخميني (ت ١٤٠٩هـ)، وبين من سمح بالأخذ بالظنيّات، كنصير الدين الطوسي (ت ٦٢٧هـ) والفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ) والمجلسي (ت ١١١١هـ) ضمن ضوابط معيّنة.

(١) الشريف المرتضى: الرسائل، ج ١، ص ٢١١.



• المدرسة التفكيكية

وفي مدينة مشهد المقدّسة اليوم توجّه علمي (مدرسة) ذو منهج خاص في تأسيس العقيدة يُطلق عليها البعض اسم (المدرسة التفكيكية)، ومن أبرز وجوهها الحاليين الأستاذ محمد رضا الحكيمي والسيد جعفر سيدان.

وأصحاب هذه المدرسة يدعون إلى التفكيك بين مصادر المعرفة: العقل، النصّ، القلب، ويرفضون التأويلات الفلسفية والعرفانية للوصول إلى المعرفة الدينية، ويدعون إلى التمسك بالنصّ في هذا المجال ويقولون: لا بدّ في أصول الدين من الرجوع إلى الأحاديث المتواترة أو القطعية، فإنّ فقدانها فترجع إلى ما يبعث الاطمئنان، وإلا رجعنا إلى ما يفيد الظنّ ما دام أنّه رواية معتبرة صادرة عن معصوم.

• رأي العلامة الطباطبائي

أما العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي فهو من المتأخّرين الأكثر تشدّداً في هذا المجال، فهو يرفض بشدّة اعتماد خبر الواحد الظنيّ في العقائد والتفسير وغيرها ممّا ليس من الفقه وما يتّصل به، سواء كان تام السند أم ضعيفاً، إلا إذا (تقوى) من خلال آية أو قرينة ترفعه إلى درجة الاطمئنان.

قال في تفسيره: «لا نعول على الأحاد في غير الأحكام الفرعية على طبق الميزان العام العقلاني الذي عليه بناء الإنسان في حياته». وفي سياق ردّه على خبر قلع مدينة قوم لوط من سبع أرضين: «لا يكفي في ثبوت الأمر الخارق للعادة خبر الواحد»^(١). وقال: «إنّ روايات التفسير إذا كانت آحاداً فلا حُجّة لها إلا ما وافق مضامين الآيات، والحُجّة محصورة في الشرعيّات، فروايات

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٦، ص ٥٧.

القصص والتفسير الأحادية غير حُجَّة شرعاً.. إلا ما تقوم القرائن القطعية.. على صحّة متنه»^(١).

والمهم عند العلامة أن يكون الخبر موافقاً للقرآن، لا صحّة سنده. وهذه نقطة هامّة في مسألة مرجعيّة القرآن في تكوين المعارف: «أما ترك البحث عن موافقة الكتاب والتوغّل في البحث عن حال السند- إلا ما كان للتوسّل إلى تحصيل القرائن- ثم الحكم باعتبار الرواية بصحّة سندها، ثم تحميل ما يدلّ عليه متن الرواية على الكتاب، واتخاذها تبعاً لذلك، كما هو دأب كثير منهم، فمما لا سبيل إليه من جهة الدليل»^(٢).

• استخلاص ممّا سبق

والذي أميل إليه - كما توصلّ إلى ذلك بعض الباحثين - هو إمكانية الأخذ بتلك الأخبار الظنيّة بشرط عرضها على القرآن، وذلك وفق الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: تحديد المفهوم العقديّ كما هو وارد في الرواية.

الخطوة الثانية: جمع الآيات الواردة في الموضوع من جميع السور ثمّ تفسير الآيات جنباً إلى جنب ومن ثمّ تكوين مفهوم كليّ يكون الضابطة والمعيّار في تقييم الخبر.

الخطوة الثالثة: عرض الأخبار (أو المفهوم المُستخلص منها) على الضابطة القرآنيّة، وتقييمها.

وأما ما لا أصل قرآني له ولا قرائن تنقله من مرتبة الظنّيّات إلى اليقينيّات أو ما يطمئنّ إليه، فنوكل علمه إلى الله عَلَّمَ، ولا حُجَّة للخبر علينا في ذلك، ونكون فيه من المعذورين أمام الله.

(١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٩، ص٢١١.

(٢) م.ن، ج٩، ص٢١٢.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
ومن المؤسف أن نشهد تساهلاً كثيراً في اعتبار قضايا جزءاً من العقيدة دون تدقيق في مصدر هذه المفردة والتي قد تكون أحياناً من الأخبار الضعيفة أو من التأويلات التي لا تعتمد على حُجّة، وبالتالي ندخل في متاهات عقديّة كثيرة لا تصمد أمام النّقد، وتدفع للابتعاد أكثر عن العقيدة الإسلاميّة الصافيّة.

إنّ اعتماد المنهج السابق يمكننا من الاطمئنان إلى النتائج التي سنصل إليها في تكوين المفردات العقديّة، ولا نقع في المحذور الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، لأننا حينها سنصل إلى معرفة عقائد الإسلام من منطلق قرآني ناصع في المقام الأول، و متمسكين بوسيّة رسول الله ﷺ: «إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن»^(١).



(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٨٢٨، ب ٣، ح ٣.



العقائد والعلم والتاريخ



هل هناك خلطٌ بين المسائل العقديّة وبين مسائل الفروع العلميّة الأخرى كالفقه والتاريخ؟ وإن كان الجواب مثبتاً فكيف نفرّق بينها؟ مضمون الإجابة عن هذا التساؤل يُعتبر من المقدمات المهمّة في البحث عن إجابة السؤال المركزي المطروح أساساً حول علم الإمام الحسين عليه السلام باستشهاده في كربلاء منذ بداية حركته إلى العراق.

فمن المؤكّد لكلّ باحثٍ متأملٍ في الموضوعات العقديّة وجود مثل هذا الخلط أو المزج بموضوعات فقهية.. فالسجود على التربة مثلاً مسألة شرعية، إلا أنّها تُعرض في أحيان كثيرة من زاوية عقديّة، وبالتالي تُبحث ضمن العقديّات في المؤلّفات والمحاضرات كما لا يخفى. وهكذا الأمر بالنسبة إلى المسح على الخفين، ونداء حيّ على خير العمل، والتكفير (التكثف) في الصلاة، والنكاح المؤقت، وحبّ التمتع.

• تداخل واضح

أمّا بالنسبة إلى التاريخ فإنّنا نجد له تأثيراً على المسائل العقديّة بشكل غير خافٍ.. ويمكن أن نضرب على ذلك مثال الاعتقاد بالأنبياء السابقين لنبينا

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 محمّد ﷺ، فلو غضضنا الطَّرْفَ عن قصص القرآن، فس نجد أنّ الاعتقاد ببعضهم
 أو ببعض أحوالهم نابع من التاريخ، بمعنى أنّ التاريخ كان الوسيلة للاعتقاد
 بوجود هذا النبيّ أو ذلك، أو بحصول معجزةٍ ما على يديه، وهكذا.

• نبوة خالد العبسي

وكمثالٍ على ذلك، إنّك عندما تعود إلى مصادر التاريخ تجد أنّها تذكر نبياً
 اسمه خالد بن سنان وهو بحسب هذه النصوص - مَضْرِيّ عَبْسِي، عاش في زمن
 الفترة، بل وأن نبينا ﷺ استقبل ابنته كما عن ابن عباس قال: «جاءت بنت خالد
 بن سنان إلى النبيّ ﷺ فبسط لها ثوبه وقال: بنت نبيّ ضيّعه قومه»^(١) وأنّها سمعت
 النبيّ يقرأ سورة الإخلاص فقالت: «كان أبي يقرأ هكذا»^(٢). وله في الجزائر مرقد
 بمنطقة تُعرف بسيدي خالد.

ومن خلال ما سبق تكوّن معتقد عند عدد من علماء السُنّة والشيعة بنبوته،
 وفصلوا الحديث حول شريعته كما قال القاضي الديار بكري (ت ٩٦٦ هـ): «كان
 يدعو إلى النصرانيّة مستمسكاً بمنهاج عيسى ﷺ وشريعته، داعياً إلى دينه، كما
 كان مبشّراً برسول الله وبعثه عليه الصلاة والسلام»^(٣). وأما معجزته بحسبهم
 فتتمثّل في إطفاء بركانين، وبتعبير النصوص القديمة: «نار الحرّتين التي ظهرت
 في بني عبس ببلاد العرب، وإنّ ضوءها كان يظهر من مسيرة ثلاثة أيّام (١٣٠)
 كم تقريباً) فافتتن بها العرب حتّى كادوا يتمجّسون - أي يؤمنون بالمجوسية التي
 تقدّس النار - فبعث الله خالداً فأطفأها والنّاس من حولها ينظرون»^(٤).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٤٨.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٣٠٦.

(٣) من مقالة منشور على شبكة الإنترنت بعنوان أخبار عن سيدنا خالد بن سنان العبسي لسلمان بن عبدالواحد
 الهلالي الهوازني الجزائري.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ١٢٧.

ليالي عَشُوراء _____ ❁

ولستُ هنا بصدد البحث في مدى صحّة ما سبق، لا سيّما بلحاظ الخبر المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام وفيه: «إنّ خالداً كان عربياً بدوياً ما كان نبياً، وإنّما ذلك شيء يقوله الناس»^(١). ولكنني أتساءل: هل يمكن السّماح لمثل هذا التأثير، أم أنّ علينا أن نمنعه؟ وهل من حدود يجب أن تُوضَع للفصل بين الأمرين؟ وهل هذا ممكن؟

• قضايا متشابكة

مثل هذا التأثير سمح لإحداث نوع من التداخل والخلط بين ما هو من العقيدة وما هو من التاريخ، ولدينا أمثلة عديدة يقع النزاع في كونها من القضايا العقديّة أم التاريخيّة، من قبيل:

١- هل كانت لنبيّنا عليه السلام معاجز سوى القرآن؟ وما هي؟

٢- مسألة أنّه لا يدفن الإمام إلا الإمام.

٣- الظلمات الواقعة على أهل البيت عليهم السلام.

وغير ذلك كثير، وتدخل فيها القضية التي أثارَت كلّ هذا البحث وهي: هل يعرف الإمام موعد وفاته؟ فبين أيدينا مجموعة من الأخبار تحدّثت عن أنّ الأئمّة عرفوا مواعيد وفياتهم، وأنّهم أخبروا بعض الناس عن ذلك، فهل نُبقي هذا الأمر في دائرة التاريخ، أم نستطيع بذلك تحويلها إلى مفردة عقديّة؟

• أهمية الموضوع

وتتضح أهميّة البحث لأنّ جزءاً من التراشق بتهمة الخروج من المذهب أو الإسلام أو الانتقاص من العقيدة ينشأ من هذا الخلط والامتزاج بين ما هو فقهيّ وما هو عقديّ وبين ما هو تاريخيّ وما هو عقديّ، ومثال ذلك ما جاء في إحدى

(١) الطبرسي: الاحتجاج، ج٢، ص٩١.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

* —————
المواقع السلفية حيث سُئل المحرّر: ما الفرق بين المسائل العلمية والاعتقادية؟ فكان الجواب: «المسائل العلمية هي التي يرد فيها الخلاف، ويكون الخلاف فيها جارياً بين أهل السنة أنفسهم، ويسع فيها الخلاف، حيث تتنازع فيها الأقوال، وكلّ معه دليل أو وجه من الاستدلال، فهذه المسائل الخلافية تُسمّى مسائل الخلاف، أما مسائل الاعتقاد فهي التي يتفق عليها السلف أو جمهور السلف، فتعتبر مسألة عقديّة حتّى وإن كانت في الأحكام، فهي داخلية في العقائد ولو كانت من صنف الأحكام، كمسألة مسح الخفّين أو غسل الرجلين، فهذه مسائل فقهية صارت من العقائد؛ لأنّ هناك من أهل الأهواء من خالف فيها النصوص مخالفة صريحة»^(١).

• الخروج من المأزق

بنيوياً، يمكن القول إنّ اعتماد القاعدة التي تحدّثنا عنها في البحث السابق بخصوص تكوين العقيدة من خلال خبر الواحد، علاوة على تحديد موضوعات كلّ علم على حدة، من شأنهما أن يساعدا كثيراً في تمييز ما هو من مسائل العقيدة وما هو خارج نطاقها.

ففي علم العقيدة يقولون إنّ كلّ مسألة تنتمي إلى دائرة: «ما يجب عقد القلب عليه والالتزام والإيمان به» فهي من المفردات العقديّة. فالتوحيد، بالنسبة إلى المسلم، قضية عقديّة، فعندما تثبت عنده لا بدّ وأن يعقد القلب عليها ويؤمن ويلتزم بها. وهكذا بالنسبة إلى أصل الإيمان بالنبوة، وباليوم الآخر.. إلخ.

وفي المقابل فإنّ آية قضية لا دليل على اندراجها ضمن ما يجب الالتزام به وعقد القلب عليه فستخرج بالتالي عن الدائرة العقديّة، حتّى لو بحثها علماء الكلام في دراساتهم.

(١) ناصر بن عبد الكريم العقل: شرح العقيدة الطحاوية، المسألة ٧٣.

ليالي عاشوراء * _____

فالسجود على الأرض ونباته مثلاً ليس من القضايا التي يجب عقد القلب عليها، بل هي خاضعة للبحث والدليل الفقهي، وبالتالي لو توصل فقيه إمامي - مثلاً - إلى عدم وجوب السجود عليها، فلن يكون قد تعرّض لمسألة عقديّة، ولا شأن لذلك في كمال عقيدته الإماميّة ونقصها.

ولكن تبرز مشكلة أخرى وهي: من يحدّد القضايا التي يجب عقد القلب عليها لتكون موضوعاً عقديّاً؟ ويبدو أنّ القضية تحتاج إلى شيء من التنضيج، ولربما هي بحاجة إلى مؤتمرات بحثية متخصصة يتم فيها تناول القضية بالتفصيل ومن خلال الآراء المختلفة.

• استخلاص مما سبق

إنّ التداخل في بعض المسائل متحقّق عمليّاً، وإنّ جانباً من ذلك هو نتاج خلل بنيويّ نظريّ بسبب عدم وجود أسس لتحديد المسائل العقديّة وفق قواعد واضحة وصارمة، وعدم حسم مسألة التأثير المتبادل بين ما هو تاريخيّ وما هو عقديّ.

وما دامت المسألة غير محسومة بهذا الشكل فلا بدّ من أن يتّقي الإنسان ربّه في إلقاء التّهم على الباحثين في هذه الدائرة المشوّشة.. لقد عاش الخوارج مشكلة التكفير بسبب مثل هذا الخلط، فهل سنكرّر تجربتهم المُرّة التي عادت وما زالت تعود على المسلمين بالويلات؟





المعصوم وعلم الغيب



سأطرح مسألة علم النبيّ أو الإمام بالغيب من خلال عدّة تساؤلات ستقودنا بالتدرّج إلى تكوين تصوّر عن الموضوع:

• السؤال الأول: هل يصحّ أن نطلق القول بأنّ النبي الأكرم ﷺ أو الإمام عليّ عليه السلام يعلم الغيب؟

• الجواب: علم الغيب من صفات الله الذاتية، وهي صفة مختصّة به سبحانه، وعليه فلا يصحّ إطلاق هذه الصفة على سواه.

قال العلامة الطباطبائي (١٤٠٢ هـ) في تفسيره: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾: «فهو عالم بالغيب لا يشاركه فيه غيره، وعالم بكلّ ما جلّ ودقّ ولا يضلّ ولا ينسى، ثم زاد ذلك بياناً بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ الآية، فيبين به اختصاصه تعالى بعلم الغيب، وشمول علمه كلّ شيء... وكيف كان فقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ مسوق لبيان انحصار العلم بالغيب فيه تعالى، إمّا لأنّ خزائن الغيب لا يعلمها إلا هو، وإمّا لأنّ مفاتيح الغيب لا يعلمها غيره تعالى، فلا سبيل لغيره إلى تلك الخزائن». وستتضح الإجابة أكثر من خلال الأسطر التالية.

• السؤال الثاني: هل يصح القول بأن علمهم بالأشياء علم لدني ذاتي وبتعبير

آخر: علم إحاطة وحضور؟

• الجواب: لا يصح، بل الصحيح أن يقال إن الله أطلعهم على شيء من علم

الغيب، فهو بالتالي علم إخبار وحصول، وهذا ما أكدّه الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)

في كتابه (أوائل المقالات) حيث قال: «القول إن الأئمة يعلمون الغيب منكر بين

الفساد، لأن الوصف بذلك إنما يستحقّه من علم الأشياء بنفسه لا بعلم مستفاد،

وهذا لا يكون إلا لله ﷻ، وعلى قولي هذا جماعة أهل الإمامة، إلا من شدّد

عندهم من المفوضة ومن انتهى إليهم من الغلاة»^(١).

وفي نهج البلاغة في الخطبة رقم ١٢٨: «ومن كلام له ﷺ فيما يُخبر به من

الملاحم بالبصرة: يا أحف كآتي به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا

لجب - صياح - ولا قعقة لُجْم - صوت اللجم وهي تصطك بأسنان الخيل - ولا

حمحة خيل» ويستمرّ ﷺ في ذكر بعض الحوادث المستقبلية «فقال له بعض

أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب، فضحك ﷺ وقال للرجل وكان

كلبياً: يا أبا كلب، ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم. وإنما علم الغيب

علم الساعة وما عدّد الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ

مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ

اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الآية، فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، وقبيح أو جميل،

وسخي أو بخيل، وشقي أو سعيد، ومن يكون في النار حطباً، أو في الجنان للنبيين

مراقفاً. فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه

فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري، وتضطم - أي وتنضم - عليه جوانحي»^(٢).

(١) المفيد: أوائل المقالات، ص ٦٧.

(٢) الشريف الرضي: نهج البلاغة، خ ١٢٨.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 وقد سُئِلَ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام كما في كتاب (رجال الكشي):
 «إنهم يزعمون أنك تعلم الغيب. فقال: سبحان الله! ضع يدك على رأسي، فوالله
 ما بقيت في جسدي شعرة ولا في رأسي إلا قامت! قال: ثم قال: لا والله ما هي
 إلا رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله»^(١).

وهذه الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله هي المصدر الأساس في علومهم، ويضاف إليها
 حالات من الإلهام، وقد قال الشيخ المظفر (ت ١٣٨٣ هـ) في كتابه (عقائد
 الإمامية): «أما علمه فهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات
 من طريق النبي أو الإمام الذي قبله، وإذا استجدّ شيء لا بدّ أن يعلمه من طريق
 الإلهام بالقوّة القدسيّة التي أودعها الله تعالى فيه»^(٢).

ويؤكّد ما سبق قوله صلى الله عليه وآله في حقّ نبينا صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ لَا أَمَلُكَ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
 إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا
 إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ولكن قيل: إنّ المنفي هو العلم الذاتي، وكأنّ الله يوجّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن
 يقول: «ولو كنت أعلم الغيب علماً ذاتياً».

أقول: هذا توجيه باطل، لأنّ الآية بعد ذلك تقول: ﴿لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ
 وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، فالنبي صلى الله عليه وآله ينفي استكثاره من الخير وتخلّصه ممّا يُصيبه من
 مرض وإصابات جسدية وجوع وغير ذلك، ولو كان يعلم الغيب بصورة مطلقة
 من خلال التعليم الإلهي أو من خلال المقوّمات الموهوبة له من الله لاستكثر من
 الخير ولم يمسّه السوء، وحاشا النبي أن يكذب أو يتظاهر بغير الحقيقة.

وتتضح الصورة أكثر بما جاء بعد ذلك بقوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٥، ص ٢٩٣، ح ٥٠.

(٢) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٦٧.

يُؤْمِنُونَ ﴿ أَيَّ إِنَّ هَذِهِ هِيَ مَسْئُولِيَّتِي، وَعِلْمِي بِالْأُمُورِ - بِمَا فِيهَا الْغَيْبِيَّةُ - إِنَّمَا يَرْتَبِطُ بِهَذِينَ الْعُنَوَانِينَ .

• السؤال الثالث: هل يصحُّ القولُ إنَّ علمهم محيطٌ بكلِّ شيءٍ من خلال ما علَّمهم اللهُ ﷻ؟

• الجواب: لا يصحُّ ذلك، فهذا ممَّا يختصُّ به اللهُ ﷻ، نعم هم محيطون بما يرتبط بالهداية، أمَّا الحوادث والمغيَّبات والمستقبلات وغير ذلك ممَّا لا علاقة مباشرة له بالهداية فلا يشترط علمهم بها، فقد يعلمون بشيء منها، وقد تغيب عنهم، قال الشيخ المفيد في (المسائل العكبورية): «وليس من شرط الأنبياء ﷺ أن يحيطوا بكلِّ علم، ولا أن يقفوا على باطن كلِّ ظاهر، وقد كان نبينا ﷺ أفضل النبيين وأعلم المرسلين، ولم يكن محيطاً بعلم النجوم ولا متعرِّضاً لذلك، ولا يأتي منه قول الشعر ولا ينبغي له، وكان أمياً بنصِّ التنزيل، ولم يتعاطَ معرفة الصنائع، ولما أراد المدينة استأجر دليلاً على سنن الطريق، وكان يسأل عن الأخبار ويخفي عليه منها ما لم يأت به إليه صادق من الناس»^(١).

وارتباط علم النبيِّ والأئمة في الأساس بما فيه هداية للناس، أكده محمد بن علي المازندراني المعروف بابن شهر آشوب في كتابه (متشابه القرآن ومختلفه): «النبيِّ والإمام يجب أن يعلموا علوم الدين والشريعة، ولا يجب أن يعلموا الغيب وما كان وما يكون، لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى أنَّهما مشاركان للقديم تعالى في جميع معلوماته، ومعلوماته لا تتناهى .. ويجوز أن يعلموا الغائبات والكائنات الماضية والمستقبلات بإعلام الله تعالى لهما شيئاً منها»^(٢).

وعليه فإنَّ القول بأنَّ لديهم علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة لا يستقيم،

(١) المفيد: المسائل العكبورية، ص ٣٤.

(٢) ابن شهر آشوب: متشابه القرآن ومختلفه، ج ١، ص ٢١١.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

والأدلة قائمة على خلافه، قال المفيد في (المسائل العكبرية): «القول بأنّه يعلم كلّ ما يكون، فلسنا نطلقه ولا نصوّب قائله لدعواه فيه من غير حُجّة ولا بيان»^(١).

• وحدة مسار

ولنلاحظ أيضاً ما جاء في شأن النبيّ موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ﴾ [طه: ٥١-٥٢] ففي تفسير (الصافي) للفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ): «أَيَّ إِنَّهُ غَيْبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِثْلَكَ لَا أَعْلَمُ مِنْهُ إِلَّا مَا أَخْبَرَنِي بِهِ»^(٢).

وبمثل ذلك تحدّث القرآن عن نبينا عليه السلام بعد سرد قصّة النبي نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]

وقد أكّد الأئمة عليهم السلام بدورهم في أكثر من مناسبة وبكلّ وضوح على أنّهم لا يعلمون تفاصيل بعض الأمور التي لا علاقة لها بأمور الدين ومنه ما رواه أبو بصير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنهم يقولون. قال: وما يقولون؟ قلت: يقولون تعلم قطر المطر وعدد النجوم وورق الشجر ووزن ما في البحر وعدد التراب! فرفع يده إلى السماء وقال: سبحان الله سبحان الله! لا والله ما يعلم هذا إلا الله»^(٣).

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «يُبَسِّطُ لَنَا الْعِلْمَ فَنَعْلَمُ، وَيُقْبِضُ عَنَّا فَلَا نَعْلَمُ»^(٤).

(١) المفيد: المسائل العكبرية، ص ٣٤.

(٢) الكاشاني: الصافي في تفسير القرآن، ج ٣، ص ٣٠٩.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٥، ٢٩٤، ح ٥٢.

(٤) م. ن. ج ٢٦، ٩٦، ح ٣٥.



الغيب في القرآن



بيّنتُ في البحث السابق جوانب من مسألة مدى علم النبي الأكرم ﷺ والإمام عليّ عليه السلام بالغيب، والآن أقدم نموذجاً عملياً لكيفية الاستفادة من القواعد التي قرّناها خلال المقدمات السابقة في تقييم مثل الخبر التالي الوارد في أصول الكافي تحت باب «أنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون وأنّه لا يخفى عليهم الشيء صلوات الله عليهم» وفيه ستة أحاديث: «عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن محمد، عن محمد بن سنان، عن يونس بن يعقوب، عن الحارث بن المغيرة، وعدّة من أصحابنا منهم عبد الأعلى وأبو عبيدة وعبد الله بن بشر الخثعمي» ذكره السيد الخوئي باسم بشير «سمعوا أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّي لأعلم ما في السماوات وما في الأرض وأعلم ما في الجنّة وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان وما يكون، قال: ثم مكث هنيئة فرأى أنّ ذلك كبر على من سمعه منه، فقال: علمت ذلك من كتاب الله وعلمت، إنّ الله وعلمت يقول فيه تبيان كل شيء»^(١).

• تقييم الخبر

- أولاً، بغضّ النظر عن السند المشتمل على محمد بن سنان والذي عبّر عنه بأنّه: «رجل ضعيف جداً لا يعول عليه» وأنّ الفضل بن شاذان قال عنه: «لا أحلّ

(١) الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٦١، ح ٢.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

لكم أن ترووا أحاديث محمد بن سنان»، وذكر الكشي أنّ: «محمد بن سنان غالٍ من أركان الغلاة» وذكر الشيخ المفيد في (الرسالة العددية) أنّ: «محمد بن سنان مطعون فيه، لا يختلف العصابة في تهمة وضعفه، ومن كان هذا سبيله لم يعتمد عليه في الدين»^(١)، فإننا نعرض متن الحديث على مجموع ما جاء في القرآن الكريم من علاقة النبي - وبالتالي الإمام - بعلم الغيب لنرى مدى إمكانية الانسجام بين المضمونين، ومن ثمّ مدى إمكانية قبول هذا الخبر، فنقول:

١- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧-١٨٨].

٢- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

٣- ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

٤- ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

٥- ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

(١) انظر ترجمته في معجم رجال الحديث للسيد الخوئي.

٦- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

٧- ﴿قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدِ أُنْبِغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٥-٢٨].

٨- ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

٩- وهذه أيضاً كانت تأكيدات الأنبياء من قبل كnoch ﷺ في الحياة الدنيا: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

١٠- وفي الآخرة على لسان النبي عيسى ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي الْهَيْبِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

١١- وكذلك على لسان الأنبياء ﷺ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].



• توجيه المحقق الحسنی

السید هاشم معروف الحسنی (ت ١٤٠٣ هـ) له أكثر من عشرين مؤلفاً قيماً من أشهرها سيرة المصطفى، سيرة الأئمة الاثني عشر، أصول التشيع، الموضوعات في الآثار والأخبار، بين التشيع والتصوّف، دراسات في الحديث والمحدثين.

وقدّم في كتابه (دراسات في الحديث والمحدثين) استدلالاً لطيفاً حول المسألة التي نبحت فيها، حيث قال: «ومن خلال دعواته وابتهالاته إلى الله سبحانه عندما يناجي ربّه، أو تعترضه الحوادث وتهزه النكبات، من خلال تلك الدعوات يبدو الإمام على عظمته ويقينه واتّساع علمه وكأنّه من أضعف خلق الله يخاطب ربّه خطاب عبدٍ ذليل قد انقطع أمله من كلّ شيء لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضرراً ولا يجلب لها خيراً. فقد روى في الكافي أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان يقول في دعائه: «اللهم آمن خوفي وعافني فيما بقي من عمري، وثبت حُجّتي، واغفر خطاياي، واعصمني في ديني، وسهّل مطلبي، ووسّع عليّ في رزقي فأنيّ ضعيف، وهب لي يا إلهي لحظة من لحظاتك تكشف بها عنيّ جميع ما به ابتليتني، فقد ضعفت قوّتي وقلّت حيلتي، وانقطع من خلقك رجائي، ولم يبقَ إلا رجاءوك وتوكّلي عليك، وقدرتك عليّ يا ربّي أن ترحمني كقدرتك عليّ أن تعذبني وتبتليني، إلهي لم أخلُ من نعمك منذ خلقتني وأنت ربّي ومفزعني وملجئي، والحافظ لي والذاب عنيّ، فليكن يا سيّدي ومولاي فيما قضيت وقدرت وحتمت تعجيل خلاصي ممّا أنا فيه جميعه، فأني لا أجد لدفع ذلك كلّه أحداً غيرك، ولا أعمد فيه إلا عليك». هذه الدعوات والابتهالات التي تنبض بالإيمان المطلق والعبودية الخالصة، والحاجة إليه في صغير الأمور وكبيرها، بالإضافة إلى بعض المرويّات التي حدّد فيها الإمام عليه السلام موقفه من الغلاة والمرجفين والدسّاسين، كلّ هذه وغيرها من مواقفهم عليهم السلام لسدّ الطريق على كلّ من يحاول أن يجعل

للإمام خصائص الخالق وميزة الأنبياء المرسلين، وتحتّم علينا تأويل بعض المرويّات التي تنسب له علم الغيب والقدرة على كلّ شيء ونحو ذلك ممّا يعجز عنه الإنسان بالغاً ما بلغ. لا بدّ من تأويل تلك المرويّات حيث يكون التأويل ممكناً، أو طرحها، لا سيما وأنّ أكثر رواها لم تتوفّر فيهم الشروط المطلوبة في الراوي^(١).

• توقيع الإمام المهدي عليه السلام

وممّا يؤكّد المضمون ذاته التوقيع الصادر عن الإمام محمد بن الحسن المهدي عليه السلام عن طريق النائب الثالث الحسين بن روح النوبختي، جواباً لكتاب كتّب إليه على يدَيّ محمد بن علي بن هلال الكرخي وفق ما جاء في (الاحتجاج) للطبرسي (ت ٥٤٨ هـ): «يا محمد بن علي، تعالى الله عزّ وجلّ عمّا يصفون، سبحانه وبحمده، ليس نحن شركاءه في علمه ولا في قدرته، بل لا يعلم الغيب غيره كما قال في محكم كتابه تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وأنا وجميع آبائي من الأوّلين: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من النبيّين، ومن الآخرين: محمّد رسول الله وعليّ بن أبي طالب والحسن والحسين وغيرهم ممّن مضى من الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين، إلى مبلغ أيّامي ومنتهى عصري عبيدُ الله، يقول الله تعالى عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾. يا محمّد بن علي، قد آذانا جهلاء الشيعة وحمقاًؤهم، ومن دينه جناح البعوضة أرجح منه. وأشهد الله الذي لا إله إلا هو وكفى به شهيداً، ومحمّداً رسوله، وملائكته وأنبياءه وأولياءه، وأشهدك وأشهد كلّ من سمع كتابي هذا، أني بريء إلى الله وإلى رسوله

(١) الحسيني: دراسات في الحديث والمحدثين، ص ٣٠٥-٣٠٦.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م - *
 ممّن يقول إنّنا نعلم الغيب، أو نشاركُ الله في مُلكه، أو يُحلُّنا محلاً سوى المحل
 الذي نصبه الله لنا وخلقنا له، أو يتعدّى بنا عمّا قد فسّرته لك ويبتته في صدر
 كتابي. وأشهدكم أنّ كلّ من نتبراً منه، فإنّ الله يبرأ منه وملائكته ورُسُله وأولياؤه،
 وجعلتُ هذا التوقيع الذي في هذا الكتاب أمانةً في عنقك وعنق من سمعه، أن لا
 يكتمه من أحد من موالِيّ وشيعتي حتّى يظهر على هذا التوقيع الكلّ من الموالِيّ،
 لعلّ الله ﷻ يتلافاهم فيرجعون إلى دين الله الحقّ، وينتهون عمّا لا يعلمون منتهى
 أمره، ولا يُبلِّغ منتهاه. فكلّ من فهم كتابي ولم يرجع إلى ما قد أمرته ونهيته، فلقد
 حلّت عليه اللعنة من الله، وممّن ذكرتُ من عباده الصالحين»^(١).

• استخلاص ممّا سبق

وخلاصة القول إنّ الدليل القرآني الذي هو المرجع الأول في تكوين العقيدة
 والمعرفة الإسلامية يفيد بأنّ علم الغيب خاص بالله، وأنّ الله يُؤتي من يشاء من
 عباده علماً محدوداً، بما في ذلك جانب من أنباء الغيب من الماضي والمستقبل،
 على أن تكون الهداية هي الأساس فيما يؤتونه من علوم بإرادة الله سبحانه.



(١) الطبرسي: الاحتجاج، ج٢، ص٢٨٢-٢٨٩.

المعصوم هل يعلم وقت وفاته وحيثياتها؟! *

بعد أن استعرضتُ بعض الأدلة الخاصة بحدود علم النبي الأكرم ﷺ والإمام عليّ عليه السلام، يتفرّع سؤال عام وهو: هل يعلم الإمام بوقت وفاته؟ وإذا كان الجواب بنعم، وأنه يعلم بأنه سيموت مسموماً أو مقتولاً ضمن ظروف محدّدة، فإنّ البعض يتساءل عن مدى مشروعية مُضيّه في طريق الموت دون أن يُعتبر نوعاً من الانتحار أو إلقاء النفس في التهلكة.

تمسك المؤيّدون بعلم النبي أو الإمام بوقت وفاته - وضميناً بالسبب المؤدّي لذلك - بعدة أحاديث بوّها المجلسي (ت ١١١ هـ) في موسوعته (بحار الأنوار) تحت عنوان: «أنهم يعلمون متى يموتون، وأنه لا يقع ذلك إلا باختيارهم».

• الرواية الأولى: عن إبراهيم بن أبي محمود عن بعض أصحابنا قال: قلت للرضا عليه السلام: «الإمام يعلم إذا مات؟ قال: نعم يعلم بالتعليم حتى يتقدّم في الأمر. قلت: علم أبو الحسن عليه السلام بالرطب والريحان المسمومين اللذين بعث إليه بهما يحيى بن خالد؟ قال: نعم، قلت: فأكله وهو يعلم؟ قال: أنساه لينفذ فيه الحكم»^(١).
تعليق: الرواية الثانية جاءت بالمضمون نفسه مع اختلاف يسير في العبارة.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٨٥.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م * _____

• الرواية الثالثة: عن ابن مسافر قال: «قال لي أبو جعفر عليه السلام (أي الإمام الجواد) في العشيّة التي اعتلّ فيها من ليلتها العلة التي توفي فيها: يا عبدالله، ما أرسل الله نبياً من أنبيائه إلى أحد حتّى يأخذ عليه ثلاثة أشياء، قلت: وأي شيء هو يا سيدي؟ قال: الإقرار لله بالعبودية والوحدانية، وأنّ الله يقدم ما يشاء، ونحن قوم إذا لم يرض الله لأحدنا الدنيا نقلنا إليه»^(١). تعليق: دلالة الخبر على مضمون العنوان غير واضحة.

• وعن أبي بصير قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الإمام لو لم يعلم ما يصيبه وإلى ما يصير، فليس ذلك بحجة الله على خلقه»^(٢).

تعليق: وهنا أيضاً دلالة الخبر على العنوان غير حاسمة.

وعن السائي [وهو علي بن سويد] قال: «دخلت عليه - أي الإمام الكاظم عليه السلام - وهو شديد العلة فيرفع رأسه من المخدّة ثم يضرب بها رأسه ويزبد، قال: فقال لي: صاحبكم أبو فلان. قال: فقلت: جعلت فداك نخاف أن يكون هؤلاء اغتالوك عندما رأوك من شدة عليك. قال: فقال: ليس عليّ بأس، فبرأ الحمد لله رب العالمين»^(٣). تعليق: وهذه أيضاً لا تدلّ بالدقّة على معرفتهم بموعد وفاتهم، بل تدلّ على أنّ الإمام عرف أنّ وفاته ليست في هذه العلة لا أكثر، أمّا أنه يعرف متى سيموت فلا دلالة فيها.

وعن سدير قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ أبي مرض مرضاً شديداً حتّى خفنا عليه، فبكى بعض أهله عند رأسه فنظر إليه فقال: إنّني لست بميت من وجعي هذا، إنّه أتاني اثنان فأخبراني أنّي لست بميت من وجعي هذا. قال: فبرأ ومكث

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٨٦.

(٢) م. ن، ج ٢٧، ص ٢٨٦.

(٣) م. ن، ج ٢٧، ص ٢٨٦.

ليالي عَشُوراء

ما شاء الله أن يمكث، فبينما هو صحيح ليس به بأس قال: يا بني، إن اللذين أتياي من وجعي ذلك أتياي فأخبراني أنني ميت يوم كذا وكذا، قال: فمات في ذلك اليوم»^(١).

• تعليق المحقق محسني

وقد علّق آية الله المحقق المعاصر الشيخ محمد آصف محسني في (مشرعة بحار الأنوار) على هذا الباب قائلاً: «فيه ست روايات غير معتبرة تدلّ على الجزء الأول من العنوان في الجملة، وأمّا الجزء الأخير فلم يذكر له رواية»^(٢).

• التحقيق في روايات أخرى

علماً أنّ هناك روايات أخرى بثّها المجلسي عند حديثه عن تواريخ الأئمة عليهم السلام ومنها ما عن أبي جميلة، عن عبد الله بن أبي جعفر قال: «حدّثني أخي، عن جعفر، عن أبيه أنّه أتى عليّ بن الحسين عليه السلام ليلة قبض فيها بشراب فقال: يا أبتِ اشرب هذا. فقال: يا بني إنّ هذه الليلة التي أُقبض فيها وهي الليلة التي قبض فيها رسول الله صلى الله عليه وآله»^(٣). تعليق: أبو جميلة متسالم على ضعفه عند محقّقي الرجال.

وعن سهل بن زياد، عن محمّد بن عبد الحميد، عن الحسن بن الجهم قال: قلت للرضا عليه السلام: «إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد عرف قاتله والليلة التي يُقتل فيها والموضع الذي يُقتل فيه وقوله لما سمع صياح الإوز في الدار: صوائح تتبعها نوائح، وقول أم كلثوم: لو صلّيت الليلة داخل الدار وأمرت غيرك يصلّي بالناس، فأبى عليها وكثر دخوله وخروجه تلك الليلة بلا سلاح وقد عُرف عليه السلام أنّ ابن

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٨٧.

(٢) محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج ١، تعليقاً على روايات الباب.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢١٣، ح ٦.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

ملجّم لعنه الله قاتله بالسيّف، كان هذا ممّا لم يجزّ تعرضه، فقال: ذلك كان ولكنّه حُير في تلك اللّيلة، لتمضي مقادير الله عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(١).

وقد قال النجاشي (ت ٤٥٠ هـ): «سهل بن زياد كان ضعيفاً في الحديث غير معتمدٍ عليه فيه، وكان أحمد بن محمد بن عيسى يشهد عليه بالغلوّ وبالكذب وأخرجه من قم» ^(٢) كما ضعّفه الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) أيضاً.

وعلى العموم فقد قال المحقق الشيخ آصف محسني في كتابه (صراط الحق): «علم الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بأوقات موتهم وارتحالهم عن الدنيا كلّها بأسرها ضعيفة الإسناد إلا ما عن بصائر الدرجات.. لكن سبق أنّ نسخة كتاب البصائر لم تصل بسندٍ معتبرٍ إلى المجلسي رَحِمَهُ اللهُ.. ولأجل ذلك أنكر الشيخ المفيد قدس سرّه ذلك» ^(٣).

• استخلاص النتائج

والذي يمكن أن نقوله بلحاظ المنهج الذي اعتمدناه والتفاصيل السابقة:

١- تعارض القول بعلم الإمام بموعد ومكان وفاته بالتفصيل والدقّة مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]. وفي الخصال، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «ألا أخبركم بخمسة لم يُطلع الله عليها أحداً من خلقه؟ قلت: بلى. قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾».

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٤٦، ح ٤٧.

(٢) تهذيب المقال: النجاشي، ج ١، ص ٤١٧.

(٣) محسني: صراط الحق، ج ٣، بحث حول علم الأئمة.

ليالي عَشُوراء _____ ❁

قد يقال إننا نشهد أنّ الإنسان قد يعرف في أيّامه الأخيرة أين سيموت بسبب المرض أو حكم الإعدام مثلاً، فكيف نفهم الآية؟ ولم نمنع ذلك الحدّ من العلم عن الإمام عليه السلام؟

والجواب عن ذلك أنّه يظهر أنّ الآية تريد التأكيد على اختصاص الله بعلم ذلك في تفاصيله وخصائصه وبدقّة، وأنّ هذا العلم ناشئ من أنّه الخالق المدبّر، لا العلم الإجمالي كما يحصل بكشف جنس الجنين، أو موعد هطول المطر الاصطناعي، أو معرفة مكان الموت إجمالاً، وهذا ما بيّنه الإمام عليّ عليه السلام في حديث استعرضناه في البحث السابق. هذا ويمكن القول إنّ قوله ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ لا يخصّ المكان بحسب الظاهر، بل تعبير عن جهل الإنسان بخصوصيّات موته من حيث الزمان والمكان والتفاصيل. ولذا يمكن القول إن الإمام قد يُعلم بمكان موته وزمنه بصورة إجمالية لا تُعارض المفهوم الدقيق للآية.

٢- العقائد لا تُؤخذ من خبر الواحد كما بيّنا مسبقاً، ومنها الاعتقاد بعلم الإمام بالدقّة بوقت وفاته.

٣- الأحاديث في الباب ضعيفة السند لا يصحّ الركون إليها.

٤- يمكن تأويل بعض الأخبار بأنّها من العلم الإجمالي لا الدقيق والتفصيلي، تماماً كما يحصل لبعض الناس من شعورهم بدنوّ آجالهم، وفي ذلك حوادث وقصص كثيرة. وفي البخاري قال: «عن جابر قال: لما حضر أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أوّل مَنْ يُقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك غير نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنّ عليّ ديناً فاقض واستوص بأخواتك خيراً، فأصبحنا فكان أوّل قتيل ودفن معه آخر في قبر، ثم لم

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته
هنية غير أذنه»^(١).

٥- ولعلّ وجود هذا الإشكال دفع إلى وضع الروايات على لسان
الأئمة عليهم السلام بعنوان التحيير والإنساء، ممّا خلق مشكلة جديدة احتاجت إلى
معالجة مرة أخرى، وهي نسبة النسيان والسهو إلى الإمام وعلاقة ذلك بالعصمة،
كما أنّها تتعارض مع مضمون أخبار أخرى تؤكد علم الإمام وإصراره على
الإقدام.

• الرأي النهائي للمحقّق محسني

ولذا لا أتفق مع المحقّق الشيخ محسني حيث صحّح القول بعلمهم بذلك في
نهاية بحثه في كتاب (صراط الحق) معتمداً في ذلك على وجود الروايات التي
تبيّن سعة علمهم قال: «إلا أنّ من وقف على الروايات الواردة في كميّة علومهم
بأنواعها المتقدّمة يطمئنّ بأنهم عليهم السلام يعلمون أوقات موتهم وما يصيبهم من
شهادة أو موت»^(٢).

وقد قال السيّد المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) في (رسائله): «مسألة: هل يجب علم
الوصيّ ساعة وفاته أو قتله على التعيين؟ أم ذلك مطويّ عنه. الجواب: قد بينّا في
مسألة أمليناها منفردة ما يجب أن يعلمه الإمام وما يجب أن لا يعمل به. وقلنا: إنّ
الإمام لا يجب أن يعلم الغيوب وما كان وما يكون، لأنّ ذلك يؤدّي إلى أنّه مشارك
للقديم تعالى في جميع معلوماته، وأنّ معلوماته لا يتناهى، وأنّه يوجب أن يكون
عالمًا بنفسه، وقد ثبت أنّه عالم بعلم محدث، والعلم لا يتعلّق على التفصيل إلا

(١) صحيح البخاري: ج ١٢٨٦.

(٢) محسني: صراط الحق، ج ٣، بحث حول علم الأئمة.

بمعلوم واحد، ولو علم ما لا يتناهى لوجب وجود ما لا يتناهى من المعلومات، وذلك مُحال. وبينا أنّ الذي يجب أن يعلمه علوم الدين والشريعة. فأما الغائبات، أو الكائنات الماضية والمستقبلات، فإنّ علم بإعلام الله تعالى شيئاً فجائز، وإلا فذلك غير واجب. وعلى هذا الأصل ليس من الواجب علم الإمام بوقت وفاته، أو قتله على التعيين. وقد رُوِيَ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام في أخبار كثيرة كان يعلم أنّه مقتول، وأنّ ابن ملجم لعنه الله قاتله. ولا يجوز أن يكون عالماً بالوقت الذي يقتله فيه على التحديد والتعيين، لأنه لو علم ذلك لوجب أن يدفعه عن نفسه ولا يلقى بيده إلى التهلكة، وأنّ هذا في علم الجملة غير واجب»^(١).

وفي نهاية المطاف نقول: إنّ النبي - أو الإمام - قد يعلم إجمالاً بموعد وفاته، كما أخبر النبي ﷺ بأنه قد لا يلقى المسلمين الحجّاج بعد عامهم هذا، وكذلك بمكان الوفاة، كما في خصوص الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده بكر بلاء، إلا أنّ التفاصيل الدقيقة تغيب عنه لأنها من مختصات الله ﷻ، ولكي لا يقع النبي أو الإمام في محذور إلقاء النفس في التهلكة بالاستسلام لعملية اغتيال بالسّم مثلاً، ويغنيها عن كلّ المتاهات التي ندخل فيها حين القول بعلمهم الدقيق والتفصيلي بذلك. والله العالم.



(١) المرتضى: الرسائل، ج ٣، ص ١٣٠-١٣٢.



لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام مع علمه المسبق باستشهاده؟!



نعود الآن إلى سؤالنا الرئيسي: هل كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم عند خروجه إلى العراق بأنه خارج للشهادة في كربلاء؟ وبالتالي: هل خرج لكي يُستشهد في كربلاء؟ وإذا كان الجواب مثبتاً، فما المسوّغ الشرعيّ لذلك؟ أم أنه عليه السلام خرج لينجح في ثورته ميدانياً لكي يؤسس دولة؟

سأستعرض ابتداءً جانباً من أقوال وأدلة أصحاب الرأي الأول الذين ذهبوا للقول بوجود العلم الإجمالي لدى الإمام باستشهاده دون العلم التفصيلي الذي تترتب عليه - بحسبهم - العديد من الإشكالات، ومن أهمها مشروعية الخروج إلى العراق في ظلّ ذلك العلم التفصيلي المدّعى للإمام عليه السلام.

• الرؤية الأولى

خلاصة هذه الرؤية أنّ الإمام كان يعلم باستشهاده على نحو الإجمال، دون التفاصيل، فهو لم يكن يعلم بالزمان الدقيق لاستشهاده، ولم يعلم في بدء خروجه من الحجاز أنّه سيمنع من الوصول إلى الكوفة، وأنّه بالتالي سيتوجّه إلى كربلاء.. بل إنّه خرج إلى العراق ليحقّق نصراً ميدانياً من خلال السيطرة على الكوفة وإعلان قيام دولته، إلا أنّ غدر القوم وتبدّل الأمور تدريجياً حال دون ذلك، واضطّرت الظروف

لاختيار المواجهة بتلك الصورة غير المتكافئة في العاشر من محرّم.

وتبرز هنا أسماء لها وزنها من علمائنا المتقدمين الذين تبّنوا هذا الرأي الذي اضمحلّ القائلون به - في هذا العصر - إلى درجة كبيرة. وممن تبني هذا الرأي الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) والسيد المرتضى (ت ٤٣٦هـ) وشيخ الطائفة الطوسي (ت ٤٦٠هـ) والطبرسي (ت ٥٤٨هـ).

١- الشيخ المفيد طرح في كتابه (المسائل العكبرية) أسئلة بُعثت إليه من ضمنها السؤال التالي، ونأخذ منه موضع الحاجة: «قال السائل: الإمام عندنا مجمع على أنه يعلم ما يكون، فما بال أمير المؤمنين عليه السلام خرج إلى المسجد وهو يعلم أنه مقتول وقد عرف قاتله والوقت والزمان؟ وما بال الحسين عليه السلام صار إلى أهل الكوفة وقد علم أنهم يخذلونه ولا ينصرونه، وأنه مقتول في سفرته تلك؟».

وأجاب الشيخ المفيد عنها بالتفصيل، ومما ذكره: «والجواب - وبالله التوفيق - عن قوله: إنّ الإمام يعلم ما يكون بإجماعنا، أنّ الأمر على خلاف ما قال، وما أجمعت الشيعة قط على هذا القول، وإنّما إجماعهم ثابت على أنّ الإمام يعلم الحكم في كلّ ما يكون» أي يعلم التكليف في الحوادث التي تطرأ عليه أو على غيره «دون أن يكون عالماً بأعيان ما يحدث ويكون، على التفصيل والتميز. وهذا يُسقط الأصل الذي بنى عليه الأسئلة بأجمعها ذلك. ولسنا نمنع أن يعلم الإمام أعيان الحوادث، تكون بإعلام الله تعالى له ذلك، فأما القول بأنّه يعلم كلّ ما يكون، فلسنا نطلقه ولا نصوّب قائله لدعواه فيه من غير حجة ولا بيان. والقول بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعلم قاتله والوقت الذي يُقتل فيه، فقد جاء الخبر متظاهراً (متصافراً) أنّه كان يعلم في الجملة أنّه مقتول، وجاء أيضاً بأنّه كان يعلم قاتله على التفصيل، فأما علمه في وقت قتله فلم يأت فيه أثر على التفصيل».

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 وبعد أن طرح فرضية العلم التفصيلي للإمام عليّ عليه السلام بذلك، وردّ الإشكال
 قال: «فأما علمُ الحسين عليه السلام بأنّ أهل الكوفة خاذلوه، فلسنا نقطع على ذلك، إذ
 لا حجة عليه من عقل ولا سمع»^(١).

٢- الشريف المرتضى في كتابه (تنزيه الأنبياء) طرح الإشكال بصورة مفصلة
 شملت تساؤلات عن:

• الهدف من خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة مع قوّة احتمال غدر
 أهلها به.

• الغرض من إرسال مسلم بن عقيل إلى الكوفة في ضوء علمه المسبق
 بمجريات الأحداث، وأنّ مسلماً سيُستشهد فيها.

• مشروعية توجّهه إلى كربلاء مع علمه عليه السلام أنّه سيُستشهد فيها.

وقد أجاب الشريف المرتضى عن تلك الأسئلة بالتفصيل وفق رؤيته التي
 تتلخّص في عدم وجود علم تفصيلي لدى الإمام عليه السلام بمجريات الأحداث وما
 ستؤول إليه، وأنّه تصرف بشكل منطقيّ وفق علمه بظاهر الأمور، والتطوّرات
 التدريجية للأحداث. وسعى المرتضى أن يؤيدّ رؤيته هذه بالدليل العقليّ
 والنقليّ، فجاء في جوابه حول مشروعية خروج الإمام إلى العراق: «قلنا قد علمنا
 أنّ الإمام متى غلب في ظنّه أنّه يصل إلى حقّه والقيام بما فوّض إليه بضرب من
 الفعل، وجب عليه ذلك وإن كان فيه ضرب من المشقة يُتحمّل مثلها تحمّلها»،
 ثم بدأ يسرد تفاصيل الأحداث التاريخية التي تدعم فكرته.

ثم أضاف بخصوص المبرر الشرعيّ لاختيار المواجهة في كربلاء مع قلة
 العدد: «وليس يمتنع أن يكون عليه السلام من تلك الأحوال مجوّزاً أن يفيء إليه قوم

(١) المفيد: المسائل العكبرية، ص ٦٩.

ليالي عَشُورَاءُ _____ ❁

مَمَّن بايعه وعاهده وقعد عنه، ويحملهم ما يكون من صبره واستسلامه وقلة ناصره على الرجوع إلى الحقِّ ديناً أو حمية، فقد فعل ذلك نفر منهم حتَّى قُتلوا بين يديه شهداء. ومثل هذا يُطمع فيه ويُتوقَّع في أحوال الشدَّة»^(١).

والذي يؤخِّد على السيِّد المرتضى في عرضه وحشد أكبر قدر ممكن من الأدلَّة، أنه فرغ النهضة الحسينيَّة من محتواها القيِّمي بشكل كبير: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الإصلاح، مقارعة الباطل، مواجهة مَحَقِّ الدين من قبل الأمويِّين، رفض الذلِّ، الاستعداد للشهادة من أجل المبادئ»، وأهمل من خلال ذلك دلالات نصوص استعرضت تفاصيل الثورة الحسينيَّة.

٣- شيخ الطائفة الطوسي، وهو لم يخرج عن إطار ما ذكره أستاذه الشريف المرتضى، بل نقل نصَّ عباراته.

٤- الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي صاحب تفسير مجمع البيان وقد سار في الاتجاه السابق نفسه، حيث أكد على عدم وجود علم تفصيلي لدى الإمام الحسين عليه السلام بظروف استشهاده، وأنه احتمل أن ابن زياد سيدبّر له محاولة اغتيال، فاختار الشهادة في ساحة المعركة.

• أدلَّة إضافية

مؤيِّدو هذا الرأي من المعاصرين، من قبيل الشيخ صالح نجف آبادي صاحب كتاب (شهيد جاويد/ الشهيد الخالد) والذي أثار ضجَّة كبرى في الأوساط الحوزويَّة والثقافية الإيرانيَّة في بداية السبعينيَّات من القرن العشرين، أضافوا نقاطاً أخرى، ومنها:

١- ترحيب الإمام عليه السلام بدعوة أهل الكوفة له، وإرساله مسلماً بوصفه سفيراً

(١) المرتضى: تنزيه الأنبياء، ص ٢٢٧-٢٢٨.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

له بغية التمهيد للثورة، والوقوف على حقيقة الأمر، دليل على أنّه كان ماضياً في الثورة والسّعي للحكم.

٢- عدم تحرّك الإمام الحسين عليه السلام نحو الكوفة إلا بعد وصول كتاب مسلم يخبره فيه بتوفّر الأرضية المناسبة للثورة وإقامة الحكم، ولو أنّه كان ماضياً للشهادة فقط لما انتظر ذلك.

• استخلاص ممّا سبق

كانت هذه أبرز الأسماء والأدلة المُساقاة لتأييد الرأي القائل بنفي العلم التفصيليّ لدى الإمام الحسين عليه السلام باستشهاده عند خروجه من الحجاز، وأنّ العلم الإجمالي لديه لا يتنافى مع مشروعية خروجه إلى الكوفة أولاً، ومواجهة الجيش الأمويّ بعد ذلك في كربلاء، ومن ثمّ انتهاء الأمور باستشهاده عليه السلام.





بين العلم الإجمالي والتفصيلي



استعرضت في البحث السابق الأسس التي من خلالها كَوَّن أصحاب الرأي الأول رؤيتهم حول علم الإمام عليه السلام الإجمالي باستشهاده في كربلاء عند خروجه من الحجاز إلى العراق، وعن دوافع هذا الخروج، ومشروعيته. وأذكر في هذا البحث جانباً ممّا ذكره أصحاب الرأي الآخر في تأييد قولهم بالعلم التفصيلي وعدم تنافي ذلك مع مشروعية الثورة الحسينية.

• الرؤية الثانية

وهي تتلخّص في أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان على علم بما سيجري وما الذي ستؤول إليه الأمور منذ البداية، وأنه أخبر عن ذلك، وأنّ إصراره على المضي نحو العراق كان لأجل نيل الشهادة.

أمّا لماذا يجب أن ينال الشهادة؟ فذلك يعود - بحسب البعض - إلى أنّ للإمام الحسين عليه السلام مرتبة عند الله لم يكن لينالها إلا بهذه الشهادة وبهذه الكيفية.. ووفق هذا التحليل فإنّ ثورة الإمام عليه السلام تكون ذات هدف وطابع شخصي.

وذهب آخرون إلى القول بعدم الاكتفاء بهذا الهدف، ورفضوا صبغ الثورة الحسينية بالطابع الشخصي، وإن لم ينكروا كونها غايةً تُطلب من مثل

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 الحسين عليه السلام، وهذا ما ذكره الشهيد الصدر الثاني السيد محمّد محمّد صادق
 الصدر (ت ١٤٩١ هـ) في كتابه (أضواء على ثورة الحسين).. إذ اعتبر أنّ الإمام
 قد أقدم على الشهادة لأنّ شهادته ستعود على الأمة بالخير، إذ كان يريد أن ينقذها
 من الرّدّة الحضاريّة التي كانت تعيشها، ومن الركون إلى الباطل، ومن الرضا
 بمحق الدين، وما كان هذا ليتحقّق إلا بصدمة رهيبة تتمثّل في استشهاده مع الثلّة
 المؤمنة التي شايعته ونصرته وبتلك الصورة المأساوية، وهذا ما تحقّق فعلاً من
 خلال قراءة لمجريات الأحداث بعد تلك الشهادة العظيمة.

وتبرز هنا أسماء كبيرة من قدماء علمائنا كالشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)
 والسيد ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ) والعلامة المجلسي (ت ١١١١ هـ) والمحدّث
 البحراني (ت ١١٠٩ هـ)، كما أنّه الرأى الأشهر عند المعاصرين. ومن أدلّة
 أصحاب الرؤية الثانية:

• الدليل الأول

يتلخّص هذا الدليل في أنّه منذ بداية خروج الإمام عليه السلام من المدينة كان
 جميع من حوله من الشخصيات البارزة على يقين من عدم انتصاره العسكري،
 ومن جملة هؤلاء ابن عباس وابن الحنفية وابن عمر والسيدة أم سلمة وعبد الله
 بن جعفر، فهل يُعقل أنّهم عرفوا ما ستؤول إليه الأمور، وجهله الحسين، وهو
 الإمام الذي عايش الأحداث وتبدّلاتها منذ عهد النبي صلى الله عليه وآله وأبيه عليّ عليه السلام ثم
 أخيه الحسن عليه السلام؟ وهو الإمام الذي يُفترض به أن يكون أكثر وعياً عمّن سواه
 بحقيقة الأمور، بل وحملاً للعلوم الخاصة التي ورثها عن أبيه، ومنها الإخبارات
 عن مستقبل الحوادث..

إذاً لا بدّ أن الحسين عليه السلام كان يدرك أنّه لن ينتصر، ولكنه أيضاً كان يدرك

ليالي عَاشُوراء



شيئاً آخر، وهو أنه سيُستشهد في كربلاء، وأن هذا مطلوب منه على كل حال.

ومما يُؤخذ على هذا الاستدلال بأنه قد يقال إن الإمام عليه السلام إنما أصرَّ على الخروج لأنه قامت عليه الحجة بوجود الناصر من خلال الوفود والرسائل التي وصلت بيده وعددها الضخم، ومن خلال رسالة مسلم بن عقيل الذي طلب منه الإمام أن لا يرسلها إليه إلا بعد التوثق من القوم والتأكد من عزيمتهم ونيّتهم الصادقة، تماماً كما قامت على أبيه علي عليه السلام والذي قال: «لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله تعالى على أولياء الأمر، أن لا يقاروا على كظة ظالم، أو سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها»^(١)، وقامت بعد ذلك على أخيه الحسن عليه السلام حين بايعه القوم على النصرة، فشكّل جيشه وواجه معاوية.

فموقف أمير المؤمنين وموقف الحسن بتحمّل المسؤولية لم يكن خطأً، بل انسجماً مع الحجة القائمة عليهما.. وهكذا بالنسبة للحسين عليه السلام.

كما قد يُقال إن الإمام عليه السلام لم تغب عنه حقيقة الطبيعة المتقلّبة لهؤلاء القوم، وإنه قد وضع احتمال الغدر في حساباته، وبالتالي جعل لخروجه إلى العراق خطة بديلة، بحيث إن لم تتوافر له ظروف الغلبة، فإنه سيُقدّم على عمل وطن عليه نفسه الشريفة بحيث يهزُّ به ضمير الأمة ويُخرجها من سباتها وانحرافها.

• الدليل الثاني

كان الإمام عليه السلام يتحدّث عن المصير والقضاء الإلهي المحتوم، ويبيّن لأنصاره أنهم مُقدّمون على عملية استشهادية متّوجة بالنصر الخالد عبر الأجيال، ومن ذلك ما رواه جعفر بن محمد بن قولويه (ت ٣٦٨ هـ) في كتابه (كامل

(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة، خ ٣.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م * —————

الزيارات) عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كتب الحسين بن علي من مكة إلى محمد بن علي، بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم، أما بعد، فإنّ من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح، والسلام»^(١). باعتبار أنّ الفتح هنا بمعنى الشهادة أيضاً، لا بمعنى النصر والغلبة على الأوضاع في الكوفة.

والذي يؤخذ على هذا الدليل أنّ هذا المعنى غير واضح من تعبير الإمام عليه السلام، علماً بأنّ محقق كتاب (كامل الزيارات) وهو الشيخ جواد القيومي فهم المعنى الثاني لا الأول، وكانّ الإمام الحسين عليه السلام يخيّرهم بين الشهادة والنصر، وهو تعبير وارد في القرآن وفي كلمات النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام عند الدعوة إلى القتال.

نعم النصّ الآخر الذي رواه السيد ابن طاووس في (اللّهوف/ الملهوف على قتلى الطفوف) لو ثبت صحته فإنه يدلّ على المطلوب، حيث قال: «وروي أنّه صلوات الله عليه لما عزم على الخروج إلى العراق، قام خطيباً فقال: الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله وصلى الله على رسوله وسلّم خطّ الموت على وُلدِ آدمٍ مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرعٌ أنا لاقية، كآني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكر بلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشدّ عن رسول الله لِحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّبهم عينه، وتنجز لهم وعده. من كان فينا باذلاً مهجته، موطننا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنّي راحل مصباحاً إن شاء الله»^(٢).

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات، ص ١٥٧.

(٢) ابن طاووس: اللّهوف على قتلى الطفوف، ص ٦٠-٦١.

ولكن يبرز هنا سؤال مهم: لو افترضنا أن الإمام عليه السلام صرح بهذا الكلام الواضح في بداية تحرّكه من الحجاز، وأن مصيره لن يكون سوى الشهادة في الصحراء وبهذه الصورة المأساوية.. فكيف نفسّر إصرار الطامعين في مُلك الدنيا على الانضمام إلى قافلته، وهم أنفسهم الذين سيتفرّقون عنه لاحقاً بعد قطع مسافات طويلة جداً وفق مجريات الأحداث، وذلك بعد أن يخبرهم الإمام الحسين عليه السلام عن مقتل مسلم وهانئ وغير ذلك من التفاصيل التي دفعت بهم - وهم بالملئات - للتخلّي عن الإمام، إذ لم يكن خروجهم أصلاً إلا طمعاً في الدنيا والمُلك؟

من الواضح جدّاً أنّ هذا النص لا يتوافق مع تفسير مجريات الأحداث التاريخية في سياقها الطبيعي.

• الدليل الثالث

كلّ النصوص التي رُويت عن النبي صلى الله عليه وآله والتي يُخبر فيها عن استشهاد الحسين عليه السلام بكربلاء، وقضية التربة الحمراء التي رواها عدد من المحدثين كالحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين عن أم الفضل بنت الحارث، وهي السيّدة لبابة زوج العباس بن عبد المطلب، أوّل امرأة أسلمت في مكة بعد أم المؤمنين خديجة، حيث روت أنّها دخلت يوماً على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: «يا رسول الله، إني رأيت حلماً منكرًا الليلة، قال: ما هو؟ قالت: إنّه شديد، قال: ما هو؟، قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قُطعت ووضعت في حجري، فقال رسول الله: رأيت خيراً، تلد فاطمة - إن شاء الله - غلاماً فيكون في حجرك. فولدت فاطمة الحسين فكان في حجري، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخلت يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعت في حجره، ثم حانت مني التفاتة، فإذا عينا رسول الله تهريقان من الدموع، قالت: فقلت: يا نبيّ الله، بأبي أنت وأمّي، ما لك؟ قال: أتاني

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 جبرائيل - عليه الصّلاة والسلام - فأخبرني أنّ أمّتي ستقتل ابني هذا. فقلت: هذا؟ فقال: نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء». قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه^(١). وأورده الألباني في سلسلة أحاديثه الصحيحة وقال: «له شواهد عديدة تشهد لصحّته، منها ما عند أحمد (٦ / ٤٩٢) حدّثنا وكيع قال: حدّثني عبد الله بن سعيد عن أبيه عن عائشة أو أم سلمة (قال وكيع: شكّ هو يعني - عبد الله ابن سعيد) أنّ النبي ﷺ قال لأحدهما: «لقد دخل عليّ البيت ملكٌ لم يدخل عليّ قبلها، فقال لي: إنّ ابنك هذا: حسين مقتول وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يُقتل بها»^(٢). وفي الحديث رقم ٢٢٨: «لقد دخل عليّ البيت ملكٌ لم يدخل عليّ قبلها، فقال لي: إنّ ابنك هذا: حسين مقتول وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يُقتل بها». قال الألباني في السلسلة الصحيحة قال «(فأخرج تربة حمراء). قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين»^(٣).

• نتيجة البحث

والذي أميل إليه وبلحاظ مجموع ما استعرضناه في الليالي الماضية أنّه يمكن الوصول إلى نتيجة مفادها علم الإمام ﷺ إجمالاً بأنّ حركته ستُوج بالقتل والشهادة، دون العلم التفصيليّ الذي اعتبرناه من مختصّات الله سبحانه.. بمعنى أنّه ﷺ يعلم إجمالاً أنّه سيُستشهد في تلك الأرض، ولكن متى بالضبط وكيف وما هي الملابس، وهل ستكون بعد نجاحه في الثورة واستلام الحكم، أم قبل ذلك؟ هذا ما ليس بالضرورة أن يكون الإمام قد علمه، بل إنّهُ أتضح لاحقاً بصورة تدريجيّة من خلال مجريات الأحداث، كخيانتهم لمسلم ومقابلة جيش

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین، ح ٤٨٧١.

(٢) الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم ١٢٨.

(٣) م.ن، برقم ٢ / ٥٨٤.

ليالي عاشوراء _____ ❁

الحرّ ووصول قوّات الأمويّين وتحركهم ليلة التاسع والأمر بالقتال ثم الإرجاء.. وغير ذلك.

وبمعنى آخر، إنّ الجمع بين تحركه لإقامة الحكم في الكوفة ومقدمات ذلك (من قبيل إرسال مسلم بن عقيل وقيس بن مسهرّ وعبدالله بن يقطر ومراسلته لأهله في المدينة المنورة طلباً للانضمام إليه وانتظاره جواب مسلم، وغيرها..) وبين علمه الإجمالي بالاستشهاد في كربلاء هو أمر ممكن، ويخلّصنا من الكثير من الإشكالات المترتبة على فرض العلم التفصيلي.

والذي يمكن قوله بالتالي إنّّه كان للإمام الحسين عليه السلام علم إجمالي بأنّه سيستشهد في كربلاء التي لم يقصدها بالأساس بل قصد الكوفة، وتحرك لتغيير الواقع فيها، ولربما ينجح في إقامة حكمه فيها، لتكون منطلقه بعد ذلك في مواجهة الأمويّين، وأنّه سيستشهد في واحدة من المواجهات. أمّا أن يعلم أنّه لن يبلغ الكوفة، وأنّ القوم سيخذلون مسلماً، وأنّه لن يحقق الغرض الأساسي لخروجه، وأنّه إنّما أرسل مسلماً إتماماً للحجّة لا لتحقيق شيء فعليّ، وأرسل المسهرّ وغيره للغرض الصوري نفسه، بالإضافة إلى إجراءات طلب النصرة في الطريق من البعض، كلّها مع علمه منذ البداية بأنّه لن يبلغ الكوفة ولن يحقق النصر فيها، فهو تصوّر لا تركز إليه النفس لترتب العديد من الإشكالات عليه.

ولا مشكلة في أن يُقدّم الإنسان الرسالي الثائر المؤمن بأنّ قضيتّه تحتاج إلى توضيح بحجم ما جرى في يوم عاشوراء، أو أقلّ من ذلك، إن كان إصلاح الخلل الحاصل أو مواجهة الباطل المستكبر تستدعي ذلك، ولماذا نعتبرها من مصاديق الآية الناهية عن إلقاء النفس في التهلكة كي نعتبر ذلك إشكالاً يواجه حركة الإمام الحسين الثوريّة؟

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
وبمعنى آخر، إذا كان تعريض النفس لمواطن الموت بدافع شخصي بعيداً عن رسالة الغاية، وعن الدوافع التي يحكم العقل والشرع بضرورة العمل وفقها، فحينذاك يأتي الإشكال.. وإلا فلا.

ومن هنا كان الجهاد في ساحات الوغى من أعظم القربات إلى الله سبحانه، قال عز اسمه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴿[التوبة: ٥١-٥٢]، والحُسينان: إمّا النصر وإمّا الشهادة.



لماذا أخرج الحسين عليه السلام أهله معه؟!

نبحث هنا حول مسألة تأتي في جانب منها في سياق ما بحثناه مُسبقاً في قضية علم الإمام عليه السلام بما سيجري في سفره هذا والاستشهاد في كربلاء.. وتتلخّص في السؤال التالي: لماذا اصطحب الإمام الحسين عليه السلام نساءه وعياله معه وهو يعلم إلى ما يكون مصيره؟ وقد انبرى كثيرون للإجابة عن هذا التساؤل وبإجابات مختلفة من بينها:

• الإجابة الأولى: إنّ لهذا العمل بُعداً غيبياً، فقد استجاب الحسين عليه السلام لوصية النبي صلى الله عليه وآله التي أوصاه بها في المنام قبل خروجه من المدينة، وذلك بحسب ما ورد في النص الذي رواه السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤هـ) في كتابه (اللهوف/ الملهوف على قتلى الطفوف) قال: «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سار محمد بن الحنفية إلى الحسين في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها عن مكة فقال: يا أخي إنّ أهل الكوفة من قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من في الحرم وأمنه. فقال: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي يُستباح به حرمة هذا البيت. فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصِرْ إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد. فقال: أنظرُ فيما قلت. فلمّا

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

كان السَّحْرُ ارتحل الحسين عليه السلام فبلغ ذلك ابن الحنفية فأتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها. فقال له: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟ قال: بلى، قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟ فقال: أتاني رسول الله ﷺ بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين، اخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً، فقال له ابن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟ قال: فقال له: قد قال لي إن الله قد شاء أن يراهنَّ سبايا. وسلّم عليه ومضى»^(١).

وبالتالي فإنَّ الإمام - وفق أصحاب هذا الرأي - استجاب للأمر السماوي الذي بلغه إلهاماً من خلال الرؤيا، دون أن يُحدِّد هو عليه السلام في كلامه النتيجة التي تُتوخى من خلال ذلك، ودون أن يضطر نحن بالتبع إلى البحث وراء السبب، فهي استجابة لإرادة ربانية وكفى.

• الإجابة الثانية: إنَّ الإمام عليه السلام أراد أن يُضاعف حجم المأساة بغية إحياء ضمير الأمة، وممّن أشار إلى ذلك الأستاذ (أحمد فهمي) المصري في كتابه (ريحانة الرسول)، قال: «وقد أدرك الحسين أنه مقتول إذ هو يعلم علم اليقين قُبْح طوية يزيد، وإسفاف نحيرته، وسوء سريرته، فيزيد بعد قتل الحسين ستمتد يده إلى أن يؤذي النبي ﷺ في سلالته من قتل الأطفال الأبرياء، وانتهاك حرمة النساء، وحملهن ومن بقي من الأطفال من قفرة إلى قفرة ومن بلد إلى بلد، فيشير مرأى أولئك حفيظة المسلمين، فليس ثمة أشنع، ولا أفظع من التشفي والانتقام من النساء والأطفال بعد قتل الشباب والرجال فهو بخروجه بتلك الحالة أراد أن يثأر من يزيد في خلافته، ويقتله في كرامته، وحقاً لقد وقع ما توقَّعه، فكان لِمَا فعله يزيد وعصبته من فظيخ الأثر في نفوس المسلمين، وزاد في أضغانهم ما عرّضوا به سلالة النبوة من هتك خدر النساء، وهنّ اللاتي ما عُرفن إلا بالصيانة والطهر والعزّ

(١) ابن طاووس: اللهوف على قتلى الطفوف، ص ٦٣-٦٥.

ليالي عَشُوراء _____ ❁

والمنعة ممّا أُطلق ألسنة الشعراء بالهجاء والذمّ، ونفر أكثر المسلمين من خلافة الأمويين، وأسخط عليهم قلوب المؤمنين، فقد قتله الحسين أشدّ من قتله إياه^(١).

• الإجابة الثالثة: إنّ الإمام الحسين عليه السلام أراد استكمال نهضته من خلال الأسرى الذين سيبيئون للناس حقيقة ما جرى، وحقيقة الأهداف الكامنة وراء أحداث كربلاء، قال الشيخ باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٣ هـ) في كتابه (حياة الإمام الحسين): «لقد أراد عليه السلام بذلك أن يستكمل أداء رسالته الخالدة في تحرير الأمة وإنقاذها من الاستعباد الأمويّ. وقد قمن تلك السيدات بدورٍ مشرق في إكمال نهضة أبي الشهداء عليه السلام فأيقظن المجتمع بعد سباته، وأسقطن هيبة الحكم الأمويّ، وفتحن باب الثورة عليه، ولولا هنّ لم يتمكّن أحد أن يفوه بكلمة واحدة أمام ذلك الطغيان الفاجر»^(٢). ثم استشهد بكلام الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (ت ١٣٧٣ هـ) وآخرين لتأكيد فكرته، واعتبر أنّ نص الحوار الذي دار بين الإمام الحسين وبين ابن الحنفية يُفسّر في هذا الإطار.

ويبدو أنّ هذه التحليلات والآراء تنسجم مع فرض أنّ الإمام يعلم مسبقاً ما سيجري وبالتفصيل، وأنّه كان يعلم أنّ مئات المقاتلين الذين خرجوا معه من الحجاز سيتخلّون عنه، وأنّ آلاف المقاتلين والأنصار من أهل الكوفة سيغدرون به، وبأنّه كان يعلم أنّ القافلة لن تصل إلى الكوفة، وأنّه سيُحاصر في كربلاء مع نفرٍ قليل ليقاتل بهم الأعداء.

• الإجابة الرابعة: أمّا بناءً على القول بأنّ الإمام عليه السلام كان يعلم علماً إجمالياً بمقتله، دون تحديدٍ لظروف ذلك وكيفيته، وأنّه كان سائراً فعلاً نحو الكوفة لقيادة الثورة فيها، وما كان في نيّته - ابتداءً - عند الخروج من المدينة ومكّة القتال في

(١) فهمي: ربحانة الرسول، ص ١٦٧.

(٢) القرشي: حياة الإمام الحسين، ج ٢، ص ٢٩٧.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م * _____

الصحراء بنفر قليل، فإننا لن نكون بحاجةٍ إلى مثل هذه التأويلات، لأنّ التفسير الطبيعي لتصرّف الإمام في أخذه النساء والأطفال معه أنّهم سيكونون معه في الكوفة وتحت حمايته وحماية الآلاف من مؤيديه، بينما لو تركهم في المدينة فإنّهم سيكونون تحت رحمة والي الأمويين وأنصارهم، وبالتالي سيكونون عُرضة لانتقام السلطة الحاكمة.

وممّن ذهب إلى هذا القول الشيخ عبد الواحد المظفر (ولد ١٣١٠ هـ ولم أعثر على تاريخ وفاته) قال في (توضيح الغامض من أسرار الشّئن والفرائض):

«الحسين لو أبقى النّساء في المدينة لوضعت السلطة الأمويّة عليها الحجر، لا بل اعتقلتها علناً وزجّتها في ظلمات السجون، ولا بدّ له حينئذ من أحد أمرين خطيرين كلّ منهما يشلّ أعضاء نهضته المقدّسة! إمّا الاستسلام لأعدائه وإعطاء صفته لهم طائعاً ليستنقذ العائلة المصونة، وهذا خلاف الإصلاح الذي ينشده، وفرض على نفسه القيام به مهما كلفه الامر من الأخطار، أو يمضي في سبيل إحياء دعوته، ويترك المخدّرات اللّواتي ضرب عليهنّ الوحي سترأ من العظمة والإجلال، وهذا ما لا تطيق احتماله نفس الحسين الغيور ولا يردع أمية رادع من الحياء، ولا يجرها زاجر من الإسلام. إنّ أميّة لا يهّمها اقتراف الشائن في بلوغ مقاصدها، وإدراك غاياتها فتتوصل إلى غرضها ولو بارتكاب أقبح المنكرات الدينية والعقلية. ألم يطرق سمعك سجن الأمويين لزوجة عمرو بن الحمق الخزاعي، وزوجة عبيد الله بن الحرّ الجعفي وأخيراً زوجة الكميت الأسدي؟»^(١).

• استخلاص ممّا سبق

والذي يمكن قبوله وفق ما اختير في البحث السابق من القول بالعلم الإجمالي للإمام الحسين عليه السلام أنّ اصطحاب النّساء والأطفال جاء في السياق الطبيعي

(١) المظفر: توضيح الغامض من أسرار الشّئن والفرائض، ص ٢٩٧-٢٩٨.

ليالي عاشوراء * _____

لتصرف قائد يريد الحفاظ على عائلته وعوائل من معه.. ويُضاف إلى ذلك أنّ الإمام الحسين عليه السلام وضع في خلدّه احتمال عدم الوصول إلى الكوفة، وحدث المواجهة مع الأمويين مبكراً، وهو الخيار الثاني الذي وضعه في خطته، وبالتالي ارتأى توظيف الأسر، فيما لو حدث، في خدمة أهداف ثورته المباركة.

وفعلاً جاء التدبير الإلهي بحيث تتحمّل النسوة من آل البيت وسائر من أسر في كربلاء مهمّة بيان حقيقة ما جرى، والأهداف التي من أجلها ثار الحسين عليه السلام.

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

يقدم القرآن صورة لموقفين متضادين في جيش النبي ﷺ في واحدة من أحلك الظروف التي مرّ بها المسلمون والمتمثلة في المواجهة مع جيش ضخم متنوع التشكيل، هو جيش الأحزاب في يوم الخندق: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٢-١٤].

وفي المقابل نجد صورة مغايرة تماماً تتمثل في الطرف نفسه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢-٢٣].

مجموعة تتخلى في أحلك الظروف وتعيش كل القلق والخوف

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م * _____

ويتضعضع إيمانها في أوليات عقيدتها وهي التوحيد.. ومجموعة أخرى تعتبر أنّ الموقف تصديق للوعد الإلهي، ولذا تترجم هذا التصديق إلى موقف عمليّ بالثبات والاستعداد للتضحية، ولذا قال عنهم: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

• مع بني إسرائيل

وهذه هي الصورة المتكررة تاريخياً بتكرّر الظروف: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ ائْبَعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] واستجاب الله لهم، وأرسل طالوت ملكاً يقاتلون تحت لوائه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

• سنن التاريخ

هذه الصورة المتناقضة نفسها نجدها في مسير الإمام الحسين عليه السلام من المدينة فمكة فالعراق، حيث التحق به المئات من الرجال بمن فيهم من التحق به في الطريق.

روى الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) في (الإرشاد) عن رجلين من بني أسد كفيّة قدومهما على الإمام عليه السلام وإخبارهما له عما جرى في الكوفة لمسلم: «فأقبلنا

حتّى لحقنا الحسين صلوات الله عليه فسايرناه حتّى نزل الثعلبية ممسياً، فجئناه حين نزل فسلمنا عليه فردّ علينا السلام، فقلنا له: رحمك الله، إنّ عندنا خبراً، إنّ شئت حدّثناك علانية، وإن شئت سرّاً، فنظر إلينا وإلى أصحابه ثم قال: ما دون هؤلاء ستر». ونقلا له ما بلغهما من مقتل مسلم وهانئ بن عروة فقال عليه السلام: إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، رحمة الله عليهما. يكرّر ذلك مراراً، فقلنا له: نشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوّف أن يكونوا عليك. فنظر إلى بني عقيل فقال: ما ترون؟ فقد قُتل مسلم. فقالوا: والله لا نرجع حتّى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق، فأقبل علينا الحسين عليه السلام وقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء. فعلمنا أنّه قد عزم رأيه على المسير، فقلنا له: خار الله لك، فقال: رحمكما الله. فقال له أصحابه: إنّك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع. فسكت ثم انتظر حتّى إذا كان السحر قال لفتياناه وغلماينه: أكثروا من الماء. فاستقوا وأكثروا ثم ارتحلوا، فسار حتّى انتهى إلى زباله. فأتاه خبر عبد الله بن يقطر، فأخرج إلى الناس كتاباً فقرأه عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإنّه قد أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة، وعبدالله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمن أحبّ منكم الانصراف فليصرف غير حرج، ليس عليه ذمام. فتفرّق الناس عنه وأخذوا يميناً وشمالاً، حتّى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة نفر يسير ممّن انضوا إليه. وإنّما فعل ذلك لأنّه عليه السلام علم أنّ الأعراب الذين اتّبعوه إنّما اتّبعوه وهم يظنّون أنّه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يُقدّمون»^(١).

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٧٣-٧٦.



• موقف الأنصار ليلة العاشر

هذا مشهد ومشهد آخر في ليلة العاشر من المحرّم حين جمع الإمام الحسين عليه السلام كلّ أصحابه وأهل بيته وقال لهم: «اللهمّ إنّي لا أعرف أهل بيت أبرّ ولا أزكى ولا أطهر من أهل بيتي، ولا أصحاباً هم خير من أصحابي، وقد نزل بي ما قد ترون، وأنتم في حلّ من بيعتي ليست لي في أعناقكم بيعة ولا لي عليكم ذمّة، وهذا الليل قد غَشِيَكُمْ فاتَّخِذُوهُ جملاً»^(١).

ولما كان أصحاب الإمام ممّن سمعوا هذا الكلام من الذين صدّقوا ما عاهدوا الله عليه، فإنّهم لم يزدادوا إلاّ بصيرة وإصراراً وعزيمة، كقول مسلم بن عوسجة: «أنحن نخلي عنك ولمّا نعدِر الله في أداء حقك؟» وقول سعيد بن عبدالله الحنفي: «والله لو علمت أنّي أُقتل ثمّ أحيأ ثمّ أُحرق ثمّ أُذرّ ويُفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارتكت» وقول زهير بن القين: «والله لو ددت أنّي قُتلت ثمّ نُشرت ثمّ قُتلت حتّى أُقتل كذا ألف قتلة، وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك»^(٢).

إنّ خطاب الإمام الحسين عليه السلام في ليلة عاشوراء بأصحابه وما عرضه عليهم يؤكّد ضرورة أن يكون من يجعل نفسه في الموقع القيادي صريحاً مع قواعده، واضحاً في مسيرته، صادقاً في أقواله، وإن كان ذلك قد يكلفه أحياناً ضريبة ما، إلاّ أنّه سيفوز بالتفاف الصادقين حوله إلى درجة الاستماتة في نصرته.

• إجراء حكيم

وفي عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام لمالك الأشتر: «وإن ظنّت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرک (ابرز لهم، ويبيّن عذرک فيه، وهو من الإصحار: الظهور،

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣١٦.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣١٦.

ليالي عاشوراء

وأصله البروز في الصحراء) واعدل عنك (نحّ عنك) ظنونهم بإصْحارك، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك (تعويداً لنفسك على العدل) ورفقاً برعيتك، وإعداداً (تقديم العذر أو إبدائه) تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق^(١).

هكذا كان الإمام الحسين عليه السلام صريحاً بحقيقة الأمر، وأعطى أنصاره الحرية وأوضح لهم الرؤية، وهذا هو أسلوب الحسين، الصراحة.. فكم هي صريحة وواضحة في هذا العصر تلك القيادات الإسلامية وغير الإسلامية العاملة في الساحة مع الناس؟

وبتعبير المرجع السيد فضل الله (ت ١٤٣١ هـ): «أخرجوا كل الذين يتعاملون في قضايا المصير، أخرجوهم حتى يكشفوا الحقيقة في الزوايا حتى يعرفوكم كل شيء.. إن الأمة التي لا تعيش الوضوح، ستظلّ تترنّح بين القيادات والخطوط لأنها تُخدع بالكلمات. إن الله علّمنا النظر إلى المواقف وليس إلى الكلمات. علينا أن نكون واعين جيداً فنرتبط بالمواقف لا بالكلمات، لأنّ الكثيرين عندنا يتقنون فنّ التمثيل بالكلمات.. عيشوا الوعي وعيشوا النقد للأشخاص والكلمات: النقد والوعي للخطوات السياسيّة حتى نستطيع أن نمسك أرضنا من الاهتزاز والضياع».



(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ١٢٦.



الحرب النفسيّة



يتعرّض الإنسان إلى مواقف عصيبة وأزمات شديدة قد تدفعه إلى الخوف أو التردد أو الانهزام أو الجزع أو القلق، وهذا يعني تحطّم كلّ ما في النّفس من استعداد للمقاومة والثبات.

ومن أهم مفاتيح التغلّب على ذلك كلّ يكمن في القوة الروحيّة الذاتيّة، فهي تمدّ الإنسان بأسباب تجاوز تلك الأزمات، وتعطيه زخماً معنوياً يمكنه من الثبات وأداء وظيفته بصورة شبه طبيعيّة، بل وقد تمدّه بقوة إضافية يحوّل من خلالها نقاط الضعف إلى قوّة، والموقف السلبيّ إلى إيجابيّ، والهزيمة إلى نصر.

• أساليب الخصوم والأعداء في المواجهة

وقد يلجأ الخصوم إلى أساليب من الحرب النفسيّة تسعى لتدمير الروح المعنويّة وتفريغها من منابع قوّتها، ومن بينها:

١- تهويل صورة الخصم ليشعر المطّلع عليها أن لا مجال للمواجهة وأن الهزيمة هي النتيجة الوحيدة المترتبة على ذلك، ولذا فإن المواجهة انتحار لا غير. قال الله ﷻ في وصف الأوضاع السابقة لمعركة أُحُد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وهذا ممّا صنعه عبید الله بن زياد في الكوفة، قال الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) في الإرشاد: «وأقام الناس مع ابن عقيل يكثرّون حتّى المساء وأمرهم شديد، فبعث عبید الله إلى الأشراف فجمعهم، ثم أشرفوا على الناس فمَنّوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، وخوَّفوا أهل العصيان الحرمان والعقوبة، وأعلموهم وصول الجند من الشام إليهم. وتكلّم كثيراً حتّى كادت الشمس أن تجب، فقال: أيّها الناس الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشرّ، ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل، فإنّ هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهداً: لئن تمّتم على حربته ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذريّتكم العطاء، ويفرّق مقاتلتكم في مغازي الشام، وأن يأخذ البريء بالسّقيم والشاهد بالغائب، حتّى لا تبقى له بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جنت أيديها. وتكلم الأشراف بنحو من ذلك. فلما سمع الناس مقالهم أخذوا يتفرّقون، وكانت المرأة تأتي ابنها أو أختها فتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه فيقول: غداً يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشرّ؟ انصرف، فيذهب به فينصرف. فما زالوا يتفرّقون حتّى أمسى ابن عقيل وصلّى المغرب وما معه إلا ثلاثون نفساً في المسجد»^(١).

٢- ادّعاء الخصم - كذباً - امتلاك الشرعيّة الأرضيّة أو الامتداد السماويّ الذي يخوّله ارتكاب ما يشاء بحجّة تحقيق عناوين برّاقة من قبيل: السّلام، الوحدة، إرادة الله، التكليف الشرعيّ، القضاء على الفتن.. إلخ. قال الله ﷻ واصفاً التبرير الذي ساقه فرعون لقتل النبي موسى ﷺ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ٥٣.

٣- السخرية والاستهزاء بالمقومات الذاتية أو الخارجية عند الطرف الآخر، أو محاولة إنكارها، قال الله ﷻ: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْتِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٣].

٤- الاتهام زوراً بوجود نوايا سيئة أو مخالفة لتلك المُعلنة أو استبطان مصالح شخصية من وراء ذلك، قال الله ﷻ في تفاصيل مواجهة فرعون وأتباعه مع النبي موسى ﷺ: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه: ٦٣].

• الإمام الحسين يواجه الحرب النفسية

وقد سعى الإمام الحسين ﷺ إلى تأكيد الخطوط العامة لثورته مبيناً أنها تنطلق من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وهو ما عبّر عنه في بيان له، قال: «أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ سُلْطَانًا جَائِرًا مُّسْتَحِلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ، نَاكثًا بَعْدِهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادِهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يَغْيُرْ مَا عَلَيْهِ بِقَوْلٍ وَلَا بِفِعْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مُدْخَلَهُ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَتَوَلَّوْا عَنْ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرُوا الْفَسَادَ وَعَطَّلُوا الْحُدُودَ وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفِيءِ، وَأَحْلَوْا حَرَامَ اللَّهِ وَحَرَّمُوا حَلَالَهُ، وَإِنِّي أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ»^(١). وهذه الأساليب السابقة نفسها حاول الأمويون استخدامها لإجهاض ثورة الإمام الحسين ﷺ بعد استشهاده خوفاً من أن يتعاطف الناس معها وسعيًا لحرف الرأي العام عن أهدافها الحقيقية.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٨٢.

• العقيلة زينب تواجه الحرب النفسية

لذا عندما انتهت معركة كربلاء باستشهاد الإمام عليه السلام وأنصاره، بدأت معها مسؤولية ضخمة وقعت على عاتق السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب وبنت الزهراء فاطمة عليهما السلام، وتمثلت في مواجهة الحكم الأموي الذي سعى إلى تصوير الإمام الحسين ومَن معه بأنهم خوارج أو من طالبي الملك، كما سعى لتطويق أهداف الثورة الحسينية وتفريغها من محتواها الأصيل، وبطرق عدّة لا تتعدّ كثيراً عمّا قدّمناه حول أساليب الحرب النفسية.

وقد تحمّلت السيدة زينب عليها السلام هذه المسؤولية متوكّلةً على الله ومستعينةً بما امتلكته من حكمة محمدية وشجاعة علوية ورباطة جأش وبصيرة نافذة وقوّة شخصيّة وذهنيّة متوقّدة وعلم غزير.

والنصّ التاريخي التالي يُبرز الصورة بوضوح، مع ملاحظة أنّ السيدة زينب ومن معها من نساء وأطفال أهل بيت النبيّ في حالة سبي وإذلال متعمّدين أمام حاكم يعتبر نفسه منتصراً: «أقبل عليها ابن زياد وقال لها: الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأكذب أحدوثكم! فقالت زينب: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه محمد صلى الله عليه وآله، وطهرنا من الرّجس تطهيراً، وإنّما يُفتضح الفاسق ويُكذب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله. فقال ابن زياد: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ فقالت: ما رأيت إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّون إليه وتختصمون عنده فانظر لمن الفلج يومئذ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة»^(١).

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١١٥-١١٦.

• العقيلة زينب في الشام

وتكرّر المشهد في الشام في قصر الخلافة، واستخدم يزيد بن معاوية ذات الأساليب النفسية التي استخدمها ابن زياد من قبل، فلقي رداً حاسماً من عدد من أهل البيت من بينهم السيدة زينب التي انبرت بكلمات بليغة قائلة - مع الاختصار - : «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تُساق الأسراء أنّ بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؟ ... فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حززت إلا لحمك، ولتردنّ علي رسول الله ﷺ بما تحمّلت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمة في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلم شعثهم، يأخذ بحقهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ... فكذ كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحيننا، ولا يرحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد؟ يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين...»^(١).

لقد كانت خطبة العقيلة زينب عليها السلام كافيةً لأن تُخرس يزيد وتعيد كيدَه إلى نحره وتفضحه أمام الملأ، بمن فيهم سفراء الأمم الأخرى الذين أراد يزيد أن يتباهى أمامهم بانتصاره وقوّته، فإذا به عاجز عن قرع الحُجج التي ساقتها، والمنطق الذي ذكّر الحضور بمنطق أبيها علي عليه السلام قوةً وبلاغاً وبياناً.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣٤.



مَنْ دَفَنَ الْإِمَامَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟



يمكن هنا تقديم ثلاثة آراء رئيسية:

• الرأي الأول: بنو أسد، وتمّ ذلك في اليوم الحادي عشر من المحرم. قال الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) في (الإرشاد) عمّا فعله عمر بن سعد بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام: «وأقام بقيّة يومه واليوم الثاني إلى زوال الشمس، ثم نادى في الناس بالرحيل، وتوجّه إلى الكوفة ومعه بنات الحسين وأخواته، ومَنْ كان معه من النساء والصبيان، وعلي بن الحسين فيهم وهو مريض بالذُّرْب (فساد المعدة) وقد أشفى. ولما رحل ابن سعد خرج قوم من بني أسد كانوا نزولاً بالغاصرية إلى الحسين وأصحابه رحمة الله عليهم، فصلّوا عليهم، ودفنوا الحسين عليه السلام حيث قبره الآن، ودفنوا ابنه علي بن الحسين الأصغر عند رجليه، وحفروا للشهداء من أهل بيته وأصحابه الذين صرّعوا حوله ممّا يلي رجلي الحسين عليه السلام وجمعوهم فدفنوهم جميعاً معاً، ودفنوا العباس بن علي عليه السلام في موضعه الذي قُتل فيه على طريق الغاصرية حيث قبره الآن^(١)».

ووافقه في ذلك ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ) في كتابه (مناقب آل أبي طالب)، وابن نما الحلبي (ت ٦٤٥ هـ) في (مثير الأحزان)، والسيد ابن طاووس

(١) المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١١٤ - ١١٥.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م * _____

(ت ٦٦٤هـ) في (اللهوف/ الملهوف على قتلى الطفوف). وذات الأمر في مصادر أهل السُّنة ككتاب (الأخبار الطوال) لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ)، والطبري (ت ٣١٠هـ) في (تاريخ الأمم والملوك)، والخوارزمي (ت ٥٦٨هـ) في (مقتل الحسين)، وابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) في (الكامل في التاريخ).

وبين أيدينا نصّ للعلامة السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ) في موسوعته (أعيان الشيعة) فيه شيء من التفصيل قال: «ولمّا رحل ابن سعد عن كربلاء خرج قوم من بني أسد كانوا نزولاً بالغازية إلى الحسين عليه السلام وأصحابه، فصلّوا على تلك الجثث الطواهر ودفنوها، فدفنوا الحسين عليه السلام حيث قبره الآن، ودفنوا ابنه عليّاً الأكبر عند رجليه» يبدو أنّ هذا هو الصحيح مقارنةً بما ذكره المفيد في الإرشاد أنّ عليّاً الأصغر هو المدفون عند رجليه، علماً بأنّ من المحقّقين من يعتبر أنّ عبدالله الرضيع هو عليّ الأصغر، ومنهم من يُخطئ وجود ابن للإمام بهذا الاسم «وحفروا للشهداء من أهل بيته ولأصحابه الذين صرّعوا حوله ممّا يلي رجلي الحسين عليه السلام فجمعوهم فدفنوهم جميعاً في حفيرة واحدة وسوّوا عليهم التراب. قال المسعودي: «ودفن أهل الغازية، وهم قوم من بني غاضر من بني أسد، الحسين وأصحابه بعد قتلهم بيوم» أي في اليوم الذي ارتحل فيه ابن سعد من كربلاء، فإنّه بقي في كربلاء إلى زوال اليوم الحادي عشر كما مرّ، أمّا إذا كانوا جاؤوا في اليوم الثاني من رحلته» أي رحلة عمر بن سعد «فيكون الدفن من بعد القتل بيومين. ويُقال إنّ أقربهم دفناً إلى الحسين ولده الأكبر عليه السلام، فيزورهم الزائر من عند قبر الحسين عليه السلام، ويومي إلى الأرض التي نحو رجليه بالسلام عليهم. ودفنوا العباس بن علي عليه السلام في موضعه الذي قُتل فيه على المسناة بطريق الغازية حيث قبره الآن، ودفنوا بقيّة الشهداء حول الحسين عليه السلام في الحائر. قال المفيد عليه الرحمة: «ولسنا نحصل لهم أجداثاً على التحقيق والتفصيل إلاّ أنا لا نشكّ أنّ الحائر محيط بهم رضي الله عنهم وأرضاهم»

ليالي عَشُورَاءُ * _____

[الحائر هو المنطقة المباركة المحيطة بالمرقد الطاهر لأبي عبدالله عليه السلام وقطره يقارب ٢٣ متراً حسب بعض التقديرات المعتمدة على بعض الروايات، وقيل أقل من ذلك] ويُقال إنّ بني أسد دفنوا حبيب بن مظاهر في قبرٍ وحده عند رأس الحسين عليه السلام حيث قبره الآن اعتناءً به لأنه أسدي، وأنّ بني تميم حملوا الحرّ بن يزيد الرياحي على نحو ميل من الحسين عليه السلام ودفنوه هناك حيث قبره الآن اعتناءً به أيضاً. ولم يذكر ذلك المفيد، ولكن اشتهار ذلك وعمل الناس عليه ليس بدون مستند^(١).

• تعليق

بنو أسد قبيلة خندفية مضرية عدنانية، من القبائل العربية القديمة سكنوا في تهامة غرب الجزيرة العربية وفي نجد، وذلك في العهد الجاهلي، ثم خرجوا منها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٩هـ إلى الكوفة والغازية في العراق. لهم دور بارز في مناصرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان من جملة زعمائهم الذين ناصروا الحسين في كربلاء: حبيب بن مظاهر، وأنس بن الحرث، ومسلم بن عوسجة، وقيس بن مسهر، وعمرو بن خالد الصيداوي. وكانت فئة منهم في معسكر الأعداء، كحرملة بن كاهل الأسدي قاتل عبدالله الرضيع. وقد انضمت القبيلة - بعد ذلك - إلى المختار الثقفي في ثورته.

أما الغازية فقد قال ياقوت الحموي (ت ٦٢٣هـ) في موسوعته (معجم البلدان): «الغازية نسبة إلى غاضرة من بني أسد، وهي قرية من نواحي الكوفة قريبة من كربلاء»^(٢). وقد أنشئت بعد انتقال بني أسد إلى العراق.

أما كيف عرف الأسديون أصحاب الجثامين الطاهرة بعد أن فصلت

(١) الأمين: أعيان الشيعة، ج ١، ص ٦١٣.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٨٣.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 الرؤوس عن الأجساد، فلعلّه قد أرشدهم إلى ذلك أشخاص كالضحّاك بن عبدالله المشرقي الذي كان مع الإمام الحسين عليه السلام مشروطاً عليه أن يقاتل عنه ما أمكن، فإن رأى أن لا مجال للنصر فله أن ينسحب، وهذا ما جرى فعلاً. أو المرقّع بن ثمامة الأسدي الذي كان قد نثر نبله، وجثا على ركبتيه - كما في النص - فقاتل، فجاءه نفر من قومه فقالوا له أنت آمن، أخرج إلينا، فخرج إليهم. ولعلّ كونه أسدياً دفعه للذهاب إلى قومه القاطنين قريباً من موقع المعركة.

• خطأ فادح

ومن المؤسف أن إحدى المواقع العقائدية المهمة على الإنترنت لما وُجّه إليها هذا السؤال جاءت الإجابة من القائمين عليها بالصورة التالية: «الإمام زين العابدين عليه السلام هو الذي دفن جسد الإمام الحسين الشهيد عليه السلام. راجع: تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ، وإرشاد المفيد، وبحار المجلسي، ولهوف سيد ابن طاووس، والأنوار النعمانية للسيد نعمة الله الجزائري، وأسرار الشهادة للدربندي، والإيقاد للسيد العظيمي، والكبريت الأحمر للتستري، وغيرها في تاريخ حوادث سنة ٦١ هجرية»^(١).

وقد تبين ممّا سبق عدم دقّة هذا الجواب، فعدد من المصادر السابقة تخالف هذه الإجابة، ولا يفيدنا الاستشهاد بكتاب بحار الأنوار لأنّه موسوعة جامعة للأخبار من المصادر التي سبقته، وهو يذكر حتّى الروايات المتعارضة في الشأن الواحد.

أمّا السيد نعمة الله الجزائري فهو من المتأخّرين (ت ١١١٢ هـ)، وبالتالي فإنّ

(١) www.aqaed.com/faq/1329

ليالي عاشوراء * _____

كتابه (الأنوار النعمانية) لا يُعدّ من المصادر التي يمكن الرّكون إليها بمفردها. أمّا بخصوص كتاب (أسرار الشهادة) للدربندي (ت ١٢٨٥ هـ) فقد قال الشهيد المطهري عنه: «كتاب أسرار الشهادة مليء بالكذب»، وقد تحدّث عنه في (ليالي عاشوراء - الجزء الأول) بما لا يحتاج لمزيد من التفصيل.

وأما الإيقاد للعظيمي (أي السيد محمد علي الشاه عبد العظيم) (ت ١٣٣٤ هـ)، فهو أيضاً من الكتب المتأخّرة. وكتاب (الكبريت الأحمر) ليس للتستري، والصحيح أنّه للشيخ محمد باقر بن محمد حسن البيرجندي القائي (ت ١٣٥٢ هـ) وهو بالتالي كتاب متأخّر زمنياً من حيث الصدور، ولا يفيدنا في المقام.

• الرأي الثاني: الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد استدلل أصحاب هذا الرأي بالرواية الواردة في كتاب (اختيار معرفة الرجال) لشيخ الطائفة الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، ونصّها كالتالي: عن أحمد بن سليمان [مجهول الحال] عن منصور بن العباس البغدادي [قال النجاشي: مضطرب الأمر] قال: حدّثنا إسماعيل ابن سهل [قال النجاشي: ضعّفه أصحابنا] قال: حدّثني بعض أصحابنا [فالرواية مرسلة] وسألني أن أكتّم اسمه، قال: كنت عند الرضا عليه السلام فدخل عليه علي بن أبي حمزة وابن السراج وابن المكارم [وهم من الواقفة الذين رفضوا إمامته] فقال له ابن أبي حمزة: ما فعل أبوك؟ قال: مضى. قال: مضى موتاً؟ قال: نعم، قال: إلى من عهد؟ فقال: لي قال: فأنت إمام مفترض الطاعة من الله؟ قال: نعم... فقال له علي: إنا روينا عن آبائك أن الإمام لا يلي أمره إلا الإمام مثله. فقال له أبو الحسن عليه السلام: فأخبرني عن الحسين بن علي عليه السلام، كان إماماً أو كان غير إمام؟ قال: كان إماماً، قال: فمن ولي أمره؟ قال: علي بن الحسين. قال: وأين كان علي بن الحسين عليه السلام؟ قال: كان محبوساً في

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م * _____

يد عبید الله بن زیاد في الكوفة، قال: خرج وهم كانوا لا يعلمون حتّى وُلِّي أمر أبيه ثم انصرف. فقال له أبو الحسن عليه السلام: «إنّ هذا الذي أمكن علي بن الحسين عليه السلام أن يأتي كربلا فيلي أمر أبيه، فهو أمكن صاحب هذا الأمر أن يأتي بغداد فيلي أمر أبيه، ثم ينصرف، وليس في حبس ولا في إساءة..» إلخ الخبر^(١).

قال السيد الخوئي (ت ١٤١٣ هـ) في موسوعته (معجم رجال الحديث) في ترجمة علي بن أبي حمزة البطائني: «الرواية ضعيفة بأحمد بن سليمان، وبإسماعيل بن سهل، وبالإرسال».

• تعليق

إعراض الشيخ المفيد وسائر الأصحاب من المتقدمين عن مضمون هذا الخبر وقولهم بأنّ بني أسد هم الذين دفنوا الإمام الحسين عليه السلام دليل آخر أنّها رواية ضعيفة لا يُعتنى بها.

وللسيد محسن الأمين في (رسالة التنزيه) كلام قاطع في المقام حيث قال: «حديث: مجيء زين العابدين لدفن أبيه مع بني أسد أو.. أو.. أو غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تُقرأ على المنابر وهي من الكذب الصراح»^(٢).

• دليل آخر

ومن أدلّة أصحاب هذا الرأي الروايات الموجودة في (بحار الأنوار) في (باب أنّ الإمام لا يغسّله ولا يدفنه إلا إمام) قال المحقّق الشيخ محمد آصف محسني المعاصر: «أخبار الباب أيضاً غير معتبرة ومتعارضة بينها أيضاً، وعلى كلّ ليس

(١) الطوسي: اختيار معرفة الرجال، ج ٢، ص ٧٦٤.

(٢) النجفي: ثورة التنزيه، ص ٣٢.

فيها ما يدلّ على أنّه لا يدفن الإمام إلا الإمام!«^(١).

والتعارض الذي يتحدّث عنه المحقّق محسني ليس بين الروايات فقط، بل في داخل النص الواحد لاحظ الرواية الأولى: «عن إبراهيم بن أبي سمال قال: كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام: إنّنا قد روينا عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ الإمام لا يغسّله إلا الإمام وقد بلغنا هذا الحديث، فما تقول فيه؟ فكتب إليّ: إنّ الذي بلغك هو الحقّ، قال: فدخلت عليه بعد ذلك فقلت له: أبوك من غسّله؟ ومن وليه؟ فقال: لعلّ الذين حضروه أفضل من الذين تخلّفوا عنه، قلت: ومن هم؟ قال: حضروه الذين حضروا يوسف عليه السلام، ملائكة الله ورحمته»^(٢).

ولو ضمّنا الرواية الثانية في الباب ستّضح الفكرة أكثر، فعن يونس بن طلحة قال: «قلت للرّضا عليه السلام: إنّ الإمام لا يغسّله إلا الإمام؟ فقال: أما تدرّون من حضر يغسّله؟ قد حضره خير ممّن غاب عنه: الذين حضروا يوسف في الجب حين غاب عنه أبواه وأهل بيته»^(٣).

وعلق المجلسي عليهما بقوله: «لعلّ الخبرين محمولان على التقيّة إمّا من أهل السنة أو من نواقص العقول من الشيعة» ثم حاول توجيه الروايتين فقال: «مع أنّ كلّاً منهما صحيح في نفسه إذ الرحمة في الخبر الأول إشارة إلى الإمام، وفي الخبر الثاني لم ينفِ صريحاً حضور الإمام، وحضور الملائكة لا ينافي حضوره»^(٤).

ولكنّه توجيه لا يستقيم، بلحاظ تعبير «لعلّ الذين حضروه أفضل من الذين

(١) محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج ١، تعليقا على أحاديث ج ٢٧، باب ٢ من أبواب ما يتعلق بوفاتهم.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٣) م. ن، ج ٢٧، ص ٢٨٩.

(٤) م. ن، ج ٢٧، ص ٢٨٩.

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 تخلّفوا عنه» و«قد حضره خير ممّن غاب عنه»، وواضح أنّ الغائب الذي يتحدّث
 عنه هو الإمام من بعده.

وذكر المجلسي في استشهاد الإمام الكاظم عليه السلام روايات أخرى علّق عليها
 المحقّق محسني قائلاً: «لم يثبت بسندٍ معتبر أنّ الإمام لا يغسله إلا إمام، وليس
 في الباب رواية معتبرة، بل فيه ما يُشعر بخلافه، وأنّ الرضا لم يغسل أباه
 الكاظم عليه السلام، فتأمل»^(١).

قال الصدوق (ت ٣٨١هـ) في (عيون أخبار الرضا عليه السلام): «عن محمّد بن
 صدقه العنبري قال: لما تُوفي أبو إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام جمع هارون
 الرشيد شيوخ الطالبيّة وبني العباس وسائر أهل المملكة والحكام وأحضر أبا
 إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام فقال: هذا موسى بن جعفر قد مات حتف أنفه،
 وما كان بيني وبينه ما أستغفر الله منه في أمره - يعني في قتله - فانظروا إليه.
 فدخلوا عليه سبعون رجلاً من شيعة فنظروا إلى موسى بن جعفر عليه السلام وليس
 به أثر جراحة ولا خنق وكان في رجله أثر الحناء. فأخذه سليمان بن أبي جعفر
 فتولّى غسله وتكفينه..» وأكمل الصدوق فقال: «إنما أوردت هذه الأخبار في
 هذا الكتاب ردّاً على الواقفية... يقولون: إنّ الصادق عليه السلام قال: الإمام لا يغسله
 إلا الإمام ولو كان الرضا عليه السلام إماماً كما ذكرتم لغسله، وفي هذه الأخبار أنّ
 موسى عليه السلام غسله غيره»^(٢).

• تعليق

والذي يدلّ عليه التحقيق أنّ الواقفة أثاروا هذه الشبهة لإنكار إمامة
 الرضا عليه السلام، ناقلين الخبر عن الصادق عليه السلام ومفسّرين له بما يحقّق غرضهم،

(١) محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج ١، تعليقا على أحاديث ج ٢٧، باب ٢ من أبواب ما يتعلق بوفاتهم.

(٢) الصدوق: عيون أخبار الرضا (ع)، ج ٢، ص ٩٧.

ليالي عَشُوراء _____ *

وبثوا ذلك بقوة، وواجههم الرضا عليه السلام بما فهمه الشيخ الصدوق من أنّ قصد الصادق أنّه لو حضر الإمام اللاحق وفاة الإمام السابق فإنّه هو الذي يغسله دون سواه، وأما إن غسّله غير الإمام لعدم حضوره فهذا لا يُبطل إمامة الإمام الذي بعده.

ثم بين الصدوق أنّه لو افترضنا صحّة تفسيرهم لكلام الإمام الصادق عليه السلام فهناك روايات أنّ الأرض طويت للرضا عليه السلام فغسّل أباه دون أن تعلم السلطة العباسية بذلك، ومعلوم أنّ إتيان الصدوق بهذا الفرض لا يدلّ على أنّه الصحيح، بل من باب المحاججة، ويبدو أنّ هذه الأخبار وُضعت لاحقاً من قبل البعض لمواجهة الواقفة الذين أخرجوا مخالفينهم بهذه الشبهة فكان التخلّص منها بادّعاء حضور الرضا عليه السلام بطريقة إعجازية.

• الرأي الثالث: النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. ومرجع هذا القول ما رواه الشيخ الطوسي في أماليه، بسنده عن ابن عباس، قال: «بينما أنا راقد في منزلي إذ سمعت صراخاً عظيماً عالياً من بيت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله فخرجت يتوجّه بي قائدي إلى منزلها، وأقبل أهل المدينة إليها الرجال والنساء، فلما انتهيت إليها قلت: يا أمّ المؤمنين، ما بالك تصرخين وتغوئين؟ فلم تجبني، وأقبلت على النسوة الهاشميات وقالت: يا بنات عبد المطلب أسعدنني وابكين معي، فقد والله قُتل سيّدكن وسيّد شباب أهل الجنة، قد والله قُتل سبط رسول الله وريحانته الحسين. فقيل: يا أمّ المؤمنين، ومن أين علمت ذلك؟ قالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام الساعة شعثاً مذعوراً، فسألته عن شأنه ذلك، فقال: قتل ابني الحسين وأهل بيته اليوم فدفنتهم، والساعة فرغت من دفنهم، قالت: فقمّت حتّى دخلت البيت وأنا لا أكاد أن أعقل، فنظرت فإذا بتربة الحسين التي أتى بها جبرائيل من كربلاء، فقال: إذا صارت هذه التربة دماً فقد قتل ابنك، وأعطانيها

الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م *
 النبي ﷺ، فقال: اجعلي هذه التربة في زجاجة - أو قال: في قارورة - ولتكن
 عندك، فإذا صارت دمًا عبيطاً فقد قُتل الحسين، فرأيت القارورة الآن وقد
 صارت دمًا عبيطاً تفور. قال: وأخذت أم سلمة من ذلك الدم فلطّخت به
 وجهها، وجعلت ذلك اليوم مآتماً ومناحة على الحسين ﷺ، فجاءت الركبان
 بخبره، وأنه قُتل في ذلك اليوم. قال عمرو بن ثابت قال أبي: فدخلت على أبي
 جعفر محمد بن علي ﷺ منزله، فسألته عن هذا الحديث، وذكرت له رواية
 سعيد بن جبير هذا الحديث عن عبد الله بن عباس، فقال: أبو جعفر ﷺ:
 حدثني عمر بن أبي سلمة، عن أمه أم سلمة^(١).

وفي الأمالي للشيخ المفيد وكذلك الطوسي رواية أخرى مختصرة قريبة
 المضمون من السابقة.

• تعليق

بالإضافة إلى رمزية الرؤى كما لا يُخفى، فإنّ نفس الشيخ المفيد راوي الخبر
 لم يعتمد عليه في ادّعاء شيء من هذا القبيل.

وقد حاول البعض الجمع بين الأقوال السابقة فقال: إنّ دفن بني أسد للإمام
 الحسين ﷺ وبقية الشهداء الأبرار هو دفن صوري فقط، وأنّ مَنْ قام بالدفن
 الحقيقي هو النبي ﷺ والإمام عليّ بن الحسين زين العابدين ﷺ.. وهذا
 القول جمع بلا دليل معتبر ولا منطق مقبول. والدليل التاريخي قائم على أنّ بني
 أسد القاطنين في الغاصرية هم الذين دفنوا الإمام الحسين ﷺ وسائر الشهداء
 وذلك في اليوم التالي لواقعة الطف.

(١) الطوسي: الأمالي، ص ٩٠، ح ٤٩.



المصادر والمراجع



- ١- القرآن الكريم
- ٢- الكتاب المقدس.
- ٣- الاحتجاج: أحمد بن علي الطبرسي.
- ٤- اختيار معرفة الرجال: محمد بن الحسن الطوسي.
- ٥- الإرشاد: محمد بن محمد بن النعمان (المفيد).
- ٦- أسد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن أبي الكرم (ابن الأثير).
- ٧- أضواء على حياة خالد بن سنان العبسي: صلاح مؤيد العقبي.
- ٨- أوائل المقالات: محمد بن محمد بن النعمان (المفيد).
- ٩- بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي.
- ١٠- البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر ابن كثير.
- ١١- تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري.
- ١٢- تهذيب المقال في تنقيح كتاب الرجال: أحمد بن علي النجاشي.
- ١٣- ثورة التنزيه: محمّد القاسم الحسيني النجفي.
- ١٤- توضيح الغامض من أسرار الشُّنن والفرائض: عبدالواحد المظفر.
- ١٥- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله.
- ١٦- محمد بن إسماعيل البخاري الحداثق الناضرة: يوسف البحراني.

- ١٧- حياة الإمام الحسين: باقر شريف القرشي .
- ١٨- دراسات في الحديث والمحدثين: هاشم معروف الحسني .
- ١٩- دعائم الإسلام: القاضي النعمان المغربي .
- ٢٠- الرجال: محمد بن عمرو الكشي .
- ٢١- الرسائل: الشريف المرتضى .
- ٢٢- رَوْضِ الْجَنَانِ وَرَوْحِ الْجَنَانِ: أبو الفتح الرازي .
- ٢٣- ریحانة الرسول: أحمد فهمي .
- ٢٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة: ناصر الدين الألباني .
- ٢٥- السنن: محمد بن عيسى الترمذي .
- ٢٦- شرح العقيدة الطحاوية: ناصر بن عبد الكريم العقل .
- ٢٧- الصافي: محمد محسن الفيض الكاشاني .
- ٢٨- صراط الحق: آصف محسني .
- ٢٩- عقائد الإمامية: محمد رضا المظفر .
- ٣٠- عيون أخبار الرضا عليه السلام: محمد بن علي (الصدوق) .
- ٣١- كامل الزيارات: جعفر بن قولويه .
- ٣٢- الكامل في التاريخ: ابن الأثير .
- ٣٣- اللهوف على قتلى الطفوف: علي بن موسى ابن طاووس .
- ٣٤- متشابه القرآن ومختلفه: محمد ابن شهر آشوب المازندراني .
- ٣٥- مجلة نصوص معاصرة .
- ٣٦- المسائل العكبرية: محمد بن محمد بن النعمان (المفيد) .
- ٣٧- المسند: أحمد بن حنبل .
- ٣٨- المسند الصحيح المختصر من السنن .

* ————— الكتاب الثاني - محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

- ٣٩- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري.
- ٤٠- مشرعة بحار الأنوار: آصف محسني.
- ٤١- معجم البلدان: ياقوت الحموي.
- ٤٢- الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي.
- ٤٣- نهج البلاغة: الشريف الرضي.
- ٤٤- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: محمد بن الحسن الحر العاملي.





ليالي عاشوراء

الكتاب الثالث

مسجد سيد هاشم البهبهاني - الكويت

محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م



- * مقدمة حول نصّ الكلمة الحسينية
- * مفهوم الفساد
- * فساد الحاكم
- * الفساد الأخلاقي
- * الفساد المالي
- * نقض العهود والمواثيق
- * الفساد الفكري
- * مسؤولية الإصلاح
- * القائمون على الإصلاح
- * القضاء على المفسدين
- * القيادة وثقافة الإصلاح





المقدمة



في شهر محرّم من كلّ عام تهيض أفئدتنا وتشرأب أعناقنا إلى كربلاء، الأرض الطاهرة التي ضمّت الأجساد الطاهرة وشهدت أسمى ملامح البطولة والفداء، وسجّل التاريخ حينها صراعاً بين الحقّ والباطل. فمنذ ذلك الحين وإحياءً لذكرى الثورة الحسينية ترى محبّي أهل البيت في شتّى بقاع العالم يتوافدون إلى المنابر الحسينية لينهلوا منها أعظم القصص والمواعظ والحكم التي سطرّتها تلك الملحمة البطولية.

ولقد بدأت المنابر الحسينية بمخاطبة الإنسان عن طريق الوقوف على بعض المواقف البطولية من واقع المشهد الكربلائي، فترى الحضور يذرفون الدموع حباً بالإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه الذين غدت بطولاتهم رمزاً لكلّ من ينشد الإباء ويسعى إلى السير في طريق الحق.

إلا أنّه مع تقدّم الحضارات واتّساع آفاق الإنسان البسيط وانفتاحه على التعليم، إضافة إلى القفزة الإعلامية التي حولت العالم إلى قرية صغيرة بسبب انتشار وتطوّر وسائل الاتصال المختلفة، بات من الضروري أن يواكب المنبر الحسيني فكر النخب الثقافية الجديدة التي ترى في المنبر الحسيني زاداً لعقولها ويمنحها مساحة للتفكير والتحليل والاستنباط.

ليالي عاشوراء



لذا دعت الحاجة - لزاماً - أن يتسلح خطيب المنبر الحسيني في عصرنا هذا بالقدرة على التحليل المنطقي والمبني على أسس علمية، وعلى خلفية ثقافية تتطابق مع ما ترنو إليه هذه النخب المثقفة، لتكون خطبه مناراً للعقول قبل القلوب، وأن يكون قادراً على التصدي لكل التشوهات التي قد تبثها وسائل الاتصال هنا أو هناك والتي قد تسيء بالدرجة الأولى إلى الثورة الحسينية.

لقد أصبح ديدن الأجيال الحالية المؤمنة بالثورة الحسينية البحث عن ذلك الخطيب الذي يخاطب عقولهم ويحاكي فكرهم ويُجيب عن تساؤلاتهم عن طريق المنطق والعلم.

ولقد وجدت أنا شخصياً - ووجد الكثير من محبي أهل البيت (عليهم السلام) - ضالتهم في محاضرات سماحة الشيخ علي حسن غلوم.. ولعلي لا أذيع سرّاً حين أقول إنني توجهت إلى سماحته مباشرة بعد أول محاضرة حضرتها عنده وقلت له بالحرف الواحد: «إنني أبحث عنك منذ أربعين عاماً».. كيف لا وقد رأيت فيه ذلك الشاب الذي يتسلح بالدين والعلم معاً ويقوم من خلال محاضراته بالتطرق إلى العديد من المواضيع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بأسلوب علمي وبجراحة متناهية تخاطب مباشرة العقل والمنطق.

ولعلم سماحته بأهمية التكنولوجيا الحديثة في توصيل المعلومة، وتفهمه لاهتمامات الجيل الحالي في وسائل الاتصال المختلفة، يظهر لنا سماحته بحلّة وكاريزما جديدة تختلف عن الصورة التقليدية للخطيب الجالس على كرسيه يخاطب الجلوس. فتراه واقفاً ومن خلفه شاشة العرض الكبيرة وأمامه جهاز الكمبيوتر الشخصي، فهو يخاطب عينيك وفؤادك، وفوق كل هذا فهو يخاطب عقلك.

ولحرصه الشديد على مخاطبة الشريحة الأكبر من الشباب، دأب سماحته

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
وللعام الثالث على التوالي على تدوين محاضراته في الليالي الأولى من محرم الحرام وإصدارها في كتيبات لتكون في متناول يد كل من لم تسنح له الفرصة في الحضور، أو من أحب القراءة المتأنية لمضمونها، وأطلق عليها عنوان (ليالي عاشوراء).

ففي الجزء الأول من (ليالي عاشوراء) تطرّق سماحته إلى مواضيع متنوّعة شملت قراءة في أوضاع المنبر الحسيني، وشعر الطف، وبعض التحليلات التاريخية المتعلقة بالنهضة الحسينية. كما تناول في ذات الجزء الرد على إشكالية مصادر أخبار النهضة الحسينية من حيث تحديد شهود العيان والمؤرخين الذين نقلوا عنهم تلك الأخبار وتفصيلها.

أمّا في الجزء الثاني فتطرّق سماحة الشيخ إلى سؤال محوري ورئيسي ألا وهو: «هل خرج الإمام الحسين عليه السلام وهو يعلم أنه سيُستشهد في كربلاء؟»، وعلى الرغم من علم سماحته بحساسية الموضوع، إلا أنه آثر أن يتعامل مع موضوع كهذا من واقع البحث العلمي وأمانة العالم في البحث عن الحقيقة.

وهذا العام يضع سماحته بين يديك - عزيزي القارئ الجزء الثالث من «ليالي عاشوراء» (والذي اختار له شعار) إن أريد إلا الإصلاح.. قراءة في دوافع النهضة الحسينية لمواجهة الفساد». ولقد أبدع في تبيان أوجه الفساد التي دفعت الإمام الحسين عليه السلام للقيام بثورته، وأبدع مرة أخرى حين ربط - وبكل ذكاء - ذلك الفساد بكل أنواعه المنتشرة في عالمنا المعاصر.

ففي الليلة الأولى وقبل الولوج إلى مفهوم الفساد، تطرّق سماحة الشيخ إلى بحثٍ توثيقيٍّ حول الكلمة الحسينية: «وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد صلى الله عليه وآله أريد أن أمر

ليالي عاشوراء * _____

بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد ﷺ وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث اتخذ سماحته هذه الكلمة منطلقاً لدراسة أوجه الفساد متسائلاً: متى قاله الحسين عليه السلام؟ أين قاله؟ ما المناسبة؟ وما مصادر النص؟ وما هو اللفظ الأدق للعبارة؟.. ثم انتقل سماحته إلى عرض شرح تفصيلي لمفهوم الفساد من منطلق قرآني، وقام بقراءة تطبيقات عملية لمفهوم الفساد في آفاق التاريخ وفي الواقع المعاصر. وخلال هذا العرض لمفهوم الفساد تطرّق سماحته إلى مصطلح (الفساد) في اللغة ومن ثمّ المواجهة الدولية للفساد، حيث تساءل عمّا إذا كانت رؤية المجتمع الدولي المعاصر في حربه ضدّ الفساد تتطابق مع رؤية القرآن الكريم للفساد ومصاديقه.

وابتداءً من المحاضرة الثالثة خصّص سماحته كلّ ليلة لعرض وجه من أوجه الفساد بإسهاب، كفساد الحاكم، والفساد الأخلاقي، والفساد المالي، والفساد الفكري، والفساد في نقض العهود والمواثيق. وعرّج في الليالي الأخيرة على موضوع مسؤولية الإصلاح ودور القائمين عليه. وختم سماحته ليالي عاشوراء بالخوض في كيفية القضاء على المفسدين ودور القيادة في عملية الإصلاح.

ولا يفوتني أن أذكر أنّ أكثر ما يميّز محاور هذا الجزء الثالث هو براعة سماحة الشيخ في ربط أوجه الفساد في الماضي - التي من أجل مواجهتها خرج الإمام الحسين عليه السلام - بأوجه الفساد في وقتنا الحاضر.. وعرض سماحة الشيخ علي حسن غلوم ذلك بأسلوب علمي رشيق يضعنا جميعاً كقراء أمام مسؤولية قراءة كلّ من المشهد الحسيني وواقعنا الحالي بعقل المثقّف الواعي.

عزيزي القارئ.. إنّ هذا الكتاب الذي بين يديك هو خير جليس وخير زاد للفكر والروح.. أتركه بين يديك والله الموفق

د. عبدالمحسن عباس دشتي



مقدمة حول نصّ الكلمة الحسينية



«وإِنِّي لَمْ أَخْرَجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا وَلَا مُفْسِدًا وَلَا ظَالِمًا، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ
الإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ ﷺ، أُريدُ أَنْ أَمُرَّ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلِيٍّ ﷺ»^(١).

ستكون هذه الكلمة الحسينية على صاحبها آلاف التحية والسلام هي منطلق هذه
الدراسة بإذن الله ﷻ، مع الابتداء ببحثٍ توثيقي للنص.. متى قاله الحسين ﷺ؟
أين قاله؟ ما المناسبة؟ وما مصادر النص؟ وما هو اللفظ الأدقّ للعبارة؟

● أقدم المصادر

أقدم مصدر استطعت أن أجده لهذا النص هو ما جاء في كتاب (الفتوح)
لأحمد بن أعثم الكوفي (٣١٤هـ)، وحتى الذين ذكروا هذا النص من المؤرّخين
والمؤلفين أرجعوه إلى عدّة مصادر، أقدمها كتاب الفتوح هذا.

وقد وجدت أنّ البعض أرجع النصّ إلى كتاب (مقتل الحسين) لأبي مخنف
لوط بن يحيى الأزدي (ت ١٥٧هـ)، وبالتالي سيكون أقدم زمنًا من كتاب الفتوح،
إلا أنّ الملاحظ:

(١) محمد بن أبي طالب: تسليمة المجالس وزينة المجالس ج ٢ ص ١٦٠.

ليالي عاشوراء



أولاً، إنّ كتاب المقتل لأبي مخنف مفقود، وإنّ رواياته مبثوثة في الموسوعات التاريخية كتاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، وقد قام البعض باستخراج هذه الروايات وجمعها وقدمها في صورة كتاب مقتل أبي مخنف، وهو جهد مشكور إلا أنّه لا يُقدّم الصورة الكاملة والحقيقية للكتاب، وبالتالي لا نعلم مدى انطباق ما تمّ جمعه مع الصورة الأصلية للكتاب.

ثانياً، وإنّ الطبري (ت ٣١٠هـ) في تاريخه لم يُورد هذه العبارة في ضمن ما رواه عن أبي مخنف في أخبار وتفصيل أحداث واقعة الطف، لأنّه لم يُورد وصية الحسين عليه السلام لأخيه ابن الحنفية أصلاً، ولذا فإنّ من جمع النصوص في صورة كتاب مقتل أبي مخنف وفق النسخة التي اطّلت عليها لم يُورد الوصية، وبالتالي لم ترد فيه عبارة «وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً.. إلخ»، ولا أعلم كيف أرجع البعض هذا النص إلى مقتل أبي مخنف الذي تمّ تجميعه.

ومن هنا يبقى أنّ المؤكد هو كون كتاب الفتوح أقدم مصدر تاريخي قد ذكر العبارة، حتى يثبت خلاف ذلك.

• ابن أعثم

أمّا المؤلّف فقد كتب عنه العلامة السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ) في أعيان الشيعة ما يلي: «أحمد بن أعثم الكوفي أبو محمد الإخباري المؤرخ، توفي حدود سنة ٣١٤هـ. ذكره ياقوت في معجم الأدباء بهذا العنوان وقال: كان شيعياً، وهو عند أصحاب الحديث ضعيف، وله كتاب المألوف وكتاب الفتوح معروف.. وهكذا ذكره المجلسي في البحار بعنوان أحمد بن أعثم وقال إنّ له تاريخاً ونقل عنه في البحار. ولكن في الجزء الأوّل من دائرة المعارف الإسلاميّة ما صورته: «ابن أعثم الكوفي محمد بن علي مؤرّخ عربي كلّ ما نعرفه عنه أنّه

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
توفي حدود عام ٣١٤ هـ ألف تاريخاً قصصياً عن الخلفاء الأول وغزواتهم متأثراً
بمذهب الشيعة». وأضاف الأمين: «ومن الغريب قول صاحب مجالس المؤمنين
إنّه كان شافعي المذهب، قال ما تعريبه: في تاريخ أحمد بن أعثم الكوفي الذي
كان شافعي المذهب ومن ثقات المتقدمين أرباب السير»^(١).

ويبدو أنّ تضعيفه من قبل ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) في كتابه معجم الأدباء
مبنيٌّ - كثير من الموارد الأخرى - على تشييع ابن أعثم، ولاسيّما بلحاظ ما ذكره
ياقوت لاحقاً بقوله: «وذكره لتلك الأخبار متأثراً بمذهب الشيعة».

• وَصْفُ الْكِتَابِ

وكتاب الفتوح مطبوع في ثمانية أجزاء وفهرس، جاء في بدايته ما يلي: «الحمد
لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلاّ على الظالمين، وصلى الله
على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. إنّ
رسول الله ﷺ لما تُوفّي قام بالأمر بعده الإمام أبو بكر الصديق وكان قد بويع
له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه النبي ﷺ بسقيفة بني ساعدة، ولذلك قصّة
عجيبة نذكرها بتمامها، ونذكر ما فتحه المسلمون في أيّامه وأيام أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب من الفتوحات، وقاتل أهل الردة»^(٢).

قد يقول قائل إنّ هذا بحدّ ذاته دليل على عدم تشييع الرجل، ولكن لا بدّ أن
نعرف أنّ البيئة التي يؤلّف فيها المؤرخون على وجه الخصوص كُتبتهم تضطرّهم
أحياناً كثيرة إلى المراعاة، بل قد تدفع أحدهم إلى تصنيف كتاب كامل على هوى
الحاكم مثلاً، فنجد أنّ أبا الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) الذي لم يكن شيعياً بل
هو أمويّ الأصل يكتب كتاب (مقاتل الطالبيين) وذلك حين ارتحل إلى حلب

(١) محسن الأمين: أعيان الشيعة ج ٢ - ص ٤٨١.

(٢) أحمد بن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح ج ١ ص ٥.

ليالي عاشوراء * _____

على عهد حكم الحمدائين الشيعة، وفي هذا الكتاب ما لا يخفى من سرد لجرائم الأمويين والعباسيين ضد آل بيت النبي ﷺ، ويُعدّ من أهم المصادر في البين.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى كتاب الفصول المهمة لمعرفة الأئمة لابن الصبّاح المالكي الصفاقسي التونسي الأصل ت ٨٥٥هـ، وهو من سكان مكة المكرمة، مالكي المذهب، ولكّنه لما ألف الكتاب على عهد حكم الحسينيين لمكة المكرمة نجده يقول في المقدمة: «وسمّيته بالفصول المهمة في معرفة الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين، أجت في ذلك سؤال الأعزّة من الأصحاب والخلّص من الأحاب، بعد أن جعلت ذلك لي عند الله ذخيرة ورجاء في التكفير لما أسلفته من جريرة واقترفته من صغيرة أو كبيرة، وذلك لما اشتمل عليه هذا الكتاب في ذكر مناقب أهل البيت الشهيرة ومآثرهم الأثيرة، ولربّ ذي بصيرة قاصرة وعين من إدراك الحقايق حاسرة يتأمل ما ألفته ويتعرّض ما جمعته ولخصّته، فحمله طرفه المريض وقلبه المهيبض إلى أن ينسبني في ذلك إلى الترفّض»^(١) أي إلى الشيعة الإمامية.. ثم يخصّص كتابه لاستعراض سيرة سيدتنا الزهراء البتول عليها السلام والأئمة الاثني عشر عليهم السلام ابتداء من الإمام عليّ و انتهاء بالإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السلام.

وهكذا بالنسبة إلى المؤرّخين الشيعة الذين تواجدوا في بيئات غير شيعيّة، أو ألفوا بطلب من الخلافة نفسها، كعليّ بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) صاحب مروج الذهب، وأحمد بن إسحاق اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) الذي عرّف هكذا: «الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي» وغيرهم، ممّا جعلهم يُصنّفون مؤلفاتهم بما يتوافق مع معتقد الخلافة أو الجوّ المذهبي العام في البيئة الحاضنة لهم.

(١) علي بن محمد المالكي: الفصول المهمة في معرفة الأئمة - ج ١ ص ٨٤.

• نصّ الوصيّة كما في الفتوح

قال ابن أعثم: (وتهيأ الحسين بن علي وعزم على الخروج من المدينة ومضى في جوف الليل إلى قبر أمّه فصلّى عند قبرها وودّعها، ثم قام عن قبرها وصار إلى قبر أخيه الحسن ففعل مثل ذلك ثم رجع إلى منزله. وفي وقت الصبح أقبل إليه أخوه محمد بن الحنفية. ذكر وصية الحسين بن علي إلى أخيه محمد بن الحنفية قال: فلمّا جاء إليه محمد بن الحنفية رضي الله عنه: يا أخي فدتك نفسي! أنت أحبّ الناس إليّ وأعزّهم عليّ ولست والله أدخر النصيحة لأحد من الخلق، وليس أحد أحقّ لها منك، فإنّك كنفتي وروحي وكبير أهل بيتي ومنّ عليه اعتمادي، وطاعته في عنقي، لأنّ الله تبارك وتعالى قد شرفك وجعلك من سادات أهل الجنّة. وإنّي أريد أن أشير عليك برأيي فاقبله مني. فقال له الحسين: قل ما بدا لك! فقال: أشير عليك أن تنجو نفسك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، وأن تبعث رُسلك إلى الناس وتدعوهم إلى بيعتك، فإنّي إن بايعك الناس وتابعوك حمدتُ الله على ذلك، وقمت فيهم بما يقوم فيهم النبي صلى الله عليه وآله والخلفاء الراشدون المهديّون من بعده حتى يتوفّاك الله وهو عنك راضٍ والمؤمنون كذلك كما رضوا عن أبيك وأخيك، وإن أجمع الناس على غيرك حمدت الله على ذلك، وإنّي خائف عليك أن تدخل مصرًا من الأمصار أو تأتي جماعة من الناس فيقتتلون فتكون طائفة منهم معك وطائفة عليك فتقتل منهم. فقال له الحسين: يا أخي! إلى أين أذهب؟ قال: اخرج إلى مكة فإن اطمانت بك الدار فذاك الذي تحبّ وأحبّ، وإن تكن الأخرى خرجت إلى بلاد اليمن فإنّهم أنصار جدك وأخيك وأبيك، وهم أرأف الناس وأرقهم قلوباً وأوسع الناس بلاداً وأرجحهم عقولاً، فإن اطمانت بك أرض اليمن وإلا لحقت بالرمال وشعوب الجبال وصرت من بلد إلى بلد لتنظر ما يؤول إليه أمر الناس ويحكم بينك وبين القوم الفاسقين. فقال له الحسين: يا أخي! والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا

مأوى لما بايعت والله يزيد بن معاوية أبداً، وقد قال: اللهم لا تبارك في يزيد. قال: فقطع عليه محمد بن الحنفية الكلام وبكى فبكى معه الحسين ساعة ثم قال: جزاك الله يا أخي عني خيراً! ولقد نصحت وأشرت بالصواب وأنا أرجو أن يكون إن شاء الله رأيك موفقاً مسدداً، وإنني قد عزمْتُ على الخروج إلى مكة وقد تهيأت لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي وأمرهم أمري ورأيهم رأيي. وأما أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عيناً عليهم، ولا تُخفِ عليَّ شيئاً من أمورهم. قال: ثم دعا الحسين بدواة وبياض وكتب فيه: وصية الحسين عليه السلام لأخيه محمد عليه السلام فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن علي ابن أبي طالب لأخيه محمد بن الحنفية المعروف ولد علي بن أبي طالب عليه السلام: إنَّ الحسين بن علي يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبده ورسوله، جاء بالحق من عنده، وأنَّ الجنة حقَّ والنار حقَّ، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، وإنِّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب النجاح والصلاح في أمة جدِّي محمد عليه السلام أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدِّي محمد عليه السلام وسيرة أبي علي بن أبي طالب^(١).

* ملاحظتان في البين

١- الطبري صاحب تاريخ الأمم والملوك وهو معاصر لابن أعثم وأقدم منه، ذكر الحوار روايةً عن أبي مخنف، ولكنه لم يذكر الوصية. وهكذا فعل مؤرخون آخرون، ولذا فيبدو أنه لا يوجد مصدر أقدم من الفتوح قد ذكر النص كما أسلفنا، وللأسف فإنَّ ابن أعثم لم يأت بسند محدّد أو مصدر للخبر، وهكذا هو الحال في سائر نصوص كتابه.

(١) أحمد بن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح ج ٥ ص ١٩-٢٢.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

وقد ذكر السيد محمد الترحيني في بحث له بعنوان «النهضة الحسينية»: أن كتاب الفتوح مطبوع بحيدر آباد، وفي الجزء الخامس ص ١٠-٢٥٣ أخبار عن النهضة الحسينية، وقد انفرد بأشياء، وذكر أول الفصل جميع الأسانيد، وتجميع الأسانيد في مكان ثم ذكر أخبارها يُفقد الأخبار مزية، وهي إرجاع كل خبر إلى راويه^(١). أما النسخة المتوفرة لديّ فلا تحتوي حتى على هذه الأسانيد.

٢- العبارة المشهورة: «وإنما خرّجتُ لِطَلْبِ الإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ ﷺ أما الموجودة في نص الفتوح: «وإنما خرّجتُ لِطَلْبِ النَّجَاحِ وَالصَّلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ ﷺ، والأولى هي الأشهر على الألسن، ومصدرها بحسب التتبع ما نقله المجلسي في بحاره عن كتاب تسليّة المُجالس وزينة المجالس للسيد محمد بن أبي طالب الموسوي من أعيان القرن العاشر الهجري، وهو متأخر زمنًا بقرون عن صاحب الفتوح، كما أنه لم يزودنا - للأسف - بمصدر الخبر.

والخلاصة أن نصّ الكلمة الحسينية الواردة في وصيته لأخيه ابن الحنفية موثّق في كتاب الفتوح لابن أعثم، أي في القرن الثالث أو بدايات الرابع الهجري وليس من مختلقات القرون المتأخرة والعصور التي شهدت زيادات وإضافات وتحريفات كثيرة على أحداث واقعة الطف.



(١) عاشوراء النص والوظيفة وإمكانية التعبير: مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر مجموعة مقالات - ص ٥٦-٥٥.



مفهوم الفساد



سنتناول مفهوم الفساد من منطلق قرآنيّ، ومن ثمّ نقرأ في آفاق التاريخ وفي الواقع المعاصر تطبيقات عملية للمفاهيم المنتزعة من ذلك البحث.

• «الفساد» في اللّغة

ولكن بدايةً ماذا قال علماء اللّغة في شأن هذا المصطلح؟ قال الراغب الأصفهاني: «الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج أو كثيراً، ويضادّه الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة»^(١).

أي إنّ للأشياء وظائف تؤدّيها، وأدواراً متوقّعة منها، وهذا هو صلاحها، فعندما تكون الثمرة ناضجة نقول إنّها ثمرة صالحة للأكل، وعندما تكون الأرض محروثة ومدعّمة بالأسمدة والأتربة المناسبة نقول إنّها صالحة للزراعة، وعندما يكون الحاكم مؤدّباً لمهامه كما ينبغي فنقول إنّه حاكم صالح.. وهكذا.

وفي المقابل فإنّ الفساد سيعني وجود خلل أو نقص في أداء الشيء لهذه الوظيفة أو المهمّة.. وكلّ شيء بحسبه. ففساد الآلة بخرابها، وفساد الجسم

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٩.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

بمرضه وضعفه، وفساد الثمرة بفقدان قوامها أو طعمها أو لونها، وفساد الحكم بنكوصه عن أداء مهمّاته، أو بانعدام العدالة، أو بتجاوز القوانين، أو غير ذلك.

ويجدر أن ننتبه إلى أنّ الصلاح شيء نسبيّ، وكذلك الفساد، فالإنسان قد يكون صالحاً وفساداً في آن واحد.. فبلحاظ المواطنة قد يكون صالحاً، لأنّه يلتزم بالقوانين العامة ويساهم في بناء الوطن.. إلخ، وهذا الإنسان نفسه قد لا يكون صالحاً بالمقياس الديني لأنّه تارك للواجبات كالصلاة مثلاً. وقد يكون بالنسبة إلى مجتمع كافر إنساناً صالحاً، وبالنسبة إلى مجتمع مؤمن إنساناً فاسداً.

• المواجهة الدولية للفساد

وهناك نقطة أخرى، فمن الواضح لكلّ متتبّع أنّ المجتمع الدولي المعاصر رفع شعار محاربة الفساد، وأسس في هذا الطريق عدّة مؤسّسات سنستعرض بعضاً منها لاحقاً، فهل تتطابق رؤية المجتمع الدولي المعاصر في حربه ضدّ الفساد مع رؤية القرآن للفساد ومصاديقه؟ وبعبارة أخرى، هل إنّ تعريف الفساد في المفهوم الدولي المعاصر وتطبيقاته الخارجية متطابقة مع تعريف الفساد وتطبيقاته في القرآن الكريم؟

تتّضح الإجابة عن ذلك من خلال استعراض المؤسّسات التي أُقيمت من قبل الأمم المتحدة وجهات أخرى لمواجهة الفساد، وتعريفها له، والدوائر والمجالات التي تسعى للعمل فيها:

١- تأسيس (منظمة الشفافية الدولية) عام ١٩٩٣ بألمانيا، وهي الآن منظمة عالمية غير حكومية، تتشكّل من ١٠٠ فرع، مع سكرتارية دولية في برلين. تُعرّف نفسها على أنّها: «منظمة مجتمع مدني عالمية تقود الحرب ضد الفساد. تجمع الناس معاً في تجمّع عالمي قويّ للعمل على إنهاء

الأثر المدمر للفساد على الرجال والنساء والأطفال حول العالم. مهمة الشفافية الدولية هي خلق تغيير نحو عالم من دون فساد».

والمنظمة لا تتولّى التحقيق في قضايا فساد معيّنة، بل تطوّر وسائل مكافحة الفساد وتعمل مع منظمات المجتمع المدني والشركات والحكومات لتنفيذها. كما قد تقوم بإقامة ائتلافات لمحاربة الفساد. منذ العام ١٩٩٥ بدأت المنظمة بإصدار مؤشر فساد سنوي ويُعرف بـ (CPI)، كما تنشر تقريراً عن الفساد العالمي. وهي تعرّف الفساد بأنه إساءة استغلال السلطة المؤتمنة من أجل المصلحة الشخصية، وتقسّم مؤشرها إلى ١٠ درجات، فما جاء في المرتبة الأولى فهو يعني أنه الأكثر فساداً، والعكس صحيح.

٢- في عام ٢٠٠٣، أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة (ميثاق الأمم المتحدة لمكافحة الفساد)، وهو أول اتفاقية دولية ملزمة لمحاربة الفساد، تحدّد إجراءات الحماية منه وتحصين المجتمعات ضده، وكشفه وتجريمه، وتسهيل التعاون الدولي لاسترداد الثروات المسلوّبة. انضمت إليه حتى الآن (١٦٤) دولة أي ٨٥٪ من إجمالي الأعضاء، وتمّ تحديد التاسع من كانون الأول (ديسمبر) من كل عام على أنه (اليوم العالمي لمكافحة الفساد).

٣- إنشاء منظمة (برلمانيون عرب ضد الفساد) في تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٤ والمنبثقة عن مؤتمر برلماني إقليمي عُقد في بيروت، وتُعرّف نفسها كالتالي: «منظمة عربية غير حكومية، لا تبغي الربح. وتهدف بشكل أساسي إلى جمع البرلمانيين والناشطين بالشأن العام، وتقوية قدراتهم في مكافحة الفساد وتعزيز المساءلة والشفافية وحكم القانون». تتخذ المنظمة

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م _____ *
من بيروت مقرّاً لها، وقد تمّ إنشاء عدّة فروع وطنية لها من بينها الكويت

تحت عنوان: (برلمانيون كويتيون ضدّ الفساد) وذلك في عام ٢٠٠٥.

٤- صدور اتفاقيات إقليمية وقارّية لمحاربة الفساد، من بينها وثيقة الاتفاقية العربية لمكافحة الفساد في ديسمبر ٢٠١٠، الصادرة عن جامعة الدول العربية.

٥- في مارس ٢٠١١ تمّ تأسيس (الأكاديمية الدولية لمكافحة الفساد) في فيينا، بمبادرة من الحكومة النمساوية والأمم المتّحدة والاتّحاد الأوروبي، وتهدف إلى مساعدة الدول الموقّعة على ميثاق مكافحة الفساد على تطبيق أحكامه.

وممّا سبق سيّضح أنّ التعريف الذي قدّمته منظمة الشفافية الدولية للفساد، وهو: (إساءة استغلال السلطة المؤتمّنة من أجل المصلحة الشخصية) إنّما يمثّل مفردة من مفردات الفساد في المصطلح القرآني وفق ما ستوصّل إليه من خلال البحث القرآني، فقد طرح القرآن عنوان الفساد بصورة واسعة شملت نواحي عديدة من حياة الناس، ولم تقتصر على المفردة السابقة، كما أنّه أيضاً لم يقتصر على السلوك الفردي السلبي من قبيل شرب الخمر والزنى وترك الصلاة وسوء الخلق، كما يقتصر عليه كثير من المتديّنين في حديثهم حول الفساد.

• موارد «الفساد» في القرآن

ارتبط ذكر هذا المصطلح في القرآن الكريم بعناوين متعدّدة في السلوك البشري المنحرف، ومن أمثلة ذلك الشرور والمعاصي التي تمثّل اعتداءً على حقوق العباد من خلال:

• القتل: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

• التخریب: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

• السرقة: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣].

• أكل حقوق اليتامى وأموالهم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

• تطفيف الكيل والميزان: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

ولربما من هذا الباب ارتبط مصطلح الفساد في القرآن بكلمة (الأرض) في أكثر موارد استعماله، حتى يكاد يكون مصطلح (الفساد في الأرض) مصطلحاً قرآنياً له دلالاته وأبعاده وإيحاءاته كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين. فقد استعمل الكتاب الحكيم كلمة الفساد وتصريفاتها ٥٠ مرة، منها ٣٩ مرة ورد فيها اسم الأرض أو إشارة إليها، كما في الآيات التالية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].
 ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].
 ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

ولربّما كان ذلك من جهة أنّ الآيات تريد أن تؤكد على عموم وسعة ما يشمله موضوع الفساد.. فظاهرة الفساد التي يشير إليها القرآن الكريم ليست ظاهرة فردية أو شخصية، أو محدودة بمجتمع ضيق أو حالة معيّنة خاصّة، بل هي ظاهرة تعمّ المجتمع الإنساني بغالبيّته، فالممارسات التي يُطلق عليها القرآن الكريم عنوان الفساد، تشمل الظواهر الإنسانيّة العامة والواسعة التي يصحّ إطلاق (الفساد في الأرض) عليها.

• الفساد في الأرض

ومصطلح (الفساد في الأرض) له دلالات قويّة، من ذلك أنّ الأرض وُضعت للناس جميعاً، فإذا كان سلوك فرد أو جماعة يسيء إلى هذا المأوى أو يؤدّي إلى خرابه، فإنّ من مسؤوليّة الناس أن يمنعوا ذلك ويقاوموه، دون أن تنحصر المسؤوليّة بشخصٍ معيّن، لأنّ المشكلة حينذاك تخصّ كلّ البشر.

وقد نجد أنّ القرآن الكريم ينتقد أو يحذّر من بعض التصرفات ويطلق عليها لفظ الفساد، وهي لا تتّصف بتلك السّعة والشمولية، لكن عمق خطرهما وأثرهما السيّء يؤدّي إلى فساد المجتمع كلّّه، أو الحضارة السائدة، بحيث يمكن أن تدخل تحت عنوان الفساد في الأرض.

ففي قصة النبي يوسف عليه السلام تقول الآية: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]. فما هي طبيعة الجريمة المتصوّر أنّهم سيرتكبونها وما هي حدودها لاسيما بلحاظ أنّهم طارئون على ذلك المجتمع وعددهم محدود؟ كلّ المسألة كانت: ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢]. فالمسألة أحياناً تكمن في عمق التأثير لا في حجم الفعل ذاته.

• الإنسان والفساد

ويلاحظ من تتبع الآيات القرآنية حول الفساد أنّ لهذا العنوان حضوراً قوياً وواضحاً في بداية الوجود البشري من خلال الحوار الذي دار بين الملائكة وبين الله، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

أي إنّ حضوره سابق حتى على خلقه، وكأنّها سمة لازمة لطبيعة خلقته من خلال ما تبادل عند الملائكة، لعلمهم بأنّ وجود مخلوق بالصورة التالية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] يستدعي تلقائياً أن يفسد ويسفك الدماء، لأنّه سيعيش الصراع بين العقل والغريزة في شخصيته، ويختزن عناصر النزاع والخلاف، والرغبة في التدمير، والأنانية في التملك والتسلط في ذاته، ما يؤدي إلى الإفساد المادي والمعنوي، فتعيش الأرض، من خلال ذلك، في جوٍّ من الحروب المفسدة والمدمرة.. وهذا لا يتناغم مع حبّ الله للخير والسلام وإرادته للتقوى والعمل الصالح.

وتكمل الملائكة ملاحظتها بأنّه إذا كانت حكمتك يا إلهنا من استخلاف الإنسان في الأرض أن يسبحك ويقدّس لك ويعبدك، باعتبار أنّ العبادة هي غاية الخلق في مَنْ تخلقه، فإنّما يتراءى لنا أنّنا نحن الملائكة الأولى بهذا الاستخلاف لأنّنا ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وقد صدق ظنّهم، وتحقّق ما تحدّثوا عنه، وفي بداية الوجود البشري، في ما استعرضه القرآن من قصة ابني آدم: ﴿وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿المائدة: ٢٧﴾. ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]. ﴿مِنَ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ولذا لم يخطئهم الله في الانطباع الذي ارتسخ عندهم، إلا أنه أعلمهم أنّ هناك مصالح كامنة، ونواتجة عنها، أكثر أهمية، وأقوى تأثيراً، وأفضل إنتاجاً من تلك المفساد، هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإنّ من طبيعة هذا الوجود الذي خلقه الله أنّ الخير والشرّ يمتزجان فيه، فلا تجد في مكان جانباً من الخير إلا وتجد أنّ للشرّ حضوراً أو مجالاً للحضور.. فسّم الأفعى خيرٌ لها وشرٌّ لأعدائها أو لفريستها.

• الإمام الحسين عليه السلام يواجه الفساد

الإمام الحسين عليه السلام ربط جانباً من دوافع خروجه بمواجهة الفساد، وقد لاحظنا هذا في النصّ الذي استعرضته بدايةً ضمن كتابه لأخيه ابن الحنفية، ونجده ماثلاً أمامنا مرة أخرى في النصّ التالي، ففي خبر أبي مخنف كما في تاريخ الطبري: «خطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيّها الناس إنّ رسول الله ﷺ قال من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يُدخله مُدخله. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غير...»^(١). وهذه العبارة الأخيرة لربما تكون بصورة أخرى أوضح دلالةً كما في النصّ التالي.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج٤ ص٣٠٤.

ففي كتاب (الفتوح) لابن أعثم أنّ هذا النصّ جاء في رسالة كتبها ﷺ أوّل وصوله كربلاء وذلك ضمن الأحداث التي أعقبت تضييق الحرّ الرياحي على الإمام ومَن معه: قال: «فأقبل الحسين بن عليّ بن عليّ بن رجل من أصحابه يُقال له زهير بن القين البجلي، فقال له: يا بن بنت رسول الله، ذرنا حتى نقاتل هؤلاء القوم، فإنّ قتالنا الساعة نحن وإيّاهم أيسر علينا وأهون من قتال من يأتينا من بعدهم، فقال الحسين: صدقت يا زهير. ولكن ما كنت بالذي أنذرهم بقتال حتى يتدروني. فقال له زهير: فسِرْ بنا حتى نصير بكربلاء فإنّها على شاطئ الفرات فنكون هنالك، فإن قاتلونا قاتلناهم واستعنا بالله عليهم. قال: فدمعت عينا الحسين، ثم قال: اللهم، ثم اللهم، إني أعوذ بك من الكرب والبلاء! قال: ونزل الحسين في موضعه ذلك ونزل الحرّ بن يزيد حذاه في ألف فارس، ودعا الحسين بدواة وبياض وكتب إلى أشرف الكوفة ممّن كان يظنّ أنّه على رأيه. «ذكر كتاب الحسين إلى أهل الكوفة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ إلى سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وعبدالله بن وال، وجماعة المؤمنين، أما بعد، فقد علمتم أنّ رسول الله ﷺ قد قال في حياته: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام أو تاركاً لعهد الله ومخالفاً لسنة رسول الله ﷺ فعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ثم لم يغيّر عليه بقول ولا فعل، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، وقد علمتم أنّ هؤلاء لموا طاعة الشيطان وتولّوا عن طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله. وأنا أحقّ من غيري بهذا الأمر لقرابتي من رسول الله ﷺ...»^(١).



(١) أحمد بن أعثم: الفتوح ج ٥ ص ٨٠.



• صفات المفسدين

يمكن استخلاص مجموعة من صفات المفسدين وفق ما جاء في الآيات التي تحدّثت عنهم وعن أفعالهم وصور إفسادهم، وهذه الصفات ليس من الضرورة أن تتوفر في كلّ مفسد، ولا بالضرورة أن تجتمع كلّها في شخص واحد، ولكنّها من الصفات التي ارتبطت بهم في أثناء حديث القرآن عنهم:

١- يُعْجِبُكَ قَوْلَ الْمُفْسِدِ، فَهُوَ حَلْوُ اللِّسَانِ، بَيْنَمَا قَلْبُهُ يَنْطَوِي عَلَى الْحَقِّ وَالْغَلِّ وَالْخِصَامِ، قَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥]..
ويتحوّل ما في قلبه إلى سلوك شرير إذ يسعى ويجتهد في إفساد وإهلاك الناس والنبات والحيوان.

٢- يَتَّصِفُ بِالْكَبْرِ وَالْكَذْبِ وَالتَّضْلِيلِ، قَالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]. إنهم لا يعترفون بفسادهم وإفسادهم، بل الأدهى أنهم يرون أنفسهم مصلحين، وهي درجة



أعلى من الصالحين؛ لأنَّ الصالح هو من يزكِّي نفسه وخلقَه وعبادته لربِّه، بينما المصلح هو الصالح في نفسه، المصلح لغيره وهي منزلة عالية.

٣- المفسد قد يوقن في قرارة نفسه بالحق الذي يجحده ويرفضه في الظاهر، أو قد يوقن بأنَّه على باطل، ومن هذا النموذج من ذكرهم القرآن بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

٤- بَطَرُ النعمة، ومثال ذلك هو (قارون) رمز أولئك الذين آتاهم الله من صنوف المال والنعمة فظنوا كما ظنَّ قارون أنه إنما أُوتيه على علم عنده، فلم يوظف شيئاً منه لآخرته، ولم ينفقه في خير الناس، قال: ﴿وَأَبْتَعِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

٥- إشعال نيران الحروب والفتن واختلاق الأزمات الاقتصادية أو السياسية أو العقائدية لخدمة مصالحهم، سواء لإشغال الناس عن الفساد المستشري، أو للانتفاع من هذه الحروب بتحقيق مكاسب مادية كما هو ديدن شركات الأسلحة العالمية والدول العظمى، أو لتمرير سياساتهم الفاسدة في محيط نشاطهم. قال عليه السلام: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]. يقول أحد الباحثين في الشأن الاجتماعي العراقي إنه كلما أراد الاستعمار البريطاني ومن يمثله في الحكم في العراق في النصف الأول من القرن العشرين، تمرير أمر ما، خلقوا فتنة مذهبية بين السنة والشيعة لإلهاء الناس بها والتفرغ لإنجاز مشروعهم.

٦ - الصدّ عن سبيل الله، قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال على لسان النبي شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ولهذا الصدّ صور عديدة، فقد تحدّث القرآن الكريم عن نموذج تعامل قريش مع النبي ﷺ والمسلمين بالتخويف والتعذيب والإغراء وغير ذلك من قبيل ما جاء في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

كما تحدّث القرآن عن نموذج المنافقين الذين كانوا يمنعون الآخرين من الأخذ عن رسول الله، أو الالتحاق بجيش المسلمين، أو التمرد عليه، أو بناء مسجد (ضرار) ليكون مركزاً لمواجهة جهود النبي وهدم مشاريعه، أو غير ذلك من قبيل ما جاء في قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

• من الصور القرآنية للفساد في الأرض

فساد الحاكم: فرعون نموذجاً

قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمْ وَيَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]. ويمكن الاستنتاج بحسب الآية أنّ لتحقق هذا النوع من الإفساد مقومات، وهي:

١- العلوّ في الأرض: بدلالة قوله: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك استكباراً من



خلال الامتيازات العائلية، والأموال والممتلكات التي تحت يديه، والجماعات التي كانت تحيط به وتزلف له، وتقدم له الطاعة والولاء.

٢- تفتيت وحدة المجتمع: بدلالة قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ بافتعال أو ترسيخ التقسيم الطبقي والعرقي، ومن خلال إثارة الصراعات لإشغال الناس عن قضايا العدالة الاجتماعية والحريات وحقوقهم الإنسانية، ولضمان بقائهم تحت سلطانه.

٣- استضعاف شريحة من المجتمع: بدلالة قوله: ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وذلك بتسخير بني إسرائيل الذين كانوا في عداد الأسرى الأرقاء فيستخدمهم في جميع حاجاته، ليكونوا اليد العاملة المجانية التي توفر له كل ما يريد من دون خسارة.

٤- ارتكاب الجرائم الإنسانية بحق هذه الشريحة: بدلالة قول الله: ﴿يَذَبْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، فقتل الأبناء الذكور بعد أن تداول بنو إسرائيل أنّ أوان ولادة النبي المبشّر به قد اقترب، وأنّه سيكون السبب في زوال ملك فرعون، الأمر الذي بثّ الرعب في قلبه، فأمر بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل دون استثناء.. كما كان يستحيي نساءهم ويسلبهنّ حريتهنّ بغيّة استخدامهنّ في شؤونه وشؤون طبقتة الاجتماعية.

ما مارسه فرعون وفق الآية القرآنية مثل إخلالاً بالأمن الاجتماعي، وهذا الإخلال من الصور الخطيرة للفساد، ومن هنا اعتبر القرآن الكريم هذه الممارسة الفرعونية نوعاً من الإفساد.

ولكي يتضح عمق الخطر في هذا النوع من الإفساد، لا بدّ أن نعود لاستيضاح

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
 أهمية توفير الأمن الاجتماعي، فعبر القرون صيغت الأنظمة والقوانين والأعراف
 والمواثيق لتحفظ أمن المجتمع وسلامته داخلياً وخارجياً، ولتأمين وضع
 اقتصادي يضمن سبل المعيشة المناسبة ونموها، ولتوفير مأوى مناسب لأفراد
 المجتمع، وبالتالي تحقيق حياة كريمة محترمة.

ولنلاحظ وصف الإمام عليّ عليه السلام لتوفر مقومات الأمن الاجتماعي حين
 حكم الكوفة: «إنه ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعماً، إن أدناهم منزلة ليأكل البُرّ،
 ويجلس في الظلّ، ويشرب من ماء الفرات»^(١)، فهم في نعمة وافرة «إن أدناهم
 منزلة ليأكل البُرّ» فلا جائع في الكوفة، بل والطعام الأدنى هو البُرّ، والبُرّ أرقى من
 الشعير الذي اعتادوا أكله «ويجلس في الظلّ» أي يمتلك سكناً «ويشرب من ماء
 الفرات».

وأيّ تهديد لهذه الحاجات أو خلل في تلبيتها أو كفايتها، يُعدّ تعدياً على تلك
 الحقوق، ويُطلق عليها القرآن عنوان (الإفساد في الأرض)، ومن أمثلة ذلك:

- إهمال البنية التحتية للبلد في المجال الصحي أو التعليمي أو المواصلاتي
 أو غير ذلك حتى تنهالك بمرور الزمن دون اتخاذ إجراء مناسب.

- عدم معالجة موضوع الغلاء الفاحش الذي يحرم المواطن من الحصول
 على أبسط احتياجاته المعيشية إلا بشقّ الأنفس، أو بهدر الكرامة، أو بالسَّرقة، أو
 بالارتشاء، أو بتجاوز القانون، ويقف الحاكم موقف المتفرّج، أو يكون مساهماً
 في ذلك، تلبيةً لمصالحه.

- وضع تشريعات تعمل على خلق هوة بين طبقات المجتمع أو اتساعها،
 فتندم الطبقة المتوسطة كما حصل في بعض المجتمعات المعاصرة، مع

(١) المجلسي: بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٣٢٧ ح ٩.

ليالي عَاشُورَاءُ * _____

الإصرار على السياسات الاقتصادية الفاشلة، أو التي تصب في مصلحة الحاكم، أو مصلحة الحاشية المتنفذة من حوله، أو طبقة معينة في المجتمع.

• السماح بنشوب الصراعات الطائفية والاقتتال المذهبي والنزاعات الحزبية العنيفة، أو العمل على نشوبها، أو عدم المبادرة لغرس مفاهيم المواطنة السليمة، أو عدم توفير الأجواء المناسبة لها، أو فتح المجال لنمو القوى المتطرفة التي تعمل على تمزيق المجتمع وتفتيت لحمته، وكل ذلك بهدف تفعيل سياسة (فرق تسد)، أو للاستقواء بطرف على حساب بقية الأطراف.

• حرمان فئات من المجتمع من حقوقها في ممارسة شعائرها الإيمانية بحرية مسؤولة، أو عدم الاعتراف أصلاً بوجودها، نتيجة التعصب الديني أو المذهبي.

ومن هنا ارتأت المجتمعات البشرية المتحضرة ضرورة وجود دستور تنظم من خلاله العلاقات على كافة الأصعدة، ويمارس الحاكم حكمه بواسطته، ويحاسب به المسيء مهما علا شأنه، ويكافأ به المحسن دون تمييز.. إلخ. وقد قدّم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من خلال كتابه إلى مالك الأشتر حين بعثه إلى مصر ليحكمها، دستوراً رائعاً للحكم يشمل على توصيات أخلاقية وإدارية وسياسية.

• صورة أخرى لإفساد الحاكم

ولا يتوقف تحقّق الإفساد على يد الحاكم الظالم بما يمارسه في إطار مجتمعه، بل بعدوانه على المجتمعات الأخرى المسالمة أيضاً، وقد تحدّث القرآن الكريم عن مثل هذه الصورة في حديثه عن عدوان يأجوج ومأجوج ضمن أحداث رحلة ذي القرنين الإصلاحية في الأرض، حيث واجه الوضع التالي: ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّنِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

تَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ [الكهف: ٩٢-٩٥].

وتصرّح الآيات أنّ القوم الذين طلبوا نجدته كانوا قوماً متخلفين بلا حضارة ولا مدنيّة، بل ويبدو أنّهم ما كانوا يمثلون مجتمعاً مؤمناً.. فلم يمنع ذلك ذا القرنين من أن يعينهم بجهد جهيد في ردّ عدوان قبائل يأجوج ومأجوج من خلال بناء ردم ضخّم بين جبلين.

ويمكن أن يُستفاد من ذلك أنّ العدوان على المجتمعات المسالمة، وبلا وجه حقّ، يُعدّ نوعاً من أنواع الإفساد في الأرض، بغضّ النظر عن طبيعة الانتماء الديني لذلك المجتمع، وهذا ما لم يقبل به ذو القرنين من باب الإحساس بالمسؤوليّة، فبادر لمساعدة المعتدى عليهم بذلك البناء.

• الإمام الحسين يواجه فساد السلطة

واجه الإمام الحسين عليه السلام واقعاً مؤلماً من فساد السلطة الحاكمة، إذ عمل الأمويّون لتحقيق أهدافهم السلطوية على عدة جبهات وذلك خلال عقدين من الزمن، فكان من بينها:

١- اتباع سياسة الإرهاب والقتل والتجويع بالنسبة إلى من لا يتفق معهم في الهوى السياسي، ففي كتاب (الغارات) لإبراهيم بن محمد الثقفي (ت ٨٩٦): «عن سفيان بن عوف الغامدي قال: دعاني معاوية فقال: إنني باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات حتى تمرّ بهيت (بلدة تقع على الفرات شمال الأنبار) فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغز عليهم، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى تغير على المدائن ثم أقبل إليّ، واتق أن تقرب



الكوفة، واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة، إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترهب قلوبهم وتجري كل من كان له فينا هوى منهم ويرى فراقهم، وتدعو إلينا كل من كان يخاف الدوائر، وخرّب كل ما مرت به من القرى، واقتل كل من لقيت ممن ليس هو على رأيك، وأحرب الأموال (أي خذها كاملة ولا تبق منها شيئاً) فإنه شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلوب»^(١).

وقد ذكر الإمام عليّ عليه السلام بعض هذه الغارات التي شنّها الغامدي كما جاء في نهج البلاغة حيث قال: «وهذا أخو غامد قد وردت خيله الأتبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحتها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فيتنزع حجلها وقلبها وقلابها ورعائها «أقراطها»، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم أنصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً»^(٢).

وذكر الثقفي أيضاً في كتابه (الغارات): «دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري وقال له سر حتى تمر بناحية الكوفة وترفع عنها ما استطعت فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليهما، وإذا أصبحت في بلدة فأمس في أخرى، ولا تقيمن لخييل بلغك أنها قد سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها. فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف جريدة خيل (أي خيالة فقط من غير قوة مشاة). قال: «فأقبل الضحاك يأخذ الأموال ويقتل من لقي من الأعراب حتى مرّ بالثعلبية فأغار خيله على الحاج فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل مقبلاً فلقي عمرو بن عميس بن مسعود الذهلي وهو ابن أخ عبد الله بن

(١) الغارات: ج ٢، ص ٤٦٤.

(٢) نهج البلاغة، خ ٢٧.

مسعود صاحب رسول الله ﷺ فقتله في طريق الحاج عند القطقطانة وقتل معه ناساً من أصحابه. قال أبو رَوق فحدثني أبي أنه سمع علياً عليه السلام وقد خرج إلى الناس وهو يقول على المنبر: يا أهل الكوفة اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس وإلى جيوش لكم قد أصيب منها طرف، اخرجوا فقاتلوا عدوكم وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين. قال: فردوا عليه رداً ضعيفاً، ورأى منهم عجزاً وفشلاً فقال: «والله لو ددت أن لي بكلّ مائة رجل منكم رجلاً منهم! ويُحكّم اخرجوا معي ثم فَرُوا عَنِّي إن بدا لكم، فوالله ما أكره لقاء ربي على نيتي وبصيرتي وفي ذلك رَوح لي عظيم وفرج من مناجاتكم ومقاساتكم ومداراتكم مثل ما تدارى البَكَارُ العَمْدَةُ (مثلما تدارى الإبل الشابة الصغيرة المكسورة السنام بسبب ثقل الحمل) والثياب المتهرئة (المتهتكة لقدمها) كلّما خيبت من جانب تهتكت على صاحبها من جانب آخر ثم نزل، فخرج يمشي حتى بلغ الغريين، ثم دعا حجر بن عدي الكندي من خيله فعقد له راية على أربعة آلاف ثم سرّحه»^(١).

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ): «كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون علياً ويرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضمّ إليه البصرة فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنّه كان منهم أيام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدّر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل، وطرفهم (أبعدهم إلى الأطراف والنواحي البعيدة) وشرّدهم عن العراق فلم يبقَ بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق ألا يُجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم أن انظروا من

(١) الثقفي: الغارات، ج ١، ص ٢٩٢-٢٩٣.

قبلكم من شيعة عثمان ومحبيته وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرمواهم وكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصّلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضة في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً. ثم كتب إلى عماله أنّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنّ هذا أحبُّ إليّ وأقرّ لعيني وادحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقُرِّت كتبه على الناس فزويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس في رواية ما يجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر وألّقي إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتّى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله. ثم كتب إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان انظروا من قامت عليه البينة أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه! وشفّع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمته بموالاته هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره! فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة، حتى أنّ الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقى إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * —————

بلية القراء المرأؤون والمستضعفون الذين يُظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنّها حق، ولو علموا أنّها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها. فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام فزاد البلاء والفتنة فلم يبقَ أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض»^(١).

وفي هذا الشأن أخبار كثيرة يمكن الاطلاع عليها في كتاب الغارات وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وغيرهما. وقد كتب د. طه حسين (ت ١٣٩٣ هـ) في كتابه (الفتنة الكبرى): «لو رُدّت إلى المسلمين أمورهم، وطُلب إليهم أن يختاروا إماماً لما اختاروا معاوية بحال من الأحوال؛ لأنّهم بلوا سياسته، وخبروا عمّاله، فرأوا أنّ أمورهم تصير إلى شرّ عظيم.. فهم يحكمون بالخوف لا بالرضا، ويُساسون بالرعب والرهب لا بما ينبغي أن يُساس به المسلمون من كتاب الله وسنة نبيّه، وأموالهم العامّة ليست لهم بل إلى ملكهم وولاتهم، يتصرّفون فيها ما يشتهون، لا على ما يقتضيه الحقّ والعدل والمعروف... ودماؤهم ليست حراماً على الملك وعمّاله، وإنّما يستحلّ منها الملك والعمّال ما حرّم الله... لا إقامة لحدود الدين، ولكن تثبيتاً لسلطان الملك»^(٢).

٢- تمكين الحالة الطبقيّة والتعصّبات العرقيّة والقبليّة والحزبيّة واستغلالها، وعلى ذلك شواهد كثيرة لاحظها المستشرق ولهاوزن (ت ١٣٣٦ هـ) فكتب في مؤلفه (الدولة العربية): «وأجج الولاة نار هذه الخصومة (أي بين القبائل) ولم يكن تحت تصرّف الولاة إلاّ شرطة قليلة، وفيما

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٤ - ٤٦.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى، ج ٢، علي وبنوه، ص ١٣١ - ١٣٢.



سوى ذلك كانت فرقهم من مقاتلة المصر، وهي قوّة الدفاع في القبائل، حتّى إذا أحسنوا التصرف تهيأ لهم أن يضربوا القبائل بعضها ببعض، وأن يثبتوا مركزهم بينهم. وكثيراً ما كان يحدث أنّ الوالي يعتمد على إحدى القبائل ضدّ الأخرى، وبوجه عام على قبيلته التي أتى بها معه، حتّى إذا أتى والٍ جديد أتت قبيلة أخرى إلى الحكم، وينتج من ذلك أنّ القبيلة التي نُحيت عن الحكم تُصبح عدوّاً لدوداً للقبيلة التي تحكم، وهكذا أضحت الميزات القبلية ملطّخة بالسياسة والخصام على الغنائم السياسيّة»^(١).

وقال الشيخ محمد مهدي شمس الدين (ت ١٤٢١هـ) في (ثورة الحسين): «وقد تميّزت هذه العصبية القبليّة شكلاً دينياً حينما أخذت القبائل تسعى إلى اختراع الأحاديث في فضلها تنسبها إلى النبي ﷺ؛ وذلك إنّ هذه القبائل لما كانت تتنازع الرياسة، والفخر، والشرف وجدت في الأحاديث باباً تدخل منه إلى المفارقة كالذي وجدته في الشعر، فكم من الأحاديث وضعت في فضل قريش، والأنصار، وأسلم، وغفار، والأشعريين، والحَميريين، وجُهينة، ومزينة»^(٢).

٣- التلاعب في مفاهيم الإسلام وتشريعاته بغرض تمكين صور الفساد المختلفة وإضفاء الشرعية عليها، فحول دلالة عنوان الفساد ومصاديقه نجد الخبر التالي الذي يرويه ابن أبي الحديد: «وقد روي أنّ معاوية بذل لسمره بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا

(١) يوليوس ولهاوزن: الدولة العربيّة، ص ٥٨.

(٢) شمس الدين: ثورة الحسين، ص ١٠٥.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

وَيُهِلِكَ الْحَرِثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿البقرة: ٢٠٤-٢٠٥﴾،
وَأَنَّ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ نَزَلَتْ فِي ابْنِ مَلْجَمٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] فلم يقبل، فبذل له مائتي
ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة
ألف فقبل، وروى ذلك^(١).

وستعرض لهذا الموضوع بشكلٍ أوسع خلال فصول لاحقة بإذن الله.



(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة.



الفساد الأخلاقي



• الانحراف الجنسي: قوم لوط نموذجاً

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَتِنُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٠].

الوضع الطبيعي في فطرة الإنسان في العلاقة الجنسية هو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، والآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] وما سوى ذلك يُعد خروجاً على الفطرة.

• التمرد على الفطرة

وكل خروج وتمرد على الفطرة له عواقب سلبية، إما على المستوى الفردي، كاعتلال الصحة أو الموت أو انقطاع النسل، أو على المستوى الجماعي كحدوث

الفتن والحروب واختلال نظم المجتمع. ولنضرب على ذلك المثال التالي حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١]، هذه هي الفطرة البشرية الاجتماعية، فإذا اختل نظام التعارف الفطري هذا، بدأ الصراع والافتتال ونشبت الفتن بين الناس.

وهكذا فإن الإخلال بالوضع الفطري الطبيعي في لزوم كون العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، لا بين الرجل والرجل، ولا بين المرأة والمرأة له عواقبه الوخيمة جداً.. وقد روي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه كتب جواباً على بعض المسائل، ومما كتبه: «وَعِلَّةُ تَحْرِيمِ الذَّكَرَانِ لِلذَّكَرَانِ وَالْإِنَاثِ لِلْإِنَاثِ لِمَا رُكِّبَ فِي الْإِنَاثِ وَمَا طُبِعَ عَلَيْهِ الذَّكَرَانِ، وَلِمَا فِي إِيْتَانِ الذَّكَرَانِ لِلذَّكَرَانِ وَالْإِنَاثِ لِلْإِنَاثِ مِنْ انْقِطَاعِ النَّسْلِ، وَفَسَادِ التَّدْبِيرِ، وَخَرَابِ الدُّنْيَا»^(١)، والمراد بقوله عليه السلام: (لِمَا رُكِّبَ فِي الْإِنَاثِ وَمَا طُبِعَ عَلَيْهِ الذَّكَرَانِ) هو ما تقتضيه الفطرة الإنسانية، والقاعدة هي ما في قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

بل حتى العلاقة ضمن الوضع الفطري لا بد من تقنينها، ولذا نظمها الخالق لتكون في إطار معين، وهو الزواج وملك اليمين فقط: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْئُوتِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧]، ومخالفة ذلك تعني معارضة الفطرة أيضاً، وترتب الآثار الصحية والاجتماعية المدمرة على تفشي الرِّنا أمر بيِّن.

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٢٥٧٥١.

• تمرّد قوم لوط

ولما تمرّدت بعض المجتمعات على هذه الفطرة، وأولها قوم النبي لوط عليه السلام، ومساكنهم كما ورد في (العهد القديم) عبارة عن قري (سدوم، عمورة، أدومة، صبييم) في منطقة البحر الميت، اعتبر الله أنّهم أفسدوا بذلك، أي مارسوا في الجانب الجنسي ما يخلّ ويخالف الغرض الذي من أجله خلقت هذه الغريزة، وما يخالف التشريع الذي وُضع بما فيه صلاحهم، بل اعتبرها الله (فاحشة) أي فعلاً قد عظّم قبحه.

وإذا كان المراد من قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ هو ابتداعهم لهذا الفعل الشاذ، فسيعود تاريخه إلى أكثر من ٤٠٠٠ سنة، لأنّ لوطاً عليه السلام معاصر للخليل إبراهيم عليه السلام وإذا كان المراد أنّهم أول من جاهر وأشاع هذه الرذيلة ومارسها علناً بلحاظ قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾، فسيكون تاريخها أقدم من ذلك كما رجّح ذلك بعض علماء التاريخ، إذ قالوا إنّ الآشوريين، والبابليين والمصريين، والهنود، واليونانيين، والفرس مارسوا ذلك.

ولكن يبدو أنّ الآية القرآنية تبين أنّهم مبتدعو هذه الفاحشة حيث إنّ ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ تخصّ أصل الفعل لا الممارسة العلنيّة، والأقوام المذكورة هنا تأتي في موازاة عهد النبي لوط عليه السلام وبعده.

• التلاعب في المفاهيم

ومن الخزي بالنسبة إلى بعض الأمم أنّ اعتبرتم ممارسة هذه الفاحشة من علامات التحضّر والرقّي والمكانة المرموقة في المجتمع، فقد نصّ المؤرّخون على أنّ الإغريق مارسوا هذه الرذيلة في خصوص الأوساط العلمية والفكرية! وهكذا تعيد اليوم بعض المجتمعات النعمة ذاتها، معتبرة أنّ المجتمع المتقدّم

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

والمتحصّر هو الذي يكفل لهم الحقّ بالزواج الرسميّ، ويقرّ تكوين الأسر المتشكّلة منهم، ويقنّن تبنيهم للأطفال تعويضاً عن عدم الإنجاب!

وقد قرأت أنّ الرئيس الأميركيّ الأسبق (نيكسون) اعتبر أنّ: «هؤلاء الشاذين يقوّضون أركان المجتمع، وأنّ الذي أضاع الإمبراطورية الإغريقية هو الشذوذ الجنسيّ، فأرسطو كان شاذاً وكذلك سقراط! وأنّ الذي هدم الإمبراطورية الرومانية هو انحلال الأباطرة، ومضاجعة البابوات للراهبات. ويخلص نيكسون في النهاية إلى أنّ أميركا تتّجه إلى المصير ذاته!»^(١).

• موقف الديانات السماوية

الديانات السماوية حاربت هذه الفاحشة، ففي العهد القديم: «إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعل كلاهما رجساً. إنهما يُقتلان. دمهما عليهما»^(٢).

وفي العهد الجديد: «لا تضلّوا، لا زناة، ولا عبدة أوثان، ولا فاسقون، ولا مأبونون، ولا مضاجعو ذكور»^(٣). ولكن مع هذا صدر عن بعض الكنائس القول بالتفريق بين مَنْ له مجرّد ميل تجاه الجنسية المثلية دون ممارستها، وبين مَنْ يمارس الجنسية المثلية فعلياً، فحرّمت هذا الفعل على الأخير، وأظهرت التسامح على الأول!

ويبدو أنّ ممّا ساهم في تغيير الكنيسة لموقفها هو ممارسة بعض الكهنة لها، والفضائح المترتبة على ذلك كما انعكس إعلامياً مؤخراً أيضاً، واستدعى تقديم

(١) من مقال بعنوان ظاهرة الشذوذ في العالم العربيّ: د. نهى قاطرجي، نقلاً عن عدنان أبو زيد: الشذوذ الجنسي يتفشى في أوساط النخب العلمية.

(٢) العهد القديم: سفر اللاولين، ٢٢: ١٨.

(٣) العهد الجديد: رسالة بولس إلى أهل كورنثوس - الإصحاح السادس: ١٠.

ليالي عَاشُورَاءُ * _____

استقلالات بعضهم، ولذا قدّم أحد هؤلاء ما يبرّر ميله الجنسي بقوله: «إنّ البتولية موجّهة بالذات إلى الكهنة المغايرين للجنس، وهي مطلوبة منهم فقط، وعليهم الحفاظ عليها حسب ما تسمح لهم قدرتهم على تحملها. أمّا الكهنة المماثلون للجنس فهم يفتخرون بهذا التوجّه الجنسي!»^(١) وهذا فساد لتبرير الفساد.

• الموقف في الإسلام

هذا المسار الكنسي نفسه للتعامل مع هذه الفاحشة، هناك مسار مشابه في العالم الإسلامي والعربي. فالموقف الديني الإسلامي استمرّ واضحاً وحاداً تجاه هذه الفاحشة إلى أن دخلت بعض الطرق الصوفية على الخطّ، وعلى أثر الدعوة للزهد بالدنيا وملذّاتها وفق النظرة الصوفية الخاصة، امتنع بعض رجالهم عن الزواج، لاسيّما مع انقطاعهم عن المجتمعات وتفضيلهم العزلة مع بعض مرديهم. وهذه المخالفة للفطرة الإلهية جرّت بعضهم للوقوع في محذور شنيع. ولنقرأ هذا النص الصادر عن أحد شيوخ الصوفية توضيحاً للفكرة مع شيء من الاختصار تجنّباً للإطالة، فبعد أن يبوّب الموضوع تحت عنوان: (في ذكر عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان) ويذكر انقسام الآراء حوله يبدأ بسرد المبرّرات التي - بحسبه - تجعل الأمر فطرياً طبيعياً بل ومن دلالات التحضّر والسمو الروحي، قال: «هذا العشق - أعني الالتذاذ الشديد بحسن الصورة الجميلة والمحبة المفرطة لمن وجد فيه الشمائل اللطيفة وتناسب الأعضاء وجودة التركيب - لمّا كان موجوداً على نحو وجود الأمور الطبيعية في نفوس أكثر الأمم من غير تكلف وتصنّع، فهو لا محاله من جملة الأوضاع الإلهية التي يترتب عليها المصالح والحكم، فلا بد أن يكون مستحسناً محموداً، سيما وقد

(١) من مقال بعنوان ظاهرة الشذوذ في العالم العربي: د. نهى قاطرجي، نقلاً عن الأب أنطوان ملكي: موقف أرثوذكسي من الشذوذ الجنسي.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

وقع من مبادئ فاضلة لأجل غايات شريفة. أما المبادئ فلأنا نجد أكثر نفوس الأمم التي لها تعليم العلوم والصنائع اللطيفة والآداب والرياضيات مثل أهل الفارس وأهل العراق وأهل الشام والروم وكل قوم فيهم العلوم الدقيقة والصنائع اللطيفة والآداب الحسنة غير خالية عن هذا العشق اللطيف... ولكن وجدنا سائر النفوس الغليظة والقلوب القاسية والطباع الجافية من الأكراد والأعراب والترك والزنج خالية عن هذا النوع من المحبة، وإنما اقتصر أكثرهم على محبة الرجال للنساء ومحبة النساء للرجال طلباً للنكاح والسفاد كما في طباع سائر الحيوانات المرتكزة فيها حب الازدواج والسفاد».

ثم يقدم تبريراً آخر يتعلق بالغاية منه قائلاً: «وأما الغاية في هذا العشق الموجود في الظرفاء وذوي لطافة الطبع فلما ترتب عليه من تأديب الغلمان وتربية الصبيان وتهذيبهم وتعليمهم العلوم الجزئية كالنحو واللغة والبيان والهندسة وغيرها والصنائع الدقيقة والآداب الحميدة والأشعار اللطيفة الموزونة والنعمات الطيبة وتعليمهم القصص والأخبار والحكايات الغريبة والأحاديث المروية إلى غير ذلك من الكمالات النفسانية... فمن أجل ذلك أوجدت العناية الربانية في نفوس الرجال البالغين رغبة في الصبيان وتعشّقاً ومحبة للغلمان الحسان الوجوه».

ثم يحاول تأكيد ما سبق من خلال النظر في الآثار الناتجة عنه: «ولعمري إنّ هذا العشق يترك النفس فارغة عن جميع الهموم الدنياوية إلا همّ واحد... وهو يرقّق القلب ويذكّي الذهن وينبّه النفس على إدراك الأمور الشريفة».

ثم يستشهد بسلوك شيوخ الطريقة وتوصياتهم: «ولأجل ذلك أمر المشائخ مريديهم في الابتداء بالعشق، وقيل العشق العفيف أو في سبب في تلطيف النفس وتنوير القلب. وفي الأخبار أنّ الله جميل يحبّ الجمال، وقيل: مَنْ عَشَق وَعَفَّ وَكَتَمَ وَمَاتَ، مَاتَ شَهِيداً».

نعم يستدرك لاحقاً لبيان أنّ مثل هذا العشق يخصّ مرحلة فقط من مراحل السلوك، فمتى ما ارتقى السالك إلى مراتب أعلى فلا ينبغي حينئذ الاستمرار في مثل هذا العشق: «ينبغي استعمال هذه المحبّة في أواسط السلوك العرفاني، وفي حال ترقيق النفس وتنبهها عن نوم الغفلة ورقدة الطبيعة وإخراجها عن بحر الشهوات الحيوانية، وأمّا عند استكمال النفس بالعلوم الإلهية وصيرورتها عقلاً بالفعل محيطاً بالعلوم الكلية ذا ملكة الاتصال بعالم القدس، فلا ينبغي لها عند ذلك الاشتغال بعشق هذه الصور المحسنة اللّخمية والشمائل اللطيفة البشرية لأنّ مقامها صار أرفع من هذا المقام... ولا يبعد أن يكون اختلاف الأوائل في مدح العشق وذمّه من هذا السبب الذي ذكرناه، أو من جهة أنه يشتهب العشق العفيف النفساني الذي منشؤه لطافة النفس واستحسانها لتناسب الأعضاء واعتدال المزاج وحسن الأشكال وجودة التركيب بالشهوة البهيمية».

وأخيراً فإنّه يخطئ رأي الرافضين لهذا النوع من العشق وحججهم: «وأما الذين ذهبوا إلى أنّ هذا العشق من فعل البطالين الفارغي الهمم فلاّتهم لا خبرة لهم بالأمر الخفية والأسرار اللطيفة ولا يعرفون من الأمور إلا ما تجلّى للحواس وظهر للمشاعر الظاهرة، ولم يعلموا أنّ الله تعالى لا يخلق شيئاً في جبلّة النفوس إلا لحكمة جليّة وغاية عظيمة. وأمّا الذين قالوا إنّ مرض نفساني أو قالوا إنّ جنون إلهي فإنّما قالوا ذلك من أجل أنّهم رأوا ما يُعرض للعشاق من سهر الليل ونحول البدن وذبول الجسد وتواتر النبض وغور العيون والأنفاس الصعداء مثل ما يُعرض للمرضى، فظنّوا أنّ مبدأه فساد المزاج واستيلاء المُرّة السوداء، وليس كذلك بل الأمر بالعكس...»^(١). فأيّ فرق بين هذا الكلام وبين ما جاء على لسان بعض كهنة الكنيسة؟

(١) المصدر السابق..

• فلاسفة وفساد

وإذا عدنا إلى المجتمعات الغربية وجدنا أنه بموازاة السعي الكنسي لتبرير هذه الفاحشة، عمل بعض الفلاسفة الغربيين العلمانيين - مع ابتعاد الغرب عن الحكم الديني - وكذلك بعض المحللين النفسيين على تجميل الصورة القبيحة لهذه الفاحشة في المنظور العام، بل وتقديم المبررات (النفسية) و(الوراثية) و(البيئية) التي فتحت المجال لشرعتها ووضع القوانين الخاصة بها.

وأخيراً تم الاعتراف بالزيجات الحاصلة بين الشاذين رسمياً، بما في ذلك إعطاؤهم حق التبني!

• فاحشة قديمة وثوب جديد

وتعود هذه الفاحشة إلى مجتمعاتنا العربية والإسلامية بثوب جديد، فبعد أن كانت تُقبَّح في مجتمعاتنا صارت من عناوين (الحرية الشخصية) تماشياً مع التقلية الغربية، وأمسى المتشبهون بالنساء يظهرون علناً، وتجدهم يعملون في الإدارات الحكومية والأسواق وحتى المدارس والمستشفيات بظاهر المتحوّل! كما يقومون بنشر مقاطع الفيديو والصور الخاصة بحفلاتهم وما إلى ذلك على الإنترنت دون حياء!

ويأتي هذا كله مصحوباً بدعم من بعض المؤسّسات الدولية، وجمعيات الدفاع عن حقوق الشاذين في العالم. وقد تجلّى هذا الدعم في مواقف عدة، من بينها الموقف الذي حدث في العام ٢٠٠٨، عندما قامت ١١٧ منظمة تعمل في مجال الصحّة وحقوق الإنسان بالاعتراض على حكم محكمة جنح قصر النيل التي قضت بالحكم خمس سنوات على خمسة مصريين، بتهمة الشذوذ.

ومنها أيضاً اعتراض منظمة (هيومان رايتس ووتش) على قيام السلطات

ليالي عَاشُوراء



السعودية في عام ٢٠٠٩ باعتقال ٦٧ رجلاً في العاصمة الرياض بسبب ارتدائهم ملابس نسائية في إحدى الحفلات!

هذا الدعم الذي يناله هؤلاء الشاذون يساهم في تزايد عددهم في العالم العربي، وقد قدّر الكاتب (نبيل فياض) وهو يعرف نفسه بأنه من المدافعين عن حقوق (الأقليات) بأنّ عدد الشاذين من الجنسين في سوريا بلغ في فترة ما ٢٠٪، وبيّنت الاستبانة التي قامت بها كلية الطب في جامعة الملك عبد العزيز في جدة لأكثر من ١٢٠٠ طالب، أنّ ١٢٪ منهم يمارسون اللواط! في الوقت الذي يحتلّ فيه لبنان موقع الصدارة في هذا المجال، حيث أصبح لهم جمعياتهم الخاصة التي تدافع عنهم، وأولها جمعية (حلم: حماية لبنانية للمثليين) المتأسّسة في العام ٢٠٠٤.

وكتبت صحيفة نيويورك تايمز الأميركية: (إنّ الأمن والهدوء سمح للعراقيين أن يتمتعوا بـ (الحرية الأميركية)، ومن بينها حرية الشذوذ، والتي لم يكن من المتصوّر أن تحدث قبل بضعة أعوام)^(١). وقد قام بعض المسلّحين كردّة فعل على التجاهر بهذه الفاحشة بقتل نحو ٢٥ شاباً ورجلاً لممارستهم الشذوذ في إحدى مدن العراق، وذلك بعد أن تبرّأت منهم قبائلهم، فقرّرت التخلّص منهم وإحراق المقاهي التي يتجمعون فيها.

• عوامل الانتشار

عوامل عديدة تساهم في زيادة نسبة المجاهرة في فعل الشذوذ الجنسي، ومن هذه العوامل:

(١) حسن عثمان: مدونات مكتوب، صحيفة نيويورك تايمز: الحرية الأميركية نشرت الشذوذ الجنسي بالعراق

١- العوامل الخارجية

أ- دور الأمم المتّحدة ومنظّماتها: بدأ تركيز الأمم المتّحدة على تشريع الشّدوذ الجنسي في العام ١٩٥١ مع فرض معاهدة الأمم المتّحدة للأجّين على الدول تأمين الحماية لأيّ شخص لديه خشية من «التعرّض للاضطهاد نتيجة أسباب عرقية أو دينية أو ترتبط بهويته الجنسيّة، بانتمائه إلى مجموعة اجتماعية معيّنة، أو بسبب رأيه السياسي».

وبعد ذلك بات موضوع الشّدوذ يأخذ طابعاً أكثر تخصّصية مع تلك المؤتمرات والاتفاقيات الدولية التي تُعنى بالأمر الجنسي. وفي كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٨ وقّع ٦٦ بلداً في الجمعية العامة للأمم المتّحدة بياناً يتعلّق برفع العقوبة عن المثلية.

ب- الدعم الدولي للشاذين جنسياً: فقد فتحت لهم بعض الدول باب اللّجوء، ومن بينها (الكيان الصهيوني) الذي أصبح قبلة الشاذين! وهؤلاء غالباً ما يقعون ضحية للاستخبارات الإسرائيلية، أو يتحوّلون إلى تعاطي البغاء من أجل كسب قوتهم بعد أن رفضهم مجتمعهم.

٢- العوامل الداخلية

أ- الأسرة التي ينشأ فيها الطفل تنشئة خاطئة بالسماح للذكور باللعب بألعاب البنات وإلباسهم لباس الفتيات، وكذلك تسمية البنات بأسماء الذكور، وأمثال ذلك.

ب- تعرّض الطفل في صغره إلى التحرّش الجنسي.

ج- غياب التوعية والرقابة على سلوك الطفل وصدقاته.

د- دور الأدب والإعلام في التشجيع على ذلك، من خلال تغيير المسمّيات

وإبراز المبررات وتجميل الصورة وتهوين الأمر وتقديمه بصورة علنية واضحة. وقد تحدّث كتاب (الشدوذ الجنسي في الأدب المصري) للكاتب مصطفى بيومي، عن مديات تناول موضوع الشدوذ بصراحة في كتابات بعض الأدباء المعاصرين أمثال (علاء الأسواني) و(نجيب محفوظ) و(يحيى حقي).

• الآثار الناجمة عن الشدوذ الجنسي

١- الخلل في القيم والمعايير الدينيّة والأخلاقيّة، وزيادة الاستهتار بالدين، لأنّه يحرمّ الشدوذ بكلّ أنواعه. ومع تفشي هذا الخلل تكثرت الجرائم بكلّ أنواعها من قتل، وسرقة، وإدمان الخمور، وتعاطي المخدّرات، والاعتداء على الأطفال.

٢- انتشار الأمراض بين الشاذين جنسياً، وانتقالها إلى غيرهم أيضاً، وقد تحدّث النبي ﷺ في المرويّ عنه أنّه قال: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا»^(١). ومن هذه الأمراض تلك المنتقلة بالجنس: الإيدز- الأمراض الزهريّة- الوباء الكبدي- متلازمة أمعاء الشواذ- الحمى المضخّمة للخلايا.

٣- تقويض عرى الأسرة، وتغيّر أشكالها الطبيعيّة المكوّنة من امرأة ورجل وأطفال، كما يساهم في زيادة نسبة المشكلات الاجتماعيّة من عنوسة وطلاق وزنى وغيرها.

(١) ابن ماجّة: السنن- ح ٤٠١٩.

• تنبيهات لمواجهة الشذوذ

- ١- ضرورة التشديد على استخدام المصطلح الذي يُظهر قبح صورة هذه الفاحشة، وعدم استبدالها بمصطلحات من قبيل (المثلية الجنسية).
- ٢- العمل على تعديل القانون المحلي لبعض الدول العربية التي لا تنصّ على عقاب الشذوذ إلا في حالة عدم رضا أحد الأطراف، مع ضرورة تغليظ العقوبة على مرتكبيها، وعدم شرعنة وجودهم.
- ٣- أهميّة التصديّ للمطالبات الدولية بتعديل مناهج التدريس حتّى تتناسب مع التوجّه العالمي الذي يدعو إلى تقبّل الشذوذ الجنسي وتقنينه.
- ٤- التركيز على مبادئ التربية الأسريّة الصّحيحة، ومراعاة آداب السلوكيّات من قبيل التفريق بين الأبناء في المضاجع، وتعليمهم الاستئذان قبل الدخول، وإبعاد الأولاد عن أجواء الميوعة وغيرها.
- ٥- إيجاد الحلول الاجتماعية والاقتصاديّة لمسألة العنوسة وتأخر الزواج.
- ٦- الرقابة على الإعلام، وخاصّة المرئيّ منه الذي يستورد الكثير من البرامج التي تشجّع على الشذوذ الجنسي ولو في صورة كوميدية.

• الإسلام يواجه هذه الفاحشة

ولو عدنا إلى تاريخ المجتمعات الإسلاميّة سنجد أنّ الإسلام حارب هذه الفاحشة بشدّة، وشرّع لها عقوبة عنيفة جداً، قال المحقّق الحلي: «وموجب الإيقاب: القتل، على الفاعل والمفعول، إذا كان كلّ منهما بالغاً عاقلاً... وفي رواية إن كان مُحصناً رُجم، وإن كان غير محصن جُلد، والأوّل أشهر. ثمّ الإمام مخيّر في قتله، بين ضربه بالسيف، أو تحريقه، أو رجمه، أو إلقائه من شاهق، أو

ليالي عَشُورَاءُ * _____

إلقاء جدار عليه. ويجوز أن يجمع بين أحد هذه وبين تحريقه»^(١). وفي الخبر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: لو كان ينبغي لأحد أن يُرجمَ مرّتين لرجم اللّوطي»^(٢).

وقد أكّد الباحثون على أنّ هذه الفاحشة كانت موجودة في المجتمعات العربية في العهد الجاهلي، فقد كتب د. جواد علي: «والشذوذ الجنسي معروف عند الجاهليين أيضاً كما هو عند جميع الأمم منذ القدم، وليس من المعقول استثناء الجاهليين من ذلك، بدليل ورود النهي عنه والتحذير منه في الحديث وفي القرآن الكريم... ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٢٩] ﴿وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

فنسب فعل إتيان الرجال بعضهم بعضاً إلى قوم لوط، واشتقّ الفعل من اسمه. ونرى أنّ الآيات قد استعملت: (لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ)، للتعبير عن هذا الفعل. واستعمل المفسّرون هذا التعبير وتعبير (المجامعة) للتعبير عنه. وقد استعمل الجاهليون (لاط) في معانٍ أخرى لا صلة لها بالمعنى المذكور. وفي ذلك دلالة واضحة على أنّ استعمال (اللواط) إنما وقع في الإسلام... وذكر (ابن قيم الجوزية) أنّ هذا الفعل لم يكن معروفاً بين العرب ولم يرفع إلى الرسول في أيامه حادث به»^(٣).

(١) المحقق الحلبي: شرائع الإسلام، ج ٤، ص ٩٤٢.

(٢) الكليني: الكافي، ح ٧٧٣.

(٣) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - ج ١ - ص ٢٦٤١.

• الدور الأموي

وأعاد بنو أمية سنن الجاهلية بما فيها الفواحش بأنواعها إلى المجتمع، وجاهروا فيها، بل وتجزّأوا في ذلك جرأة عظيمة، وسأخذ الوليد بن يزيد نموذجاً على المدى الذي بلغه السلوك الأموي في هذا الاتجاه، والفساد العظيم الذي تعمّدوا نشره.

في كتاب (تاريخ الخلفاء) لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) حول سيرة الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم قال: «وكان فاسقاً شريباً للخمر متتهكاً حُرّمات الله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة!! فمقتته الناس لفسقه وخرجوا عليه، فقتل في جمادى الآخرة سنة مائة وست وعشرين»^(١).

ونقل الشاكري عن شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) في (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار): «الوليد بن يزيد الجبّار العنيد، لقباً ما عداه، ولقماً سلّكه فما هداه، فرعون ذلك العصر الذهب، والدّهر المملوء بالمعاتب، يأتي يوم القيامة يقدم قومه فيوردهم النار ويرديهم العار، وبئس الورد المورد، والمورد المردي في ذلك الموقف المشهود، رشق المصحف بالسهم وفسق ولم يُخفِ الآثام»^(٢).

وقال الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) في موسوعته (تاريخ الإسلام) وهو يروي مقتل الوليد: «فتفرّق الناس عن الوليد فأتوا العباس وعبد العزيز ثم ظاهره الوليد بين درعين وأتوه بفرسين: السندي، والرائد، فركب وقاتل، فبادأهم رجل: اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط! ارموه بالحجارة، فلما سمع ذلك دخل القصر فأغلقه،

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ج ١ - ص ٢٢٠.

(٢) حسين الشاكري: موسوعة المصطفى والعترة، ج ١٠، ص ١٥٤.

فلما اقتحموا عليه المكان ولا مهم قال أحدهم: ما ننقم عليك في أنفسنا، لكن ننقم عليك انتهاك ما حرّم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله» ثمّ لَمَّا قُتِلَ احْتِزَّ رأسه وُنُصِبَ على رمح، قال الذهبي: «... فنظر إليه أخوه سليمان بن يزيد فقال: بُعداً له، أشهد أنّه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد راودني على نفسي!... ولم يصحّ عن الوليد كفر ولا زندقة، نعم اشتهر بالخمر والتلوّط فخرجوا عليه لذلك»^(١).

وقال الشيخ محمد هادي اليوسفي (معاصر): (وقرأ ذات يوم ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٦] فدعا بالمصحف فنصبه غرضاً للشباب وأقبل يرميه وهو يقول:

أَتُوْعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ فها أنا ذاك جَبَّارٌ عَنِيدٌ
إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشْرِ فقل: يَا رَبِّ خَرَقْنِي الْوَلِيدُ

وكان الوليد هذا مهملاً لأمره قليل العناية بأطرافه، وكان صاحب ملاءة وقيان، وإظهار للقتل والجور، وتشاغل عن أمور الناس بشرب ومجون، فبلغ من مجونه أنّه أراد أن يبني على الكعبة بيتاً يجلس فيه للهو، ووجه مهندساً لذلك مجوسياً ليبي له على الكعبة مشربة للخمر!! وأراد أن ينصب قبة ديباج على الكعبة ويجلس فيها ومعه الخمر، فخوّفه أصحابه من ثورة الناس فامتنع^(٢).

وإذا كان الوليد هذا يمثل الحقبة الأخيرة من الحكم الأموي، فإنّ الفساد بالفسق والفجور وارتكاب ما حرّم الله جهاراً عياناً قد سبقه بعقود، وقد جاء في (مروج الذهب) للمؤرخ المسعودي (ت ٣٤٦هـ): «وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقُرُود وفهود ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ج ٨، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) محمد هادي اليوسفي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٤٢-٤٣.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

شرا به، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:
اسْقِنِي شَرْبَةً تُرَوِّي مَشَاشِي ثُمَّ مِلْ فَاسْقِ مِثْلَهَا ابْنَ زِيَادٍ
صَاحِبَ السَّرِّ وَالْأَمَانَةِ عِنْدِي وَلِتَسْدِيدَ مَغْنَمِي وَجِهَادِي
ثم أمر المغنّين فغنوا به. وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من
الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر
الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته،
ويطرح له متكاً^(١).

ولذا فقد صرح الإمام الحسين عليه السلام أكثر من مرة أن يزيد بن معاوية متصف بهذه
الصفات بما يسلبه عن صلاحية الكون في هذا الموقع، ففي (الإمامة والسياسة)
لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) حوار جرى بين معاوية بن أبي سفيان وبين عدد
من شخصيات المدينة المنورة، ومن بينهم الإمام الحسين عليه السلام حين وفد معاوية
لتسويق خلافة ابنه يزيد من بعده، فكان من ذلك: «قال معاوية: وأما ما ذكرت من أنك
خير من يزيد نفساً، فيزيد والله خير لأمة محمد منك. فقال الحسين: هذا هو الإفك
والزور، يزيد شارب الخمر، ومشتري اللّهُو خير مني؟»^(٢).

وأضاف ابن قتيبة أن معاوية خطب في المدينة ممتدحاً يزيد ومرغباً في البيعة
له بالخلافة من بعده: «فتيسر ابن عباس للكلام، ونصب يده للمخاطبة، فأشار
إليه الحسين وقال: على رسلك، فأنا المراد، ونصبي في التهمة أوفر، فأمسك
ابن عباس، فقام الحسين، فحمد الله، وصلى على الرسول ثم قال: أما بعد يا
معاوية، فلن يؤدّي القائل، وإن أطب في صفة الرسول ﷺ من جميع جزاء، وقد
فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتكّب عن استبلاغ

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٣٧٧.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢١١.

النعته، وهيئات هيهات يا معاوية: فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السَّرج، ولقد فضلت حتى أفطرت، واستأثرت حتى أجهفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت ما بذلت لذي حقٍّ من اسم حقه بنصيب، حتى أخذ الشيطان حظَّه الأوفر، ونصيبه الأكمل، وفهمت ما ذكرت عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأمة محمد، تريد أن تُوهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان ممَّا احتويته بعلم خاص، وقد دلَّ يزيد من نفسه على موقع رأيه فخذ ليزيد فيما أخذ فيه، من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ، في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرّضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة وجئت لنا بها، أما حججتم به القائم عند موت الرسول، فأذعن للحجة بذلك، ورده الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل، وقلتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار...».

وحول ما جرى في محضر الوليد بن عتبة حين بلغه نبأ موت معاوية: «ثم أقبل الحسين على الوليد بن عتبة وقال: أيها الأمير! إننا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحلّ الرحمة، وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب خمر قاتل النفس المحرّمة معلى بالفسق، مثلي لا يبيع لمثله»^(١).

وقد كتب الشيخ عبدالله العلايلي (ت ١٤١٧هـ) في كتابه: (الإمام الحسين)

(١) المصدر السابق. ص ٢٠٨ - ٢١٠.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

معلّقاً على هذا المشهد: «لقد كشف الإمام الشهيد عن برنامجهِ وخطته التي دفعته إلى الثورة والخروج، وكأنّما أراد أن يسجّل على الباطل بطلانه، وأن يجعل للحقّ كوة يرتفع منها صوته على الدوام، وكذلك تمّ الأمر على أن يتعالى من هذه الكوة الصوت. إذ زلزل دولة الظالم وحطّم سلطان الباغي وفرّق العادي كلّ ممزّق وأدال به إلى حيث المهوى السّحيق. هذا البرنامج الذي أثاره الإمام الحسين عليه السلام ووطّن نفسه عليه إلى النهاية، فمن فمه الطاهر الهادي، قال يخاطب الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: «أيّها الأمير، إنّ بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر وقاتل النفس المحترمة، معلى بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالبيعة والخلافة». ولم يلبث أن يعلن رأيه الصريح في فلسفة البيعة ومعنى الخلافة وصفة الخليفة، يقول: واجب الخليفة أن يستحيل القانون والشريعة في نفسه وجداناً وضميراً وعاطفة وصدى شعورياً عميقاً، وإلا كانت خيانتة أقرب إليه من نفسه، ودينه وتقاليده وعنعات الأمة جميعها، أهون عنده من عفتة عنز، «فإذا فسق الخليفة عاد على رأس الأمة شريراً، يقذف دائماً بالشرّ والشرر، ويرمي دائماً بالويل والثبور». ثم ينتقل الإمام عليه السلام بنا إلى روح المبايعة ومعنى العهدة وفلسفة الخلافة، وهنا يلزمننا الكثير من الأناة والتفهم، لأنّ الإمام يجمل كلّ معناها في كلمة واحدة وهي: «ومثلي لا يبايع مثله». هذا معنى البيعة في منطلق الحسين عليه السلام وهذه فلسفتها عنده، وهي الحقيقة لمن تدبّرها، ومن ثمّ كان لها تبعات ثقيلة الإصر لا يتحمّلها الكبير بسهولة... من أراد أن يلتمس عظمة المبدأ عند الحسين عليه السلام، يجده في وصيته لأخيه محمّد ابن الحنفية حيث يقول: «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن

المنكر، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين». وفي تصريحه الخطير في بيت الإمارة وفي حظيرة الحكم ورواق السلطة الذي أعلن فيه رأيه بدون مبالاة ولا وجل ولا خوف، ورد على الوليد وملء قوله جأش رابط وشجاعة نادرة واعتداد بالمبدأ واستحكام في العقيدة وقد جاء في الروايات: دعا الوليد وهو والي المدينة الحسين عليه السلام، ونعى له معاوية، فاسترجع، وقرأ له كتاب يزيد في أخذ البيعة، فقال الحسين عليه السلام: «إنّي لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سرّاً حتى أبايه جهراً فيعلم الناس ذلك»، فقال الوليد: أجل، فقال الحسين عليه السلام: «تصبح وترى رأيك في ذلك»، فقال الوليد: انصرف على اسم الله تعالى حتى تأتينا مع جماعة الناس؛ فقال مروان للوليد: والله لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً، ولكن احبس الرجل لا يخرج حتى يبايع، أو تضرب عنقه، فقال الحسين عليه السلام لمروان: «ويلي عليك يا ابن الزرقاء، أنت تأمر بضرب عنقي أم هو، كذبت والله ولؤمت»، ثم التفت إلى الوليد، وقال: «يا أمير، إنّ أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد فاسق فاجر شارب الخمر قاتل النفس المحرمة معلى بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالبيعة والخلافة». فقال الوليد: ويحك، إنّك أشرت عليّ بذهاب ديني ودياري، والله ما أحبّ أن أملك الدنيا بأسرها وإنّي قتلت حسيناً، سبحان الله أقتل حسيناً لما أن قال لا أبايع.. والله ما أظن أحداً يلقي الله بدم الحسين إلا وهو خفيف الميزان لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم»^(١).

(١) أحمد بن أعثم: الفتوح، ج ٥، ص ١٤.



الفساد المالي



• ثالثاً - الغش التجاري: قوم شعيب نموذجاً

هناك تركيز قرآني في الحديث عن قصة النبي شعيب عليه السلام مع قومه بخصوص الغش التجاري الذي كانوا يمارسونه على استعمال كلمة (الفساد) باشتقاقاتها، فلاحظ:

• ﴿وإلى مدين آخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ قد جاءتكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيلَ والميزانَ ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين * ولا تقعدوا بكلِّ صراطٍ تُوعدون وتصدون عن سبيلِ الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٨٦].

• ﴿وإلى مدين آخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ ولا تنقصوا المكيالَ والميزانَ إنني أراكم بخيرٍ وإنني أخاف عليكم عذابَ يومٍ مُحيطٍ * ويا قوم أوفوا المكيالَ والميزانَ بالقسطِ ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم ولا تعثوا في الأرضِ مُفسدين * بقيةُ الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظٍ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦].

• ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إني لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحَبِيلَةَ الْأُولِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٤].

• ﴿وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦]. فما السر في ذلك؟

١- الأمن الاقتصادي هو جزء مهم لتحقيق أمن المجتمع ونموه ورخائه، وفقدان ذلك يعني فتح الباب على مصراعيه لكي ينخر الفساد الاجتماعي والأخلاقي والسياسي والإداري في أسس المجتمع، لتكون النتيجة هي الانهيار، سواء من خلال نشوب الصراعات الداخلية بين طبقات المجتمع المتكوّنة نتيجة ذلك الفساد، أو من خلال الغزو الخارجي الذي يطمع في الكيانات الضعيفة أو للانتقام من السلوك الاقتصادي الفاسد لذلك المجتمع، أو نتيجة الاهتراء الداخلي لكيان ذلك المجتمع بما يؤدي إلى تعاقب الكوارث الناجمة عن سوء الإدارة والإهمال والتراخي في العمل وما إلى ذلك.

• النموذج السبئي

تماماً كما جرى لسبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

فبعض الأخبار تتحدّث عن فئران نخرت في السدّ فتهدّم وأغرق المملكة ودمرها، فإن صحّ ذلك، فهل يمكن لها أن تنخر سدّاً عظيماً في ليلة؟ لا بدّ أن ذلك تمّ في مدّة طويلة، فلمَ لمَ يلحظ ذلك أحد؟ أليس هو التراخي والإهمال والفساد؟ ففي مملكة كسباً تعتمد في الأساس على مشروع ضخّم وحيويّ كالسدّ لا بدّ وأن تكون هناك جهة مسؤولة عنه للصيانة والمتابعة، فكيف لم تكتشف تواجد الفئران ودورها التخريبيّ؟ وإلى أيّ مدى كان للتراخي والفساد دور في تلك الفاجعة التي أنهت حضارتهم؟

ولم يقتصر إفسادهم على الداخل، بل جاوزه إلى المجتمعات الصغيرة والمستضعفة التي كانت تقع في طريق التجارة إليهم: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبِيلًا لِيَأْتِيَهَا لَيَالِي أَيْامًا آمِنِينَ﴾ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿سبأ: ١٨-١٩﴾. ولعلّ ما ورد بصيغة الدعاء في الآية إنّما يمثّل لسان حالهم، حيث عملوا على تدمير تلك القرى اقتصادياً وأمنياً حسداً منهم وبعياً، وهم يظنون أنّهم يُحسنون صنعاً بما يعود على سبأ بالفائدة المطلقة، وغاب عنهم أنّ دمار هذه القرى سيؤثر سلباً على حركة القوافل التجارية التي تحتاج إلى محطات استراحة وتزوّد بالطعام والماء والاحتياجات الضرورية، بالإضافة إلى ما تمثّله تلك القرى من ضمانات أمنية للقوافل المسافرة، على عكس الطرق الفارغة تقريباً من المجتمعات السكانية التي يكثُر فيها اللصوص وقطاع الطرق.

• المنّ على قريش

وقد تحدّث القرآن عن المنّ الإلهي على قريش من جهة الأمن الاقتصادي الذي حقّق لهم الأمن الاجتماعي حيث قال ﷻ: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ

ليالي عَشُوراء _____ *

الشُّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فليَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿قريش: ١ - ٤﴾. والذي نلاحظ فيه وجود التلازم بين النشاط الإنساني التجاري وبين الأمان والاستقرار.

وقدّم صورة مقابلة لذلك حيث قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

٢ - قد يتصوّر البعض أنّ المعاملة التجارية الناجحة (بيع، شراء، إجارة، مضاربة، شركة.. إلخ) مجرد حنكة وشطارة وجرأة ومعاملات حسابية دقيقة ودراسة جدوائية وحسن معاملة وأمثال ذلك، إلا أنّ الواقع يؤكّد على أنّها تحتاج بشكل كبير إلى الصدق في التعامل، والوفاء بالعهود والمواثيق، والالتزام بالأمانة، وعدم التجاوز على حقوق الآخرين.

وهذا كلّ من العوامل الهامّة التي تضمن النشاط والفاعلية للتعاملات التجارية والاقتصادية، من خلال ضخّ المزيد من الأموال وتوفير القدرة المالية وتحقيق زيادة الإنتاج، والتداول في نوعية الإنتاج الجيّد، والتنافس في هذا الأداء.

ثم إنّ التزام الصدق والأمانة في عالم التجارة والاقتصاد له مردوده الاجتماعي من خلال شيوع قيم الثقة والصدق والأمانة وحُسن الظنّ في المجتمع، مقابل قيم الجشع والظلم والاعتداء وسوء الظنّ بين أفراد المجتمع، وهي من المسائل المهمّة في حفظ المجتمع واستقراره أمام العوامل المؤدّية لزعة الروابط الاجتماعية وتماسك المجتمع، وتهدّد استقراره، وهو من أوضح صور الفساد في الأرض.

٣- الإسلام يهتم كثيراً بمسألة حقوق الناس، ولا يسمح بسلب أو انتقاص الحقوق من دون وجه حق، واعتبر ذلك من أشدّ الظلم، ففي نهج البلاغة روى الشريف الرضي عن علي عليه السلام: «فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا بَنَ آدَمَ، اْعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ. أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطَلَّبُ: فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشُّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا. لَيْسَ هُوَ جَرَحًا بِالْمُدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصَغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ»^(١).

ولذا نجده عليه السلام حساساً شديداً من هذه الناحية في علاقته مع الآخرين، حتى قال: «وَاللَّهِ لَأَنْ أُبَيَّتَ عَلَيَّ حَسَكِ السَّعْدَانِ - نوع من الشوك - مُسَهِّدًا - مقيداً، أَوْ أُجْرَفِي فِي الْأَغْلَالِ مُصَفِّدًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ».

ثم يرتقي في ذلك معتبراً أنّ الظلم في نفسه قبيح ولو بحق الكائنات الأخرى المستحقرة، ولذا يتنزّه عن ظلمها ولو بمثل الصورة التالية التي لا نقيم لها وزناً، ولكنه عليه السلام يقيم لها وزناً أعظم من خيرات الأرض كلها: «وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاقِهَا، عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَسْلُبَهَا جِلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»^(٢).

(١) نهج البلاغة: خ ١٧٦.

(٢) م.ن. خ ٢٢٣.

• الفساد المالي

من هنا نفهم لِمَ كَلَّ هذا الربط القوي بين ممارسات قوم شعيب عليه السلام وبين صفة الفساد. وإذا ما وسَّعنا دائرة الحديث عن الفساد التجاري ليشمل الفساد المالي بصورته الأوسع بما يشمل السياسات المالية للحكومات ومؤسَّسات المجتمع المدني والرشاوى ووضع اليد على الممتلكات العامة أو الخاصة بالقوة أو بالحيلة وغير ذلك، لأدركنا حجم الخطر الذي يهدد المجتمعات عندما يستشري فيها الفساد المالي بعنوانه الأوسع.

وقد كتب عصام البشير بحثاً بعنوان: (الفساد المالي وأثره على الفرد والمجتمع): «إنَّ ثلث الفساد المالي مركزه الوطن العربي، ونصفه في العالم الإسلامي. هذا ما قاله تقرير منظمة الشفافية العالمية الصادر عام ٢٠٠٥ م، فقد جاء في التقرير أنَّ حجم الفساد المالي في العالم يقدرُّ بألف بليون دولار، منها ثلاثمائة بليون في الوطن العربي وحده، أي إنَّ حجم الفساد المالي في الوطن العربي يساوي ثلث الفساد العالمي، فإذا أضفنا حجم الفساد في الدول القائمة في العالم الإسلامي الأخرى فإنَّ حجم الفساد في العالم الإسلامي يتجاوز نصف الفساد العالمي، والفساد المقصود في هذا التقرير ينحصر في سوء استعمال الوظيفة في القطاع العام من أجل تحقيق مكاسب شخصية. فكيف لو تحدَّث التقرير عن أنواع الفساد الأخرى الأخلاقية والبيئية والإدارية والتعسُّف في استغلال السلطة ومواقع المسؤولية والاجتماعية وحتى الذائقة الفنية والأدبية؟!».

ثم ضرب أمثلة من واقع الفساد المالي وهي: (السرقه - قبول الرشوة - المحسوبية والمحاباة) وتحدَّث عنها بشيء من التفصيل، ثم ذكر آثار ذلك الفساد بصورة موسَّعة جاءت ضمن العناوين التالية: «إهدار حقوق ذوي الكفاءات معتبراً إيَّاه نوعاً

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

من أنواع أكل أموال الناس بالباطل - الإحساس بالإحباط والظلم والقهر - ضعف الانتماء - الانصراف عن العمل المنتج - إهدار الفرصة البديلة في توفير فرص عمل حقيقية - تهيئة الفرد لارتكاب الجرائم - انتشار أنواع من الممارسات تقع تحت ظاهرة الاقتصاد الأسود مثل الدعارة، وتجارة المخدرات، والرشوة، وتهريب السلع غير المسموح بتداولها، وتجارة السلاح غير المشروعة، وتجارة الأطفال، وتجارة الأعضاء البشرية - تدمير البيئة وذلك من خلال فساد الزراعات والمياه والهواء عن طريق تجارة أو صناعة مستلزمات غير صالحة للاستهلاك الآدمي أو استخدام معدلات غير مسموح بها من المواد الكيماوية - انتشار ظاهرة غسيل الأموال في محاولة لإكساب الدخل القذرة من ممارسة الفساد صفة الشرعية - الاستهلاك ببذخ بمعنى شيوع مظاهر استهلاكية لا تعبر عن دخول حقيقية؛ فالذي يحصل على دخله من الفساد يسعى لإنفاقه ببذخ وبسهولة كذلك - وقوع الاقتصاد الوطني في برائن العصابات الدولية وذلك لأنّ من يمارسون الفساد في بلادهم لا يأبهون بقضية الوطنية والحرص على المصلحة العليا للبلاد بل يبيعونها لعصابات دولية تسعى للتحكّم في مقدراته - إهدار دولة القانون - حيث إنّ أنشطة الفساد تحكّمها قوانين غير مكتوبة يتعارف عليها ممارسو الفساد، وبالتالي تتعلّق البيئة بالفساد المالي، لأنّ الذين يفسدوننها يسعون للمال السريع - إرباك السياسات الاقتصادية لصعوبة الوقوف على بيانات حقيقية تعتمد عليها السياسة الاقتصادية في اعتماد آلياتها - انتشار ظواهر اقتصادية سلبية مثل حرق السلع أو المضاربات في الأراضي والبورصات أو العملات للسعي من أجل غسيل أموال الفساد - عدم دقة بيانات المؤشرات الرئيسيّة للاقتصاد القومي لأنّ الأموال الناتجة من ممارسة الفساد لا ترتبط بالمقومات الاقتصادية الوطنية، كالناتج المحلي الإجمالي، أو المشاركة في مشروعات خطة التنمية للدولة؛ لأنّه عادة ما تضرّ أموال الفساد بموارد الدولة لأنّها تحقّق في الخفاء ولا يتمّ محاسبتها ضريبياً - التدهور الاقتصادي - الفساد

الاجتماعي - إهدار قيم المجتمع نحو الثروة والعمل الصالح»^(١).

• أسس المعالجة

ونعود إلى الآيات التي عرضت قصة النبي شعيب عليه السلام، فهي تتحدث أيضاً عن أسس معالجة هذا النبي الكريم للفساد المستشري في مجتمعه.. ويمكن تلخيصها في التالي:

١- الانطلاق أولاً من قاعدة الإيمان بالله وَعِبَادِهِ وحده لا شريك له، ليكون منطلق الإصلاح واحداً، ولتعتمد أسس المعالجة على منهجية نابعة من مصدر واحد، ويكون الهدف من الإصلاح واحداً أيضاً.

٢- التأكيد على آثار ذلك الفساد على كافة الأصعدة التي تهدد مجتمعه بالانهيار، قال: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] وتعنوا تعني: لا تفسدوا إفساداً شديداً من خلال القتل وغيره.

٣- التشجيع على الكسب الحلال وبركته وكفايته، قال: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦] وهذا يُغني عن الطرق المحرّمة في الكسب والتي تُنتزع منها البركة، وتعود بالوبال على الفرد والمجتمع.

٤- يبدو أنّ مسألة الحرية الفردية بالنسبة إلى قومه كانت قضية حسّاسة، فقد قالوا له: ﴿أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧] ولذا تعامل معها النبي شعيب بحذر، وواجه مقاومة عنيفة من هذا المنطلق، ممّا دفعه للتأكيد على أن دوره هو مجرد الإصلاح ما استطاع، لا القهر والإجبار، قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

٥ التأكيد على إخلاصه في هذه الدعوة، وحفظ نفسه عن المغريات التي قد تكون مباحة ولكنها تزل من خلالها أقدام الرجال، لكي تكون لديه المصادقية في ما يُقدّم عليه، قال على لسان النبي شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

• الإمام الحسين يواجه الفساد

ومما سبق يتبين أنّ الفساد الذي أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام في أكثر من موقع كمبرّر شرعيّ وعقليّ لمواجهة باطل الحكومة الأموية المتمثلة في يزيد بن معاوية يمكنه أن يشمل جانب الفساد المالي والاقتصادي.. فهل من شواهد على مثل ذلك الفساد؟

كان معاوية يعتبر أنّ المال مال الله، وأنّه خليفة الله في أرضه، ومن حقّه من هذا الموقع أن يصنع في مال الله ما يشاء دون حساب. وقد ظهرت بوادر ذلك حينما كان والياً على الشام، فأثار الصحابي الجليل أبوذر الغفاري رضي الله عنه في وجهه هذه القضية محتجاً بشدّة ومنكراً مخالفة التعاليم والمفاهيم الإسلامية في هذا الإطار، وأحداث ذلك معروفة ومشهورة وسأكتفي بما ذكره الشيخ عبدالحسين الأميني (ت ١٣٩٠ هـ) في كتابه (أبو ذر) قال: «بنى معاوية الخضراء بدمشق فقال: يا معاوية إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف. فسكت معاوية، وكان أبو ذر يقول: والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنّة نبيّه، والله إتّي لأرى حقّاً يُطفأ، وباطلاً يُحى، وصادقاً يُكذّب، وأثرة بغير تُقى، وصالحاً مستأثراً عليه. فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية: إنّ أبا ذرّ مفسد عليك الشام فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة. فكتب معاوية إلى عثمان فيه فكتب عثمان إلى معاوية: أما بعد فاحمل جندباً إليّ

على أغلظ مركب وأوعره فوجه معاوية من سار به الليل والنهار...»^(١).

كما لخص سعيد بن العاص الأموي نظرة الأمويين إلى ذلك بقوله حين قدم الكوفة كما في تاريخ الطبري: «إنما هذا السواد بستان لقريش» ورد عليه مالك الأشتر قائلاً: «أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيفنا بستان لك ولقومك والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا»^(٢).

وقد ذكر المسعودي في (مروج الذهب) بعض الأخبار التي توضح بعض معالم الفساد المالي: قال معاوية يوماً، وعنده صعصعة وكان قدم عليه بكتاب عليّ وعنده وجوه الناس: الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي، فقال صعصعة:

تمنيك نفسك ما لا يكون جهلاً معاوي لا تأثم

فقال معاوية: يا صعصعة، تعلمت الكلام؟! قال: العلم بالتعلم، ومن لا يعلم يجهل، قال معاوية: ما أحوجك إلى أن أذيقك وبال أمرك! قال: ليس ذلك بيدك، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، قال: ومن يحول بيني وبينك. قال: الذي يحول بين المرء وقلبه، قال معاوية: اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير، قال: اتسع بطن من لا يشبع، ودعا عليه من لا يجمع»^(٣).

وذكر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) في تاريخه حول سياسة معاوية: «واستصفي أموال الناس فأخذها لنفسه». وقال: «أخرج معاوية من كل بلد ما كانت ملوك فارس تستصفيه لأنفسها من الضياع العامرة وجعله صافية لنفسه، فأقطعه جماعة من أهل بيته. وكان صاحب العراق يحمل إليه من مال صوافيه في هذه النواحي

(١) الأميني: أبوذر، ص ٤٠.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٦٥.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٩.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
 مائة ألف ألف درهم، فمنها كانت صلّاته وجوائزه، واستقر خراج مصر في أيام
 معاوية على ثلاثة آلاف ألف دينار»^(١).

وفي هذا الإطار نصوص كثيرة جداً ذكرتها مصادر التاريخ، وما سبق صورة
 من صور الفساد المالي في عهده، وله صور أخرى من قبيل ما جاء في (الإمامة
 والسياسة) لابن قتيبة أنّ سعيد بن عثمان بن عفان جاء معاتباً معاوية حين أعلن
 يزيد خليفة من بعده فقال: «إذا أبيت فأعطني ممّا أعطاك الله. فقال معاوية:
 لك خراسان. قال سعيد: وما خراسان؟ قال: إنّها لك طعمة وصلة رحم، فخرج
 راضياً، وهو يقول:

ذكرت أمير المؤمنين وفضله	فقلت جزاه الله خيراً بما وصل
وقد سبقت مني إليه بواد	من القول فيه آفة العقل والزلل
فعاد أمير المؤمنين بفضله	وقد كان فيه قبل عودته ميل
وقال خراسان لك اليوم طُعمة	فجوزي أمير المؤمنين بما فعل

.... فلما انتهى قوله إلى معاوية، أمر يزيد أن يزوده، وأمر إليه بخلعة، وشيِّعه
 فرسخاً»^(٢).

وفي كتاب (الكامل في التاريخ) لعزالدين ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ)
 أنّه: «وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة السعديان والجون بن قتادة
 العبشمي والحتات بن يزيد أبو منازل المجاشعي إلى معاوية بن أبي سفيان،
 فأعطى كلّ رجل منهم جائزة مائة ألف، وأعطى الحتان سبعين ألفاً. فلمّا كانوا
 في الطريق ذكر كلّ منهم جائزته. فرجع الحتات إلى معاوية فقال: ما ردّك؟

(١) يعقوبي: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢١٤.

قال: فضحتني في بني تميم! أما حسبي صحيح؟ أولست ذا سن؟ ألسنت مطاعاً في عشيرتي؟ قال: بلى. قال: فما بالك خسست بي دون القوم وأعطيت من كان عليك أكثر ممن كان لك؟ وكان حضر الجمل مع عائشة، وكان الأحنف وجارية يريدان علياً، وإن كان الأحنف والجون اعتزلا القتال مع علي لكنهما كانا يريدانه. قال: إنني اشتريت من القوم دينهم، ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان، وكان عثمانياً. فقال: وأنا فاشتر مني ديني. فأمر له بإتمام جائزته، ثم مات الحتات فحبسها معاوية^(١).

ومن صور الفساد المالي التي انتهجت أتباع سياسة الحرمان المالي لتركيع المعارضين أو لإحداث تغيير في التركيبة السكانية في البلدة لغرض سياسي أو لتكوين ثروات بطريقة غير مشروعة، وكنموذج على ذلك ما ذكره ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة) من أن معاوية أجبر أهل يثرب على بيع أملاكهم واشتراها بأبخس الأثمان، وعندما أرسل القيم على أملاكه لتحصيل وارداتها منعه عنها، وقابلوا حاكمهم عثمان بن محمد الثقفي وقالوا له: «قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا، وأن معاوية أثر علينا في عطائنا، ولم يعطنا قطّ درهماً فما فوقه، حتى مضنا الزمان، ونالتنا المجاعة، فاشتراها منا بجزء من مائة من ثمنها، فأغلظ لهم عثمان في القول، وأغلظوا له»^(٢).

وكتب الشيخ باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٣هـ) في كتابه (حياة الإمام الحسين) في هذا الإطار: «وانتشر الفقر في بيوت الأنصار، وخيم عليهم البؤس حتى لم يتمكن الرجل منهم على شراء راحلة يستعين بها على شؤونه، ولما حج معاوية واجتاز على يثرب استقبله الناس، ومنهم الأنصار وكان أكثرهم مشاة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٢٩.

(٢) ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٧٦.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

فقال لهم: ما منعكم من تلقّي كما يتلقّاني الناس؟ فقال له سعيد بن عباد: منعنا من ذلك قلة الظهر، وخفة ذات اليد، وإلحاح الزمان علينا، وإيثارك بمعروفك غيرنا. فقال له معاوية باستهزاء وسخرية: أين أنتم عن نواضح المدينة؟ فسدد له سعيد سهماً من منطقته الفياض قائلاً: نحرناها يوم بدر، يوم قتلنا حنظلة بن أبي سفيان^(١).

ويذكر اليعقوبي أنه بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام: «وأخذ ابن الزبير عبد الله بن عباس بالبيعة له، فامتنع عليه، فبلغ يزيد بن معاوية أنّ عبد الله بن عباس قد امتنع على ابن الزبير، فسره ذلك، وكتب إلى ابن عباس» ثم يذكر مضمون الرسالة وردّ ابن عباس عليه فكان ممّا قال: «.. فلست حمدك أردت، ولا ودّك، ولكن الله بالذي أنوي عليم. وزعمت أنّك لست بناسٍ ودّي فلعمري ما تؤتينا ممّا في يديك من حقّنا إلا القليل، وإنّك لتحبس عنّا منه العريض الطويل...»^(٢).

وفي المقابل فقد ميّز معاوية وابنه يزيد من بعده أهل الشام على من سواهم في العطاء، وقد جاء في كتاب (نهاية الأرب في فنون العرب) حول أحداث ثورة عبد الله بن الزبير على يزيد: «وكان مالك بن هبيرة السكوني يهوى خالد بن يزيد، والحصين بن نمير يميل إلى مروان، فقال مالك للحصين: هلم نباع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن أختنا، وقد عرفت منزلتنا من أبيه، فإنّه يحملنا على رقاب العرب. يعني خالد بن يزيد»^(٣).

وسلك الأمويون سلوكاً آخر في إطار الفساد المالي، ففرضوا ضرائب جديدة

(١) القرشي: حياة الإمام الحسين، ج ٢، ص ١٢٤.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون العرب، ج ٥، ص ٤٩٨.

ليالي عَشُوراء _____ *

لتغطية احتياجاتهم المالية التي تخدم سياساتهم وتثريهم، ومن بينها (ضريبة النيروز)، وقد كتب د. هيرش محمد أمين في كتابه (نوروز في الشعر العباسي): «يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ) الذي أعاد ضريبة النيروز وكتب إلى واليه في العراق عمر بن هبيرة سنة ١٠٥هـ يأمره بمسح أرض السواد وإعادة ضريبة النيروز».

ثم أضاف المؤلف في ضمن حديثه عن البحري الشاعر أنه أنشد في ذلك قائلاً:

تتوخي الهدى وتحكم بالحر ق وترجو تجارة لا تبور
إنَّ النيروزَ عاد إلى العهد — الذي سنَّه أردشير
أنت حوَّلتَه إلى الحالة الأولى — وقد كان حائراً يستدير
وانفتحت الخراج فيه فلامم — في ذاك مرفق مذكور

وقال: «فالمقطع يستند إلى لغة تهكمية ساخرة، تدور على إبراز ظاهرة سلبية أعاد الممدوح العمل بها بعد أن كانت من سنن الطواغيت. فالعمل على دفع ضريبة النيروز في نظر الشاعر انقلاب إلى حافة الهاوية، لا يأمر بها من يطلب تجارة لا تبور. فلئن كانت الأكاسرة أحرص الناس عليها كأردشير مثلاً فإنها عادت إلى سابق عهدها، حتى أن خزائن الخليفة اليوم متفخخة بأموال تلك الضريبة»^(١).

كانت هذه بعض صور ونماذج الفساد المالي الذي شهده العهد الأموي، وكان من أسباب الثورة الحسينية، وفي فصول لاحقة سأعرض بشيء من التفصيل لصور من الفساد المالي والإداري منذ بدايات العهد الأموي، وأكتفي هنا بما سبق تجنّباً للتكرار.

(١) نقلاً عن موقع: www.alitthad.com



نقض العهود والمواثيق



• نقض العهود والمواثيق والعقود: بنو إسرائيل نموذجاً

العقود والعهود والمواثيق ظاهرة اجتماعية ملازمة للإنسان، لا يضطراره إليها في تدبير معاشه وأمنه وعلاقاته. وقد أعطى القرآن الكريم للعهود والعقود أهمية كبرى، وأكد على ضرورة إنفاذها، والإيفاء بها وتحمُّل آثارها وتبعاتها، وقد قال **عَلَيْكُمْ**: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٥-٧٧].

• صورة ممقوتة

هذه الصورة القبيحة لليهود والمصير البائس والعذاب الأليم إنما ارتبطت بسلوكهم المذموم في جانب الوفاء والأمانة والقائم على التمييز العنصري والديني في قضية لم يميِّز فيها التشريع النازل عليهم بين قوم وقوم، أو بين أتباع

دين ودين، فالأمانة والوفاء بالعهد والعقد لا علاقة له بذلك.

ولذا في الخبر عن الحسين الشيباني عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قُلْتُ لَهُ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِيكَ يَسْتَحِلُّ مَالَ بَنِي أُمَيَّةَ وَدِمَاءَهُمْ، وَإِنَّهُ وَقَعَ لَهُمْ عِنْدَهُ وَدِيعَةٌ، فَقَالَ: أَدُّوا الْأَمَانَةَ إِلَى أَهْلِهَا، وَإِنْ كَانُوا مَجُوسًا». وعن الحسين بن مصعب الهمداني قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: ثَلَاثٌ لَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِيهَا: أَدَاءُ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَبُرُّ الْوَالِدَيْنِ بَرِّينَ كَانَا أَوْ فَاجِرَيْنِ». وعن عمّار بن مروان قال: قال أبو عبدالله عليه السلام في وصيته له: «اعْلَمْ أَنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيْفِ وَقَاتِلَهُ لَوْ ائْتَمَّنِي وَاسْتَصْحَنِي وَاسْتَشَارَنِي ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ لَأَدَيْتُ إِلَيْهِ الْأَمَانَةَ». وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال لشيعة: «عَلَيْكُمْ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ نَبِيًّا، لَوْ أَنَّ قَاتِلَ أَبِي الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بَنِ أَبِي طَالِبٍ ائْتَمَّنِي عَلَى السَّيْفِ الَّذِي قُتِلَ بِهِ، لَأَدَيْتُهُ إِلَيْهِ»^(١).

• النبي الأمين

وقد كان نبينا الأكرم ﷺ الأمين مع قريش وهم مشركون، وأمر علياً عليه السلام أن ينادي جهاراً في مكة بعد هجرته ﷺ لإعادة الأمانات إلى أصحابها.. وهم لا شك مشركون.

وفي كتاب (الأمالي) للشيخ الطوسي حول هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حديث يتناول تفاصيل ما جرى بعد أن هجم المشركون المتربصون بالدار على علي عليه السلام وهم يظنون أنه النبي ﷺ، قال: «وأمهل علي صلوات الله عليه حتى إذا أعتم من الليلة القابلة انطلق هو وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله ﷺ في الغار، فأمر رسول الله ﷺ هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين، فقال أبو بكر: قد كنت أعددت لي

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٢، باب أداء الأمانة.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب. فقال: إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن. قال: فهي لك بذلك، فأمر عليّاً فأقبضه الثمن، ثم أوصاه بحفظ ذمته وأداء أمانته. وكانت قريش تدعو محمداً عليّاً في الجاهلية الأمين، وكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم، وجاءته النبوة والرسالة والأمر كذلك، فأمر عليّاً أن يقيم صارخاً يهتف بالأبطح غدوةً وعشياً: ألا من كان له قبل محمد أمانة أو ودیعة، فليأت فلتؤد إليه أمانته. وقال النبي عليّاً: إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا عليّ بأمرٍ تكرهه حتى تقدّم عليّ، فأدّ أمانتي على أعين الناس ظاهراً^(١).

• تبعات صلح الحديبية

وفي صلح الحديبية شرط على النبي عليّاً أنه: «لا يأتيك منّا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا»^(٢). والتزم النبي عليّاً بذلك الشرط ضمن الميثاق على الرغم من مضمونه المؤلم، ويذكر البخاري في صحيحه بعض ما جرى بعد ذلك في هذا الإطار: «... فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم» (قيل اسمه عتبة بن أسيد الثقفي) فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جرّبت به ثم جرّبت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه، فضربه حتى برد وفرّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله عليّاً حين رآه: لقد رأى هذا دُعراً، فلما انتهى إلى النبي عليّاً، قال: قتل والله صاحبي وإنني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى

(١) الطوسي: الأمالي، ص ١٧٦.

(٢) العيني: عمدة القاري، ج ١٣، ص ٢٧٧.

اللَّهُ ذَمَّتْكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَيْلٌ أُمَّهُ «كلمة تعجب يصفه بالإقدام» مِسْعَرُ حَرْبٍ «أي موقد حرب» لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيُرْدُهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ، قَالَ: وَيَنْفَلْتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ فَلِحَقِّ أَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لِحَقِّ أَبِي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعَيْرِ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَنَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]...»^(١).

• ميثاق مع الله

ومن المهم أن نلاحظ أن الآية التي ذمّت اليهود على سلوكهم وافترائهم قد اعتبرت أن الميثاق الذي يعقدونه مع الآخرين ولو من ملل أخرى هو ميثاق وعهد مع الله في المقام الأول، كما أكدت على أن الوفاء بالعهود والالتزام بالتقوى هما اللذان يُمكن لهما أن يحققا دوام المصلحة الإنسانية واستمراريتها، ومن خلالهما يحصل الإنسان على محبة الله.

وهكذا فإنّ من الضروري إذا دخل المسلمون في معاهدة مع الآخرين، أن يشعر الآخرون بالأمن في علاقاتهم بالمسلمين، ويضمنوا لأنفسهم الثبات في المواقع التي تثبتها هذه المعاهدة.

• أقسام العهود

في القرآن حديث عن العهود والعقود على أقسام:

(١) البخاري: الجامع الصحيح، ح ٢٥٤٢.

١- بين الإنسان وربه، كما في قوله: ﴿... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٠].

٢- بين الأفراد لشؤون شخصية، كما في قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

٣- بين أمم ومجتمعات، كما جاء في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ... إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَلَا يُمْسِكُوا عَهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ١-٤].

٤- بين أفراد الأمة كقانون وعرف وعقد اجتماعي يلتزم الجميع به، كما في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفَعَّلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٣]. فهناك عهد داخلي نشأ بين المؤمنين بعضهم البعض تحت عنوان الولاية، وتترتب عليها استحقاقات إلا إذا كان بين المؤمنين وبين قوم ما ميثاق متعارض، فحينذاك لا يعمل بذلك الاستحقاق التزاماً بالميثاق مع المشركين!

وقد ضرب القرآن الكريم نموذجاً لنقض الميثاق بين أتباع الملة الواحدة، وذلك ضمن ذمّه لممارسات بني إسرائيل، فقال ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا

تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ
 * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ
 عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ
 أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
 * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿البقرة: ٨٤-٨٦﴾.

وقتل النفس هنا لا بمعنى الانتحار بل بمعنى قتل بعضهم البعض، فالقرآن
 يعتبر أبناء الأمة الواحدة بمثابة النفس لبعضهم البعض، تماماً كما في قوله تعالى:
 ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى
 بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
 الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤]. قال العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان): «إنما يعني
 به قتل البعض وهم الذين عبدوا العجل»^(١).

وفي القرآن الكريم حديث عن ميثاق مشابه يخص أتباع الشريعة المحمدية،
 فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
 تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضَلِّهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:
 ٢٩ - ٣٠].

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان): «ظاهر الجملة أنها نهي عن قتل
 الإنسان نفسه لكن مقارنتها قوله: لا تأكلوا أموالكم بينكم، حيث إن ظاهره أخذ
 مجموع المؤمنين كنفس واحدة لها مال يجب أن تأكلها من غير طريق الباطل ربما

(١) الميزان: في تفسير الآيات السابقة.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م ————— *
 أشعرت أو دلّت على أنّ المراد بالأنفس جميع نفوس المجتمع الديني المأخوذة
 كنفس واحدة نفس كلّ بعض هي نفس الآخر فيكون في مثل هذا المجتمع نفس
 الإنسان نفسه ونفس غيره أيضاً نفسه فلو قتل نفسه أو غيره فقد قتل نفسه، وبهذه
 العناية تكون الجملة أعني قوله: ولا تقتلوا أنفسكم مطلقة تشمل الانتحار - الذي
 هو قتل الإنسان نفسه - و قتل الإنسان غيره من المؤمنين»^(١).

• واقع بائس

ولك أن تنظر الى واقع الأمة الإسلامية اليوم فيما يمارسه الحكام ضدّ
 شعوبهم، بطرد وتهجير من يخالفهم من ديارهم، أو دفعهم للخروج والهجرة
 إلى ديار غير المسلمين كلاجئين لسبب أو لآخر، وتبعات ذلك النفسيّة والدينيّة
 والثقافيّة وخسارة المجتمع لعقول أبنائها. وبالإضافة إلى الطرد نجد المطاردة
 والقتل وأحكام الإعدام للمعارضين وغير ذلك من ممارسات تدخل ضمن تلك
 الصورة المقدّمة في القرآن.

وهكذا تمارس ذات الدور الجماعات التكفيرية والإقصائية من غير الأحزاب
 ذات العنوان الإسلامي، بل وأبشع منه فيما يشهده عالمنا الإسلامي المليء
 بالمآسي والجرائم البشعة، وفي ظلّ إمداد غربي لبعض الأطراف أو مسانبتها
 بنحو من المساندة، ما دام الأمر يصبّ في صالحها وصالح الكيان الصهيوني،
 مهما بلغت بشاعة تلك الجرائم!

• علاقة نقض العهود بالفساد

وقد ارتبط الحديث حول نقض المواثيق والعهود والعقود بالفساد، ولعلها
 إشارة إلى حالة تضمنية «بمعنى أنّ نقضها فساد في حدّ ذاته» أو التزامية بينهما

(١) الميزان: في تفسير الآيات السابقة.

«بمعنى أن نقضها يؤدي إلى الفساد في المجتمع»، قال: ﴿..... وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

ومعنى الفساد الذي أشرنا إليه في أكثر من موقع هو حالة الخراب والتفكك وضعف الارتباط التي تسود المجتمع، والتجاوز على حقوق الآخرين، والصراع الداخلي والخارجي، ومن الواضح أن نقض العهود والمواثيق والعقود تمثل أسباباً واضحة لذلك، سواء كان هذا النقض مع الله أو مع الأمة أو بين الأمم أو بين الأفراد.

• السلوك الأموي

وإذا أردنا أن ندرس سيرة الأمويين من هذه الناحية فإننا سنجد حالة الغدر بالمواثيق والعهود وكلمة الشرف ظاهرة بيّنة، وقد عبّر عنها أمير المؤمنين عليه السلام كما في نهج البلاغة في كلام له: «وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَذْهَى مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللَّهِ مَا أُسْتَعْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا أُسْتَعْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ»^(١).

وعلق ابن أبي الحديد على هذه الكلمة فكان مما قاله: (الفجرة والكفرة: الكثير الفجور والكفر... ثم أقسم عليه السلام أنه لا يستغفل بالمكيدة، أي لا تجوز المكيدة عليّ، كما تجوز على ذوي الغفلة، وأنه لا يُستعَمَزُ بالشديدة، أي لا أهين وألين للخطب الشديد... فأما القول في سياسة معاوية، وإن شنأت عليّ عليه السلام ومبغضيه زعموا أنّها

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٠، ص ٢١١.

خير من سياسة أمير المؤمنين، فيكفينا في الكلام على ذلك ما قاله شيخنا أبو عثمان «الجاحظ» ونحن نحكيه بألفاظه. قال أبو عثمان: وربّما رأيت بعض من يظنّ بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز، وهو من العامة ويظنّ أنّه من الخاصّة، يزعم أنّ معاوية كان أبعد غوراً، وأصحّ فكراً، وأجود رويّة، وأبعد غاية، وأدقّ مسلكاً، وليس الأمر كذلك، وسأرمي إليك بجملته تعرف بها موضع غلظه، والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله. كان عليّ عليه السلام لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة، كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكاييد، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى رتبيل «أي حاكم الترك» وعليّ عليه السلام يقول: لا تبدأ وهم بالقتال حتى يبدأوكم، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تفتحوا باباً مغلقاً، هذه سيرته في ذي الكلاع، وفي أبي الأعور السلمي، وفي عمرو بن العاص، وحبیب بن مسلمة، وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشية والحشو والأتباع والسفلة وأصحاب الحروب، إن قدروا على البيات بيتوا، وإن قدروا على رضخ الجميع بالجنادل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه إلى ساعة، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدم لم يتكلّفوا الحصار، ولم يدعوا أن نصبوا المجانيق، والعرادات (جمع عرادة آلة عسكرية كالمنجنيق ولكنها أصغر حجماً) والنقب، والتسريب، والدبابات، والكمين، ولم يدعوا دسّ السموم، ولا التضريب بين الناس بالكذب وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات، وتوهيم الأمور، وإيحاش بعض من بعض، وقتلهم بكلّ آلة وحيلة، كيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال! فمن اقتصر - حفظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير، وما لا يتناهى من المكاييد والكذب - حفظك الله - أكثر من الصدق، والحرام أكثر عدداً

ليالي عَشُوراء

من الحلال... فعليّ عليه السلام كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله وكتابه رضا، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبّه، ولا يرى الرضا إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة، دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والنكراء والمكايد والآراء، فلمّا أبصرت العوام كثرة نوادر معاوية في المكايد، وكثرة غرائبه في الخداع، وما اتفق له وتهياً على يده، ولم يُرو ذلك من عليّ عليه السلام، ظنّوا بقصر عقولهم، وقلة علومهم، أنّ ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند عليّ عليه السلام، فانظر بعد هذا كله، هل يعدّ له من الخدع إلا رفع المصاحف؟! ثم انظر هل خدع بها إلا مَنْ عصى رأي عليّ عليه السلام وخالف أمره؟!... ولا يقول أحد عنده شيء من الخير: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أدهى العرب والعجم وأنكر قريش وأمكر كنانة، لأنّ هذه الكلمة إنّما وضعت في مديح أصحاب الإرب ومَنْ يتعمّق في الرأي في توكيد أمر الدنيا وزبرجها وتشديد أركانها، فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر، وإنّما يصلحون على تدبير خالق البشر، فإنّ هؤلاء لا يمدحون بالدهاء والنكراء، ولم يمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه»^(١).

وقال الشيخ باقر شريف القرشي في (حياة الإمام الحسين): «إنّ الأمويين قد عُرفوا بالغدر ونقض العهود، فقد صالح الحسن معاوية، وسلّم إليه الخلافة ومع ذلك فقد غدر معاوية به فدرّس إليه سمّاً فقتله، وأعطوا الأمان لمسلم بن عقيل فخانوا به.. وقد ذكرنا في البحوث السابقة مجموعة من الشخصيات التي اغتالها معاوية خشية منهم»^(٢).

وللدكتور نوري جعفر كتاب تحت عنوان (الصّراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام)، وقدّم له الدكتور حامد حفني داود أستاذ الأدب العربي بكلية الألسن

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٠، ص ٢٢٧-٢٣٠.

(٢) القرشي: حياة الإمام الحسين، ص ٢٩٢.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

بالقاهرة قائلاً: «في هذا الكتاب يقدم لنا المؤلف الدكتور نوري جعفر عن عقيدة أخلصها وصفها لمبادئ الإسلام العديد من مساوئ بني أمية التي كانت ثلثة لا ترأب في صرح الإسلام المجيد، وهي لا تزال إلى اليوم وصمة في تاريخهم منذ أمسكوا بزمام الحكم حتى سقطت دولتهم على يد العباسيين سنة ١٣٢ هـ. وقيمة هذا الكتاب تتجلى في أنّ مؤلفه أضاف شيئاً جديداً على الكاتبين، هذا الموضوع، ذلك أنّه وثّق كلّ ما جاء من مواقف بني أمية ضدّ مبادئ الإسلام السّمحاء بالعديد من الروايات الموثوقة في المصادر والمراجع. كما أتحف هوامش الكتاب بالكثير من تراجم الأعلام الذين ورد ذكرهم في ثنايا كتابه. لقد كتب أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ - شيخ كتاب القرن الثالث الهجري - كما كتب غيره الكثير عن أخبار بني أمية وعن مساوئهم ومناوئتهم للبيت الهاشمي... تناول المؤلف في هذا الكتاب العديد من القضايا التي خرج فيها بنو أمية عن المثالية الإسلامية التي وضع الرسول أساسها وسار عليها الخلفاء الراشدون كلّ بقدر اجتهاده حتى بلغت في خلافة عليّ القمّة التي لا يعلوها قمة من أخلاقيات الإسلام ومبادئه وقيمه. لولا أنّ هذا النهج المثالي الذي شرّعه عليّ وبرأ فيه نفسه عن ادعاء الكمال حينما أسندت إليه الخلافة سرعان ما هُوجم من معسكر البغي والعدوان من بني أمية وأعوانهم. ولقد حاول المؤلف أن يفصح عن موقف الأمويين ضدّ مبادئ الإسلام، فأفاد في الكثير ممّا كتب. وحقّ له أن يتحدّث عن مساوئهم وعمّا عرفوا به من خيانة، وغدر بالقيم، واقتراف للكثير من الجرائم الأخلاقية كالزنا ومعاقرة الخمر وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن فضلاً عن الاحتيال في الدين ونقض للعهود وكذب على الله وآل بيت نبيّه، واستحلالهم للعن الإمام عليّ الذي فيه يقول الرسول: «من سبّ عليّاً فقد سبّني ومن سبّني فقد سبّ الله تعالى».

استعرض المؤلف كلّ هذه الثغرات الأخلاقية التي تدين بني أمية وتضعهم في

موضع غير كريم من تاريخ الإسلام»^(١).

أما المؤلف ذاته فقد كتب تحت عنوان الغدر: «لقد برزت ظاهرة الغدر في الأسرة الأموية بين النساء والرجال على السواء ضد بعضهم بعضاً أحياناً، وضد غير الأمويين أحياناً حسبما تستلزم الظروف السياسية القائمة.. صفة الغدر كانت متفشية بين الأمويين من النساء والرجال على السواء وبقدر ما يتعلق الأمر بالغدر عند النساء الأمويات يمكننا أن نقول لقد غدرت أم خالد - ابنة أبي هشام - أرملة يزيد بن معاوية بزوجها مروان بن الحكم فخنقته بالوسادة حتى قتله! وتفصيل ذلك على ما رواه الطبري أنّ معاوية بن يزيد عندما حضرته الوفاة أبي أن يستخلف أحداً...» ويذكر القصة ثم يضيف: «أما الغدر عند رجال بني أمية فهو أبين منه عند نساءهم، وذلك لطبيعة الأوضاع العامة التي تميز بين الجنسين. ويتجلى الغدر - بين الأمويين - بأوضح أشكاله عند معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك. ويلوح لي أنّ الغدر كان صفة ملازمة للحكام الأمويين.. وبقدر ما يتعلق الأمر بالحكام الأمويين الذين ذكرنا أسماءهم فإنّ قصص الغدر عند معاوية مشهورة في كتب التاريخ.. وغدره بالحسن بن علي وبعبد الرحمن بن خالد بن الوليد أشهر من أن يذكر. وأما غدر عبد الملك بن مروان فيتجلى بأبشع أشكاله في موقفه من عمرو بن سعيد الأشدق، وقد حصل ذلك في عام ٧٠ عندما كان عبد الملك منشغلاً في المسير من دمشق نحو العراق للقاء مصعب بن الزبير، وكان مروان بن الحكم قد وعد عمرو بن سعيد بأن يتولّى الأمر من بعده فكسب مساعدته وتأييده.. غير أنّ مروان بن الحكم - على عادته الأموية - نكث عهده للأشدق وأوصى بالخلافة لابنه عبد الملك!» ويحكى الكاتب قصة استدعائه لعمرو ومنع من معه من الدخول: «فرحّب به

(١) حامد حفي داود: نظرات في الكتب الخالدة، ص ١٥٥.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

عبد الملك وقال: ههنا يا أبا أمية يرحمك الله - فأجلسه معه على السرير وجعل يحدثه طويلاً ثم قال: يا غلام خذ السيف عنه. فقال عمرو: أنا له يا أمير المؤمنين. فقال عبد الملك: أو تطمع أن تجلس معي متقلداً سيفك؟! فأخذ السيف عنه. ثم تحدّثا. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها أمامه، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فقام الغلام فجمعه فيها. فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: أمكراً يا ابن أمية عند الموت؟! ثم اجتذبه اجتذابة أصاب فمه فكسر ثنيتته، فقال عمرو: أغدراً يا أبا الزرقاء؟! وأذن مؤذن العصر فخرج عبد الملك ليصلي بالناس، وأمر عبد العزيز بن مروان أن يقتل عمراً.. وصلى عبد الملك.. ورجع فوجد عمراً حياً. فقال - لعبد العزيز - ما منعك من أن تقتله؟ قال: إنّه ناشدني الله والرحم فرفقت به. فقال له عبد الملك: أخزى الله أمك البوالة على عقبها.. ثم إنّ عبد الملك قال: يا غلام أتتني بالحربة. فأتاه بها فهزها ثم طعنه بها. وجلس على صدره فذبحه. انتفض عبد الملك رعدة، فحمل عبد الملك عن صدره ووضع على سريره. وجاء عبد الرحمن بن أم حكيم الثقفي فرفع إليه الرأس فألقاه في الناس. وقام عبد العزيز بن مروان فأخذ الأموال في البدور فجعل يلقها إلى الناس. فلما نظر الناس إلى الأموال ورأوا الرأس انتهبوا الأموال وتفرقوا^(١).

وتحكي مصادر التاريخ أنّ الأمويين عندما عقدوا (مؤتمر الجابية) لمبايعة مروان بن الحكم قد اتفقوا على أن يخلفه: خالد بن يزيد بن معاوية ثم سعيد بن العاص من بعده، غير أنّ مروان بن الحكم نقض ذلك العهد وعهد بالخلافة لابنه عبد الملك ومن بعده لابنه عبد العزيز.

والناس على دين ملوكهم! ولذا فإنّ أغلب أبناء ذلك المجتمع لم يتأثّموا من

(١) نوري جعفر: الصراع بين الامويين ومبادئ الإسلام، ص ١٥٢-١٥٧.

ليالي عاشوراء

نقض العهود والمواثيق، فقد بات عدم الوفاء بها أمراً عادياً ومتسالمًا عليه على الرغم من أنهم يتلون الكتاب الكريم ليل نهار!

• الإمام الحسين يواجه الردّة الحضارية

ومن هنا واجه الحسين عليه السلام حالة من الردّة الحضارية عند القوم الذين طلبوا منه القدوم إلى الكوفة لينصروه وبايعوه على ذلك، ثم خذلوه، فقد زرع الإسلام فيهم القيم الرفيعة، حتى إذا توفي النبي صلى الله عليه وآله وطال عليهم الأمد تخلّوا عنها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤]. وقد حذرهم القرآن من ذلك: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

روى الطبري عن أبي مخنف: «عن عقبة بن أبي العيزار أن الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري، وقد أتتني كتبكم وقدّمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تمتمت على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، فلکم في أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتكم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
وابن عمى مسلم، والمغرور من اغترّ بكم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيّعتم،
ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله
وبركاته»^(١).

يقول الشيخ محمد مهدي الآصفي في كتابه (وارث الأنبياء): «والتفسير
الوحيد الذي يستطيع أن يفسّر لنا سرّ هذه الانتكاسة والمسوخ الحضاري في
شخصية الأمة، أو طائفة كبيرة من الأمة على أقلّ التقادير، يكمن في الجهد البالغ
الذي بذله بنو أمية في إرهاب الناس وإفسادهم لغرض سيطرتهم على المسلمين
ومسوخ معالم شخصيّتهم، حتى عادت ضمائرهم وإدراكاتهم في قبضة بني أمية،
يتحكّمون فيها بالطريقة التي تعجبهم، وتخدم أهدافهم. وكان لا بدّ من هزّة قويّة
عنيفة لضمير الأمة تعيد إليها وعيها وإرادتها وقيمتها وتشعرها بعمق الكارثة التي
حلّت بها، وتبعث الندم في نفوسهم، وحتى لو لم تكن هذه الهزّة تنفع هذا الجيل
فقد كانت تُعتبر ضرورة من ضرورات المرحلة لإنقاذ الجيل الذي يأتي من بعد
هذا الجيل، لئلا يسري إليه هذا الانحطاط الحضاري الذي لزم هذا الجيل،
وكانت تضحية الحسين عليه السلام وتحركه المأساوي يكوّن في وجدان الأمة هذه
الهزّة العميقة التي كانت تتطلبها ضرورات الساحة والحالة الاجتماعية. لقد
نُبّهت شهادة الحسين وأهل بيته وأصحابه بالطريقة المفجعة التي تمّت بها ضمائر
المسلمين وأشعرتهم بالندم ومكنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم من جديد،
فيفكروا ويقرّروا مصيرهم بأنفسهم»^(٢).



(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) الآصفي: وارث الأنبياء ص ٢١٨ - ٢١٩.



الفساد الفكري



• خامساً - الفساد الفكري: قریش نموذجاً

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٣٧-٤٠].

تؤكد الآية هنا على أن إنكار دين الله بإنكار القرآن ورسالة النبي محمد ﷺ هو من صور الفساد، فالفساد قد يعتري المفاهيم والأفكار، لتتحول إلى شبهات أو عقائد باطلة في الأذهان، كما قد تتحول إلى ممارسات تلحق الضرر البليغ بالبشرية وما يحيط بها.

فالشوفينية «التطرف في حب الوطن إلى درجة استعداد الآخرين ومحاربتهم» وأمثالها من الصهيونية والنازية والفاشية والبعثية والشيوعية والرأسمالية والتكفيرية.. كلها متبنيات لا تقف عند حد الفساد المفاهيمي، بل تتجاوز ذلك لتتحول إلى مجازر

وجرائم وحروب وانتهاك حرّات وبمبّررات! ولو أردنا أن نحصي الضحايا البشرية لهذه التبعات خلال القرن الماضي وبدايات هذا القرن لكان الرقم مهولاً! هذا فضلاً عن الدمار البيئي والتبعات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية وغيرها.

• فساد فرعون

ومن هنا عندما تحدّث القرآن عن كون فرعون من المفسدين: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١]. فإنّ المسألة لا تقف عند حد الفساد العقيدي المتمثل بالشرك، ورفض نبوة موسى ﷺ، بل وادعاء الإلوهية لنفسه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، بل يتجاوزه ليشمل انعكاسات ذلك الاستكبار الفكري عملياً: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، ثم كردّة فعل ضدّ دعوة النبي موسى ﷺ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

والمفارقة أنّ فرعون في مواجهة هذه الدعوة كان يوجّه النقد لموسى ﷺ ويتّهمه بالإفساد: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، وبالمنطق تفسع تحدّث من حوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالْهَيْكَلُ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وهذا يدن الظالمين والمستكبرين وأصحاب المصالح في دغدغة شعور الناس

وتخويفهم من تبعات الإيمان بدعوة المصلحين: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] ومحاولة قلب الطاولة على المصلحين: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وهذا ما نجده في مشهد آخر بعيداً عن الصراع بين موسى وفرعون، ففي قصة المرسلين الثلاثة إلى أنطاكية: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨] بمعنى أننا نرى فيكم شئوماً على مجتمعنا من خلال دعوتكم هذه التي تدعون أنها دعوة إصلاح وهي في الواقع دعوة إفساد، لأنكم ستفرقون بين المرء وزوجه، وبين الأب وابنه، ولأنكم ستقسّمون المجتمع وسينعكس هذا على الوضع الآمن والمستقر الذي نعيشه على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

• الفساد في الدائرة الإيمانية

وعلى كل حال فإنّ مثل هذا الفساد الفكري المنعكس سلوكياً لا يخص الكافرين، بل يشمل المؤمنين، فقد وقع قوم النبي موسى في ذلك من قبل واعتبره القرآن إفساداً: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأْتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وتحقق ما حذر منه موسى ﷺ حين صنعوا العجل وعبدوه.

• الأميون والإفساد الفكري

ووقع المسلمون في وضع مشابه، وتطابقاً مع قول النبي ﷺ: «لَتَبْعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرًا ضَبَّ تَبَعْتُمُوهُمْ». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ؟»^(١).

(١) البخاري: الجامع الصحيح، ح ٧٣٢٠.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

فقد انطلق الأمويّون بكلّ قوّة في طريق إفساد المجتمع الإسلاميّ فكريّاً، فقد حاربوا الإسلام من قبل على عهد رسول الله ﷺ وأرادوا القضاء عليه وعلى دولته الفتيّة فما استطاعوا، بل واضطّروا إلى قبول الدخول في الإسلام مُرغمين ضمن قوافل الطلقاء، ثم بدأوا بمحاربة النبيّ من داخل المجتمع الإسلاميّ حال حياته، ففي مسند الإمام أحمد: «كنتُ أكتبُ كلَّ شيءٍ أسمعُه من رسولِ الله ﷺ أريدُ حفظَه فنَهتني فُرَيْشُ (وقريش هنا تعبير عن هذا الاتجاه الأموي الذي كان يترأس الحرب ضدّ النبي ﷺ) قبل فتح مكة ثم أصبح يحاربه من الداخل) فقالوا إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا. فَأَمَسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا حَقٌّ»^(١).

أما بعد وفاته ﷺ فقد عملوا على إفساد المسلمين فكريّاً، لاسيما مع استقواء معاوية في الشام، وذلك بوسائل عديدة من بينها:

١- وضع الحديث: لتغيير العقائد ابتداءً بالتوحيد والمعاد والنبوّة، ومروراً بالمفاهيم والقيم الإسلامية واختلاق المناقب والفضائل للخطّ الذي تتبناه السّلطة الأمويّة، واختلاق المثالب للخطّ الذي تعاديه السّلطة، وهكذا امتدّ الوضع إلى كلّ القضايا والشؤون والسياسة والفكر والأشخاص، وأصبحت ظاهرة الوضع ظاهرة خطيرة تهدّد هوية الإسلام تهديداً حقيقياً. حتى بات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خروجاً باطلاً، وعلى الجميع أن يرضى بكلّ الظلم الذي يمارسه الحاكمون مهما بلغ، وأقصى ما يقومون به هو أن يوجّهوا إليه شيئاً من النصيحة.. لا أكثر.. هذا نموذج بسيط من توظيف الوضع والتحريف في الحديث لمصالح الأمويّين.

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج ١٥، ص ١٠.



٢- اختلاق العقائد الباطلة: التي تشوّه صورة الإسلام، وتُدخل فيه الإسرائيليات والأُمور الشركية وتبرّر أحياناً للسلطة ممارساتها غير الشرعية. ومثال ذلك ما ذكره الدكتور حسن إبراهيم حسن (ت ١٣٨٨هـ) في (تاريخ الإسلام) حول عقيدة الإرجاء الخطيرة التي تفصل بين الإيمان والعمل معتبرة أنه لا يضرّ مع الإيمان عمل مهما بلغ. قال: «طائفة المرجئة التي ظهرت في دمشق حاضرة الأمويين بتأثير بعض العوامل المسيحية، خلال النصف الثاني من القرن الأوّل الهجري. وقد سُميت هذه الطائفة المرجئة من الإرجاء وهو التأخير، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث. كما يتحرّجون عن إدانة أيّ مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها! وهؤلاء هم في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني أمية.. ويقول فون كريمر: ومما يُؤسّف له كثيراً أنه ليس لدينا غير القليل من الأخبار الصحيحة عن هذه الطائفة، فقد استمرّوا طوال ذلك العصر وذاقوا حلوه ومرّه، وقد ضاعت جميع المصادر التاريخية العربية عن الأمويين، حتى أنّ أقدم المصادر التاريخية التي وصلت إلينا إنّما ترجع إلى عهد العباسيين، ومن ثمّ كان لزوماً علينا أن نستقي معلوماتنا عن المرجئة من تلك الشذرات المبعثرة في مؤلفات كتّاب العرب في ذلك العصر»^(١).

٣- الميل إلى الإلحاد: كما نجده في سيرة الخلفيتين الوليد بن يزيد ومروان بن محمد، ففي كتاب (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) لعبدالرحمن ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ): «وكان الوليد بن يزيد مشهوراً بالإلحاد مبارزاً بالعناد مطرحاً للدين»^(٢). كما أحاطت بالخلفاء الأمويين شخصيات

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٤١٦.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ٢٤٨.

عُرفت بالميول الإلحادية منهم مطيع بن إياس الشاعر الخليع، الذي تعرّض أبو الفرج الأصفهاني لقصصه في موسوعته (الأغاني).

٤- النيل من رسول الله: والانتقاص من مكانته ومثاله على ذلك ما جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: «خطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله ﷺ بالمدينة، فقال: تبا لهم! إنّما يطوفون بأعواد ورمّة بالية! هلاً طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟! ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خير من رسوله؟!»^(١).

ونجد أنّ جذور ذلك تعود إلى ما قبل الحجاج، ففي شرح النهج أيضاً: (روى الزبير بن بكار في الموفقيات، وهو غير متّهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبة عليّ عليه السلام، والانحراف عنه: قال المطرف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي عليّ معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدّث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيتُه مغتمّاً فانتظرتُه ساعة، وظننت أنّه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به. إنك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إختوك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٢٤٢.

كبشة ليُصاح به كلَّ يوم خمس مرات: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فأبي عملٍ يبقى وأيُّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبالك! لا والله إلا دفناً دفناً^(١). ومن الواضح أنّ الانتقاص من مكانة النبيّ تهدف فيما تهدف إليه التقليل من شأن ما جاء به وسُنّته وتعاليمه وهديّه.

٥- محاربة خطّ أهل البيت عليهم السلام: فهم حَمَلَةٌ علم رسول الله ﷺ، وقد أوصى النبيّ بهم مراراً وتكراراً، ولا سيما عليّاً عليه السلام باب مدينة علم رسول الله، وقد تفنّن بنو أميّة في قتلهم ومحاربتهم والتضييق عليهم وتشويه صورتهم بشتّى الطرق، حتى بلغ الأمر درجة الخوف من ذكر اسم عليّ، أو تسمية الأبناء باسمه!

ففي (مختصر تاريخ دمشق) لابن عساکر: «وكان اسمه عليّاً وكان يحرّج عليّ من سَمَاهُ عليّاً بالتصغير... وكان يقول: لا أجعل في حلٍّ من سَمَانِي عليّاً فإنَّ اسمي عليّ. قال أبو عبد الرحمن المقرئ: كانت بنو أميّة إذا سمعوا بمولود اسمه عليّ قتلوه، فبلغ ذلك رباحاً فقال: هو عليّ»^(٢).

وفي (المناقب) لابن المغازلي: «أخبرنا معمر عن الزهري عن عكرمة عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله ﻻ يمنع بني إسرائيل قطر السماء بسوء رأيهم في أنبيائهم واختلافهم في دينهم، وإنه أخذ هذه الأمة بالسنين ومانعهم قطر السماء بيبغضهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام. قال معمر: حدّثني الزهري وقد حدّثني في مرضة مرضها ولم أسمعها يحدث عن عكرمة قبلها أحسبه ولا بعدها، فلمّا بلّ من مرضه ندم، فقال لي: يا يمانِي أكتُم هذا الحديث واطوّه دوني، فإنَّ هؤلاء - يعني بني أميّة - لا يعذرون أحداً في تقرّيب عليّ، وذكره، قلت: فما بالك

(١) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) ابن عساکر: مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢٣٦٥.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
أوعبت مع القوم يا أبا بكر وقد سمعت الذي سمعت؟ قال: حسبك يا هذا إنهم
شركونا في لهاهم فانحططنا لهم في أهوائهم»^(١).

وهكذا قاموا بقتل وإيذاء وتهجير كل من اشتبه على أنه يوالي علياً، وسيأتي
ذكر بعض ذلك في بحوث لاحقة، فلا أكرّر.

٦- محاولة القضاء على مراكز العلم: كالمدينة ومكة والكوفة، والتضييق
عليها مالياً، والحدّ من شأنها، ففي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:
«وطيبة اسم المدينة، كان اسمها يثرب، فسماها رسول الله ﷺ طيبة.
ومما أكفر الناس به يزيد بن معاوية أنه سماها خبيثة مراغمة لرسول
الله ﷺ»^(٢).

وفي (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة الدينوري: «قال أبو معشر: قال لي رجل:
بيننا أنا في بعض أسواق الشام، إذا برجل ضخم، فقال لي: ممن أنت؟ قلت: رجل
من أهل المدينة، قال: من أهل الخبيثة؟ قال: فقلت له: سبحان الله، رسول الله
ﷺ سماها طيبة وسميتها خبيثة؟!»^(٣) ثم يحكي الرجل الضخم قصة مشاركته
في غزو المدينة وانتهاك حرمتها بأمر يزيد، وقتل الصحابة والتابعين والأهالي
العزل في وقعة الحرّة. ويأتي الأمر بانتهاك حرمة مكة المكرمة أثناء ثورة ابن
الزبير وهدم الكعبة وقتل المتحصّنين بها كحلقة أخرى في سلسلة ممارسات
بني أمية الإجرامية بحقّ الحرمين الشريفين.. وتكرّر المشهد أيام الحجاج أيضاً،
حيث عاد وهدم الكعبة بعد أن رمّمها ابن الزبير، لينبئها كما يريد هو وساداته!

(١) ابن المغازلي: المناقب، ح ١٨٦.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ٢٣٨.

(٣) م.ن، ج ٩، ص ٢٣٨.

• الإمام الحسين يشير إلى هذا الإفساد

وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام في بعض كلماته في نهضته إلى جانب من هذا الإفساد الفكري الذي مارسه الأمويون وبيان آثاره الفكرية والعملية على القوم الذين نكثوا عهودهم، أو انقلبوا عليه فقدموا لقتله، بعد أن صار المعروف عندهم منكراً والمنكر معروفاً، وبعد أن ضاعت معالم الدين في تصوراتهم، وتخلّوا عن مسؤولياتهم. وفيما قاله: «تبا لكم أيّتها الجماعة وترحاً، استصرختمونا واليهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصح لكم فيهم فهلا لكم الويلات تركتمونا والسيف مشيم (في غمده) والجأش طامن والرأي لما يُستحصف (لم يُحسم بعد) ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا وتداعيتم إليها كتهافت الفراش. فسحقاً يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ومحرّفي الكلم وعصبة الآثام ونفثة الشيطان ومطفئي السنن، أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون؟ أجل والله الغدر فيكم قديم وشجّت إليه أصولكم (التفت وتشابكت) وتأزّرت عليه فروعكم فكنتم أخبث ثمر شجّي للناظر وأكلة للغاصب. ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيئات منا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»^(١).

وهو تصوير رائع لمدى تأثير ذلك الإفساد الفكري على القوم حتى عاشوا تلك الردّة والمسوخ الحضاري، فوقفوا ذلك الموقف، وسيدفعهم لارتكاب جرائمهم الكبرى التي شملت أكثر صور الخزي والعار لفعل يمكن أن يرتكبه

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢٣٨.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * —————

أحد بالتمثيل في الجثث الطاهرة، وقطع الرؤوس وحملها على الأستة، وقتل الأطفال والنساء، وأسر آل بيت النبوة وغير ذلك من فظائع يندى لها الجبين، ولم يكن يُقدّم عليها الجاهليون.

وقد روي عن علي عليه السلام قوله قبل بدء معركة صفين: «لَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَّيْنَ أُمَّرَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقَوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لَنُؤْمِرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمْشَرِكَاتٌ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ (الحجر الذي يكون بحجم الكف) أَوْ الْهَرَاوَةَ فَيَعْيِرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ»^(١).

وفي ليلة عاشوراء تحدّث الإمام الحسين عليه السلام بما يتضمّن نفس الفكرة التي تؤكّد استحكام ذلك الفساد الفكري عند الناس، ففي (مجمع الزوائد) للهيثمي: «لما نزل عمر بن سعد بالحسين وأيقن أنّهم قاتلوه قام في أصحابه خطيباً فحمد الله وعجل وأثنى عليه ثم قال: قد نزل ما ترون من الأمر، وإنّ الدنيا تغيّرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمر حتى لم يبقَ منها إلا صبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون الحقّ لا يُعمل به والباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله فإنّي لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً»^(٢).

فقد أوضح عليه السلام أنّ الدنيا تغيّرت عما كان يُفترض أن تكون عليه بعد كلّ تلك الجهود التي بذلها النبي صلى الله عليه وآله والتضحيات التي قدّمها وصحبه من أجل تمكين الإسلام فكراً وعملاً، وبالتالي فقد أنكرت وأدبر معروفها، بحيث صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً، ولا بدّ من إصلاح ما فسد وتقويم ما اعوجّ، وإن أدّى ذلك إلى الشهادة، وهو ما عبّر عنه بقوله عليه السلام: «ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً».

(١) نهج البلاغة، الكتاب ١٤.

(٢) ابن طاووس: اللهوف في قتلى الطفوف، ص ٥٨-٥٩.

وما هو إلا نتاج ذلك الإفساد الفكري الذي مارسه الأمويون حتى تحقق ما قد حذر منه النبي من قبل، ففي (كنز العمال) للمتقي الهندي: «عن أبي أمامة عن النبي ﷺ: كَيْفَ بَكْم إِذَا طَغَى نَسَاؤُكُمْ وَفَسَقَ شُبَّانُكُمْ وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ؟ قَالُوا: وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ. قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ مُنْكَرٍ؟ قَالُوا: وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ. قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ؟ قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟ قَالُوا: وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ. قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بِي حَلَفْتُ لِأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الْحَلِيمُ فِيهَا حَيْرَانٌ»^(١).

أحياناً كثيرة تكون مشكلة الواقع الذي نعيشه أن الأمور تختلط فيه علينا من خلال الإفساد أو الفساد المفاهيمي الذي يؤدي إلى انقلاب المقاييس، فيصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً، ويصبح دعاة الإصلاح في عزلة، وليتغنى به حتى أولئك الذين زرعو الفساد في كل مكان! وعلى سنة فرعون!

مثل هذا التشويه يحتاج إلى عملية جراحية لإعادة توظيف الإمكانيات في الخطط التي من شأنها إعادة إنتاج الأمة، ليكون لها رصيدها بين الأمم بعدما شوّه المفسدون صورتها وهددوا مستقبلها.



(١) الهيثمي: مجمع الزوائد، ج ٩، ص ١٩٢.



مسؤولية الإصلاح



﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦-١١٧]. جعل الله من واجبات الصالحين في كل أمة النهي عن الفساد، وبالتالي فانتشار الفساد في أمة يدل على تقصير صالحيها في حق مجتمعهم.

فالآية تقرّر بأنه كان المطلوب أن يكون من الأقسام التي عاشت في القرون السالفة جماعة عبّرت عنهم الآية بقولها: ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أي جماعة جاءت بعدهم، وأفرادها يتحمّلون مسؤوليتهم وبالتالي ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ولكن لم يحدث ذلك، فقد تبع الخلف السلف في طغيانه وتمرّده في عملية الفساد والإفساد أو السكوت عنه أو الرضا به.

نعم هناك استثناء بسيط: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ من الأنبياء والمؤمنين الذين اتبعوهم في الإيمان بالرسالة وجاهدوا في سبيل الله، وهؤلاء يمثلون القلّة في المجتمع الذي سيطر عليه المترّفون بكفرهم وضلالهم، ممّن ظلموا أنفسهم ومّن حولهم من الناس، والحياة التي تحيط بهم.

أما الصورة الغالبة فكانت بحيث استمر الفساد ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ حيث كانت وفرة النعم المادية والمعنوية عاملاً للمزيد من الإفساد على الصعيد الإيماني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والشخصي بما يرتبط بالشهوات.

وقد كان هذا الإفساد في الأرض والإعراض عن جهود الإصلاح جريمة: ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وهي جريمة بشعة لأنه يمثل الاعتداء على الحياة بكل روحيتها وعمقها الإنساني والمادي وامتدادها الرسالي نحو الله.

إنّ إنزال العذاب بالأمم المفسدة - بالنسبة إلى الله - لا يمثل انتقاماً شخصياً أو نابعاً من انفعال أو من عقدة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لأنّ من الخطأ أن تتصوّر أنّ الله عز وجل يتعامل مع عباده في سلوكهم وممارساتهم، كما يتعامل الحاكمون الذين يقسون على رعيتهم من موقع العقدة الذاتية التي تتلذذ بعذاب الآخرين وترتاح بظهور الألم في حياتهم، وتشعر بالعظمة أمام مشاريع هلاكهم، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

إنّ الله غنيّ عن ذلك كلّهُ، فهو الخالق والرازق والمنعم، الذي يملك القوّة كلّها، وهو الرحيم بعباده، وهو الحكيم الذي لا يتصرّف إلاّ وفق الحكمة في الثواب والعقاب فلا يعاقب إلا على أساس ما يمثله العقاب من مصلحة للإنسان، وسلامة للحياة، وذلك في الحالات التي يستسلم فيها الناس للتمرد والعصيان والطغيان والانحراف، والإفساد لحياة الناس، فإنّ العقاب يمثل حالة رادعة، ومعاملة للمسيء بما يستحقّ من عذاب، بينما يمثل الثواب تكريم المحسن بما يستحقّ من نعيم، وإلا كان المحسن والمسيء بمنزلةٍ سواء، وليس هذا من العدل في شيء، والله هو العدل.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

إنّ الناس إذا كانوا مصلحين في فكرهم وعملهم، فإنّ الله لا يمكن أن يعاقبهم لأنّهم لم يرتكبوا ذنباً يُعاقبون عليه، بل عملوا عملاً يُثابون عليه، فيكون العقاب في هذه الحال ظلماً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولربما كانت العقوبة في أغلب الأحيان تتمثل في تحقيق الإنسان لمقدمات المعادلات السنّية التي أودعها الله في المجتمعات البشرية، فحين يُترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مثلاً - فإنّه من الطبيعي أن يتقدّم المفسدون في مواقعهم وتتعاظم قوّتهم، الأمر الذي يجعل لحوق الدمار بمجتمعهم على الصعيد الإداري والسياسي والبنية التحتية والعدالة الاجتماعيّة والقضاء وحقوق الناس أمراً بديهياً تحت وطأة كلّ مشاريع الإفساد التي لا تجد ما يمنع تضخّمها وزيادة قوّتها التدميرية. وبالتالي يكون فهمنا للتعبير الوارد في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ وفق هذا السياق الطبيعي لتسلسل مجريات الأمور نحو سوء العاقبة العامّة لهذا المجتمع.

• مواجهة الإفساد بالقوة

وفي إطار تحمّل هذه الفئة ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ لمسؤوليّتها في مواجهة الفساد والإفساد، قد تصل الأمور إلى حدّ الاضطرار إلى المواجهة والقتال: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿[الحج: ٤٠-٤١]. ولنتوقّف قليلاً عند دلالات هذه الآية.

للشعر سنّة على طول التاريخ، تقتضي اندفاعهم الفطري لمواجهة الأخطار التي تهدّد مصالحهم الخاصّة والعامّة.

ليالي عَاشُورَاءُ ❁

وهذا الاندفاع الفطري ليس بالضرورة أن يكون بصورة القتال، بل بكلِّ الوسائل الفكرية والعملية التي يستخدمها الناس في ساحات الصراع، من قبيل عقد التحالفات الضاغطة على الطرف المعادي، والحرب الإعلامية، والتحرّكات الدبلوماسية، وحرب الفيروسات الإلكترونية.. الخ. والآية لا تتحدّث عن اندفاع المؤمنين فقط للدفاع عن دينهم ومقدّساتهم، وإن كان هذا من أوضح مصاديق الآية ولا سيما بلحاظ سياقها حيث قال: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ...﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]، بل تشمل صور الصراع بين القوى الكبرى، أو بين بعض الدول الكافرة فيما بينها، ليصبَّ ذلك في مصلحة انشغالهم عن المؤمنين وعن مواجهة الدعوة الإيمانية، كما يُقال في الدعاء: «اللهم اشغل الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين».

لقد كانت إرادة الله تقتضي عدم حصر القوّة في قطب واحدٍ في الحياة، ليدفع بعضهم عن بعضهم الآخر، ولذا كانت لدينا إلى فترة قريبة قوتان: الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفييتي، دفع كلّ منهما الآخر عن مواطن للتدمير والإفساد في الأرض لتضارب مصالحهما، ولذا كانت بعض الدول العربية مثلاً تلجأ إلى الاتّحاد السوفييتي في مواجهة الدعم الأميركي للكيان الصهيوني في حروبه.

وعندما نفذت الولايات المتّحدة الأميركية إلى الاتّحاد السوفيتي في نقاط ضعفه الاقتصادية والمخابراتية هزمت، وسقطت دولة عظمى، وبدأ الحديث عن عامل أحادي القطب تفعل به الولايات المتّحدة ما شاءت.. ولكن سرعان ما تغيّرت الأمور بعوامل عديدة عسكرية وأمنية وسياسية واقتصادية أظهرت عجز هذه الدولة العظمى عن تنفيذ ما شاءت، وتمّ دفعها في أكثر من موقع فلم تحقّق أجندها كما أرادت.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

ولذا فإنّ القوى العظمى عندما تتعاضم في بعض المواقع، سيكون إلى جانبها قوى قد تكون أقلّ عظمةً منها في ميزان الكثرة العددية أو في ميزان النوعية، ولكنها تمنعها من أن تأخذ حرّيتها في ما تريده من عمليات الفساد والتخريب والهدم، وما إلى ذلك.. وهذا من سنن الله.

ومن جهة أخرى بما أنّ أيّ قوى يخترن في داخله عناصر ضعف، وأيّ ضعيف يخترن في داخله مواقع قوّة، ولذا يلجأ الضعيف لاستخدام هذه وتلك لينتصر على القويّ: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقد استفاد الفلسطينيون في العدوان الصهيوني على غزة عام ٢٠١٢ م من هذه المعادلة، وسرعان ما تحرّك الصهاينة دبلوماسياً من أجل إيقاف الصواريخ التي فاجأتهم في تل أبيب.. وهكذا كان الأمر في ٢٠٠٦ م مع المقاومة في لبنان.. فلكلّ قوى نقاط ضعف.. ولكلّ ضعيف نقاط قوة.

وكأنّ الآية تقول: أيّها الناس، لا تستسلموا لمن يملك القوّة، لأنّ الله لم يمنحه القوّة المطلقة، لقد أعطاكم قوّة فلا تهملوها، ولا تغفلوها، بل حاولوا أن تحرّكوها في مواجهة الضعف الذي عند العدو. إنّ هذا الإيحاء من الآية لا بدّ أن نستفيد منه في الحركة السياسيّة والأمنيّة وحتى الاقتصاديّة.

ولذلك كان تشريع القتال منسجماً مع هذه السُنّة التي فطر الله الطبيعة الإنسانيّة عليها، فقد أودع في الإنسان الكثير من الحوافز الغرائزية التي تتحفّز لمواجهة أيّ خطر من الآخرين يهدّد الذات، بتعطيل أو إرباك أيّ مرفق من مرافق حياتها، أو بالتأثير على أيّة مصلحةٍ من مصالحها، لتستمرّ الحياة الاجتماعية للناس في نظامٍ دفاعيٍّ ذاتيٍّ متوازن.

وإذ كانت هذه الطبيعة الإنسانية قابلة للانحراف، وبالتالي فإنّها قد تدفع

الإنسان للقتال بغياً وعدواناً، لا للدفاع عن الذات والحق، فقد أكد الله على ضرورة القتال على أساس القيم الإنسانية الروحية التي تحرّكه في الاتجاه الصحيح، الذي يحمي الإنسان، ويمنعه من البغي والعدوان، ويوظف النصر بما يحقق للبشرية الخير عندما تسير وفق شرع الله، وتلتزم بأوامره وتنتهي عن نواهيهِ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ بما يشمل عنوان المعروف والمنكر من مصاديق كثيرة ترتبط بالحياة كلّها، سواء على المستوى الديني أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو العلمي أو الثقافي.. وليس على المستوى الفردي فقط.

إنّ ذكر خصوص الصوامع والبيع والصلوات والمساجد فيما يُدافع عنه في هذا الصراع لربما يشير إلى أنّ الله يؤكّد ضمناً على أنّ ما تعانيه البشرية من كلّ صور الفساد والظلم والصراعات الباطلة يأتي في المقام الأول بسبب ابتعاد الإنسان عن الله، فتلك الأمكنة العبادية هي المنوط بها هداية الناس عبر التاريخ إلى الله عقيدةً وشريعةً ومسلماً، وزوالها يعني زوال منابع الهداية عند البشرية، وبالتالي الإمعان في الفساد والظلم والصراع بالباطل، ولذا كان من سنّة الله أن يدفع الناس بعضهم ببعض بكلّ صور الدفع لتبقى مواقع الهداية قائمة حيّة وفاعلة ومؤثرة.

ولئن صدق البعض في نصر الله، فإنّ الله ينصره، سواء في المواجهة الميدانية مع قوى الكفر، أو من خلال امتداد تأثير تلك المواجهة مع قوى الكفر على سائر الناس أو عبر الزمن ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ وفي هذا التعبير تأكيد مكرّر لئلا يتغلغل إلى قلب الإنسان أيّ نوع من الشك في ذلك.

وليعلم الإنسان الحقيقة التالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فلا يستطيع أحد منعه من تحقيق ما يريد، لأنّه المهيمن على كلّ شيء، وقوته هي القوّة المطلقة التي لا

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

* تقف عند حدّ، ولا يملك أحد أن يقف أمام إرادته، في ما يحكم به أو يقدره، لأنّه العزيز الذي لا يستطيع أحد أن ينتقص من عزّته شيئاً.

• الإمام الحسين والإصلاح بالقوة

ومن هنا كانت حركة الحسين عليه السلام هي صورة من صور الاستجابة لمضمون هذه الآيات القرآنية، في مواجهة كلّ الفساد الفكري والعملي والروحي وكلّ الظلم وكلّ القهر وكلّ القتل الذي كان يُمارَس من قبل الأمويّين وأعدائهم، ولولا هذا الدفع الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام من خلال يوم عاشوراء، لما بقي للدين باقية، ولزالت صورة الإسلام عند الناس بمرور الوقت من خلال المشروع الأمويّ الذي ما استكان لحظة في طريق تحقيق هذا المخطّط الشيطاني.

وقد نصر الله القويّ العزيز الحسين عليه السلام حين نصره، وإن استشهد ومن معه في ساحة المعركة، وذلك من خلال التأثير الكبير لثورته على الناس، والصدمة التي صدم بها الواقع، فنهضت الأمة لتراجع نفسها، وتنتفض من موقعٍ إلى آخر ضدّ صور الفساد والإفساد والظلم والتلاعب بالدين والمقدّرات.

كما نصر الله القويّ العزيز الحسين حين نصره، من خلال هذا الامتداد الزمنيّ للنهضة الحسينيّة، فصارت مشعلاً للثورات والثائرين، وعنواناً بارزاً من عناوين صراع الحقّ مع الباطل.

• ثورات متلاحقة

ولنأخذ أمثلة من تلك الثورات التي هزّت كيان الأمويّين:

١- ثورة أهل المدينة: وهي التي خرج فيها الصحابة والتابعون في المدينة المنورة على يزيد بن معاوية وخلعوه بعد السنة التي قُتل فيها الحسين عليه السلام، وقد بين عبد الله ابن الصحابي حنظلة الملقب بغسيل



ليالي عَاشُورَاءَ

الملائكة - كما ينقل ابن عساكر في (تاريخ مدينة دمشق) - علة هذا الخروج بقوله: «لما وثب أهل المدينة ليالي الحرّة فأخرجوا بني أمية عن المدينة وأظهروا عيب يزيد بن معاوية وخلافه، اجمعوا على عبد الله بن حنظلة فأسندوا أمرهم إليه فبايعهم على الموت وقال: يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء!! إن رجلاً ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر ويدع الصلاة. والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسناً. فتوائب الناس يومئذ يبايعون من كل النواحي، وما كان لعبد الله بن حنظلة تلك الليالي مبيت إلا المسجد، وما كان يزيد على شربة من سويق (طعام يُتخذ من القمح كالعصيدة) يفطر عليها إلى مثلها من الغد يُؤتى بها في المسجد، يصوم الدهر وما رُئي رافعاً رأسه إلى السماء إخباتاً. فلما دنا أهل الشام من وادي القرى صلى عبد الله بن حنظلة بالناس الظهر ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنما خرجتم غضباً لدينكم فأبلوا لله بلاءً حسناً ليوجب لكم به مغفرته ويحلّ به عليكم رضوانه»^(١).

وقد أرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة الذي دخل المدينة واستباحها لمدة ثلاثة أيام، وانتهك الأعراض حتى قيل إنّه افتضت فيها ألف عذراء، وذكر العيني في كتابه (عمدة القاري) أنّه: «ولدت ألف امرأة من أهل المدينة من غير زوج»^(٢)! وقد قُتل في هذه الواقعة خلق كثير، سبعمائة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، وشملت إبادة من حضر من البدرين بالكامل. واختلفت في عدد من قُتل

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٧، ص ٤٢٩.

(٢) العيني الحنفي: عمدة القاري، ج ١٧، ص ٢٦.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

من سائر الناس، فقيل أربعة آلاف، وقيل إنه أُبِيدَ من الموالي والعرب عشرة آلاف!

قال ابن كثير في (البداية والنهاية): «فدخل مسلم بن عقبة المدينة فدعا الناس للبيعة على أَنَّهُمْ حَوْلُ (عبيد وخدم) ليزيد بن معاوية، ويحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء... وقد أخطأ يزيد خطأ فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش، مع ما انضمَّ إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم، وقد تقدّم أَنَّهُ قتل الحسين وأصحابه على يَدَيْ عُبيد الله بن زياد. وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يُحَدِّد ولا يوصف، ممّا لا يعلمه إلا الله ﷻ، وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه الله بنقيض قصده، وحال بينه وبين ما يشتهي، فقصمه الله قاصم الجبابرة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد. قال البخاري في صحيحه... عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص عن أبيها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء. وقد رواه مسلم من حديث أبي عبد الله القراظ المدني، واسمه دينار، عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح في الماء»^(١).

٢- ثورة التوّابين: تفجّرت هذه الثورة سنة ٦٥ هـ بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي، وكان شعارهم (يا لثارات الحسين) فقد خرجوا بعد مقتل الإمام الحسين ﷺ إعلاناً للندم على عدم نصرته، وتمرداً على الواقع البائس الذي ترتّب على استكبار بني أمية وفسادهم وإفسادهم، فقاتلوا الجيش الأموي بمنطقة (عين الوردية) القريبة من (الرقّة) في الشام، حتى استشهدوا.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٤٣-٢٤٤.

ومن خلال قراءة تفاصيل أحداث ما بعد واقعة الطف يتبين أن مجموعة من أهل الكوفة بدأت تجتمع بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام مباشرة في إطار من السرية التامة، في حالة من النقد الذاتي، وذلك لمحاسبة أنفسهم على التقصير الذي أظهوره إزاء الحسين عليه السلام، والتشاور على كيفية التكفير عن الذنب وغسل العار الذي لحق بهم نتيجة هذا التخاذل، فتزعم التحرك الشيعي حينئذ خمسة من كبار الزعماء الكوفيين المتقدمين في السن، الذين ارتبطوا تاريخياً بالإمام علي عليه السلام وآله، وهم: سليمان بن صرد الخزاعي، المسيب بن نجبه الفزاري، عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، عبد الله بن وال التميمي، رفاعة بن شداد البجلي.

فبدأوا يمارسون نشاطهم في الخفاء، ويبشرون بدعوتهم الانتقامية في أوساط الشيعة، بعيداً عن مراقبة السلطة وجواسيسها المنتشرين في كل مكان، وشكلوا تجمعاً سرّياً من نحو مائة معارض، ولم يلبث ذلك التجمع حتى تحوّل إلى معارضة شيعية كبرى تحمل عنوان (التوابين). وقد صارت هذه التسمية هي الغالبة على حركة سليمان ورفاقه، انطلاقاً من الآية الكريمة التي أصبحت شعارهم: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

جمع سليمان بن صرد الخزاعي أنصاره في منطقة النخيلة، في الخامس من ربيع الثاني ٦٥هـ، ثم سار بهم إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام، وكان عددهم يقارب أربعة آلاف رجل، فما أن وصلوا إلى القبر الشريف، حتى صاحوا صيحة واحدة، وازدحموا حول القبر، فما رؤي أكثر باكياً من ذلك اليوم، فترحموا عليه، وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال، وتجديد العهد معه. تحرك القائد سليمان بن صرد - بعد زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام، وتجديد العهد معه - مع جنده قاصدين

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

الشام، فوصلوا إلى الأنبار، ومنها إلى القيارة وهيت، ثم إلى قرقيسيا - وهي بلدة على مصب نهر الخابور في الفرات - وبعدها منطقة عين الوردة.

وفي الثاني والعشرين من جمادى الأولى ٦٥ هـ، دارت في منطقة عين الوردة رحى الحرب بينهم وبين جند الشام، وأبلى التّوّابون بلاءً حسناً، فكان لهم التّصّر أول الأمر، غير أنّ ابن زياد سرعان ما أمّد جيش الشام باثني عشر ألفاً بقيادة الحصين بن نمير، ثمّ بثمانية آلاف بقيادة شرحبيل بن ذي الكلاع، فأحاطوا بالتّوّابين من كلّ جانب، فلمّا رأى سليمان ما يلقي أصحابه من شدّة، ترجّل عن فرسه، وهو يومئذٍ في الثالثة والتسعين من عمره، وكسر جفن سيفه وصاح بأصحابه: يا عباد الله، من أراد البكور إلى ربّه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده، فليأت إليّ. فاستجاب له الكثيرون، وحذوا حذوه، وكسروا جفون سيوفهم، وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، حتّى أصيب زعيمهم سليمان بسهم، فوقع وهو يقول: فزت وربّ الكعبة. وحمل الراية بعده المسيّب بن نجبة، فقاتل بها حتّى استشهد، بعد جهود مستميتة، وتبعه بقية القوّاد وعدد كبير من المقاتلين، باستثناء رفاعه بن شدّاد الذي اعترف بالهزيمة وأدرك عدم جدوى القتال، وكانت القيادة قد انتقلت إليه، فأصدر أوامره سرّاً إلى البقية الباقية من التّوّابين بالانسحاب والتراجع. وتمّت عملية التراجع بنجاح، وابتعد التّوّابون المنسحبون عن ميدان المعركة، وأصبحوا في منأى عن مطاردة الجيش الأموي.

٣- ثورة المختار: كانت بعد عام من ثورة التّوابين، أي في سنة ٦٦ هـ، قادها المختار بن عبيد الله الثقفي في الكوفة، رافعاً شعار (يا لثارات الحسين)، واستطاع من خلالها قتل قتلة الحسين عليه السلام، كعمر بن سعد وعبيد الله بن زياد وحرملة بن كاهل الأسدي وشمير بن ذي الجوشن. بالإضافة إلى السيطرة على الكوفة وأنحاء أخرى من العراق لمدة سنتين تقريباً.

وفي تلك الأثناء كان عبدالله بن الزبير قد انتفض على الأمويين، واستفحل أمره في الجزيرة العربية، فولّى سنة ٦٧ هـ أخاه مصعباً على العراق، وطلب منه أن لا يبقى للمختار وأصحابه باقية فيها. ووقع القتال في البصرة بين مصعب وقوة تابعة للمختار، فانتصر الأول، وتوجه نحو الكوفة، وحاصر المختار في قصره لأربعة أشهر، انتهت بمقتله وقطع رأسه، في الرابع عشر من رمضان سنة ٦٧ هـ.

وهكذا توالى الثورات كثورة زيد بن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في الكوفة سنة ١٢١ هـ ضدّ هشام بن عبدالملك حيث بلغ تردّي الأوضاع وانتشار الظلم والفساد والفقر وبذخ الحكّام مبلغاً لا يُطاق، مما حدا بزيد الشهيد للقيام بثورته، ثم ثورة يحيى ابنه، وكانت سنة ١٢٥ هـ بعد مقتل أبيه زيد، وقد أقبل إليه جيش الأمويين وهو مقيم بأبرشهر القريبة من مدينة مشهد الحالية، فقاتلهم يحيى وما معه إلا سبعون فارساً فقتل قائدهم وانهزموا، ثم انتقل إلى نواح من أفغانستان الحالية، فقاتله جيش آخر حتى استشهد يحيى بعد قتال دام ثلاثة أيام، وثورة عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب أبان حكم إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك بن مروان، وثورة عبدالرحمن بن الأشعث أبان حكم عبدالملك بن مروان.

وكان للخوارج نصيبهم من الثورات أيضاً، تارة بقيادة نجدة ابن عامر في البحرين واليامة فُقتل سنة ٦٢ هـ، ونافع بن الأزرق المقتول بالبصرة سنة ٦٥ هـ، وعبد الله بن الماحوز المقتول بالأهواز بعد هزيمته سنة ٦٦ هـ، وقطري المازني المقتول سنة ٧٧ هـ، وسواهم من قادة الخوارج.

كما شهد البيت الأموي ثورات داخلية، كثورة الضحّاك بن قيس الفهري في محاولته للاستقلال عن حكم بني أميّة، وعمرو بن سعيد الأشدق الخارج على عبد الملك بن مروان عام ٦٩ هـ، وسلم بن زياد الذي دعا إلى البيعة لنفسه عام

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * —————

٦٥ هـ بخراسان، ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة الخارج على يزيد بن عبد الملك بن مروان وقتل سنة ١٠٢ هـ^(١).

• هزيمة عسكرية أم انتصار خالد؟

وللدكتور يوسف سعادة في كتابه (الجهاد بين النظرية والتطبيق) تعبير جميل في المقام قال: «لم يعرف التاريخ هزيمة كان لها الأثر لصالح المهزومين كما كان لدم الحسين. فانهزم الحسين في كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده، ولكّنه ترك الدعوة التي قام بها مُلك العباسيين والفاطميين، وتعلّل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين، واستظّل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود والروم، ومثّل للناس في حلة من النور تخشع لها الأبصار. وباء بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بني الإنسان، غير مستثنى منهم عربي ولا أعجمي، ولا قديم ولا حديث. فقد أثار مقتله ثورة ابن الزبير وخروج المختار وانقضى الأمر إلى ثورات أخرى حتى زالت الدولة الأموية، بعد أن صارت (ثارات الحسين) هي الصرخة المدوية لتدكّ العروش وتزيل الدول. فأصبحت هذه الثارات نداء كلّ دولة تفتح لها طريقاً إلى الأسماع والقلوب. وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء، فإذا بالدولة العريضة تذهب في عمر رجل واحد مديد الأيام، وإذا بالغالب في يوم كربلاء أخسر من المغلوب إذا وضعت الأعمار المنزوعة في الكفّتين. والثورات التي اعتمدت ثورة الحسين عليه السلام طريقاً لها وتأثراً بها لا تُعدّ ولا تُحصى»^(٢).



(١) للمزيد طالع كتاب: الجهاد بين النظرية والتطبيق للدكتور يوسف جعفر سعادة.

(٢) يوسف سعادة: الجهاد بين النظرية والتطبيق، ص ٢٣٠.



القائمون على الإصلاح



كيف يتحقّق الإصلاح في المجالات المختلفة؟ ومن الذي يأخذ بزمام المبادرة؟ ومن الذي يقود عملية الإصلاح؟

عندما نعود إلى النصوص القرآنية نجد أنّ الأنبياء، كالنبي صالح والنبي لوط والنبي شعيب والنبي يونس عليه السلام أخذوا على عاتقهم مسؤولية الإصلاح، وقد يوفّقون لذلك كما جرى للنبي يونس عليه السلام، ولربما تؤتي عملية الإصلاح ثمارها في جيلٍ لاحق كما جرى للنبي موسى عليه السلام مع بني إسرائيل حيث استدعى الأمر الكون في التيه أربعين سنة حتى يأتي الجيل الجديد الذي سيتحمّل مسؤولياته، ولربما لا تسمح لبعض الأنبياء الظروف، ويواجهون بالعنف والقوة حتى تصل الأمور إلى درجة القضاء عليهم قتلاً كالنبي يحيى عليه السلام، أو محاولة ذلك كما حصل مع النبي عيسى عليه السلام، أو نزول العذاب السماوي الذي يستأصل ذلك المجتمع الفاسد كما جرى لقوم النبي لوط عليه السلام.. مع التأكيد على أنّ عملية الاستئصال هذه تُعتبر حالات استثنائية، وقد انتهى زمانها بانتها زمن المعاجز التي كان يأتي بها الأنبياء في مقام التحدي.

• الإصلاح مسؤولية الجميع

فهل هذا يعني أنّ مسؤولية الإصلاح منحصرة فيهم، بحيث إنّهم هم المكلفون بذلك دون غيرهم، وبحيث إنّهم لو لم يتحمّلوا هذه المسؤولية فقد سقط التكليف عن الجميع؟

المسألة ليست بهذه الصورة، فبعض الأفراد خارج دائرة النبوة كذي القرنين تحمّل هذه المسؤولية، وقد تناولنا جانباً من ذلك في بحث سابق، ولربّما كانت دلالة الآية التالية تشير إلى حقيقة عموم المسؤولية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. باعتبار الإصلاح من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومصاديقه.

وهكذا نجد قول النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١)، ومن ضمن هذه المسؤوليات تأتي مسؤولية إصلاح المجتمع.. وفي نصّ نبويّ آخر: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَيْنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيَسْلُطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شَرَارَكُمْ، فَلَيْسُوا مِنْكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَيْنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا يَرَحْمُ صَغِيرَكُمْ، وَلَا يُوقِرُ كَبِيرَكُمْ»^(٢).

ومن الواضح أنّ الفساد من صور المنكر بمعناه الواسع الذي لا يتوقّف عند حدّ المعاصي الفردية المرتبطة بشرب الخمر والزنا وعدم الصلاة. وهو ما تضمّنته كلمة الحسين عليه السلام: «وإنّما خرجتُ لطلبِ النّجاحِ والصّلاحِ في أمةِ جدّي مُحَمَّدٍ ﷺ أريدُ أنْ أمرَ بالمعروفِ وأنهى عن المنكرِ وأسيرَ بسيرةِ جدّي مُحَمَّدٍ ﷺ وَسِيرَةَ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ»^(٣).

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٨.

(٢) ابن أبي الدنيا: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٨.

(٣) أحمد بن أعثم: الفتوح، ج ٥، ص ٢٠.

وهناك نصوص أخرى في مصادر الثقافة الإسلامية تؤكد على تحمّل الجميع هذه المسؤولية، وعدم قصرها على طبقة معيّنة. ولكن المشهود أنّ غالبية المشاريع الإصلاحية الواسعة انطلقت - وما زالت تنطلق - من خلال قيادة دينية (نبيّ، وصيّ، عالم دين) ولربما يعود ذلك إلى أنّ عملية الإصلاح تحتاج إلى شخصية تتمتع بمواصفات معيّنة من قبيل العلم والحكمة والشجاعة والإقدام والإخلاص، وحتى الزهد بالدنيا، وهي عادةً لا تجتمع في كلّ أحد.

قد يقال، نجد في الساحة المعاصرة بعض الأحزاب تقوم بهذا الدور أحياناً، كما لربما يقال إنّ «ثورات» الربيع العربي برهنت على أنّ الشعوب أيضاً قادرة على الإصلاح.

ولكن يبدو أنّ غالبية الأحزاب في بدء تشكّلها تقوم على يد شخصية متميّزة (دينيّة أو حقوقيّة) وهي تنهل من رؤاه أو تنطلق من مشروعه الإصلاحية في الأساس، ثم تبني على ذلك وتعيّنه وتستمرّ من بعده في هذا الاتجاه ولربما تنحرف لاحقاً، وتحوّل إلى عامل جديد للفساد والإفساد بدلاً من الإصلاح.

وأما الثورات الشعبية التي لا تنطلق من قيادة واضحة بل تأتي عشوائية كردّة فعل ثم تقودها مجاميع تختلف في رؤاها ومشاريعها وتتفق في مواجهة الوضع الفاسد، فتشكّل الخطوة الأولى والمهمّة للإصلاح، ولكنها لا تمثل العملية الإصلاحية ككلّ، ولذا سرعان ما تتحوّل الأمور لتبرز جهة أو شخص يأخذ على عاتقه ذلك، أو يحرف الثورة عن مسارها أو يُجبرها لصالحه.

• العلماء والإصلاح

وعلى كلّ حال، سواء أوافقنا على ذلك أم لا، فإنّ الصورة الغالبة للمشاريع الإصلاحية تقوم على يد أفراد، والمرشّح الأمثل في الدائرة الإسلامية للقيام بهذا

الدور في هذا العصر هم علماء الدين، ولحساسية هذا الأمر وخطورته نجد التعبير التالي في الحديث المروي عن النبي ﷺ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدْعُ فِي أُمَّتِي فَعَلَى الْعَالَمِ أَنْ يُظَهَرَ عِلْمُهُ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ»^(١)، مع ملاحظة أن عنوان (البدع) لا يقف عن حد التغيير في صورة الوضوء والصلاة مثلاً، بل يشمل القضايا الفكرية والعقدية والسلوكية. وقد جاء في كلمة الحسين عليه السلام: «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحَرَامٍ أَوْ تَارِكًا لِعَهْدِ اللَّهِ وَمُخَالَفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَمَلٌ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ثُمَّ لَمْ يَغَيِّرْ عَلَيْهِ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ مَدْخَلُهُ»^(٢).

ولذا يفترض بعلماء الدين أن ينهضوا بهذه المسؤولية، فهم ورثة الأنبياء بحسب الحديث النبوي، والوراثة ليست وراثة علمية فقط، بل وراثة للمسؤولية أيضاً في إصلاح الواقع الفاسد، لأن الأنبياء لم يحملوا العلم فقط، ولم يكونوا أكاديميين بالمصطلح الحديث، بل كانوا رجالاً لإصلاح وتغيير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

ولا يستطيع عالم الدين أن يقوم بدوره الريادي ويُصلح ما لم يكن هو في نفسه إنساناً صالحاً، وقد هيأ نفسه وأعدّها للقيام بذلك، وإلا فالخراب كلّ الخراب إن حصل عكس ذلك، سواء بالتخلي عن المسؤولية رضىً بالواقع تحت تبريرات واهية، أو بالانغماس في عالم الفساد ليصبح رمزاً فيه أو مستفيداً منه بنحوٍ أو بآخر.

وإلى هذا يشير رسول الله ﷺ بقوله: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحَا صَلَحَتِ

(١) مسند الربيع بن حبيب، ح ٨٣٠.

(٢) ابن كثير: الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٤٨.

أُمَّتِي. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْفُقَهَاءُ وَالْأَمْرَاءُ»^(١). وفي حديث آخر: «الْعُلَمَاءُ أُمَّاءُ الرُّسُلِ مَا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ وَيُدَاخِلُوا الدُّنْيَا، فَإِذَا خَالَطُوا السُّلْطَانَ وَدَاخَلُوا الدُّنْيَا فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ»^(٢). وعن الإمام عليٍّ عليه السلام: «زَلَّةَ الْعَالِمِ كَانْكَسَارِ السَّفِينَةِ، تَغْرَقُ وَتُغْرَقُ»^(٣).

فكما أنّ الخير يأتي من الأمراء الذين يعتبرون الإمارة مسؤولية لا امتيازاً، كذلك الخير يأتي من الفقهاء الذين يعتبرون الدين مسؤولية لا امتيازاً ولا سلطة.. وكما أنّ الخطر، كلّ الخطر، في فساد الأمراء والزعماء عندما يعشون بمصالح الأمة ومستقبلها، فالخطر سيكون أكبر عند فساد الفقهاء.

ولنلاحظ الحديث النبوي التالي: «وَيْلٌ لِّأُمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ الشُّوءِ يَتَّخِذُونَ هَذَا الْعِلْمَ تِجَارَةً يَبِيعُونَهَا مِنْ أَمْرَاءِ زَمَانِهِمْ رِبْحاً لِأَنْفُسِهِمْ لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَهُمْ»^(٤).

• العلماء الفاسدون

إنّ خطورة فساد عالم الدين تتبدّى في أنّه يمثّل بالنسبة لكثيرين قدوة عملية، بالإضافة إلى كونه مصدراً لمعرفة التكليف الشرعي وأخذ المعارف الدينية منه، ففساده إفساد وإن لم يعمل على ذلك.

ومن صور إفساده أنّه يُعطي النموذج السيئ الذي لربّما يدفع الآخرين للكفر بالدين نفسه، وبتعبير المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله: «فيكون حجّة للناس ضدّ الإسلام، بدلاً من أن يكون حجّة للإسلام»، فالعنوان الذي يحمله الإنسان يؤثّر في جمال أو قبح العمل، ولذا جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «الْحَسَنُ مِنْ كُلِّ

(١) محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج ١، ص ٣٠١.

(٢) محمدي الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢١٠١.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، ص ٥٨، ح ٣٨.

(٤) المتقي الهندي: كنز العمال، ح ٢٩٠٨٤.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

أَحَدٌ حَسَنٌ وَمَنْكُم أَحْسَنُ لَأَنَّكُمْ تُنْسَبُونَ إِلَيْنَا، وَالْقُبْحُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قَبِيحٌ وَمَنْكُم أَقْبَحُ لَأَنَّكُمْ تُنْسَبُونَ إِلَيْنَا»^(١).

وقد يقول قائل إنَّ ترك محاسبة علماء الدين أو حتى تقديم أولى باعتبار أنَّه يؤثر في احترام المجتمع للعلماء ويهزُّ مكانتهم.. ولكن التدقيق في الأمر يستدعي القول بأنَّ المصلحة العامة تقتضي أن يميّز الناس بين علماء الدين العاملين من جهة، وعلماء الدين الذين يستغلّون الدين لمصالحهم وأهوائهم فيفسدون في الأرض من جهة أخرى؛ فإنَّ إفقاد الناس القدرة على التمييز، فضلاً عن إضفاء القانون نفسه حمايةً لهؤلاء بما يؤدي إلى تقديس الأخطاء وتبريرها، مفسدةٌ عظيمة، وإهلاكٌ للأمم كما أكّدت ذلك النصوص السابقة.

وهناك نماذج كثيرة تؤكّد على أنّ العمل بالتبرير السابق أدّى إلى تمادي الفاسدين منهم في غيِّهم وفسادهم؛ والزِّيِّ إنّما يمنح العالم احتراماً من خلال علمه، والقداسة يمنحها الناس للذين اختبروا عملهم بعلمهم في مختلف الظروف والأحوال.

فليكن للعلماء في سلوك أمير المؤمنين عليه السلام القدوة، وليكن للناس في تكوين الموقف من هذه القضية الأسوة، إذ نروي ذلك الموقف الرائع من الإمام عليّ عليه السلام، وقد اشتكى عليه يهودي زوراً، فقبل الإمام التحاكم، ولم يرضَ عليّ عليه السلام أن يكتّبه القاضي وينادي اليهودي باسمه، حتّى حكم القاضي أخيراً لليهودي؛ لفقدان البيّنة عند عليّ عليه السلام.. ونزل الإمام عند ذلك الحكم! فمن منّا يقبل هذا المنطق؟!!

متى ما كان عالم الدين صالحاً ومُصلحاً فإنَّ درجته عند الله عظيمة: ﴿قُلْ هَلْ

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج: ٧٤، ص ٣٥١.

يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿[الزمر: ٩]،
وعلى الناس أن يرفعوه بما رفعه الله به، ورفعتهم له دليل على التزامهم بالقيم
الحضارية والتعاليم الإيمانية.

وتبقى حقيقة أن هذا الامتياز يمثل درجة أعلى من المسؤولية، وهي مسؤولية كون
العالم أول المطبّقين لما يقول عملياً، كما قال ﷺ عن نبيّه الأكرم ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٢]، وقد روي عنه ﷺ في آخر حياته أنه قال: «معاشر
الناس ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً، أو يصرف عنه به شراً إلا العمل،
أيها الناس لا يدعي مدع ولا يتمنى متمنٍ، والذي بعثني بالحق نبياً لا يُنجي إلا عمل
مع رحمة، ولو عصيت لهويت اللهم هل بلغت؟»^(١).

إنّ من الخطأ أن نتصوّر أنّ نقد أو محاسبة المتزّي بالزّي الديني من مروّجي
الفتن وضعفاء النفوس، ومن لا يعرفون الحقّ، هو نقد أو محاسبة للدين
وقداسته.. فهذه النظرة الخاطئة أضفت عليهم هالة من القداسة المذهبيّة التي
تحميهم، ودخل المسلمون في شرك حماية التخلّف باسم تقديس العلماء، وفي
أتون الفتنة باسم المحافظة على رموز المذهب.

لقد كسر القرآن هذا الحاجز الوهمي بقوله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا
فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ
إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ
ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:
١٧٥-١٧٦]، مقدّماً نموذج العالم الفاسد المتخلّي عن مسؤولياته والذي وصل
به الأمر بحسب بعض النصوص إلى درجة الاضطفاف إلى جانب الحاكم الفاسد
ضدّ نبيّ زمانه!

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٦٧.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *

وما أكثر من كثرُوا هذه الصورة من الأبحار والرهبان الذين ذمهم القرآن الكريم في مواجعتهم لأنبياء زمانهم حتى قال زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦]، وما زال (علماء الدين) يكرّرونها عبر الزمان في الدائرة الإسلامية.

وفي المقابل نجد صوراً أخرى رائعة - وإن ندرَ بها الزمان - تُمثل قمة تحمّل المسؤولية والإخلاص والشجاعة والتفاني والتضحية في مواجهة الفساد والمفسدين في الأرض، خلّدهم التاريخ وإن حاربهم المفسدون وأصحاب المصالح والأهواء حتى من أقرانهم ومن شاركوهم عنوانهم العلمي.

ومن هذه النماذج الإمام السيد روح الله الخميني (ت ١٤٠٩ هـ) الذي عندما نتذكر ثورته في منطلقاتها وفي عطاءاتها نجدها مصداقاً لقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

وكذلك الشهيد السعيد مفجر الثورة الإسلامية في العراق السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠ هـ) المقتول غدراً على يد الطغمة البعثية الحاكمة حينئذ في العراق، وقد قال فيه الإمام الخميني: «كان السيد محمد باقر الصدر مفكراً إسلامياً فذاً، وكان مؤملاً أن ينتفع الإسلام من وجوده بقدر أكبر، وأنا أمل أن يقرأ المسلمون ويدرسوا كتب هذا الرجل العظيم. لقد كان المرحوم الصدر شخصية علمية، ومجاهداً مضحياً من مفاخر الحوزات العلمية ومراجع الدين والمفكرين

ليالي عَشُوراء _____ ❁

المسلمين، فلا عجب لشهادة هؤلاء العظام الذين أمضوا عمراً في الجهاد في سبيل الأهداف الإسلامية»^(١).

ثم المرجع والمفكر الإسلامي الكبير السيد محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١هـ) الذي أعاد إلى المشهد العام في عالمنا الإسلامي دور العالم الموسوعي من جهة، والفقير الرسالي الحركي من جهة أخرى، وذلك من خلال وعيه بالتراث وبالتاريخ وبالدين، ومن خلال متابعاته الدائمة والقريبة لحركة الواقع في الحياة، فصنع أجيالاً من الشباب المتديّن والرساليّ ومن أصحاب الوعي وهمّة التغيير.

لقد تحمّل كلّ منهم مسؤوليّة الإصلاح ومواجهة الفساد والمفسدين وفق رؤاهم وأساليبهم الخاصة وظروف مجتمعاتهم وخصوصيّاتها.

• الحسين وارث الأنبياء

لقد عانى المجتمع الإسلامي الكبير الذي عاصره الإمام الحسين عليه السلام من نماذج العلماء الفاسدين والمفسدين، فكانت نهضته لإصلاح الواقع الفاسد بما في ذلك تعرية وعّاظ السلاطين والأكليين باسم الدين، وهو القائل: «الناسُ عبيدُ الدُّنيا والدِّينُ لِعِقِّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدِّيَانُونَ»^(٢)، فلقد عمل بعضهم على تبرير الواقع الفاسد، وتصوير أيّ جهد للإصلاح على أنّه بمثابة إفساد في الأرض، ووضعوا الأخبار على لسان رسول الله ﷺ كقول القائل: «قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى نَدْعُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مِثْلُ مَا ظَهَرَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذَا كَانَتْ الْفَاحِشَةُ فِي

(١) نقلاً عن موقع: alwefaq.net

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٨٣.

* كِبَارِكُمْ وَالْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ وَالْعِلْمُ فِي رُذَالِكُمْ»^(١).

وفي نص آخر: «إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا - (وَشَبَّكَ بَيْنَ أُنَامِلِهِ) - فَالزَّمْ بَيْتَكَ وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ أَمْرِ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنكَ أَمْرَ الْعَامَةِ»^(٢).

وفي خبر آخر: «سَتَكُونُ فِتْنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي. مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ. فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعِذْ بِهِ»^(٣)، أي بمقدار ما تكون سلبياً بمقدار ما تضمن التجارة.

نعم هكذا أرادوا تصوير الأمر حتى تستقيم الأمور لمثل يزيد بن معاوية من غير تشويش أو تعكير، ومن دون متاعب ولا مشاكل، فإنَّ مَنْ يموت خروجا على يزيد بن معاوية ومات، مات ميتة جاهلية! وقد نقض عهد الله وميثاقه!

وكان جانباً مهماً من خطابات الإمام الحسين عليه السلام قد عمل على تعرية هذا الفساد والإفساد الذي نهض به وعاظ السلاطين والمتصمّن في قوله الذي أطلقه في مسيره إلى كربلاء كما جاء في تاريخ الطبري: «قام حسين عليه السلام بذئ حُسم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ تَرَوْنَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا وَاسْتَمَرَّتْ جِدَاءُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صَبَابَةٌ كَصَبَابَةِ الْإِنَاءِ وَخَسِيسَ عَيْشٍ كَالْمَرْعَى الْوَيْبِلِ. أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتْنَاهَى عَنْهُ؟ لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ مُحَقَّقًا فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا شَهَادَةً وَلَا الْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرْمًا»^(٤).

(١) جلال الدين السيوطي: جامع الأحاديث، ح ٢٣٣٣.

(٢) م.ن.، ح ١٩٩٠.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، ح ٦٦٧٠.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٠٧.

ليالي عَشُوراء _____ ❁

وبحسب بعض الباحثين فإنّ من الآثار المباركة للنهضة الحسينية أنّ التوجّه العام للناس نحو علماء الدين ما عاد يتوجّه نحو وعاظ السلاطين ومَن يدور في فلك البلاط الأموي وولاتهم، فقد كشفت النهضة الحسينية زيف معدنهم وعزّتهم أمام الجماهير المنخدعة بهم.





القضاء على المفسدين



﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

من أهم وسائل اقتلاع الفساد هي معاقبة المفسدين دون مبالاة وتأخير، لاسيما رؤوس الفساد، وأشدّهم تأثيراً في هذا الإطار، وذلك بهدف منع حركة الفساد من أن تتوسّع وتمتدّ من خلاله، أو لمنع معاودة رؤوس الفساد تنظيم صفوفهم بعد إقصائهم.

ولنلاحظ الخبر التالي المروي عن عليّ عليه السلام كما في البحار: «لَمَّا سُئِلَ عَنِ
أَحْوَالِ الْعَامَّةِ: إِنَّمَا هِيَ مِنْ فَسَادِ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا الْخَاصَّةُ لِيَقْسُمُونَ عَلَى خَمْسٍ:
الْعُلَمَاءُ وَهُمْ الْأَدِلَاءُ عَلَى اللَّهِ، وَالزَّهَادُ وَهُمْ الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ، وَالتَّجَارُ وَهُمْ أَمْنَاءُ
اللَّهِ، وَالغُرَاةُ وَهُمْ أَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ، وَالْحُكَّامُ وَهُمْ رُعَاةُ خَلْقِ اللَّهِ. فَإِذَا كَانَ الْعَالَمُ
طَمَاعًا وَلِلْمَالِ جَمَاعًا فَبِمَنْ يُسْتَدَلُّ؟ وَإِذَا كَانَ الزَّاهِدُ رَاغِبًا وَلِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ
طَالِبًا فَبِمَنْ يُقْتَدَى؟ وَإِذَا كَانَ التَّاجِرُ خَائِنًا وَلِلزَّكَاةِ مَانِعًا فَبِمَنْ يُسْتَوْثَقُ؟ وَإِذَا كَانَ
الغَازِي مُرَائِيًا وَلِلْكَسْبِ نَاطِرًا فَبِمَنْ يُذَبُّ عَنِ الْمُسْلِمِينَ؟ وَإِذَا كَانَ الْحَاكِمُ ظَالِمًا
وَفِي الْأَحْكَامِ جَائِرًا فَبِمَنْ يُنصَّرُ الْمَظْلُومُ عَلَى الظَّالِمِ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَتْلَفَ النَّاسَ إِلَّا
الْعُلَمَاءُ الطَّمَاعُونَ، وَالزَّهَادُ الرَّاغِبُونَ، وَالتَّجَارُ الْخَائِنُونَ، وَالغُرَاةُ الْمُرَاؤُونَ،

وَالْحُكَّامُ الْجَائِزُونَ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

فساد الطبقة المسؤولة عن الجانب التشريعي والقضائي (العلماء)، والجانب الوعظي (الزهاد)، والجانب الاقتصادي (التجار)، والجانب الأمني (الغزاة)، والجانب السياسي والإداري (الحكام)، يؤدي إلى فساد عامة الناس، وصلاحهم سيؤدي إلى صلاح الناس، ولذا فهم لا يستون مع غيرهم في تحمّل التبعات بلحاظ قوة التأثير، ولذا فالحمل والوزر عليهم أكبر، وإنزال العقوبة بهم بشكل صارم ومحكم وسريع أوقع في سير عجلة الإصلاح، وتجفيف منابع الإفساد.

بل حتى نوعية العقوبة تحمل صورة عنيفة جداً مقارنةً بسائر العقوبات المقررة في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

• الثورات المعاصرة وعودة المفسدين

ولنلاحظ الواقع فيما شهدناه من ثورات أو تبدلات على الساحة السياسية في المنطقة، كيف أنّ الأمور تتعقد أمام الراغبين في إحداث التغيير وإجراء حزمة الإصلاحات التي ييشرون بها عندما لم يحسموا أمر محاكمة رؤوس الفساد ومعاقتهم، وحوّلوها إلى ورقة للمساومة تارة، أو أرادوا بها إرسال رسائل تطمين إلى المجتمع الدولي حول حضارية التعامل مع أركان الفساد تارة أخرى، أو لأى سبب آخر.

فما دامت تلك الرؤوس باقية، فإنّ أمل أتباعهم والمستفيدين من فئات موائدهم سيبقى حياً، وسيعملون على تنظيم صفوفهم للقيام بما يُعرف بالثورة

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

المضادة، أو للعبث الأمني، أو للتغلغل في أوصال الدولة الجديدة وإعادة الفساد
بعناوين ووجوه جديدة.

إنّ ملاحقة المفسدين، وكشف خدعهم وفضح خططهم والتصدي لهم تُعدّ
واحدة من أهم مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك فإنّ على
المصلحين أن يتحرّكوا دائماً لمواجهة الفساد الأخلاقي والفساد السياسي
والفساد المالي وما إلى ذلك، بما يعيد الثقة للناس بإمكان وصول خطط الإصلاح
والإصلاح إلى الأهداف المرسومة.

وواحدة من المشكلات الكبرى التي حاصرت واقعنا الإسلامي والعربي
وأجهضت حركة الإصلاح فيه، تتمثل في هذا التوافق الضمني على السكوت
أمام الفساد، لاسيما أمام عليّة القوم.

ولذا حذر الإمام علي عليه السلام من إحاطة مستشاري ومعاوني الحكم الفاسد
بالحاكم الجديد وعدم إقصائهم، ففي كتابه إلى مالك الأشر لما ولّاه مصر: «شَرُّ
وَزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا، وَمَنْ شَرَكَهُمْ فِي الْأَثَامِ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ
بَطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظُّلْمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ
لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَأَثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ
يُعَاوَنِ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ، أُولَئِكَ أَخْفُ عَلَيْكَ مَوْوَنَةً، وَأَحْسَنُ
لَكَ مَعُونَةً، وَأَخْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقْلُّ لِعَيْرِكَ إِنْفَاءً، فَاتَّخِذْ أَوْلِيَاكَ خَاصَّةً لِخَلْوَاتِكَ
وَخَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ أَثْرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلُهُمْ بِمَرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَأَقْلَهُمْ مُسَاعِدَةً فِيمَا
يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ»^(١).

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٥٣.

• الإمام عليّ في مواجهة المفسدين

وقد يقول قائل: فلمَ لم يعاقب الإمام عليه السلام رؤوس الفساد وقد جاء على أثر ثورة ضدّ سياسات الخليفة عثمان ومن ثمّ قتله، والتداعي إلى عليّ عليه السلام لاستلام الحكم أملاً في النهوض بعملية إصلاحية كبرى تعيد الأمور إلى ما كانت عليه على عهد النبي ﷺ؟ فلو أنه قام بذلك، لربما لم يقوموا بالحركة المضادة كما جرى في معركة صفين.

والجواب عن ذلك أنّ الإمام عليه السلام اتخذ إجراء عزل الولاة الفاسدين بشكلٍ سريع، وقد هربوا إلى الشام وإلى مناطق أخرى خوفاً من العقوبة، ولم تسمح الظروف بأكثر من ذلك، لاسيما وقد انتقضت عليه الأمور بسرعة من خلال أحداث حرب البصرة، ثم صفين.

وقد بذل الإمام عليه السلام أقصى جهده في إرجاع الحقوق إلى أصحابها، وإعادة الأمور إلى نصابها المناسب مع التشريعات والعدالة الاجتماعية، والحسم في هذا الأمر، وهو يمثل عاملاً آخر مهماً في مواجهة الفساد وإصلاح الوضع.

وفي الخطبة التي ألقاها عقب البيعة له ما يبيّن سياسته في عدم المداهنة في هذا الأمر، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ لِي مَا لَكُمْ وَعَلَيَّ مَا عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي حَامِلُكُمْ عَلَى مَنْهَجِ نَبِيِّكُمْ وَمُنْفَذٌ فِيكُمْ مَا أَمَرْتُ بِهِ، أَلَا إِنَّ كُلَّ قَطِيعَةٍ أَقْطَعَهَا عُثْمَانُ، وَكُلُّ مَالٍ أَعْطَاهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ، فَهُوَ مَرْدُودٌ فِي بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يُبْطَلُهُ شَيْءٌ وَلَوْ وَجَدْتَهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ وَمَلَكَ الْإِمَاءَ وَفَرَّقَ فِي الْبُلْدَانِ لَرَدَدْتَهُ، فَإِنَّ الْعَدْلَ سَعَةٌ، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضِيقُ، أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا لَا يَقُولَنَّ رَجَالٌ مِنْكُمْ غَدًا قَدْ غَمَرْتَهُمُ الدُّنْيَا فامْتَلَكُوا الْعَقَارَ وَفَجَّرُوا الْأَنْهَارَ وَرَكِبُوا الْخَيْلَ وَاتَّخَذُوا الْوَصَائِفَ الْمُرْقَعَةَ إِذَا مَا مَنَعْتَهُمْ مَا كَانُوا يَحْضُونُ فِيهِ وَأَصْرْتَهُمْ إِلَى حُقُوقِهِمُ الَّتِي يَعْلَمُونَ حَرَمَنَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ حُقُوقَنَا. أَلَا وَإَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

وَالْأَنْصَارَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرَى أَنَّ الْفَضْلَ لَهُ عَلَى سِوَاهُ بِصُحْبَتِهِ فَإِنَّ الْفَضْلَ غَدًا عِنْدَ اللَّهِ وَنَوَابِهِ وَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، أَلَا وَإَيُّمَا رَجُلٍ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فَصَدَّقَ مِلَّتَنَا وَدَخَلَ دِينَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا فَقَدْ اسْتَوْجَبَ حُقُوقَ الْإِسْلَامِ وَحُدُودَهُ. فَأَنْتُمْ عِبَادُ اللَّهِ، وَالْمَالُ مَالُ اللَّهِ، يُقَسَّمُ بَيْنَكُمْ بِالسَّوِيَّةِ وَلَا فَضْلَ فِيهِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ وَلِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَحْسَنُ الْجَزَاءِ»^(١).

وتمرّ الأيام ولا يرتاح البعض لهذه السياسة، وتبدأ رؤوس الفساد والمتنفعون من السياسة الطبقية التي ألفوها وناسبتهم بالتذمّر من هذا الوضع، وتظهر بوادر حركتهم التمردية إلى المستوى الذي يصرّح فيه الإمام بقوله: «مَالِي وَلِقْرِيشِ؟! لَقَدْ قَتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلَا قَتَلْتَهُمْ مَفْتُونِينَ، وَاللَّهِ لَا بَقْرَنَ الْبَاطِلَ حَتَّى يَظْهَرَ الْحَقُّ مِنْ خَاصِرَتِهِ، فَقُلْ لِقْرِيشٍ فَلْتَضِجْ ضَجِيجَهَا»^(٢).

ولعلمهم وسطوا جماعة لتغيير قناعات علي عليه السلام، أو أنّ بعضاً من المخلصين لعلي عليه السلام توجّسوا خوفاً من حركتهم، ولذا «دَخَلَ عَلِيٌّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ يَوْمًا فَقَالُوا لَهُ: لَوْ أُعْطِيتَ هَذِهِ الْأَمْوَالِ، وَوَصَلْتَ بِهَا هَؤُلَاءِ الْأَشْرَافَ، وَمَنْ تَخَافُ فِرَاقَهُ، حَتَّى إِذَا اسْتَبَبَّ لَكَ مَا تُرِيدُهُ عُدْتَ إِلَى مَا عَوَدَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ فِي الرَّعِيَّةِ وَالْقِسْمَةِ بِالسَّوِيَّةِ. فَقَالَ: أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فَيَمُنَّ وُلَيْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ؟! وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ. لَوْ كَانَ هَذَا الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فِيهِ، كَيْفَ وَإِنَّمَا هِيَ أَمْوَالُهُمْ؟»^(٣).

والمسألة الأخرى أنّ الإمام عليه السلام كان حسّاساً تجاه أية بوادر لعودة المفسدين إلى الواجهة من جديد، ولذا يسارع في توجيه رسالة قاسية اللهجة لواليه على

(١) جورج جرداق: روائع نهج البلاغة، ص ٩٥-٩٦.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٣٣.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٩٦.

البصرة الصحابي الجليل عثمان بن حنيف الأنصاري عندما لم يصدر منه أكثر من أن يقبل دعوة أحد شخصياتها على مائدة طعام، ولكن الحالة الرقابية التي فرضها الإمام على الولاة فرضت أن يطّلع على هذا التصرف على الرغم من بُعد المسافة، وبدائية وسائل الاتصال حينئذ.. ويأتي ذلك من الإمام خوفاً من أن تكون هذه بداية شراء ذمة الوالي، أو خضوعه لأصحاب المصالح من باب أنّ الناس عبيد الإحسان.

والرسالة بهذا المضمون كما في نهج البلاغة: «أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجَفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوفٌ، وَغَيْبُهُمْ مَدْعُوفٌ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَانْلُ مِنْهُ»^(١).

ألم يكن بمقدور الإمام أن يبلغه بصورة سرّية بهذا الأمر حفظاً لكرامته وشخصيته ومكانته؟ حتماً إنّ الأمر كان ممكناً، ولكن من الذي أوصل إلينا الخبر وتناقلته الكتب عبر التاريخ حتى صار بأيدينا موضع عبرة؟ من الواضح أنّه توجد إرادة بأن يقدّم هذا الأمر علانية لتبقى العبرة حاضرة.

ولو عدنا إلى نهج البلاغة سنجد أنّ المشهد يتكرّر في أكثر من موقع ومع أكثر من مسؤول، ففي قسم الكتب منه هكذا: «رُوي أنّ شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين عليه السلام اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه عليه السلام ذلك، فاستدعى شريحاً، وقال له: بَلَغَنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً. فقال شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فنظر إليه عليه السلام نظر مغضب ثم قال له: يَا شَرِيحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٤.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
 كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيْتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصًا، وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ
 خَالِصًا. فَانظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ابْتِغَتْ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ
 مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ!..» (١).

• الفساد يطلّ من جديد

ولكن يبدو أنّ الفساد المالي الذي سبق وترسّخ قبل عهد الإمام عليه السلام، لا على مستوى الفعل فقط، بل وعلى مستوى التنظير والتبرير أيضاً، بدأ يطلّ برأسه من جديد!

فما ذكرناه من قضيتي ابن حنيف وشريح القاضي كانت هي البداية، إذ إنّه ومع انتهاء معركة صفّين، وعدم حسم المعركة، ومع دخول الإمام علي عليه السلام في صراع مع انشقاق داخلي تمثّل في الخوارج، ظهرت بوادر الانفلات الأمني والسياسي والمالي، ومنبع ذلك كلّهُ هو الانهيار القيمي الموروث من العقود الماضية التي فرزت الطبقة والتحرّب وحبّ الدنيا.

ثم جاءت غارات جند معاوية على المناطق التابعة لحكم الإمام علي عليه السلام لتساعد على صور الانفلات تلك، فقد كانت غارات مؤثّرة من حيث نشر الرعب، والإخلال بموازن القوى بين الطرفين، واقتطاع مساحات واسعة من المناطق الخاضعة لحكم الإمام، بل وحتى استمالة القبائل والمسؤولين الموالين لحكم الإمام علي، الأمر الذي شجّع بعضهم على نهب بيت المال وهو في موقع المسؤولية.

وفي طول مواجهة الإمام لحالة الفلتان هذه ميدانياً، عمل على المعالجة الفكرية والإيمانية والروحية للمشكلة، وهذا نلاحظه بوضوح في الكتب التي كان

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٣.

يرسلها، وفي الخطب التي كان يعلّق من خلالها على الأوضاع، أو تصدر من خلالها الأوامر بالتحرك لمعالجة المشكلات. ولناخذ بعض الأمثلة.

مصقلة بن هُبيرة الشيباني كان عامل الإمام على أردشير خُرّة (قريبة من مدينة بوشهر الإيرانية على الخليج العربي)، وجّه إليه الإمام رسالة شديدة اللهجة تتعلق بخروجه على قاعدة توزيع الفيء بالسوية بين المسلمين، وهي القاعدة التي أعاد الإمام العمل بها بعد قتل الخليفة عثمان، فيما كانت السياسة السابقة في التفاضل قد خلقت مشكلات عدّة منذ عهد الخليفة عمر، واستمرت آثارها التي عانى منها الإمام عليّ أشدّ المعاناة. فكتب إليه كما في نهج البلاغة قائلاً: «بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَشْخَطْتَ إِلَهَكَ، وَأَغْضَبْتَ إِمَامَكَ: أَنَّكَ تَقْسِمُ فِيءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخِيُولُهُمْ، وَأُرَيْقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنْ اعْتَامَكَ (اختارك سيداً وقائداً) مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ بِكَ عَلِيٌّ هَوَانًا، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَانًا، فَلَا تَسْتَهْنِ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصَلِّحْ دُنْيَاكَ بِمَحَقِّ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفِيءِ سَوَاءٌ، يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، يَصُدُّرُونَ عَنْهُ، وَالسَّلَامُ»^(١). ولنلاحظ أنّ ما قام به مصقلة هو ذات الأمر الذي كان يعيب به الإمام عليّ عليه السلام على عثمان وولاته في سياستهم تجاه الحكم وبيت المال.

ولست أعلم بالتحديد ما الذي توصل إليه الإمام عليه السلام في تثبته من هذه الوشاية، إلا أنّ الرجل ذاته وقع في مطبٍّ آخر أشدّ من الأول، وذلك في قصة طويلة ذكرها المؤرّخون كالطبري وابن أبي الحديد، وفي خواتيمها أنّ مصقلة اشترى خمسمائة أسير من ماله كانوا من ذراري قبيلة عربية نصرانية أسلمت ثم ارتدّت وحاربت على عهد الإمام عليّ، وقد اشتراهم مصقلة - حسب

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٣.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

ادّعائه - بخمسماية ألف درهم ليحرّره من الأسر، فاستحسن الإمام تصرّفه.. ولما كان يُفترَض به أن يرسل بالمال إلى الإمام في الكوفة، وتباطأ، بعث إليه الإمام كتاباً يحثّه على ذلك، فأرسل مائتي ألف درهم فقط، ثم اختار في النهاية أن يهرب ويلحق بمعاوية!

وفي نهج البلاغة كلمة للإمام عليه السلام بيّن فيها ردّة فعله على هذا الموقف الغريب، قال: «قَبَّحَ اللَّهُ مَصْقَلَةَ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ! فَمَا أَنْطَقَ مَا دِحُّهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَتَهُ (عَنَفَهُ)، وَلَوْ أَقَامَ لِأَخْذِنَا مَيْسُورَهُ، وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وَفُورَهُ»^(١).

• الهروب الكبير

ولم يكن هو الوحيد الذي يقع في أحضان معاوية هرباً من عدالة الإمام وشدّته في الحقّ. والنصّ التالي بيّن هذا المطلب، ففي نهج البلاغة: «ومن كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حنيف الأنصاري وهو عامله على المدينة، في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية: أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِمَّنْ قَبْلَكَ يَسْلُبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَى لَهُمْ عَيْبًا، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِيًا، فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ، وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبَلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أَسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ، فَبَعْدًا لَهُمْ وَسُحْقًا!! إِنَّهُمْ - وَاللَّهِ - لَمْ يَنْفِرُوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَإِنَّا لَنْطَمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذَلَّلَ اللَّهُ لَنَا صَعْبَهُ، يُسَهِّلَ لَنَا حَزَنَهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»^(٢).

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٤.

(٢) م.ن: الكتاب رقم ٧٠.

لقد عشقوا الدنيا، ووجدوا أنّ موازين القوى باتت تصبّ في صالح معاوية، ولذا اختاروا الالتحاق بمن يُقدّم لهم هذه الدنيا ويلبي لهم مطالبهم غير المشروعة، وهو ما شخصه الإمام بوضوح حيث قال: «حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ، تَمُنَحُهُمْ دَرَّهَا، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا، وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ. بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً!»^(١).

ولكن هل سيعود عليهم اختيارهم هذا بالخير؟ لن يتجاوز تلذذهم بما أقبلوا عليه من موائد معاوية الدسمة سوى فترة، ثم ستزحف عليهم ويلات الحكم الأموي وتهجم عليهم الفتن كقطع الليل المظلم، وهو ما حدّثهم منه الإمام عليه السلام قائلاً: «وَاللَّهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدْعُوا لِلَّهِ مُحَرَّمًا إِلَّا اسْتَحَلَّوهُ، وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلَّوهُ، حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَبَنَّا بِهِ سُوءَ رَعِيهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةٌ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ»^(٢).

ويقول في موقع آخر: «فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدَخَلَهُ الظُّلْمَةُ تَرْحَةً (حزناً)، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً، فَيَوْمئِذٍ لَا يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيِّئْتُمْ اللَّهَ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّا بِمَا أَكَلَ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ، وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ وَالْمَقْرِ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَرَوَامِلِ الْأَثَامِ. فَأُفْسِمُ، ثُمَّ أُفْسِمُ، لَتَنَحْمَنَهَا أُمِّيَّةٌ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفِظُ النُّحَامَةُ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا

(١) نهج البلاغة: خ ٨٧.

(٢) م. ن: خ ٩٧.

وَلَا تَطْعُمُ بَطْعَمَهَا أَبَدًا مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ (تعاقب الليل والنهار)»^(١).

وأتذكر هنا كيف أنّ المقبور صدام عمداً إلى السياسة ذاتها قبيل حربه التي شنتها على إيران، فأغدق على شعبه الهدايا والعطايا، ثم طالبهم بإرسال أبنائهم لحرب إيران ثمناً للنعيم القادم، فما لبث الأمر أن تحوّل إلى جحيم عاشه العراق في الحرب وبعد الحرب على مدى عقود من الزمن، ولم تنته آثاره حتى بعد هلاك الطاغية.

وهكذا نجد الإمام عليّاً عليه السلام يوجه كتاباً إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة: «وإني أقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشدنّ عليك شدة تدعك قليل الوفر، ثقيل الظهر، ضئيل الأمر، والسلام»^(٢).

ويكتب كتاباً إلى بعض عماله: «أما بعد، فقد بلغني عنك أمر، إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك. بلغني أنك جرّدت الأرض (أخذت كل شيء) فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فأرفع إليّ حسابك، وأعلم أنّ حساب الله أعظم من حساب الناس، والسلام»^(٣).

وتأتي الطامة الكبرى - إن صحّت - من أقرب الناس إليه، من ابن عمّه عبد الله بن عباس حال تولّيه أمور البصرة، وقيل عبيد الله بن عباس (ولا يصحّ إذ لم يكن والياً على البصرة). وقد اختلف المحققون في صحّة ذلك لأسباب عدة، وقد أشار إلى بعضها ابن أبي الحديد وقال: «وقد أشكل عليّ أمر هذا الكتاب، فإن أنا كذبت النقل وقلت: هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام خالفت

(١) نهج البلاغة: خ ١٥٧.

(٢) م. ن: الكتاب رقم ٢٠.

(٣) م. ن: الكتاب رقم ٤٠.

الرواة، فإنهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وقد كرر في أكثر كتب السير. وإن صرفته إلى عبدالله بن عباس صدني عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته، وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى من أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام يُشعر بأن الرجل المخاطب من أهله وبني عمه، فأنا في هذا الموضوع من المتوقفين»^(١).

وتعرض للقضية المرجع الراحل السيد أبو القاسم الخوئي في ترجمته لابن عباس في موسوعته معجم رجال الحديث، معتبراً أنّ الخبر لا يثبت أمام النقد، ولذا لم يصححه.

أما كتاب الإمام لابن عباس والمروي في نهج البلاغة، فهكذا: «أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكَتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبَطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي، لِمَوَاسَاتِي وَمُؤَارَرَتِي وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ. فَلَمَّا رَأَيْتَ الرَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرَبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزَيْتَ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَتَنْتَ وَشَعَّرْتَ، قَلْبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجَنِّ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَادِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ. وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ اللَّهُ تَرِيدُ بِجَهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْتِهِمْ! فَلَمَّا أَمَكَّتَكَ الشَّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ، أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوُثْبَةَ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةَ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ، اخْتَطَفْتَ الذُّبَّ الْأَزْلَ دَامِيَةَ الْمَغْزَى الْكَسِيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ - لَا أَبَا لِعَيْرِكَ - حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثِكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمَّكَ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ! أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كَانَ - عِنْدَنَا مِنْ ذَوِي

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ١٧٢.

الكتاب الثالث - محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
 الألباب، كَيْفَ تُسَيِّغُ شَرَاباً وَطَعَاماً، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً، وَتَشْرَبُ حَرَاماً،
 وَتَبْتَاعُ الإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ مَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ،
 الَّذِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ؟! فَاتَّقِ اللَّهَ، وَارْزُدْ إِلَى
 هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْكَ لِأُعْذِرَنَّ إِلَيَّ اللَّهُ فِيكَ،
 وَلَا ضَرْبَتِكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ! وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ
 وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَّةٌ، وَلَا ظَفْرًا مِنِّي بِإِرَادَةٍ،
 حَتَّى آخُذَ الْحَقُّ مِنْهُمَا، وَأَزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا. وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا
 يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي، فَضَحَّ رُوَيْدًا،
 فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى، وَدَفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى، وَعَرَضْتَ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ
 الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ الرَّجْعَةَ، وَلَا تَ حِينَ مَنَاصِ
 وَالسَّلَامُ»^(١).

وجاء جواب ابن عباس كالتالي: «أما بعد، فقد أتاني كتابك تعظم علي ما
 أصبت من بيت مال البصرة، ولعمري إن حقي في بيت المال أكثر مما أخذت،
 والسلام»^(٢).

قال أبو حيان التوحيدي (ت ١٤٤ هـ) في كتابه (البصائر والذخائر): (فكتب
 إليه علي: أما بعد، فإن العجب أن تزين لك نفسك أن لك في بيت مال الله عَبْدًا من
 الحق أكثر مما لرجل من المسلمين، فقد أفلحت إن كان تميمك الباطل وادّعاؤك
 ما لا يكون ينجيك من المأثم، أو يحل لك ما حرّم الله عليك، فلعمري إنك
 لأنت المهتدي السعيد إذن. قد بلغني أنك اتخذت مكة وطناً، وضربت بها عطناً،
 تشتري بها مولدات مكة والمدينة والطائف، تختارهن على عينك، وتعطي فيهن

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤١.

(٢) المحمودي: نهج السعادة، ج ٥، ص ٣٣١.

مال غيرك؛ وإني أقسم بالله ربّي وربّك وربّ العزة ربّ العالمين، ما أحبّ أن لي ما أخذت من أموالهم حلالاً أدعه لعقبى ميراثاً، فالعجب لاغباطك به تأكله حراماً؛ فضح رويداً، فكأن قد بلغت المدى، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي فيه المغترّ بالحسرة، ويتمنى المضيع التوبة، والظالم الرجعة، فذلك وما ذلك، ولات حين مناص، والسلام». فكتب إليه ابن عباس: «أما بعد، فإنك أكثرت عليّ وإني والله وَعَجَلٌ لأن ألقى الله بجميع ما في الأرض من ذهبها وفضتها وكلّ ما فيها أحبّ إليّ من أن ألقاه بدم امرئ مسلم، والسلام»^(١).

أما شارح نهج البلاغة ميرزا حبيب الله الخوئي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) فقد صحّح الخبر وبرّر موقف ابن عباس تبريراً غريباً، قال: «ومما يوجب الأسف المحرق هذا الكتاب المخاطب به أحد خواصه من بني عشيرته، والأكثر على أنّه عبد الله بن عباس، فالظاهر أنّه لما كتب عَلَيْهِ السَّلَامُ إليه كتابه بعد مقتل محمد بن أبي بكر، وقد مرّ آنفاً أيس ابن عباس من إدامة حكومته العادلة، وعلم أنّ الحكومة تقع في يد أعدائه وأعداء بني هاشم، وأقل ما ينتقمون منهم منعهم عن حقوقهم وإيقاعهم في ضيق المعاش وضنك العيش، فادّخر من بيت مال البصرة مقادير يظهر من كتابه عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّها كثيرة تسع لابتياح العقار في مكة والمدينة والطائف وابتياح العبيد ونكاح الأزواج. وقد أثر عمله هذا في قلبه الشريف حيث يتوجّه إلى تأمين معاش عشرات الألوف من الأراذل والأيتام اللاتي قُتِلَ أزواجهنّ وآباؤهم في معارك الجمل وصفين ولا كفيل لهنّ في معاشهنّ، وكان ما يجمع في بيت مال البصرة مبلغاً كثيراً يسدّ كثيراً من حاجته في هذه الأراذل والأيتام، فالتهب قلبه الشريف من هذا الاختطاف والاختلاس الذي ارتكبه مثل ابن عباس أو من يقارنه أو يقاربه من أهله وعشيرته، فرماه من

(١) أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ١، ص ٩٥.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م * _____

لسانه الشريف بسهام ما أغرزها في القلب وسيوف ما أقطعها للوتين. وكان ابن عباس يتوجه إلى حالة عليّ الروحية فيبادر إلى جوابه بأخصر عبارة ويشير إلى عذره في خيانتة»^(١).

وليست هذه هي آخر حلقة في سلسلة التلاعب في بيت مال المسلمين، فقد أرسل الإمام كتاباً إلى المنذر بن الجارود العَبدي وقد خان في بعض ما ولاه من أعماله، ففي نهج البلاغة: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلاَحَ أَبِيكَ غَرَّني مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيما رُفِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَاتَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِياداً، وَلَا تُبْقِي لِأَخْرَجَتِكَ عَناداً، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرابِ أَخْرَجَتِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ. وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشَسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ نَعْرٌ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَيَّ خِيَانَةً. فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٢).

علماً بأنَّ المنذر هذا هو أحد الخمسة الذين أرسل إليهم الإمام الحسين عليه السلام في البصرة رسالته التي ضمَّنها طلب نصرته، فقام المنذر وسلَّم رسولَ الإمام الحسين - سليمان أبو (أو ابن) رزين - لعبيدالله بن زياد والي البصرة من قبل يزيد بن معاوية وأطلععه على مضمونها، فقتل عبيدالله سليمان، فكان أوَّل شهيد في ركب النهضة الحسينية!

إنَّ مَنْ يقرأ تلك الرسائل، والخطب العديدة التي تضمَّنت ذمَّ الدنيا، والتخويف من الركون إليها، والحثُّ على الزهد، وتذكُّر الموت والحساب والعقاب والثواب، يدرك حجم المشكلة الإيمانية والروحية التي كان يعاني منها المجتمع حينئذ، المجتمع الذي حدَّره الإمام عليه السلام في بدء لجوئهم إليه كي

(١) ميرزا حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة، ج ٢، ص ٧٤.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٧١.

يستلم مقاليد الحكم بأنهم لن يكونوا قادرين على تحمّل سياساته العادلة، لأنّ الفساد قد نخر إلى العظم، فانقلبت الموازين، وضاعت القيم، وصارت الدنيا في عناوينها المختلفة من حكم وجاه ومال ونفوذ هي غايتهم، متناسين مبادئ دينهم ومصيرهم في آخرتهم.. ولذا قال: «دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبَلُونَ أَمْرًا لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُضِغْ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتَبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكَتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلِيْتُمُوهُ أَمْرُكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا!»^(١).

وقد استفحل الأمر بعد ذلك في مديات أوسع حين استحكمت الأمور لبني أمية، فعاثوا في الأرض فساداً، في صور عديدة طرحنا بعض أمثلتها فيما سبق، الأمر الذي دفع الإمام الحسين عليه السلام إلى تقديم دمه ودم آله وأنصاره قرباناً لهزّ ضمائر الأمة التي يجب أن تنهض في مواجهة الفاسدين فتقتلعهم وتعاقبهم بعد أن تحاسبهم حساباً عسيراً، وبانتظار ذلك اليوم الذي لا تخفى فيه خافية: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] و﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].





القيادة وثقافة الإصلاح



تحدّثت فيما سبق عن دور القيادة في عملية الإصلاح، ولا شك أنّ عملية الإصلاح لا تتحقّق من خلال وجود قيادة فقط، بل لا بدّ من وجود عناصر أخرى، منها:

• ثقافة الإصلاح

وهي قد تكون صادرة من تلك القيادة نفسها، أو تساهم القيادة فيها، ومن غير هذه الثقافة ستكون عملية الإصلاح متعسّرة إن لم نقل غير ممكنة أصلاً، إذ كيف يمكن تصوّر الإصلاح في بيئة غير مدركة أصلاً لما ستُقدّم عليه، ولماذا تُقدّم عليه، وما أسباب الفساد، ومَن يقف وراءه، وكيف تُحقّق عملية الإصلاح.

وتحكيم ثقافة الإصلاح يحتاج إلى عمل دؤوب ومتنوّع، فمن شبه المستحيل التخلص دفعة واحدة من كل الترسبات الفكرية الفاسدة التي عملت البيئة التي يعيش فيها الإنسان على ترسيخها طوال عقود من الزمن، حتى تحوّل بعضها إلى مسلّمات بديهية، أو إرث مقدّس غير قابل لإعادة التفكير فيه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

ومن شبه المستحيل التخلص دفعة واحدة من مظاهر الفساد وأسبابه كالفوضى والتسيب واللامبالاة والرشوة والغش والخضوع للقوي وغيرها، وإبدالها بكل مظاهر الصلاح من قبيل النظام والتزام القانون من قبل الجميع وحرية الرأي والحفاظ على الممتلكات العامة وغيرها.

ولاحظ أنّ من عناوين الفساد ما يتداخل مع بعضه البعض، وأبسط مثال على ذلك التسيب، فهو في حد ذاته عنوان فساد إداري، ويؤدي إلى عنوان فساد آخر هو الفوضى، كما يؤدي إلى تفشي الرشوة، وإضاعة الحقوق، إلخ.

كما أنّ تطبيق بعض عناوين الإصلاح سيتصادم مباشرة مع المصالح الشخصية أو الحزبية لنفس القيادات التي رفعت شعار الإصلاح وطالبت بتغيير الواقع الفاسد أو عملت عليه، الأمر الذي يدفعها للسعي لإعادة تلك المظاهر، ولو بتبريرات باردة، أو حتى بعناوين شرعية مفبركة ومفصلة على المقاس، من قبيل عنوان عدم ملكية الدولة لما تحت يديها، والتصرف بمجهول المالك مثلاً!

ولك أن تتخيل أنّ هؤلاء هم من يصلون إلى سدّة الحكم مثلاً بعد تغيير الواقع الفاسد السابق، فكيف ستكون عليه صورة الواقع الجديد؟

وهكذا الأمر بالنسبة إلى القواعد الجماهيرية التي ألفت الوضع الفاسد السابق، حيث ستجد من الصعب بالنسبة إليها أن تعيش واقعاً مختلفاً يتصادم مع رغباتها الشخصية ومصالحها الآتية في صورة مشابهة لما في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام كما في (الأمالي) للشيخ المفيد أنّه قال: «كان أمير المؤمنين

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

علي بن أبي طالب عليه السلام يقول للناس بالكوفة: يا أهل الكوفة، أتروني لا أعلم ما يُصلِحُكم؟ بلى، ولكنني أكره أن أصلحكم بفسادِ نفسي»^(١).

• إصلاح باطل

ويمكن أن نفهم كلامه عليه السلام إلى أنه إشارة إلى ما ألفوه من المحسوبية والطبقة والتعصب العرقي وغير ذلك من عناوين أفسدتهم، وما عادوا قادرين على التخلص منها، ويعتبرون أن صلاح حالهم بعودة تلك الصور من الفساد. وقد روى الشيخان المفيد والطوسي كما في (بحار الأنوار): «أن طائفة من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مشوا إليه عند تفرق الناس عنه وفرار كثير منهم إلى معاوية طلباً لما في يديه من الدنيا، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ومن نخاف عليه من الناس فراره إلى معاوية، فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله ما أفعل ما طلعت شمس ولا ح في السماء نجم، والله لو كان مالهم لي لواسيت بينهم، وكيف وإنما هو أموالهم؟»^(٢).

كما يمكن أن نفهم كلامه السابق بأنه يعني اللجوء لاستخدام القوة المفرطة التي تلحق العقوبة بالبريء والظالم، وبالفاسد والصالح، لضبط الأوضاع وإخراص الألسن وبما يجعلهم في خوف من الحكم، وفي انضباط في الطاعة - ولو لأمد - وهو ما كانوا يتصورون أنه يحقق صلاحهم.. تماماً كما يردّد البعض «أن أهل العراق مثلاً لا ينفع معهم شخص إلا مثل صدام!» ويؤيد هذا المعنى ما جاء في نص رواه المفيد في (الإرشاد) أنه عليه السلام قال: «ولقد علمت أن الذي

(١) نهج البلاغة: خ ٦٩.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٣، باب ١٨.

يُصَلِّحُكُمْ هُوَ السَّيْفُ، وَمَا كُنْتُ مُتَحَرِّياً صَلاَحَكُمْ بِفَسَادِ نَفْسِي، وَلَكِنْ سَيَسْلُطُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي سُلْطَانٌ صَعْبٌ، لَا يُوقِّرُ كَبِيرَكُمْ، وَلَا يَرَحِمُ صَغِيرَكُمْ، وَلَا يُكْرِمُ عَالَمَكُمْ، وَلَا يَقْسِمُ الْفِيءَ بِالسُّوِيَّةِ بَيْنَكُمْ، وَلِيضْرِبَنَّكُمْ، وَلِيَذْلَنَكُمْ، وَلِيَجْرَتَكُمْ فِي الْمَغَازِي، وَلِيَقْطَعَنَّ سُبُلَكُمْ، وَلِيَجْمَعَنَّكُمْ عَلَيَّ بِأَبِي، حَتَّى يَأْكُلَ قُوَّيْكُمْ ضَعِيفَكُمْ ثُمَّ لَا يُبْعِدُ اللَّهُ مَنْ ظَلَمَ، وَلَقَلَّ مَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ، وَإِنِّي لَا أَظُنُّكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ، وَمَا عَلَيَّ إِلَّا النَّصْحُ لَكُمْ»^(١).

ويبدو أنَّ الإمام علياً عليه السلام كان يكرّر هذه المقولة بناءً على تكرار طلب البعض منه أن يسير بتلك السيرة، ولكنّه كان يكرّر رفضه المطلق لذلك وهو القائل: «وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضِيقٌ»^(٢)، لأنَّ ما يتصوِّرون أنَّ فيه صلاحهم، سيكون أثراً محدوداً وعلى حساب مفساد كثيرة مترتبة عليها بما ستضيق معها الحياة عليهم بعد أن تتغلغل في وجودهم وتتحكّم في مفاصل حركتهم في الحياة.

ولذا فإنّ ترسيخ ثقافة الإصلاح لا يتمّ بخطب حماسية أو حملة إعلامية مؤطّرة في حدود زمنية قصيرة، بل يتطلّب الصبر والحزم والمثابرة والإصرار والمصداقية والإبداع على المستوى التعليمي والإعلامي والتوعوي والتطبيقي والجزائي والتشريعي حتى تتغلغل المفاهيم الجديدة بدلاً من القديمة، ولربّما احتاج الأمر إلى تبدّل جيل، ليأتي جيل مبني على تلك المفاهيم المعدّلة، كما حصل بالنسبة إلى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وكما حصل من قبل بالنسبة إلى بني إسرائيل في التيه.

(١) أحمد بن علي الطبرسي: الاحتجاج، ج ١، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) نهج البلاغة، خ ١٤.

• الإمام الحسين وثقافة الإصلاح

ونحن عندما ندرس حركة الإمام الحسين عليه السلام بعد علمه بموت معاوية لتغيير الواقع الفاسد، نجد العديد من التصريحات والكلمات والوصايا التي تحاول أن تزرع ثقافة إصلاحية توضّح أهداف النهضة الحسينية من جهة، وتعرّي الواقع الفاسد، وتبيّن سبيل التغيير إلى الأفضل، كنموذج قابل للتطبيق عبر الزمان، ومتناسب مع المبادئ والقيم الإسلامية والإنسانية.

ففي المدينة في بيت الوالي الوليد بن عتبة وبعد مطالبته للإمام الحسين عليه السلام بالبيعة ليزيد يقول الإمام كما جاء في كتاب الفتوح لابن أعثم: «إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحلّ الرحمة وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب خمر قاتل النفس المحرّمة مععلن بالفسق، مثلي لا يباع لمثله»^(١).

ثم يقرّر الإمام الخروج من المدينة إلى مكة مع نفر من أهل بيته، ولا يتركها حتى يكتب وصية يسلمها لأخيه محمد ابن الحنفية، تتضمن استنصاراً للمسلمين، وتبياناً لأهداف حركته، وهي من أهم الوثائق الخاصة بالنهضة الحسينية، وفيها: «.. وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب النجاح والإصلاح في أمة جدي محمد صلى الله عليه وآله، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد صلى الله عليه وآله وسيرة أبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين»^(٢).

وفي مكة كتب الإمام الحسين عليه السلام كتاباً إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، جاء فيه كما في (تاريخ الطبري): «أما بعد فإنّ الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وآله على خلقه، وأكرمه

(١) أحمد بن أعثم الكوفي: الفتوح، ج ٥، ص ١٤.

(٢) م.ن. ص ٢١.

بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به ﷺ، وكنا أهله وأولياءه وأوصيائه وورثته وأحقّ الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أننا أحقّ بذلك الحقّ المستحقّ علينا ممّن تولّاه، وقد أحسنوا وأصلحوا وتحروا الحقّ، فرحمهم الله وغفر لنا ولهم، وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإنّ السّنة قد أُميتت، وإنّ البدعة قد أُحييت، وأن تسمعوا قولِي وتطيعوا أمرِي أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله»^(١).

كما أرسل مسلم بن عقيل ليتحمّل جانباً من هذه المسؤولية في الكوفة، وانسأقت له الأمور، وتجاوب الناس معه، وتبنّوا أهداف النهضة الحسينيّة، وتحركوا في هذا الاتجاه، ولكن سرعان ما انخزل أكثرهم تحت وطأة تضارب المصالح والخوف وما إلى ذلك، وهو ما ينسجم مع ما ذكرته مسبقاً من أنّ إصلاح الوضع الفاسد يحتاج إلى عملٍ طويل وشاق، ولربما يتخاذل أو يبذل المتحمّسون مواقفهم تحت ظروف معيّنة.

وفي العراق في منزل (البيضة) روى الطبري أنّه: (خطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيّها الناس إنّ رسول الله ﷺ قال من رأى سلطاناً جائراً مستحلاًّ لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مَدْخَلَهُ. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غير...»^(٢).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٨٠.

(٢) م.ن. ص ٣٠٤-٣٠٥.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

وبرواية ابن أعثم أنّ هذا المضمون صدر ضمن كتاب كتبه إلى أهل الكوفة أول وصول الإمام إلى كربلاء كما ذكرنا مسبقاً. والجمع بين الأمرين مقبول.

وهكذا قام عليه السلام في يوم عاشوراء بإلقاء خطبتين - كما في تاريخ الطبري - ففي المرة الأولى: «نادى بأعلى صوته بصوت عال دعاء يُسمع جلّ الناس: أيها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لحق لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدّمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقصوا إليّ ولا تنظرون، إنّ وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين...».

ثم إنّه عليه السلام أراد أن يقنعهم بأكثر من منطق يمكن أن يقبلوه وينطلقوا من خلاله لنصرة الحقّ، فبدأ بالمنطق الرسالي حيث قال: «... أما بعد، فانسبوني فانظروا من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ أليست ابن بنت نبيّكم صلى الله عليه وآله وابن وصيّيه وابن عمّه وأول المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمّي؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي هذان سيّدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحقّ والله ما تعدّدت كذباً مذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله ويضرب به من اختلقه، وإن كذبتموني فإنّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري أو أبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد الساعدي أو زيد بن أرقم أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟...».

فالمنطق العشائري حيث قال: «فإن كنتم في شكّ من هذا القول أفتشكون أثراً

ما أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم. أنا ابن بنت نبيكم خاصة».

فالمنطق الأخلاقي، حيث قال: «أخبروني، أتطلبوني بقتيل منكم قتلته أو مال لكم استهلكته أو بقصاص من جراحة؟... يا شبت بن ربي ويا حجار بن أبحر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد ابن الحارث، ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار وأخضر الجناب وطمت الحمام، وإنما تُقدّم على جندك لك مجتد فأقبل؟».

ولما أنكروا ردّ عليهم قائلاً: «سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم، ثم قال: أيها الناس إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض. قال: فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يروك إلا ما تحب، ولن يصل إليك منهم مكروه. فقال له الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد. عباد الله إنني عدت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»^(١). وهنا لربما تتساءل: كيف يطلب الإمام الحسين عليه السلام منهم أن يدعوه يترك ساحة المعركة؟ ألم يكن مصمماً على الشهادة من أجل أن يهز ضمير الأمة ويخرجها من غفلتها وسباتها؟ فكيف إذاً يطلب ذلك منهم؟

والجواب: إننا يجب أن ندرك بوضوح أنّ الإمام عليه السلام - وفي المقام الأوّل - هو صاحب مشروع ثوريّ إصلاحيّ، أراد من خلاله الغلبة على عدوّه والانطلاق مع أنصاره ومؤيديه نحو تغيير الواقع وإصلاحه من خلال مواجهة نظام الحكم والثورة عليه واقتلعه من جذوره وتخليص الناس من الواقع الفاسد الذي كانوا يعانون منه، وفي الوقت نفسه يهابونه وقد أذلّوا رقابهم له.. فإن لم يتسنّ له ذلك،

(١) راجع تاريخ الطبري في أحداث يوم العاشر من المحرم ٦١ هـ.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
فلا بدليل عن المواجهة الدامية وبتلك الصورة البطولية من خلال المواجهة غير المتكافئة مع العدو.. وهذا يفسّر لنا لِمَ يطلب منهم الإمام أن يدعو لينصرف، فهو يبحث عن فرصة أخرى وأنصاراً آخرين كي ينطلق من خلالها لتحقيق الهدف الذي من أجله قد خرج أساساً إلى العراق.

• الخطبة الثانية

ثم خطب في عاشوراء ثانية - كما في تاريخ دمشق - محاولاً فتح عقولهم أمام الحقيقة التي تتمثل في هول ما سيقدمون عليه وحجم الجريمة التي سيرتكبونها في ما لو لم يغيروا من موقفهم في اللحظة الحاسمة.. إلا أنه ﷺ استعمل أسلوباً قاسياً هذه المرة، فلعلّ هذا الأسلوب يجدي نفعاً مع قلوبهم القاسية، وذلك من خلال المحاور التالية:

• التذكير بقبح نقض المواثيق والعهود: «تَبَّ لَكُمْ أَيُّهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرَحَّأً، أَحِينِ اسْتَصْرَخْتُمُونَا وَلِهَيْنِ فَأَصْرَخْنَاكُمْ مَوْجِفِينَ شَحَذْتُمْ عَلَيْنَا سِيفاً...».

• خطأ الاختيار: «سيفاً كان في أيماننا، وحششتم علينا ناراً قدحناها على عدوّكم وعدونا، فأصبحتم إلّياً على أوليائكم ويداّ عليهم لأعدائكم، بغير عدل رأيتموه بثّوه فيكم ولا أصل أصبح لكم فيهم، ومن غير حدث كان منا ولا رأي يفيل فينا، فهلاً لكم الويلات إذا كرهتموها تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لم يُستخف».

• استشارة مشاعر عزّة النفس والغيرة على الدين: «ولكن استصرعتم إلينا طيرة الدبا وتداعيتم إلينا كتداعي الفراش قيحاً وحكة وهلوعاً وذلةً لطواغيت الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب وغضبة الآثام وبقية الشيطان ومحرفي الكلام ومطفئي السنن وملحقي العهدة بالنسب وأسف المؤمنين ومزاح المستهزئين

الذين جعلوا القرآن عضين لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. فهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون أجل والله الخذل فيكم معروف وشجت عليه عروقكم واستأزرت عليه أصولكم فأفرعكم، فكنتم أخبث ثمرة شجرة للناس وأكلة لغاصب. ألا فلعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله عليهم كفيلاً».

• التأكيد على موقفه الحاسم الذي لا رجعة فيه حتى النفس الأخير: «ألا وإن البغي قد ركز بين اثنتين بين المسألة والذلة وهيئات منا الدنية أبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وبطون وأنوف حمية ونفوس أبية أن تؤثر مصارع الكرام على ظنار اللثام. ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وكثرة العدو وخذلة الناصر ثم تمثل:

فإن نهزم فهزامون قدما وإن نهزم فغير مهزّميننا
وما إن طبنا جبن ولكن منايانا وطعمة آخرينا»

• المحاولة الأخيرة بتخويفهم من المصير البائس الذي ينتظرهم في ما لو استمرّوا في نية الحرب: «ألا ثم لا لبثوا إلا ريث ما يركب فرس حتى تُدار بكم دور الرحي ويفلق بكم فلق المحور عهداً عهداً النبي إلى أبي، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون»^(١).

• ختام البحث

وإذا كانت النهضة الحسينية على صاحبها آلاف التحية والسلام قد انتهت ميدانياً باستشهاده وأغلب من ناصره في يوم عاشوراء، فلم تثمر مضامين النداءات التي أطلقها إلا عن نصرّة عددٍ قليل من الناس، ولم يتمكن من تغيير

(١) ابن عساکر: تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٢١٨-٢٢٠.

الكتاب الثالث - محرم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م *
 الواقع الإيماني والروحي والثقافي والأخلاقي البائس الذي كانت تعيشه الأمة
 الإسلامية آنذاك إلا في نطاق ضيق، غير أنها مثلت مادة خصبة اعتمد عليها من
 جاء بعده لتغيير الواقع الفاسد.

فكان شعار (يا لثارات الحسين) منطلقاً لبث روح الإباء والعزة والقوة
 والصمود والصبر في وجه أعتى التحديات التي يمكن أن تواجهها الشعوب
 وهي تصارع الباطل والفساد الذي يسلبها حقوقها وكرامتها، وينتهك حرمتها
 ومقدساتها، ويفتك بمقومات ازدهارها ونمائها.

إن أي عملية إصلاح تستلزم تضحيات وخسائر، وتواجهها صعوبات
 وعوائق، وقد قال في بيان السنة الاجتماعية التي لا بد وأن تعاني منها
 المجتمعات الإيمانية في طريق الإصلاح: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
 يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ
 الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]،
 وهذا ما جعل الأمر في غزوة الأحزاب كما قال ﷺ: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ
 الْأَحْزَابَ﴾ في ضخامة وقوة جيش تحالف الكفر والباطل، ﴿قَالُوا﴾ وبكل
 طمأنينة وثبات: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا
 إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

إن هذه التضحيات لا تعطي ثمارها سريعاً بمقاييسنا الزمنية، ولكنها حتماً
 ستكون شجرة طيبة تمتد بجذورها في الأعماق فترسخ، وتمتد في الهواء
 فترتفع، وسيأتي اليوم الذي ستعطي فيها ثمارها، ولو بعد حين.. وقد قال تعالى:
 ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي
 السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].



المصادر والمراجع



- ١- القرآن الكريم
- ٢- الأصفى: وارث الأنبياء
- ٣- الأمينى: أبو ذر
- ٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ
- ٥- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة
- ٦- ابن أبي الدنيا: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٧- ابن الجوزي: المنتظم
- ٨- ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق
- ٩- ابن طاووس: اللهوف في قتلى الطفوف
- ١٠- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة
- ١١- ابن كثير: البداية والنهاية
- ١٢- ابن ماجة: السنن
- ١٣- أبو حيان التوحيدى: البصائر والذخائر
- ١٤- أحمد بن أعثم الكوفى: كتاب الفتوح.
- ١٥- أحمد بن حنبل: المسند
- ١٦- أحمد بن علي الطبرسي: الاحتجاج

- ١٧- البخاري: الجامع الصحيح
- ١٨- الثقفي: الغارات.
- ١٩- جلال الدين السيوطي: جامع الأحاديث
- ٢٠- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام
- ٢١- جورج جرداق: روائع نهج البلاغة
- ٢٢- حامد حفني داود: نظرات في الكتب الخالدة
- ٢٣- الحر العاملي: وسائل الشيعة
- ٢٤- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام
- ٢٥- حسن عثمان: مدونات مكتوب، صحيفة نيويورك تايمز: الحرية الأميركية نشرت الشذوذ الجنسي بالعراق
- ٢٦- حسين الشاكري: موسوعة المصطفى والعترة
- ٢٧- الذهبي: تاريخ الإسلام
- ٢٨- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن.
- ٢٩- العهد الجديد: رسالة بولس إلى أهل كورنثوس
- ٣٠- العهد القديم: سفر الأولين
- ٣١- عاشوراء النص والوظيفة وإمكانية التعبير: مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر - مجموعة مقالات.
- ٣٢- علي بن محمد المالكي: الفصول المهمة في معرفة الأئمة.
- ٣٣- العيني: عمدة القاري
- ٣٤- الغارات: ج ٢.
- ٣٥- السيوطي: تاريخ الخلفاء
- ٣٦- شمس الدين: ثورة الحسين

- ٣٧- الطبري: تاريخ الأمم والملوك.
٣٨- طه حسين: علي وبنوه.
٣٩- طه حسين: الفتنة الكبرى
٤٠- الطبري: تاريخ الأمم والملوك.
٤١- الطوسي: الأمالي
٤٢- القرشي: حياة الإمام الحسين
٤٣- الكليني: الكافي
٤٤- المتقي الهندي: كنز العمال
٤٥- المجلسي: بحار الأنوار.
٤٦- محسن الأمين: أعيان الشيعة.
٤٧- المسعودي: مروج الذهب.
٤٨- المحقق الحلي: شرائع الإسلام
٤٩- محمد بن أبي طالب: تسلية المجالس وزينة المجالس
٥٠- محمد هادي اليوسفي: موسوعة التاريخ الإسلامي
٥١- محمدي الريشهري: ميزان الحكمة
٥٢- المحمودي: نهج السعادة
٥٣- من مقال بعنوان ظاهرة الشذوذ في العالم العربي: د. نهى قاطرجي، نقلاً
عن الأب إنطوان ملكي: موقف أرثوذكسي من الشذوذ الجنسي.
٥٤- من مقال بعنوان ظاهرة الشذوذ في العالم العربي: د. نهى قاطرجي، نقلاً
عن عدنان أبو زيد: الشذوذ الجنسي يتفشى في أوساط النخب العلمية.
٥٥- مسند الربيع بن حبيب
٥٦- ميرزا حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة

- ٥٧- الميزان
٥٨- نهج البلاغة.
٥٩- نوري جعفر: الصراع بين الامويين ومبادئ الإسلام
٦٠- النويري: نهاية الأرب في فنون العرب
٦١- الهيثمي: مجمع الزوائد
٦٢- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي
٦٣- د. يوسف جعفر سعادة، الجهاد بين النظرية والتطبيق.
٦٤- يوليوس ولهاوزن: الدولة العربيّة.
٦٥- www.alitthad.com
٦٦- alwefaq.net.www
٦٧- www.fikercenter.com





ليالي عاشوراء

الكتاب الرابع

مسجد سيد هاشم البهبهاني - الكويت

محرم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م



- * البدعة في عالم السياسة (١)
- * البدعة في عالم السياسة (٢)
- * البدعة في عالم الفكر
- * كلمة الحق بين الكتمان والإفصاح
- * الخذلان: القسم الأول
- * الخذلان: القسم الثاني
- * الجهاد: القسم الأول
- * الجهاد: القسم الثاني
- * الجهاد: القسم الثالث
- * أخلاق القوّة





المقدمة



بقلم سامي محمد العلي

إنّ مناسبة الاحتفال بذكرى عاشوراء السنوية التي انطلقت وامتدّت منذ استشهاد الإمام الحسين بن علي عليه السلام على أرض كربلاء المقدّسة وحتى عامنا هذا ١٤٣٦ للهجرة - وستمّت هذه الذكرى وستستمرّ حتى يرث الله الأرض ومنّ عليها - هي مناسبة حيّة وناضجة في وجدان العالم الإسلامي، ولن أباغ إن زعمت بأننا لن نجد مناسبة أخرى، سواء كانت إسلاميّة أو غير إسلاميّة، لها حضور وتفاعل جماهيريّ ووجدانيّ مثل المناسبة العاشورائيّة.. ولن تكون.

سبب هذا التفاعل والاحتفال الجماهيري ذي الطابع التأييني بهذه المناسبة يعود لعدّة أمور، من أهمّها أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً ضدّ حكم يزيد بن معاوية ولا لطلب الحكم لنفسه ومن منطلق الطمع بالموقع أو الرغبة الشخصية، فقد كان هدفه الذي أطلقه واتّخذه شعاراً وعنواناً للخروج على الحاكم الظالم يزيد بن معاوية هو طلب الإصلاح في أمة جدّه المصطفى محمد صلى الله عليه وآله والوقوف بوجه الانحراف المؤكّد الذي تسير نحوه الأمة بسبب المخطّط الأمويّ وحكم يزيد.. فلو استمرّ حكم يزيد ومن دون أن يعرّي الإمام الحسين عليه السلام ويفضّح انحرافاتِه عن الإسلام المحمدي الأصيل، لكان مصير الإسلام الذي جاء به المصطفى صلى الله عليه وآله كمصير الأديان السماوية الأخرى التي حُرّفت من قبل أتباعها.

ولكي يحمي الإمام الحسين عليه السلام الدين من الانحراف، وبلحاظ استخدام الأمويين سياسات الترهيب والظلم والبطش تجاه معارضيهم، والترويج لصورة بديلة ومشوهة للإسلام، وانكفاء المسلمين وتراجعهم عن تحمّل مسؤولياتهم تجاه هذا الوضع المزري، ورضاهم بالصورة الظاهرية للتمسك بالإسلام والتي يبدو عليها الحكم من خلال ما يروّجه علماء السوء، حتى غدا المسلمون بلا حول ولا قوّة، لكلّ هذا، فقد احتاج سيّد شباب أهل الجنّة الإمام الحسين عليه السلام أن يتّخذ موقفاً قوياً ويوقع هزّة وجدانيّة لضمائر المسلمين تعادل هذا الانحراف الشديد والخطر الكبير الذي يهدّد وجود الإسلام في العمق.. فلم يكن ذلك التحديّ وفضح زيف هذا الحاكم وحكمه المنحرف ليتحقّق إلا بالتضحية بأعلى وأعزّ ما يملكه الإنسان الذي يحمل روح المسؤولية ويُدرك حجم الأمانة الإلهية الملقاة على عاتقه.. وهي التضحية بنفسه وبأقرب الناس إليه.. بأسرته وعائلته وأنصاره.

وهذا ما قدّمه الإمام الحسين في يوم العاشر من محرم من سنة ٦١ للهجرة، وشاركه في ذلك أهله وأنصاره عن اختيار ووعي للهدف السامي، وهو منع انحراف الدين الإلهي الذي أنزله الله عزّ وجلّ للناس هدىً ورحمة.

هذا الحدث التاريخي، وبعد أن كان قصّة موقف سجّله عشرات من الأفراد معظّمهم سقطوا صرعى على أرض كربلاء وعلى رأسهم الإمام الحسين وأخوه أبو الفضل العباس وسيق الباقون من النسوة والأطفال أسارى على يد جيش يزيد، تحوّل إلى رمز خالد لكلّ الذين يتطلّعون إلى المبادئ الخالدة للنهضة الحسينيّة، ويلتقون مع سيّد الشهداء - بصورةٍ أو بأخرى - في ما أعلنه وضحّى من أجله.

ومن خلال استمرارية الاحتفال بذكرى استشهاد الإمام الحسين بن علي عليه السلام عند المسلمين، استمرّ إحياء القيم والشعارات الحسينيّة الساعية لحفظ الدين

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
من الانحراف، ولم يعد بإمكان أحد من الناس أن يمنع الاحتفالية العاشورائية
التأبينية ومظاهر الشعائر الحسينية، بل ستبقى تنمو وتنمو إلى أن يصل شعار «يا
حسين» إلى كل زاوية من زوايا الكرة الأرضية.

وقد برز خطّان وأسلوبان رئيسيان ومتوازيان في منهج وطريقة عرض النهضة
الحسينية بأسبابها وأهدافها وأحداثها، وكلاهما يُكمل الآخر.

فالأسلوب الأول والأشهر «الطريقة التقليدية» يغلب عليه الجانب القصصي
والعاطفي والوعظي، وهو ما يميل إليه أغلب الخطباء، ويرغب فيه كثير من رواد
المجالس الحسينية وجمهورها.

والأسلوب الآخر هو الأسلوب البحثي والعلمي الذي يعرض فيه الخطباء
نهضة الإمام الحسين عليه السلام بأسبابها ونتائجها من خلال الاستغراق بدراسة
وشرح مفردات الثورة وعناوينها وشعاراتها والتحقيق في تفاصيلها التاريخية،
وذلك بشكل استدلائي وعلمي، مع ربط ذلك كله بالقرآن الكريم وسيرة النبي
وآله عليهم السلام، ومعالجة القضايا المختلفة السياسية منها والفكرية والثقافية من
منظور تاريخي ومعاصر.. ولهذا الأسلوب جمهوره ومتابعوه أيضاً، إلا أنه من
حيث العدد لا يملك امتداد وسعة الأسلوب الأول.

ولكن - وعلى كلّ حال - فإنّ الأسلوبين ناجحان ومكتملان لبعضهما البعض،
ويحقّقان هدف إيصال رسالة النهضة الحسينية إلى الناس، بل وإحياء الذكرى
ذاتها.

وقد اختار سماحة الشيخ علي حسن الأسلوب الثاني لإحياء ليالي عاشوراء،
انطلاقاً من إحساسه بأنّ الساحة الإسلامية - وخاصة الشيعة منها - تفتقر لنوع
كهذا من الخطابة التي تعتمد على البحث العلمي الاستدلائي، لاسيّما بلحاظ

أنا نحن نعيش في زمن فتنة طائفية شرسة نشبت بمخالبتها في جسد الأمة، بسبب سوء فهم - أحياناً - لما يُطرح، أو بسبب طريقة الطرح من قبل البعض الذين قد لا يُحسنون الصنعة، أو قد يكون بسبب تعمد البعض من المغرضين أو المندسين أو المنافقين لتحويل المسائل الخلافية، وعرضها بصورة مشوهة، لإشعال الفتنة بين المسلمين، ولغاية في نفس يعقوب.. ولا أشك بأنّ هناك أطرافاً وجهات مشبوهة قد تكون مرتبطة بجهات لا تريد الخير للمسلمين، وتعمل جاهدة لإثارة هذه الفتن.

لهذا ارتأى سماحة الشيخ علي حسن، وبروح المسؤولية الدينية والوطنية والأخلاقية، تقديم النهضة الحسينية بالأسلوب العلمي البحثي، وبعيداً عن الإثارة.

ولإيمانه بالعمل المؤسّساتي والجمعيّ، ومن منطلق حرصه على تحقيق محاضراته العاشورائية لأهدافها ووصولها بشكل مناسب للجمهور، فقد عمد لتشكيل فريق استشاري خاص، يعمل على تقديم المقترحات للعناوين والموضوعات التي ستُطرح في كل موسم، فتلتقي المجموعة قبل ذلك بفترة زمنية كافية، يتسنى له من خلالها التحضير للمادة التي تمّ الاتفاق عليها.. ثم تجتمع من جديد بعيد انتهاء الموسم، لتقييم المحاضرات وتبادل الأفكار ودراسة الإيجابيات والسلبيات ورصد انطباعات الجمهور، ومناقشة كل ذلك بهدف تطوير الخطاب وتجاوز السلبيات عند الإعداد والتنفيذ في الموسم القادم.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى تميّز الشيخ علي حسن باعتماده الوسائل العلمية الحديثة، كالبروجكتر والتلفزيون وبرنامج «Power Point»، بحيث تتماشى مع الأسلوب العلمي الذي اعتمده، وتُرسّخ المعلومات لدى الحضور، وتقلّل من نسبة تشتت الأذهان. ومن خلال هذا كله، يشعر الحضور وكأنّهم في دورة دراسية خاصة، تتناول القضايا العاشورائية بحرفية.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م * _____

واستمراراً لهذا الأسلوب العلميّ، فإنّنا نجد أنّ سماحته - وبعد الانتهاء من محاضراته العاشورائيّة - يمكث في المجلس ويفتح باب النقاش والحوار مع جمهوره، لاسيّما في ما يخصّ النقاط المبهمة التي تناولها في محاضراته، أو بعض تفاصيل المواقف والأحداث التي تمّ استعراضها بإيجاز أثناء المحاضرة رعايةً للوقت، أو حول بعض الاستنتاجات التي توصل إليها وقدمها من خلال البحث، والتي لربّما بقيت غير مُقنعة أو غير واضحة بالنسبة إلى البعض.

هذه الجلسة تُعدّ أسلوباً جديداً تميّز به سماحته، ويعطي الطرفين فرصة الاستفادة والتقييم للمادّة التي قُدمت، ورَفَع أيّ لبس قد حصل لدى المستمع، وهو من بين الأمور المهمّة - من وجهة نظري - التي يفتقدها المنبر الحسينيّ التقليديّ، إذ كثيراً ما نجد بعض رواد هذا المنبر ينتقدون الخطيب في ما طرّحه، وتثار لديهم علامات الاستفهام حول بعض المفاهيم والتفاصيل التاريخيّة التي عُرضت، دون أن يجدوا الإجابة عليها من خلال الخطيب نفسه، ليُفتح النقاش بعد ذلك في ما بينهم، ويتحوّل هذا النقاش في كثير من الأحيان إلى جدلٍ عقيم لا يُوصِل إلى نتيجة أو جواب مقنع.

إنّ أهميّة جلسات حوارية كهذه مع الخطيب أو المحاضر تتمثّل في أنّها تساعد على رفع الإشكالات العالقة في الأذهان، وترفع سوء الفهم الذي قد يبرز من خلال اختلاف وجهات النظر، أو القصور في العرض، أو لضيق الوقت، كما تُغلق الباب أمام الساعين للتكسّب - فحسب - من خلال المنبر الحسينيّ الشريف.

ويُضاف إلى الإيجابيات السابقة لاعتماد الشيخ علي حسن لهذا الأسلوب العلميّ، أنّه يمكن من نشر أبحاثه ومحاضراته التي قدّمها في الموسم من خلال وسائل الاتّصال والمعلوماتيّة الحديثة، من قبيل موقع (اليوتيوب)، وهذا

ليالي عاشوراء

ما يتم - فعلاً - ليلةً بليلة بعد الانتهاء من المحاضرة حيث تُنشر من خلال هذه الوسائل، لتصل إلى المهتمين والمتابعين، كما يتحوّل إلى مادة ورقية مكتوبة في صورة إصدار سنويّ يقدّمه القائمون على مسجد سيد هاشم بهباني - وهو المسجد الذي يؤمّ فيه سماحته المصلّين في الجمعة والجماعات - تحت عنوان (ليالي عاشوراء)، ومن ثمّ نشره وتوزيعه، ليتسنى الرجوع إلى مضمون المحاضرات من قبل المهتمين والباحثين.

لقد قدّم الشيخ علي حسن مادةً قرآنية دسمة من خلال محاضراته بما يدعّم الأفكار المتعلقة بالتهضة الحسينية والقضايا المطروحة على بساط البحث.. وهذا في حدّ ذاته مكنّ المستمعين من هضم الموضوع بصورة أمثل، وساعدهم على ربط القرآن الكريم بالواقع والحدث التاريخي ربطاً عملياً ومؤثراً، ممّا جعل مفردات القرآن ومعاني آياته راسخة في العقل.

ومع أنّ هذا الأسلوب العلميّ المعتمد ساعد في تحقيق هذه الأهداف، إلا أنّه بدا صعباً وغير ذي جدوى كبيرة عند شريحة اعتادت على الأسلوب النمطي والتقليدي المتعارف عليه، علاوة على الملاحظة التي أبداها البعض حول عدم قدرة هذا الأسلوب على التحريك العاطفي واستدرار الدّعة، ممّا يُفقد المنبر الحسينيّ واحدة من أهمّ ميزاته وخصائصه.

على كلّ حال، فإنّ المسار المتوازي لأسلوبَي العرض في المجالس المختلفة كفيلاً بتوفير البديل المناسب لكلّ مستمع، وعدم احتكار طريقة معيّنة وإلغاء ما سواها.

لقد ابتلي عالمنا الإسلامي اليوم بمدّعي العلم وطُلاب الشهرة الذين لا شغل لهم سوى تكفير كلّ من يخالفهم في الرأي أو في الانتماء المذهبي، وبأفرادٍ من مدّعي العلم الذين يسيئون إلى مقدّسات الآخرين، لينتج عن هذا كلّه سقوط

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
الأبرياء - باسم الإسلام وشعاراته - بين قتيل ومنحور ومشرّد ومضطهد، حتى
أصبحنا أمة متناحرة متخلّفة تنخر في جسدها الصراعات.

ومن هنا تبرز الحاجة الملحة لعلماء ومثقفين وطلاب علم يخافون الله
ويملكون الوعي والمنطق والأسلوب بما يمكنهم من نشر الحقيقة بعيداً عن
الإثارة والاستفزاز وتبادل التُّهم وقذف الآخرين ومقدّساتهم بأقذع الكلمات.
وحتى نصل إلى ما اختاره الله لنا حيث قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل
عمران: ١١٠].

وأخيراً - وفي آخر الكلام - نختم باستعادة مقولة الحوراء زينب بنت علي بن
أبي طالب عليه السلام عندما وصلت إلى مصرع أخيها الحسين فنادت: «اللهم تقبل
منّا هذا القربان».. ونحن نقول متأسّين بقولها ومقتدين به: «اللهم تقبل منّا هذا
القليل».

صفر ١٤٣٦ هـ





البدعة في عالم السياسة (١)



وردت اشتقاقات كلمة «بدع» في القرآن الكريم في أربع آيات، والآية الوحيدة التي لها علاقة بالموضوع هي قول الله ﷻ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

ومعنى ذلك أنهم ابتدعوا رهبانية لم يكتبها الله ﷻ عليهم، إما من حيث المبدأ، حيث لم تُكتب الرهبانية عليهم أساساً.. وإما من حيث الطريقة والأسلوب المتبع من قبلهم وذلك بالمغالاة فيها، أو ابتداع بعض التشريعات المتعلقة بها.. ومن الواضح أن الآية السابقة قد جاءت في موقع الذم.

• البدعة في الأحاديث

أما إذا جئنا إلى الحديث الشريف، وجدنا عدة محاور تعرّضت لها النصوص المتعلقة بالبدعة، من أهمّها:

المحور الأول: رفض البدعة، كما في الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وكلّ بدعة ضلالة، ألا وكلّ ضلالة في النار»^(١).

المحور الثاني: مقاطعة أهل البدع، كما في الحديث المعتبر المروي عن

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، باب: ٣٢، ح ١٢.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
 الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تصحبوا أهل البدع، ولا تجالسوهم، فتصيروا عند الناس كواحد منهم. قال رسول الله ﷺ: المرءُ على دين خليله وقرينه»^(١).

المحور الثالث: مواجهة البدع، كما في الحديث النبويّ: «إذا ظهرت البدع في أمّتي فليظهِر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»^(٢).

المحور الرابع: بيان خطورة البدع، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وما أُحدِثت بدعة إلا تُرك بها سنّة، فاتّقوا البدع والزموا المهيّج - الطريق الواضحة - إن عوازم الأمور - ما تقادم منها وكانت عليه ناشئة الدين - أفضلها، وإنّ مُحداثاتها شرارُها»^(٣).

• تشخيص البدعة

ولكن السؤال المهمّ الذي يقفز إلى الذهن عند هذه النقطة: كيف يمكن تمييز البدعة عن السنّة؟

فالتعريف البسيط للبدعة هو: «إدخال ما ليس من الدين في الدين».. ولكن كيف نعرف أنّ هذا الأمر بالذات ليس من الدين وأنه مُقحّم فيه؟ أي كيف نفرّق بين ما هو بدعة، وبين ما ليس كذلك؟

وبالتالي كيف نفرّق بين البدعة والاجتهاد؟ أو بين الابتداع والإبداع؟

فهل يصحّ أن نعتبر كلّ رأيٍ جديدٍ يظهر في الدائرة الدينيّة من البدع؟

هناك عدّة فرضيّات طرحها المحقّقون كمعاييرٍ للتمييز:

(١) الحرّ العاملي: وسائل الشيعة، ح ١٥٦١٠

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، باب: ١٣، ح: ٣٥.

(٣) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٤٥.

١ - معيارية صاحب الرأي

فإن كان صاحبُ الرأي الجديد غيرَ متخصص في هذا المجال، فسيكون رأيه بدعة، لأنَّه أساساً لا يملك الحقَّ في تقديم الرأي في هذا التخصص. بينما لو كان مجتهداً في الفقه الإسلامي مثلاً وقدّم رأياً فقهياً جديداً، فإننا لا نملك أن نحكم على رأيه هذا بأنّه بدعة، مهما كانت نظريته غريبة، أو غير معهودة.

ولكن فلنفترض أنّ غير المتخصص جاء بنظرية ضمن أدلةٍ طرحها، فحكّمنا بأنّها بدعة.. ثم جاء المجتهد في الفقه وقال بالنظرية نفسها، فهل يصبح ذلك الرأي إبداعاً بعد أن كان ابتداءً، لمجرّد أنّ صاحب الرأي قد تغيّر؟!

من الصعب قبول ذلك، ولعلّ في ما روي عن الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إشارة إلى ذلك حيث قال: «انظرُ إلى ما قال، ولا تنظرُ إلى من قال»^(١).

٢ - المعيارية الزمنية

فكلّ أمر لم يعرفه علماء الإسلام من قبل أو لم يعمل به المسلمون حكّمنا بأنّه بدعة. بغضّ النظر عن كون صاحب الرأي عالماً مفكراً، أو فقيهاً مجتهداً، أو غير ذلك.

ويلاحظ على هذا المعيار أنّ الدليل الذي يقدّمه صاحب الرأي لن تكون له قيمة مهما كان مُحكماً، ومن غير المنطقي الالتزام بذلك. ثم ما السقف الزمني الذي نقف عنده لنبذع كلّ رأي جديد بعده؟ ومن الذي أعطى للسابقين حقّ التفكير والإبداع، بينما سلّبه من الذين جاؤوا من بعدهم؟ علاوة على أنّ الأخذ بهذا المعيار سيدفع إلى إغلاق باب الاجتهاد إلا في ضمن مقولات المتقدمين، وهذا مرفوض.

(١) الأمدى: غرر الحكم، الحكمة ١٧٤.



٣- معيارية النصّ

بأن نعرض الرأي على الكتاب والسُّنة، فإذا لم يرد فيه نصٌّ بخصوصه في الكتاب والسُّنة، ولم يشمله عام أو مطلق فيهما، فهو حينئذٍ بدعة.

ولكن المشكلة في هذا المعيار أنّ لكلِّ مجتهد تفسيراً للآية أو الحديث، وعليه سيختلف التقييم، وبالتالي سنرجع إلى المربّع الأول.

٤- معيارية الدليل، ويتم هذا بطريقتين:

الأول: اعتبار أنّ البدعة هي القول الذي لا يُقام عليه دليل نصّي أو غير نصّي. ولأمير المؤمنين عليه السلام كلمة في ذلك حيث قال: «وإنّما الناس رجُلان: متَّبِعٌ شرعة، ومبتدِعٌ بدعة، ليس معه من الله سبحانه برهانٌ سنّة، ولا ضياءٌ حُجّة»^(١).

الثاني: ورود نصّ معتبر يدلّ على أنّ هذا الأمر بدعة، من قبيل الحديث المعتبر الذي رواه محمد بن مسلم وزرارة بن أعين والفضيل بن يسار عن الإمامين محمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: «... وصلاة الضُّحى بدعة»^(٢).

• حساسية الموضوع

مّمّا سبق يتّضح لنا مدى حساسيّة الموضوع وتداخلاته، الأمر الذي يدفعنا من باب الالتزام بالقيّم والأمانة العلمية إلى التريث في اتّهام أصحاب المقولات الجديدة بالبدعيّة، وكما نحتاط في الطهارة وغيرها، نحتاط في اتّهام الآخرين، ومن المفترض أن نحافظ على حقّ الاختلاف، بشرط ألاّ يؤدّي هذا الاختلاف إلى التنازع المضعّف للأمة، وأن يكون شعارنا مع مَنْ يخالف هذا الأسلوب هو

(١) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

(٢) الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٨٧.

دلالة قول الله ﷻ: ﴿لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

• سَعَةُ دَائِرَةِ الْبِدْعِ

هل البدعة مختصة بالقضايا العبادية والدينية المحضة؟ فنحن - عادةً - عندما نتحدث عن البدعة تتبادر إلى أذهاننا بعض الأحكام الشرعية المختلف فيها بين أتباع المذاهب الإسلامية من قبيل: التكفير في الصلاة - صلاة التراويح - قول حيّ على خير العمل في الأذان - قول الصلاة خير من النوم في أذان الفجر - قول أمين في الصلاة - العمرة الرجبية وغير ذلك.

وكذلك فإن البدعة - في معارفنا - تشمل قضايا من قبيل تجسيم الله ﷻ وقدم القرآن الكريم وزيارة قبور الأنبياء والتوسل بالأفراد وأمثال ذلك مما تتراسق به المذاهب بتهمة البدعية. فهل البدعة خاصة بذلك؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نتذكر أولاً أن مهمة الأنبياء ﷺ في تحمّل الرسالة لا تقتصر فقط على القضايا الإيمانية والعبادية والأخلاقية، بل كما قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فقد كان من مسؤولياتهم أن يدفعوا نحو الحكم وإدارة أمور مجتمعاتهم بالعدل والقسط، سواء أكانوا هم الحكام، كداود وسليمان ومحمد ﷺ، أم غيرهم كطالوت وذو القرنين.

وهذا ما دلّت عليه بعض النصوص التي تحدّثت عن البدعة، من قبيل ما جاء في كتاب الإمام علي عليه السلام إلى معاوية: «وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً كان ذلك لله رضى، فإن خرج من أمرهم

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه، فإنّ أبي قاتلوه على اتّباعه غير سبيل
المؤمنين»^(١).

فالإمام يتكلّم عن الحُكم وطريقة اختيار الحاكم، والبدعة هنا متعلّقة بهذا
الشأن السياسيّ.

وهكذا نجد الإمام عليه السلام يتحدّث عن البدع السياسيّة وتأثيرها في حدوث
الفتن في المجتمعات، قال: «إنّما بدء وقوع الفتن أهواءٌ تُتبع، وأحكامٌ تُبتدع،
يُخالف فيها كتابُ الله، ويتولّى عليها رجالٌ رجالاً، على غير دين الله»^(٢).

• كتاب الإمام الحسين

ومن هنا نفهم ما جاء في كتاب الإمام الحسين عليه السلام الذي أرسله إلى بعض
كبار شخصيّات البصرة يستنصرهم لمساندته في مشروع الثورة، وهو بعدُ في
الحجاز، ويتضمّن حديثاً عن إحياء البدعة.

فعن أبي عثمان النهدي، قال: «كتب حسينٌ مع مولى لهم يقال له: سليمان،
وكتب بنسخة إلى رؤوس الأخماس بالبصرة»^(٣) وإلى الأشراف؛ فكتب إلى مالك
بن مسمع البكري، وإلى الأحنف بن قيس، وإلى المنذر بن الجارود، وإلى مسعود
بن عمرو، وإلى قيس بن الهيثم، وإلى عمرو بن عبيد الله بن معمر، فجاءت منه
نسخة واحدة إلى جميع أشرافها: «أمّا بعد، فإنّ الله اصطفى محمّداً على خلقه،
وأكرمه بنبوّته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٦.

(٢) م.ن، الخطبة ٥٠.

(٣) كانت البصرة قد قسّمت خمسة أقسام، ولكلّ خمس منها رئيس من الأشراف. فالخمس الأول: العالية،
والخمس الثاني: بكر بن وائل، والخمس الثالث: تميم، والخمس الرابع: عبد القيس، والخمس الخامس: الأزدي.
انظر لسان العرب: مادة حَمَسَ.

به، وكنا أهلَه وأولياءه وأوصيائه وورثته وأحقَّ الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحقَّ بذلك الحقَّ المستحقَّ علينا ممَّن تولَّاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحرَّوا الحقَّ، فرحمهم الله، وغفر لنا ولهم. وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه، فإنَّ السُّنَّة قد أُميتت، وإنَّ البدعة قد أُحييت، وإنَّ تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرِّشاد، والسلام عليكم ورحمة الله».

فكلَّ مَنْ قرأ ذلك الكتاب من أشرف الناس كتَمَه، غير المنذر بن الجارود، فإنَّه خشي بزعمه أن يكون دسيساً من قِبَل عبيد الله، فجاءه بالرسول من العشيَّة التي يريد صبيحتها أن يسبق إلى الكوفة، وأقرأه كتابه، فقدَّم الرسول فُضْرِبَ عُنُقَه.

وصعد عبيد الله منبر البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فوالله ما تُقرن بي الصَّعبة^(١)، ولا يُقعقع لي بالشَّنان^(٢)، وإنِّي لنكِلُّ لمن عاداني، وسِمُّ لمن حاربني، أنصفَ القارَةَ مَنْ رامها^(٣). يا أهل البصرة، إنَّ أمير المؤمنين ولأني الكوفة وأنا غادٍ إليها الغداة، وقد استخلفتُ عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان، وإيَّاكم والخلاف والإرجاف، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلافٌ لأقتلنَّه وعريفه ووليَّه^(٤)، ولأخذن الأذني بالأقصى حتى تستمعوا لي، ولا

(١) يشبه البصرة بناقة صعبة الانقياد وهي مع ذلك تحت قيادته وسيطرته بسهولة.

(٢) الشنان جمع شن، وهو القرية الخلق إذا قعقع نفرت منه الإبل؛ يضرب للرجل الشرس الصعب، لا يُهدد ولا يفرغ.

(٣) أي إنه كفؤ لهذه المهمة. القارة: قبيلة، وهم عُصَل والديش ابنا الهون بن خزيمة، وإنما سُمُّوا قارة لاجتماعهم والتفافهم، وهم رُماة الحدق في الجاهلية، وهم اليوم في اليمن، ويزعمون أن رجلين التقيَا أحدهما قاري، فقال القرى: إن شئت صار عُنُقك، وإن شئت سابقك، وإن شئت راميتك، فقال الآخر: قد اخترت المرامة، فقال القاري: قد أنصفتني، وأنشأ يقول:

قد أنصفَ القارَةَ مَنْ رامَها إننا إذا ما فِئَةٌ نلقاها
نرُدُّ أولَها على أحرَها

(٤) عريف القوم نقيبهم، وهو دون السيد. والولي هو السيد.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م _____ *

يكون فيكم مخالف ولا مُشاقّ، أنا ابن زياد، أشبهته من بين مَنْ وَطىء الحصى، ولم ينتزعني شَبَهُ خالٍ ولا ابنِ عَمٍّ»^(١).

من البيّن من جوّ الرسالة أنّ مراد الإمام إن لم يكن البدع السياسية على وجه الخصوص، فعلى الأقل كان قاصداً لها كمفردة من مفردات البدع التي عمل على نشرها بنو أمية خلال فترة حكمهم.

وستتضح الصورة أكثر حينما نفصّل الحديث حول البدع السياسية في القسم الثاني من الموضوع بإذن الله ﷻ.



(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٨٠-٢٨١.



البدعة في عالم السياسة (٢)



أرسى الإسلام عدة قواعد للسياسة وإدارة شؤون العباد، ومن أهمها:

١- العدل: قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. ومن هنا كانت ركيزة حركة الإمام المهدي «عجل الله تعالى فرجه» هي بسط العدل في الأرض، ففي النبوي المشهور بألفاظ مختلفة: «لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً». قال: ثم يخرج رجلٌ من عترتي - أو من أهل بيتي - يملؤها قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وعدواناً»^(١).

٢- المساواة أمام القانون: وهذا ما أقرّه النبي ﷺ حين وقف في حجة الوداع في يوم عرفة وألقى خطابه المشهور الذي رسم من خلاله معالم الإسلام في الفكر والعبادة والسياسة والاجتماع والحقوق وغير ذلك فكان في ما قال: «الناس سواسية كأسنان المشط»^(٢).

٣- اعتماد أساس الكفاءة في اختيار الحاكم: والنصوص التي تشرح سمات هذه الكفاءة عديدة، ومن بينها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تصلح

(١) أحمد بن حنبل: المستدرج ١١٦٢١.

(٢) السرخسي: المبسوط، ج ٥، ص ٢٣.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

* الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي، حتى يكون لهم كالوالد الرحيم»^(١).

٤- إحقاق الحقوق وإعطاء كل ذي حق حقه: دون أن تتدخل العناوين الدينية أو المذهبية أو العشائرية أو غير ذلك في تجاوز هذا المبدأ، وقد كان الإمام علي عليه السلام حاسماً وحازماً جداً في ذلك، بدلالة عدة أحداث ونصوص، من بينها ما جاء في رسالته إلى واليه على البصرة عبدالله بن عباس حيث قال له: «والله لو أنّ الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هواده، ولا ظفرا منّي بإرادة، حتى آخذ الحق منهما، وأزيح الباطل من مظلمتهما»^(٢).

٥- الحفاظ على الإسلام ومبادئه: ففي كتاب الإمام علي لمالك الأشر حين ولاه على مصر: «أمره بتقوى الله وإيثار طاعته وأتباع ما أمر به في كتابه، من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحدٌ إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه»^(٣).

٦- الحاكم في خدمة الشعب: على خلاف الصورة التي اعتادت عليها الشعوب، حيث تكون في خدمة الحاكم المستكبر عليهم والمستفيد من خيرات البلاد وممتلكات العباد لزيادة ثرواته واستمرار ملكه المستبد، ضمن تبريرات باردة، تصوّره في هيئة القائد الضرورة الذي لا تصلح البلاد إلا تحت ظلّه. وفي كتاب الإمام علي لواليه على آذربيجان

(١) الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٠٧.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٤١.

(٣) م، ن، الكتاب ٥٣.

الأشعث بن قيس: «إِنَّ عَمَلَك لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ، وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرَعَى لِمَنْ فَوْقَكَ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رِعْيَةٍ - بِحَيْثُ تَتَصَرَّفُ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَتَهْضِمُ حَقُوقَهُمْ - وَلَا تُخَاطِرُ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ»^(١) ودليل مؤكّد تتوثّق من خلاله أنّ تصرّفك في هذا المال موافق لحكم الشرع.

٧- الرّفق بالشعب: فكريسي الحكم له تأثير مشهود وفّعال في نفخ روحية الاستبداد والاستكبار في شخصية الحاكم وتصرفاته، ولو لم يكن كذلك في بداية حكمه، أو لم ينو ذلك أصلاً.. ومردّد ذلك إلى عدّة عوامل من بينها فخامة الأجواء المحيطة به، وكثرة التصفيق والتهليل له، والثناء عليه مهما أخطأ أو قصّر أو أساء! الأمر الذي يستدعي المراقبة الدائمة والتنبيه المستمرّ كي لا يستغرق في هذه الحالة المرضية ويستسلم لآثارها وتبعاتها.. وفي كتاب الإمام علي عليه السلام لمالك الأشر: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم»^(٢).

• بدع سياسية

وعليه، فإنّ عدم الالتزام بذلك يُعدّ ابتداءً في الحكم.. فالحاكم إذا لم يعمل بالعدل، فهو مبتدع لسياسةٍ مخالفةٍ لسياسة الإسلام التي أقرّها القرآن المجيد وعمل بها النبيّ الأكرم ﷺ.. وإذا لم يُساوِ بين المسلمين في حقوقهم وميّز بينهم على أساس القومية أو القبليّة أو غير ذلك فهو مبتدع لسياسةٍ مخالفةٍ لسياسة الإسلام.. وعندما يورث الحاكم الحكم لأحد أبنائه لمجرد أنّه ابنه، لا على أساس المؤهّلات والصلاحية لهذا المنصب فهو مبتدع لسياسةٍ مخالفةٍ لسياسة الإسلام.

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٥.

(٢) م.ن، الكتاب ٥٣.

• بين الحسن ويزيد

ولذا لا نجد احتجاجاً لأحد على حكم الإمام الحسن المجتبي حين بويح بالخلافة من بعد أبيه علي «عليهما السلام»، إما التزاماً بالنص، أو من جهة الاختيار والمبايعة.. لأن ذلك كان قائماً على مبدأ الكفاءة والصلاحية.. بينما نجد أن الدنيا قامت ولم تقعد عندما سوّق معاوية لابنه يزيد ليكون حاكماً من بعده، من جهة تحويل الحكم إلى مجرد وراثته لا تعتمد على توفر الموهلات اللازمة في الحاكم.

وقد روى المؤرّخون أنه: «عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد، فأرسل إلى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم، فقَبَلَهَا، فلمَّا ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر: «هذا أراد؟! إنَّ ديني عندي إذن لرخيص». وامتنع.

ثم كتب معاوية بعد ذلك إلى مروان بن الحكم: «إني قد كُبرت سنِّي، ودقَّ عَظْمي، وخشيتُ الاختلاف على الأُمَّة بعدي، وقد رأيت أن أنتخِبرَ لهم من يقوم بعدي، وكرهتُ أن أقطعَ أمراً دون مشورةٍ من عندك، فاعرض ذلك عليهم، وأعلمني بالذي يردُّون عليك».

فقام مروان في الناس فأخبرهم به، فقال الناس: «أصاب ووفَّق، وقد أحببنا أن يتخَيَّرَ لنا فلا يألُو». فلا يقصِّر في ذلك، ويبدل جهده في هذا السبيل «فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب يذكر يزيد، فقام مروان فيهم وقال: إنَّ أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يألُ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده!».

فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: «كذبتَ والله يا مروان وكذب معاوية! ما الخيار أردتُما لأُمَّة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلَّما مات هرقل قام هرقل».

ليالي عَشُورَاءُ ❁

فقال مروان: «هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ [الأحقاف: ١٧]»^(١). فسمعت عائشة مقالته فقامت من وراء الحجاب وقالت: «يا مروان! يا مروان!».

فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه. فقالت: «أنت القائل لعبد الرحمن إنه نزل فيه القرآن؟ كذبت! والله ما هو به ولكنه فلان بن فلان، ولكنك أنت فضض من لعنة نبي الله»^(٢).

وقام الحسين بن عليّ فأنكر ذلك، وفعل مثله ابن عمر وابن الزبير»^(٣).

• من أهداف نهضة الحسين

ومن هنا ندرك أنّ من محرّكات الإمام الحسين عليه السلام في نهضته مواجهة البدع السياسيّة التي جاء بها الأمويّون وأضفوا عليها لباس الشرعيّة، وكأنّه عليه السلام نهض في ما نهض من أجله، استجابةً لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله القائل: «إذا ظهرت البدع في أمّتي فليُظهِرِ العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»^(٤).

ونهُضته بشارَةٌ ووعدٌ نبويّ تحقّق، ففي الحديث المعتر عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ عند كل بدعة تكون من بعدي يُكاد بها الإيمان - أي أنّ يُمكر ويُخدع أو يُحارب بها الإيمان وأهله لكسره وإطفاء نوره - ولياً من أهل بيتي، موكلاً به - أي بالإيمان بأمر الله لحفظه ونصرته - يذُبُّ عنه، ينطق بإلهام من الله ويُعلن الحقّ ويُنوره، ويردُّ كيد

(١) تنمّة الآية: ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

(٢) وفي تفسير ابن كثير في الآية أنّها قالت: «والله ما هو به ولو شئت أنّ أسمى الذي نزلت فيه لسميته، ولكن رسول صلى الله عليه وآله لعن أبا مروان ومروان في صلبه».

(٣) ابن الأثير: في الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٤١.

(٤) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، باب: ١٣، ح: ٣٥.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م _____ *
الكائدين، يُعَبَّرُ عن الضعفاء - أي يتكلّم عن جانب الضعفاء العاجزين عن دفع
المكاييد والشُّبهات ويدفعها عنهم لطلاقة لسانه وفصاحة بيانه وكثرة علومه
وإضاعة برهانه - فاعتبروا يا أولي الأبصار وتوكلوا على الله»^(١).. وهكذا كان
الحسين.

• خطبة الإمام الحسين

ومن هنا فمن الخطأ أن نحجّم دلالة ما جاء في خطبة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ
التي ألقاها في منطقة «البيضة» الواقعة جنوب الكوفة، في إطار البدع العبادية
فقط.

وأما خبر الخطبة فكما يلي: «كان مجيء الحرّ بن يزيد ومسيره إلى الحسين
من القادسية - جنوب غرب الكوفة - وذلك أنّ عبيدالله بن زياد لما بلغه إقبال
الحسين بعث الحصين ابن تميم التميمي وكان على شُرطه، فأمره أن ينزل القادسية
وأن يضع المسالح - المفارز والنقاط العسكرية للتفتيش - فينظم ما بين القططانة
إلى خُفّان - كلاهما بالقرب من الكوفة في الناحية الجنوبية منها وفي طريق سفر
الحجاج قديماً - وقدم الحرّ بن يزيد بين يديه في هذه الألف من القادسية فيستقبل
حسيناً. قال: فلم يزل مُوافقاً حسيناً حتى حضرت الصلاة، صلاة الظهر، فأمر
الحسينُ الحجاج بن مسروق الجعفي أن يؤدّن، فأدّن.

فلما حضرت الإقامة خرج الحسين في إزار ورداء ونعلين فحمد الله وأثنى
عليه ثم قال: «أيّها الناس، إنّها معذرة إلى الله وَعَلَيْكُمْ وإليكم. إنّني لم آتكم حتى أتني
كتبكم وقدّمت عليّ رسلكم، أنّ أقدّم علينا، فإنّه ليس لنا إمام، لعلّ الله يجمعنا
بك على الهدى. فإنّ كنتم على ذلك، فقد جئتكم، فإنّ تُعطوني ما أطمئنّ إليه

(١) المازندراني: شرح الكافي، ج ٢، ص ٢٨٩ -

ليالي عَشُورَاءُ _____ ❁

من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم».

قال: فسكتوا عنه وقالوا للمؤذن: أقم. فأقام الصلاة. فقال الحسين عليه السلام للحرّ: أتريد أن تصلي بأصحابك؟ قال: لا، بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك. قال: فصلى بهم الحسين. ثم إنه دخل واجتمع إليه أصحابه وانصرف الحرّ إلى مكانه الذي كان به...

فلما كان وقت العصر أمر الحسين أن يتهيأوا للرحيل، ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وأقام فاستقدم الحسين فصلّى بالقوم ثم سلّم وانصرف إلى القوم بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله. ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتني كتبكم وقدمت به عليّ رسلكم، انصرفت عنكم».

فقال له الحرّ بن يزيد: «إنّا والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر. فقال الحسين: «يا عقبة بن سمعان، أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إليّ».

فأخرج خرجين مملوءين صحفاً، فنشرها بين أيديهم. فقال الحرّ: «فإنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك. وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نُقدمك على عبيدالله بن زياد».

فقال له الحسين: «الموت أدنى إليك من ذلك». ثم قال لأصحابه: «قوموا فاركبوا». فركبوا وانتظروا حتى ركب نساؤهم، فقال لأصحابه: «انصرفوا بنا». فلما ذهبوا لينصرفوا حال القوم بينهم وبين الانصراف.

فقال الحسين للحرّ: «ثكلتك أمك! ما تريد؟». قال: «أما والله، لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركت ذكر أمّه بالثكل أن أقوله كائنًا من كان، ولكن والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يُقدر عليه». فقال له الحسين: «فما تريد؟». قال الحرّ: «أريد والله أن أنطلق بك إلى عبيدالله بن زياد». قال له الحسين: «إذن والله لا أتبعك». فقال له الحرّ: «إذن والله لا أدعك». فترادّا القول ثلاث مرات، ولما كثر الكلام بينهما قال له الحرّ: «إنّي لم أومر بقتالك، وإنّما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة. فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة، تكون بيني وبينك نصفاً، حتى أكتب إلى ابن زياد، وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه، أو إلى عبيدالله بن زياد إن شئت، فلعلّ الله إلى ذاك أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك»...

عن عقبة بن أبي العيزار: إن الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحُرْمِ اللَّهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا بِقَوْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مُدْخَلَهُ. أَلَا وَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ، وَتَرَكَوا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرُوا الْفُسَادَ، وَعَطَّلُوا الْحُدُودَ، وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفِيءِ، وَأَحْلَوْا حَرَامَ اللَّهِ، وَحَرَّمُوا حَلَالَهُ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ غَيَّرَ...»^(١).

إنّ الإمام عليه السلام ركّز في خطابه على كيفية الحكم، وصفات وسلوكيات الحاكم، ومواجهة البدع المتعلقة بذلك، وبالتالي فإنّ البدعة التي أُحييت، والسنة التي أُميتت مُتعلّقة بالفساد في الحكم.. بتوريث الحكم بصورة باطلة.. بالظلم..

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٠٦-٣٠٨.

ليالي عاشرَاء _____ ❁

بأخذ عباد الله خولاً.. بغضب الحقوق.. بالمجاهرة بالمعاصي، وغير ذلك من صور البدع السياسيّة التي ضجّت منها الأمة الإسلاميّة حينذاك بسبب ممارسات وسياسات بني أميّة.

ولذا نهض الحسين عليه السلام ثائراً، ساعياً نحو إقامة حكم الله، والعمل بسنة رسول الله، ومحاربة البدعة، إلا أنّ أغلب الذين وعدوه بالتّصريح خذلوه.. فلمّا استقرّ بكربلاء محاصراً، وخيّر بين الذلّة والموت، أثر القتل في سبيل الله والشهادة، ليكون الطّف في كلّ مشاهدته صدمةً للأمة تُخرجها من صمتها وذللّها، وتواجه الباطل والظلم والفساد والبدعة.





(٣)

البدعة في عالم الفكر



«وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإنَّ السُّنة قد أميتت، وإنَّ البدعة قد أُحييت»^(١).. سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام.

ذكرتُ مسبقاً أنّ البدعة لا تقتصر على مجال الأحكام الشرعيّة، كما أنّها لا تقتصر على القضايا الدينية البحتة.

ومن هنا فإنَّ الإمام الحسين عليه السلام في كلمته السابقة لم يعنِ خصوص البدع الفقهيّة التي عادةً ما تتبادر إلى الذهن عند الحديث عن البدعة ومفرداتها، بل عنى البدع الفكرية والسياسية أيضاً.

• المشروع الأمويّ

فقد عمد بنو أمية إلى التلاعب في المفاهيم الإسلامية والمفردات الإيمانية ما استطاعوا، مستغلين قوّة السّلطة والإرهاب، وممعنين في التمويه على الناس من خلال الاستفادة القصوى من الآيات المتشابهة، وعن طريق وضع الحديث وتحريفه.

وبالتالي كانوا مصداقاً حقيقياً وبارزاً لمبتغي الفتنة في قوله الله وعلى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٨٠.

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴿آل عمران: ٧﴾.

وكان أهم ما يشغلهم هو كيفية السيطرة على الأمة الإسلامية من خلال مسخ هويتها الحضارية، واستبدال القيم والمفاهيم الإسلامية بأخرى جاهلية، أو مستعارة من أمم وديانات أخرى، أو مبتدعة على أيديهم، بحيث تحمل تلك البدائل خصائص ومقومات الدفع بالأمة إلى الاستسلام للوضع القائم، والتخلي عن مسؤوليّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير، واعتبار المخالف لذلك مارقاً على الدين.

• عقيدة الجبر

من الأمثلة الخطيرة لما سبق هو نشر وترسيخ عقيدة الجبر وتلخص هذه الفكرة المبتدعة في أنّ لكلّ إنسان قدراً يقدره الله ﷻ، بحيث يكون الفرد مسلوب الإرادة في الواقع، ولا اختيار له في ما يصدر عنه، أو ما يجري حوله، لأنّ هذا القدر محتوم، والإنسان ليس أكثر من آلة وأداة لتحقيق هذه المشيئة الإلهية، وهو بمثابة ريشة في مهبّ الريح، لا حول لها ولا قوّة.

وبتعبير عمرو بن العاص وهو يتكلّم عن بعض مُجريات غزوة بدر الكبرى: «ولكنّ الله لم يرد أن نُسلم يومئذٍ، لكنّه أحرّ إسلامنا إلى ما أراد»^(١).

هكذا وبكلّ بساطة، يتمّ التخلي عن مسؤوليّة الكفر ومحاربة الإسلام، ويُلقى ذلك كلّ على عاتق التقدير الإلهي!

وهذه الفكرة ذات جذور جاهلية، فقد قال الله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٩٢.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م
حَتَّى ذَاقُوا بِأَسْنَانِكُمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مَنِّ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ [الأنعام: ١٤٨].

• هل من مبالغة؟

وقد يتصوّر القارئ في الوهلة الأولى أنّ الحديث عن خطورة هذه الفكرة المغلوطة أمرٌ مبالغ فيه، فما أكثر الأفكار المغلوطة المنتشرة بين الناس دون أن تتسم بخطورة على مستوى الفرد أو الأمة.

ولكن التأمّني في قراءة الموضوع يؤكّد تلك الخطورة إلى أقصى حدّ. وسأختار لبيان ذلك مقاطع من كتاب (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) للعالم الأشعري الدكتور المصري المعاصر: علي سامي النشار.

قال في المجلد الأول من كتابه - الذي يُعدّ من أهم المصادر المعاصرة في القراءة التاريخية للفكر الإسلامي - عن هذه البدعة والهدف منها: «إنّ كل ما يحدث على المسرح السياسي الإسلامي - من يحكم.. من يُسيطر بالمكر.. الاغتيالات التي تنال المعارضة.. التنكيل بالناس.. الفساد المستشري.. وأمثال ذلك.. كلّ - إنما قُدّر أزلاً»^(١).

• بنو أمية، القدر المحتوم

وقال في موضع آخر: «فإذا آمن المجتمع الإسلامي حينئذ بالمشيئة الإلهية التي لا رادّ لها، وبالقدر المحتّم الذي لا فكاك له، سلب المجتمع الاختيار، ولم يعد له غير طريق واحد، الطريق الذي أراده بنو أمية للمسلمين»^(٢) وهو الركون إلى هذا الواقع، والسّمع والطاعة المطلقة للحاكم الظالم.

(١) النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ١، ص ٣١٥.

(٢) م.ن. ص ٣١٤.

ليالي عَشُوراء _____ *

أي إن ترسيخ هذه الفكرة لا يعني سوى أنّ بني أمية هم القدر المحتوم الذي يجب أن يستسلم له المجتمع ولا يُعَارَض ولا يُقاوم!

ثم قال في بيان النتيجة الخطيرة المترتبة: «وقد كاد المجتمع الإسلامي حينئذ أن ينهار حين سُلبت منه كلّ قوى الاختيار»^(١).

وقد اعتمد الأمويون على «وعاظ السلاطين» في نشر هذه البدعة، قال: «أعلن قرّاء الشام فكرة الجبر المطلق، وأنّها هي التفسير الوحيد للنصوص القرآنية. فعلوا هذا إرضاء للخليفة المغتصب، وأمر الخليفة عمّاله في مختلف بقاع العالم الإسلامي بنشر الفكرة، وأخذ الناس بها، فليؤمن بها الكبير قسراً، ويرضعها الصّغير، ويحبوبها وعليها»^(٢).

• محورية البصرة

وكانت البصرة إحدى المحطات المهمّة لبثّ هذه البدعة، فهي: «أمويّة كما يقولون، تدين بالولاء لبني أمية، حين أضفى بنو أمية المال وأغدقوه على كثير من رجالها، وعاش هؤلاء الأتباع عيشة الترف الخيالي، وشاعت الفاحشة بين هؤلاء، وانتشرت الحياة الرخيّة في قصور البصرة. كان أهلها أكثر المسلمين فساداً، تحلّلوا من كثير من التكاليف، وارتووا من الفواحش المستحدثة، وشاعت الفكرة أنه قدّر علينا ولا محيص»^(٣).

وبحسب النّشار فإنّ ممّا ساعد على أداء البصرة لهذا الدور ابتعاد طبقة الأغنياء والطبقة الممتازة من أهلها عن الالتزام بالشريعة الإسلامية الأمر الذي

(١) النّشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ١، ص ٣١٤.

(٢) م.ن. ص ٣١٤.

(٣) م.ن. ص ٣١٥.

جعل «الشريعة فقط لتلك الجماعة الكادحة الفقيرة»^(١).

كما أنها امتلكت في بُنيّتها الاجتماعية ما ساعد علي ذلك، حيث كانت تستقطب الأعراق المختلفة من كلّ حذب وصوب، وكلّ يحمل دينه وثقافته وخلفياتهِ الفكرية، مما أدّى إلى تغلغل تلك الأفكار والمعتقدات والبدع والخرافات بين المسلمين.

ولالإمام عليّ عليه السلام أكثر من نصّ في ذمّ أهل البصرة، وذكر بعضها في نهج البلاغة، ولو لم نقرأ الواقع التاريخي لهذه المدينة وأهلها، لربّما لن نفهم خلفيات كلمات الإمام عليّ عليه السلام بشأنها، ومنها قوله: «أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ - فِهِي وَاهِنَةٌ ضَعِيفَةٌ لَا تَمْتَلِكُ ثَبَاتًا فِي نَفْسِكُمْ وَلَا عَمَقًا فِي وَجْدَانِكُمْ - وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ - إِذْ لَا تَلْتَزِمُونَ بِالْمَوَاقِيقِ وَالْعَهْدِ - وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ - مَالِحٌ - الْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ - إِذْ يَعِيشُ فِي جَوْ مَبُوبٍ بِالْمَعَاصِي فَهُوَ مَعْرُضٌ فِي كُلِّ لِحْظَةٍ أَنْ يَقَعَ فِي الْإِثْمِ - وَالشَّأْخِصُ عِنْدَكُمْ - فَيَتَعَدُّ تَارِكًا مَجْتَمِعَكُمْ الْأَثِيمِ - مُتَدَارِكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ»^(٢).

• ردّة فعل متطرّفة

وبالتالي وجدّت فكرة الجبر والقدر موطأ قدم في البصرة، فجاءت ردّة الفعل العلمية من بعض المخلصين من علماء الأمة.. وإنّ أخطأ منهم من أخطأ في تفاصيل ما طرحوه، إلا أنّ مُنطلقهم كان مواجهة ذلك الباطل الفكري والإيماني المؤدّي إلى الباطل السياسي والاجتماعي.

من ردود الفعل هذه ما صدر عن «مَعْبَدِ الْجَهَنِّيِّ» الذي يُعدّ أحد المتأثرين بالصحابي الجليل أبي ذرّ الغفاري.

قال د. النشار: «نشأ في المدينة وتلمذ على أبي ذر... كان في صحبة أبي ذر

(١) المصدر السابق. ص ٣١٥.

(٢) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٣.

ليالي عَاشُورَاءُ _____ ❁

في رحلته المشهورة إلى الشام حين أنكر على معاوية والأموية في دمشق ثراءهم وترفهم وتلاعبهم ببيت المال»^(١).

ثم تحدّث عن بداية ابتداع فكرة الجبر والقدر من قبل الأمويين وردّة فعل الصحابي أبي ذر «رضوان الله عليه»: «وأعلن أبو ذر نظريته أنّ المال مال المسلمين، ونتج عن هذا إعلان الأمويّة لنظريّة الجبر الإلهي المطلق، وأنّ القدر الإلهي هو الذي فرض وجودهم على أعناق المسلمين وعلى بيت مالهم. ولاشكّ أنّ معبداً كان يلحظ الأحداث مع أستاذه، وحين نفى عثمانُ أبا ذر، وأعادته إلى الحجاز، عاد معبداً»^(٢).

ومرّت الأيام ووجد معبد ضرورة مواجهة بني أمية في واقعهم الظالم والفساد من خلال مواجهة الأفكار التي يُخدّرون بها المجتمع، ومن بينها عقيدة الجبر.

قال معبد - مستنكراً - في أوّل لقاء له بالحسن البصري في البصرة: «يا أبا سعيد، إنّ هؤلاء الملوك سيفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم، ويقولون إنّما تجري أعمالنا على قدر الله»^(٣).

من الواضح عند معبد أنّ البدعة الفكرية الأموية ما هي إلا وسيلة لتبرير الواقع الفاسد، ولسلب إرادة المجتمع.

فواجه ذلك بفكرة على الضدّ منها، حيث اعتبر أنّ الإنسان مطلق الاختيار في أفعاله وإرادته، وهذه الفكرة وإن لم تصحّ على إطلاقها بهذه الصورة، إلا أنّها جاءت كردّة فعل عنيفة لتلك البدعة الأموية.

فالمقرّر عندنا أنّ الإنسان مختارٌ في أفعاله، دون أن نفى الإرادة الإلهية والقضاء

(١) المصدر السابق. ص ٣١٨.

(٢) م. ن. ص ٣١٨.

(٣) صائب عبد الحميد: المذاهب والفرق في الإسلام، ص ٧٥.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

والقدر، من خلال خلق الإنسان والقوانين المودعة في الوجود، والإرادة الإلهية التي يمكنها أن تتدخل... إلخ.

على أية حال، حَقَّقَت الفكرة التي طرحها مَعْبِد الجُهَنِيِّ عند مخالفي بني أمية - في المدينة المنورة - انتشاراً واسعاً.

ثم انتقل مَعْبِد إلى البصرة لنشر أفكاره، ولعلّه تعمّد الذهاب إلى تلك المدينة التي اعتبرناها من أهم محطات الأمويين في نشر أفكارهم ليواجهها في معقلها. ونجح في مهمته هذه، حتى قال الشيخ محمد زاهد الكوثري: «ودام مذهبه بين دهماء الرواة - الجماعة الكثيرة - من أهل البصرة، قروناً^(١) وتبنّاها بعض طلابه والمتأثرين به، واستمرّت كاتجاهٍ رافض للبدعة الأموية.

• نهاية مَعْبِد

وختم مَعْبِد الجُهَنِيِّ مواجهته لبني أمية بالخروج مع محمّد بن الأشعث في ثورته ضدّ الأمويين، وهي إحدى آثار وارتدادات الثورة الحسينية، وتمّ القضاء على تلك الثورة، وقُبِضَ على مَعْبِد، وأودع سجن الحجاج الثقفي حيث عُذِّب حتى مات تحت التعذيب عام ٨٠ هـ.

ومن حكايا سجنه أنّه «أحضِرَ عند الحجاج فقال له: «يا مَعْبِد، كيف ترى قِسَمَ الله لك؟» قال: «يا حجاج، خلّ بيني وبين قِسَمَ الله، فإنّ لم يكن لي قِسَمٌ إلا هذا، رضيتُ به». فقال له: «يا مَعْبِد، أليس قَيْدُكَ بقضاء الله؟» قال: «يا حجاج، ما رأيت أحداً قَيْدني غيرك، فأطلق قيدي، فإنّ أدخله قضاء الله، رضيتُ به»^(٢).

وكعادة الجلاوزة، فإنهم استعملوا وعَظَمُوا لآثَمَهم مناوئهم بالانحراف عن

(١) المصدر السابق. ص ٣٢٠.

(٢) م.ن. ص ٣١٩.

ليالي عَشُورَاءُ * _____

الإسلام، وأنهم يحملون نوايا خبيثة تجاه الأمة، ووسموهم بأبشع الصفات كالارتداد والزندقة، وقد قال أحدهم مُتَّهِماً مَعْبِداً: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ نطقَ بالقدر رجلٌ من أهل العراق يقال له «سوسن» كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصّر، وأخذ معبداً عنه»^(١).

• سلب إرادة المجتمع

ومما سبق يتّضح إلى أي مدى ذهب الأمويون في اتجاه سلب إرادة المجتمع الإسلامي، ومن خلال بثّ البدع الفكرية... وكادوا أن يحققوا مبتغاهم.

ولذا أشار الإمام الحسين عليه السلام إليهم ببعض مواطن الخلل، والبدع التي وجدت لها مكاناً في نفوسهم، ومن ذلك قوله: «ويحكّم يا شيعة آل أبي سفيان! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون»^(٢).

فالعربيُّ كان يفتخر بحريّته، ويعاير - من أراد معايرته - بأنّه عبدٌ مملوك، فأراد الإمام أن يُرجِعهم إلى تلك الفكرة، ما داموا غير قادرين على الانطلاق في الاتجاه الصحيح من خلال مبادئ الإسلام وأخلاقياته، ليفكّوا الأغلال الأمويّة التي قيّدت إرادتهم الحرّة وسلبتهم قدرة الاختيار.

ولكن التأثير الأموي كان أكبر بكثير من أن يُعالج بالكلمات والتوجيه والنقد والخطابة.. لقد كانوا بحاجة إلى تلك الصدمة الهائلة التي تنزل عليهم كالصاعقة، فتحرّك الساكن، وتُزيل الغشاوة، وتكسر حاجز الرّهبة في قول الحقّ ومواجهة الباطل والفساد والمنكر.

ولذا صمّم الإمام الحسين عليه السلام على المُضيّ في طريق تحقيق تلك الصدمة

(١) المصدر السابق. ص ٣١٩.

(٢) الأمين: أعيان الشيعة، ج ١، ص: ٦٠٩.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
الهائلة، من خلال المواجهة غير المتوازنة - عسكرياً - مع الجيش الأمويّ، ومن
ثمّ استشهاده ومن معه على أرض المعركة، لتعقّب تلك الهزّة، هزّات وهزّات،
وعلى مديات واسعة وطويلة.

لقد أعادت النهضة الحسينيّة وعي الحقيقة إلى الناس، بأنّهم غير مسلوبي
الإرادة، وأنّ آل أميّة ليسوا بالقدر الأبديّ، وأنّهم قادرون على تغيير الواقع متى ما
صدقوا مع الله ومع أنفسهم، وأنّ طريق التغيير لا تُعبّده إلا التضحيات، فدماؤهم
ليست بأعلى من دماء الحسين عليه السلام وأنصاره.

فلم تهدأ الجماهير النادمة، والجماعات التي كانت تحمل شيئاً من وعي
الحقائق، ومن الإحساس بالمسؤوليّة الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة... إلى
أنّ أدّت تراكمات الثورات إلى الإطاحة بالحكم الأمويّ بعد سنوات مريرة من
المعاناة على كافّة الصُّعد.





كلمة الحقّ بين الكتمان والإفصاح



هناك مقولة مفادها: أنّ عند الشيعة العشرات من الأحاديث المروية عن الأئمة «عليهم السلام» الذين جاؤوا من بعد الحسين والتي تأمر بالكتمان وعدم الإفصاح عن الرأي والتناغم مع الواقع الذي يعيشونه.. وأنّ هذا يُعدّ بمثابة الدليل على أنّ ما جرى في يوم عاشوراء كان بمنزلة التجربة العملية السلبية لأهل البيت بحيث أوصلتهم إلى قناعة بعدم تكرار التجربة في المستقبل، وهذا ما دفعهم إلى التصريح بكلّ تلك الكلمات المطالبة بالكتمان والسلبية.

• من نصوص الكتمان

ومن أمثلة تلك الأحاديث: ما رواه أبو حمزة بسند معتبر عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «وددتُ والله أنّي افتديتُ خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحمٍ ساعدَيّ: النَّزَقُ، وَقَلَّةُ الْكِتْمَانِ»^(١).

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «والله إنّ أحبّ أصحابي إليّ أوعُهم وأفقُهم وأكتمهم لحديثنا»^(٢).

(١) الكليني: الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٢) م.ن. ج ٢، ص ٢٢٣.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «... وكتمانه لسرنا جهاد في سبيل الله»^(١).
وعن القاسم بسندٍ معتبر قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام الإمام الصادق يقول:
خَلَقَ فِي الْمَسْجِدِ، يُشْهَرُونَ وَيُشْهَرُونَ أَنْفُسَهُمْ، أَوْلَيْكَ لَيْسُوا مِنَّا، وَلَا نَحْنُ مِنْهُمْ،
أَنْطَلِقُ فَأَدَارِي وَأَسْتُرُ، فَيَهْتَكُونَ سِتْرِي، هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُمْ! يَقُولُونَ: إِمَامٌ، وَاللَّهِ مَا
أَنَا بِإِمَامٍ إِلَّا مَنْ أَطَاعَنِي، فَأَمَّا مَنْ عَصَانِي فَلَسْتُ لَهُمْ بِإِمَامٍ، لِمَ يَتَعَلَّقُونَ بِاسْمِي؟
أَلَا يَكْفُونُ اسْمِي مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، فَوَاللَّهِ لَا يَجْمَعُنِي اللَّهُ وَإِيَّاهُمْ فِي دَارٍ»^(٢).

• ملاحظات نقدية

إلا أن هذه المقولة غير دقيقة لعدة أسباب:

أولاً، لم يُعهد عن أحد الأئمة إظهار الندم على خروج الحسين عليه السلام، أو أنه كان من الأجدر ألا يخرج.. كل ما هنالك أنه صدرت عن بعضهم تصريحات تقييمية لموقف الناس والخذلان الذي وقع منهم.. أما أن يكونوا قد صرّحوا بالندم لما جرى، وأنّ السكوت والكتمان كانا الخيار الأولى والأفضل للإمام الحسين، فهو ما لم يؤثر عنهم.

ومن نماذج النصوص التقييمية لموقف الناس ما رُوي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «أيها الناس: ناشدتكم بالله، هل تعلمون أنّكم كتبتُم إلى أبي وخذعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، ثم قاتلتموه وخذلتموه، فبتاً لكم لما قدّمتم لأنفسكم، وسوأة لرأيكم! بأية عين تنظرون إلى رسول الله ﷺ إذ يقول لكم: قتلتم عترتي، وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي»..
ولما عرضوا عليه النصرة قال عليه السلام: «هيئات هيئات، أيها الغدرة المكرة،

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٦.

(٢) الكليني: الفروع من الكافي، ج ٨، ص ٣٧٤.

ليالي عَشُورَاءِ _____ ❁

حِيلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِ أَنْفُسِكُمْ، أَتَرِيدُونَ أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ كَمَا أَتَيْتُمْ إِلَى آبَائِي مِنْ قَبْلُ؟»^(١).

• لسان الحال

نعم في بعض التناجات الأدبية ما يُصَوِّرُ به الأمر وكأنَّ أهل البيت عليهم السلام قد ندموا على خروج الحسين واستشهاده، وأنَّ العقيلة زينب (سلام الله عليها) أو الإمام علي زين العابدين قد أظهرَا التَّدْمَ على الخروج، وأنَّهما تمَنَّيا العودة إلى المدينة للحفاظ على سلامة الحسين، إلا أنَّ هذا التعبير بواقع الحال غيرُ سليم، ولا يقوم على دليل، بل الدليل قائمٌ على خلافه، وذلك من قبيل قول العقيلة زينب بُعيد استشهاد أخيها الحسين: «اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا هَذَا الْقُرْبَانَ»^(٢)، وقولها لابن زياد في مجلسه وقد حاول أن يشمت بها قائلاً: «كيف رأيتِ صنَعَ الله بأخيك وأهل بيتك؟» فأجابته قائلة: «ما رأيتُ إلا جميلاً. هؤلاء قومٌ كتبَ الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمعُ الله بينك وبينهم فتُحاجُّ وتُخاصَمُ، فانظر لمن الفلج يومئذ»^(٣)... بالتالي فلسان الحال لا يُمثِّلُ قيمة تاريخية يُستَدَلُّ بها.

ثانياً، من الضروري تقييم أحاديث الكتمان والمحافظة على الغموض في الرأي والموقف من خلال العرض على القرآن الكريم، إيماناً منا بمرجعية القرآن وتقديمه على الحديث.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١١٣.

(٢) القرشي: حياة الإمام الحسين، ج ٣، ص ٣٠٤.

(٣) م.ن. ص ٣٤٤.

• آيات الإفصاح

وبين أيدينا آيات عديدة تأمر بالإفصاح والبيان والتبليغ، وتستنكر موقف الذين يكتمون الحقائق.

ومن بين هذه الآيات قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].. فهذه الآية واضحة الدلالة على:

- ١- ذمّ وتحريم الكتمان لما بيّنه الكتاب من حقائق ومعارف.
 - ٢- الكتمان يستدعي العقاب والغضب الإلهي والطرده من الرحمة الإلهية.
 - ٣- زوال اللعنة بحاجة إلى معالجة تتكوّن من: توبة وإصلاح وبيان للحقائق.
- ومن المعلوم أنّ الله ﷻ لم يُنزل العقائد والأحكام التشريعية الفردية فقط، بل شمل في ما أنزله قضايا من قبيل مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقارعة الظلم والفساد ولزوم إقامة العدل وغير ذلك من المسائل ذات الأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.
- قال العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ: «ربّما يكون المقصود بهؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله، أهل الكتاب أو اليهود منهم خاصة... ولكن الآية لا تتجمّد عند التّمادج التي نزلت فيهم أو انطلقت منهم، لأنّ أسباب النزول تُعتبر منطلقاً للفكرة من خلال التّمودج الحيّ في عصر نزول الآية، لتتحرك الفكرة من خلال الواقع الذي يقتحم على الناس حياتهم في نطاق المشكلة الحية البارزة.

وفي ضوء ذلك، نقرّر أنّ الآية واردة لتقرير المبدأ العام الشامل لكلّ الناس

الذين يملكون المعرفة بحقائق الأشياء، وآفاق البيّنات، وسبب الهدى، في ما بيّنه الله للنّاس في كتابه، سواء كان من الكتب الأولى التي أنزلت على إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم، أو كان المراد به الكتاب الأخير الذي هو القرآن، فإنّ الإنسان الذي يملك المعرفة يحمل مسؤوليتها أمام الله بأن يبيّن للنّاس إذا طلبوها منه، أو إذا غفلوا عنها فلم يلتفتوا إليها، فلا يجوز له أن يخفيها عنهم أو يكتمها، لأنّ في ذلك إخفاءً للحقيقة، وكتماناً للرسالة، ما يوجب وقوع النّاس في الضلال أو انحرافهم عن خطّ الحقّ وضياعهم في متاهات الجهل والحيرة. وهذا مخالف للسنّة الإلهية التي درجت على إرسال الأنبياء، وإنزال الكتب، ليفتحوا عيون النّاس وقلوبهم على الحقيقة، وليخطّطوا لهم درب الحياة على أساس المنهج الواضح المستقيم^(١).

ومن الآيات التي تدمّ الكتمان قوله **عَلَيْكُمْ**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٥].

وفي هذه الآية خطاب شديد اللهجة موجّه إلى من يكتّم ما أنزل الله من حقائق ومعارف ومفاهيم من أجل تحقيق مكاسب شخصيّة، من قبيل المال والجاه والسّلطة، وهذا معنى ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي إنّهم يفعلون ذلك طلباً للمنافع الشخصيّة، كما يفعل وعّاظ السلاطين الذين يرون الظلم والفساد الواقع من الحكام والمسؤولين، ويسكتون لا لشيء سوى لرغبتهم في المحافظة على المقام المرموق الذي عُيّنوا فيه، أو استمرار تدفق الأموال التي يتقاضونها من الحكام، أو غير ذلك من مُتّع الدنيا.

(١) فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآيتين: ١٥٩-١٦٠ من سورة البقرة.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

وهذا من جملة ما دفع الإمام زين العابدين عليه السلام لكتابة رسالة إلى تلميذه محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهري - حبّاً له وشفقةً عليه - حين قَبِلَ منصباً رسمياً من قبل الأمويين وفيها: «كفانا الله وإياك من الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لِمَنْ عَرَفَكَ بها أَنْ يَرْحَمَكَ، فقد أثقلتك نعم الله بما أصح من بدنك، وأطال من عمرك، وقامت عليك حجج الله بما حملك من كتابه، وفقَّهك فيه من دينه، وعَرَّفَكَ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فانظر أيّ رجل تكون غداً، إذا وقفت بين يدي الله فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتهما؟ وعن حُججه عليك كيف قضيتها؟ ولا تحسبن الله قابلاً منك بالتعذير، ولا راضياً منك بالتقصير، هيهات! هيهات! ليس كذلك، أخذ على العلماء في كتابه إذ قال ﷺ: ﴿لَيْسِنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

واعلم أن أدنى ما كتمت، وأخف ما احتملت أن آنتت وحشة الظالم، وسهلت له طريق الغي بدنوك منه حين دنوت، وإجابتك له حين دُعيت. فما أخوفني أن تكون تبوء بإثمك غداً مع الخونة، وأن تُسأل عمّا أخذت بإعانتك على ظلم الظلّمة، إن أخذت ما ليس لك ممّن أعطاك، ودنوت ممّن لم يرُدّ على أحد حقاً، ولم ترُدّ باطلاً حين أدناك، وأحبت من حادّ الله.

أو ليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطباً، أداروا بك رحي مظالمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلماً إلى ضلالتهم، داعياً إلى غيهم، سالكاً سبيلهم، يُدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم؟

فلم يبلغ أخصّ وزرائهم، ولا أقوى أعوانهم، إلا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم، واختلاف الخاصة والعامة إليهم.

فما أقلّ ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك! وما أيسر ما عمروا لك، فكيف ما خرّبوا

ليالي عَشُورَاءُ ❁

عليك! فانظر لنفسك فإنه لا ينظر لها غيرك، وحاسبها حسابَ رجلٍ مسؤولٍ...»^(١).
وهكذا قال الله ﷻ في ضرورة الإفصاح وكشف الحقائق: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ
اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

بالطبع ليست هذه هي الآيات الوحيدة التي تحدّثت عن ضرورة الإفصاح
والتهي عن كتمان الحقائق، ولكن أكتفي بهذا المقدار طلباً للاختصار.

ولذا صرّح عدد من الفقهاء المتقدمين والمتأخرين في كتبهم وبحوثهم بأنّ
الأصل هو البيان والشفافية، وليس الكتمان والغموض والتستر.

قال العلامة الحلبي رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه (نهج الحقّ وكشف الصدق): «وجب على
كلّ مجتهد وعارف إظهار ما أوجب الله إظهاره من الدين وكشف الحق، وإرشاد
الضالّين، لئلا يدخل تحت الملعونين على لسان ربّ العالمين وجميع الخلائق
أجمعين بمقتضى الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة»^(٢).

نعم نجد في القرآن ما يدلُّ على ضرورة الكتمان، ولكنّه في مورد الحفاظ
على الأسرار الأمنيّة، وذلك من قبيل قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ
الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ
الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

• معالجة الأحاديث

وبالتالي إذا أردنا معالجة الأحاديث السابقة وأمثالها الآمرة بالكتمان، والذامّة
للإفصاح، فلا بدّ من تقسيمها إلى أصناف:

(١) الحراني: تحف العقول، ص ٢٧٥-٢٧٧.

(٢) الحلبي: نهج الحقّ وكشف الصدق، ص ٣٧.

١- الأحاديث الضعيفة التي لا يُؤخذ بها كدليل ومستند. وهي الغالبية في الباب. وبمراجعة روايتها سنجد عديداً من الرواة المتهمين بالغلو، وهؤلاء يناسبهم هذا الطرح، كي يقولوا للناس إنَّ لدينا من الأسرار التي أخذناها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ونحن أذعنناها في الوقت المناسب، فلا يحقّ لكم تكذيبنا.. كما أنّ من الرواة من هم من الباطنيين، وهؤلاء أيضاً يناسب منهجهم هذا الصنف من الكلام المنسوب إلى الأئمة عليهم السلام.

٢- الأحاديث الصادرة ضمن ظروف سياسية قمعية قاهرة واستثنائية، كان يتم فيها التقاط كلِّ من يُشتبه بأمره، فيُعذّب ويُغيب في السجون، ولو كان الاشتباه به صادراً عن تهمة باطلة. ولذا جاءت بعض النصوص لحماية الإمام أو المؤمنين من القمع والسجن والمطاردة. وهو ما يدخل بالتالي ضمن إطار (التقية).

ومن نماذج ذلك ما رواه عبد الله بن زرارة بن أعين قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام اقرأ مني على والدك السلام، وقل له: إني إنما أعيبك دفاعاً مني عنك، فإنَّ الناس والعدو يسارعون إلى كلِّ من قرّبناه وحمّدنا مكانه لإدخال الأذى في من نُحبّه ونُقربّه، يرمونه لمحبتنا له، وقربه وذنوّه منّا، ويرؤن إدخال الأذى عليه وقتله، ويحمدون كلِّ من عبناه نحن وأنَّ نحمد أمره. فإنّما أعيبك لأنك رجلٌ اشتهرت بنا ولميلك إلينا، وأنت في ذلك مذمومٌ عند الناس غير محمودٍ الأثر لمودّتك لنا، ولميلك إلينا، فأحببتُ أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدّين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منّا دفعٌ شرّهم عنك. يقول الله وعجل: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]...»^(١).

٣- الأحاديث التي تجعل نشر الحقائق مُقيّداً بوجود من يتقبّلها ويعي

(١) الكشي: اختيار معرفة الرجال ٣٤٩: ١-

مضمونها، سواء تبناها أم لا.. أما إذا كان نشرها يؤدي إلى ترتب نتائج سلبية على المتحدث أو المتلقي، فالكتمان أولى.

قال العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي رَحِمَهُ اللهُ: «والسبب في أمرهم عَلَيْهِ السَّلَامُ شيعتهم بكتمان علومهم هو أنهم كانوا يخشون أن تُذاع أخبارهم، فتصل إلى خلفاء الجور فيتضررون عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم، أو تقع عند ضعاف العقول الذين لا يفهمونها على وجهها، فيصير ذلك سبباً لضلالتهم ومزيد تحييرهم»^(١).

٤- الأحاديث التي يُفهم منها حرص الأئمة عَلَيْهِ السَّلَامُ على عدم بث ما من شأنه بث الفرقة بين المسلمين وشق الصف الواحد، تماماً كما فعل النبي هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بني إسرائيل: ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا؟ لِمَاذَا كَتَمْتَ الْحَقِيقَةَ وَسَكَتَ؟﴾ ﴿أَلَا تَتَّبِعُنَ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٣-٩٤].

فقد كان كتمان هارون للحقيقة استجابة لطلب من النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبل حيث أوصاه: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فعدم إحداث الفرقة وإبقاء المجتمع واحداً غير منقسم بانتظار التدبير الحكيم لمعالجة الخلل هو جزء من الإصلاح.

والتاريخ مليء بصور الصراعات التي دبَّت في المجتمع المسلم آنذاك بسبب خلاف في مسألة عقدية أو ما شابه، وترتبت عليها مآس كثيرة.. ويكفي الاطلاع على محنة (خلق القرآن) في العهد العباسي لفهم واقع الحال.

(١) المجلسي: مرآة العقول، ج ٩، ص ٢٨٦.

٥- الأحاديث التي يُستشفّ منها حرّص الأئمة عليهم السلام على عدم فرز شيعتهم خارج الدائرة الإسلامية، عندما يُظهرون بعض المعارف الخاصة التي يستوحش منها الآخرون لعدم معرفتهم المسبقة بها، ولأنّها تخالف ما تلقّوه من معارف إسلاميّة من خلال علمائهم، وتدفعهم إلى اتّهام المسلمين الشيعة بالخروج من الملة.. من قبيل مسائل الخلافة والإمامة، وبعض الأحكام الشرعية المختلف فيها، وبعض الإخبارات الخاصة بالأحداث والتي اختصّهم بعلمها النبي صلى الله عليه وآله.

فالأصل إذاً هو كشف المعارف والحقائق، والوقوف في وجه الباطل، إلا في حالة وجود عنوان ثانوي حقيقي ومدروس يُثبت أنه لا بدّ من الكتمان، وبالتالي يُقدّم على العنوان الأوّلي، بشرط أن لا يتحوّل إلى حالة مزمنة دائمة، كما نجدها عند المذاهب الباطنيّة، بل يبقى الكتمان حالة مرحليّة تفرضها الضرورات والمصالح الوقتيّة.

• الاعتزاز بالثورة الحسينيّة

لقد كانت نهضة الإمام الحسين عليه السلام مفخرةً يعتزّ بها أئمة أهل البيت عليهم السلام والموالون لهم وكلّ الأحرار الذين انطلقوا من خلالها لمقارعة الفساد والظلم والباطل بعد أن قدّم لهم الإمام الحسين عليه السلام الدرس العملي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح وإباء الضيم والتضحية من أجل المبدأ.





الخدلان القسم الأول



واجه الإمام الحسين عليه السلام معارضةً لخروجه من الحجاز ومحاولات لثنيه عن عزمه من قبل بعض الشخصيات من العيار الثقيل في الوسط الإسلامي آنذاك.

ومن الخطأ التاريخي أن نضع كل المعارضين لخروج الإمام في فئة واحدة من حيث أسباب المعارضة وخلفيات المواقف والدوافع الشخصية... إذ إنّ دراسة كل شخصيّة على حدة، وظروفها الخاصّة، بالإضافة إلى ما صدر عنها بهذا الخصوص يُلزمنا أن نقسّمهم إلى فئات.

• النموذج الأول، محمد بن الحنفية

وهو محمد ابن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عُرف بابن الحنفية نسبةً إلى أمه، وكانت من قبيلة بني حنيفة.

له موقف في المدينة المنورة قبيل خروج الإمام منها، ففي الخبر أنّه لما استدعي الإمام الحسين عليه السلام عند الوالي وطُوب بمبايعة يزيد، لم يستجب الإمام لذلك، وخرج ناوياً ترك المدينة: «فلما جاء إليه محمد ابن الحنفية (رضي الله عنه): «يا أخي فدتك نفسي! أنت أحبّ الناس إليّ وأعزهم عليّ، ولست والله أدخر النصيحة لأحدٍ من الخلق، وليس أحدٌ أحقّ لها منك، فإنّك كنفسى وروحي وكبير أهل بيتي

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

وَمَنْ عَلَيْهِ اعْتِمَادِي، وَطَاعَتُهُ فِي عُنُقِي، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ شَرَّفَكَ وَجَعَلَكَ مِنْ سَادَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَشِيرَ عَلَيْكَ بِرَأْيِي فَاقْبَلْهُ مِنِّي».

فقال له الحسين: «قل ما بدالك». فقال: «أشير عليك أن تنجو نفسك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، وأن تبعث رسلَكَ إلى الناس وتدعوهم إلى بيعتك، فَإِنِّي إِنْ بَايَعَكَ النَّاسُ وَتَابَعُوكَ حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَقَمْتُ فِيهِمْ بِمَا يَقُومُ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّى يَتُوفَّاكَ اللَّهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، وَالْمُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ، كَمَا رَضُوا عَنْ أَبِيكَ وَأَخِيكَ. وَإِنْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى غَيْرِكَ حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ. وَإِنِّي خَائِفٌ عَلَيْكَ أَنْ تَدْخَلَ مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ، أَوْ تَأْتِيَ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ فَيَقْتَتِلُونَ، فَتَكُونَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ، وَطَائِفَةٌ عَلَيْكَ فَتَقْتُلُ مِنْهُمْ».

فقال له الحسين: «يا أخي، إلى أين أذهب؟». قال: «اخرج إلى مكة، فإن اطمأنت بك الدار فذاك الذي تحب وأحب، وإن تكن الأخرى، خرجت إلى بلاد اليمن، فإنهم أنصار جدك وأخيك وأبيك، وهم أرفأ الناس وأرقهم قلباً، وأوسع الناس بلاداً، وأرجحهم عقولاً. فإن اطمأنت بك أرض اليمن وإلا لحقت بالرّمال وشعوب الجبال، وصرت من بلد إلى بلد، لتنظر ما يؤول إليه أمر الناس، ويحكم بينك وبين القوم الفاسقين».

إلا أن الإمام ﷺ أصرَّ على موقفه من عدم بيعة يزيد والخروج إلى مكة مع أهله وأنصاره... «فقال له الحسين: «يا أخي، والله لولم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت - والله - يزيد بن معاوية أبداً، وقد قال ﷺ: اللهم لا تبارك في يزيد».

قال: فقطع عليه محمد ابن الحنفية الكلام وبكى، فبكى معه الحسين ساعة ثم قال: «جزاك الله يا أخي عني خيراً. ولقد نصحت وأشرت بالصواب، وأنا أرجو

* ليالي عَشُوراء

أن يكون إن شاء الله رأيك موقفاً مُسَدِّداً، وإنِّي قد عزمْتُ على الخروج إلى مكة، وقد تهيأتُ لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي وأمرهم أمري ورأيهم رأيي. وأما أنت يا أخي فلا عليك أن تُقيمَ بالمدينة فتكونَ لي عِيناً عليهم، ولا تُخفِ عليَّ شيئاً من أمورهم». قال: ثم دعا الحسين بدواة وبياض وكتبَ فيه.....».

وذكر الراوي وصية الإمام لأخيه محمد^(١).

• تقييم الموقف

١- لا نشك أن محمد ابن الحنفية كان صادقاً في دوافع موقفه وكلامه، كأخٍ ومناصح.

٢- لا نستطيع أن نحكم على موقفه بشكل حاسم مع جهلنا بالظروف الموضوعية المحيطة به، وهل كان يملك عذراً شخصياً يمنعه من الخروج مع الإمام، من قبيل المرض مثلاً، بالإضافة إلى أن طبيعة حركة الإمام لم تكن قد اتضحت بعد من حيث التفاصيل «بلحاظ عدم وصول رسائل أهل الكوفة التي تطالب بالثورة»، لا من حيث المبدأ كما سيتبين من خلال مضمون الوصية، إلا أن خروج أهل بيت الحسين وأنصاره وبقاء ابن الحنفية في المدينة دون إبداء أية رغبة في الخروج ولا تقديم عذر للتخلف عن الركب، يُبقي علامة الاستفهام قائمة لا محالة.

٣- لا بد أن نوّكد على أن كلمات ابن الحنفية لم تحمل في طياتها أية مطالبة بالخضوع لحكم يزيد، وهذا قد يشفع له بنحو ما عند تحليل موقفه.

(١) ابن أعثم: الفتوح، ج ٥، ص ٢٠-٢١

• محتوى وصية الإمام

هذا، وقد روى بعض المؤرّخين مضمون وصية الإمام الحسين عليه السلام لأخيه محمّد، واعتبرها البعض بمثابة البيان رقم واحد في ثورته المباركة.

ومما جاء فيها: «... وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجتُ لطلب التّجّاح والصّلاح في أمة جدّي محمّد عليه السلام أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر وأسير بسيرة جدّي محمّد عليه السلام وسيرة أبي علي بن أبي طالب...»^(١).

وعلى الرغم من الدلالة الواضحة في هذا المقطع على أنّ الإمام ينوي التحرك ضدّ الأمويّين، إلا أنّ ابن الحنفية لم ينضمّ للركب الذي أخبر الإمام عنهم في طيّات حديثه معه حيث قال: «وإنّي قد عزمْتُ على الخروج إلى مكّة، وقد تهيأتُ لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي وأمرهم أمري ورأيهم رأيي»، فلمّ لم يكن رأي محمد كراي الإمام أسوة بقيّة أهله وشيعته؟

وتبقى المسألة تدور في إطار الاحتمالات التي ذكرتها في النقطة الثانية.. والله أعلم بحقيقة الحال.

• النموذج الثاني، عبدالله بن عباس

ويطالعنا موقف ابن عباس، في مكّة المكرّمة، في الأيام الأخيرة من وجود الإمام عليه السلام فيها، وهو شبيه بموقف ابن الحنفية، فقد روى الطبري: «أنّ حسيناً لمّا أجمع المسير إلى الكوفة أتاه عبد الله بن عباس فقال: «يا ابن عم، إنك قد أرجف الناس أنّك سائر إلى العراق، فبيّن لي ما أنت صانع؟».

قال: «إنّي قد أجمعت المسير في أحدِ يوميّ هذين إن شاء الله تعالى».

(١) المصدر السابق. ص ٢١.

فقال له ابن عباس: «فإني أعيذك بالله من ذلك، أخبرني رحمك الله، أتسيرُ إلى قوم قد قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوهم؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسِرْ إليهم، وإن كانوا إنَّما دَعَوْكَ إليهم وأميرهم عليهم، قاهرٌ لهم، وعماله تجبي بلادهم، فإنَّهم إنَّما دعوك إلى الحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يُغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وأن يُستنفروا إليك، فيكونوا أشد الناس عليك». فقال له حسين: «وإني أستخير الله، وأنظر ما يكون.....»^(١).

• موقف آخر

ثم ينقل الطبري ما جرى بين الإمام وابن الزبير، وتأكيد الإمام الحسين عليه السلام عزمه على الخروج ثم قال: «فلما كان من العشي أو من الغد، أتى الحسين عبد الله بن العباس فقال: «يا ابن عم، إنني أتصبر ولا أصبر، إنني أتخوفُ عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال؛ إنَّ أهل العراق قومٌ غدر، فلا تقرَّبَنَّهُم. أقم بهذا البلد، فإنَّك سيِّدُ أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم، فلينفوا عدوهم، ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلا أن تخرج، فسِرْ إلى اليمن، فإنَّ بها حصوناً وشعاباً، وهي أرضٌ عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عِزلة، فتكتب إلى الناس وترسل، وتبثُّ دُعواتك، فإنني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تُحبُّ في عافية».

فقال له الحسين: «يا ابن عم، إنني والله لأعلم أنك ناصحٌ مُشفق، ولكني قد أزمعتُ وأجمعتُ على المسير».

فقال له ابن عباس: «فإن كنت سائراً، فلا تسِرْ بنسائك وصبيبتك، فوالله إنني لخائف أن تُقتل كما قُتل عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه». ثم قال ابن عباس:

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٩٤.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
«لقد أقررت عينَ ابنِ الزبير بتخلّيتك إياه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك»^(١).

• تقييم الموقف

١- مجدّداً لا نشكُّ أنّ ابن عباس كابن الحنفية، كان صادقاً في دوافع موقفه وكلامه، كمناصح، وقد بيّن الإمام ذلك بنفسه، ولكن يبقى السؤال: ما الذي جعل حُبر الأمة يتكلّم بمثل هذه الكلمات، ويقف هذا الموقف بدلاً من نصرة الإمام بنفسه؟

يُحتمل بالفعل أن يكون ابن عباس معذوراً في صحّته وجسده حينذاك، فمن المعروف أنّه أُصيب بالعمى في أو آخر حياته، ووفاته كانت سنة ٦٨ للهجرة، أي بعد استشهاد الإمام بسبع سنوات.

ولكن لو كان مقتنعاً ومؤيداً ومناصراً لحركة الإمام، فلمَ لم يسند الإمام بأولاده وأهله ومَن يأخذون عنه من طلاب العلم وغيرهم؟ لمَ لم ينادِ بتحريك الناس عموماً ليخرجوا مع الإمام عليه السلام واكتفى بالنصح؟ لماذا اقترح الانتظار حتى استقامة الأمور بحسب تعبيره؟

٢- يتكرّر في كلام المناصحين للإمام بعدم الخروج دفعه نحو الإبقاء على نفسه، وهم غافلون عن أنّ الإمام ما كان حريصاً على هذه الحياة، وما كان هذا همّه، بل كان همّه وما يُقلقه كفيّة العمل على إبقاء الإسلام حيّاً، بعد كلّ الجهود الأمويّة التي لا تكلّ ولا تملّ في تشويه الإسلام وحرفه عن صراطه المستقيم، والسعي للقضاء عليه، أو إبقائه مجرد قشور ومظاهر، مع سلب حقيقته من النفوس.

(١) المصدر السابق. ص ٢٩٥.

٣- حاول ابن عباس أن يخوِّف - أو ينبّه - الإمام إلى منافسة عبدالله بن الزبير له، لعلّ وعسى أن يُثني الإمام عن عزمه على الخروج إلى العراق، إلا أنّ الإمام أوضح له أنّه غير مكترث بذلك، حين لم يستجب لهذا التحذير. فالإمام لم تكن تهمة منافسة ابن الزبير، ولا أيّ أحد آخر.. فالذين يعيشون مثل هذا الهم إنّما هم الذين يلهثون وراء مكاسبهم الشخصية ومطامعهم السلطوية، وأمّا الإمام فكان يعيش مسؤوليّة الرسالة والأمانة التي يحملها كأحد العترة الطاهرة الذين أوكل إليهم النبي ﷺ الحفاظ على الإسلام والتضحّيّة في هذا الطريق.

• النموذج الثالث، عبدالله بن عمر

لم يُعرَف عن عبدالله بن عمر بن الخطاب ولا لآل بيت رسول الله ﷺ، فهو لم يكن مع عليّ عليه السلام إبان خلافته، كما لم يقف ضده.. وقد عارض تعيين يزيد خليفة دون أن يكون في منطلقه العمل على إرجاع حقّ الحكم للعترة الطاهرة من آل البيت عليه السلام.

قال ابن الأثير: «عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد، فأرسل إلى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم، فقبلها، فلمّا ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر: «هذا أراد؟! إنّ ديني عندي إذن لرخيص». وامتنع».

ثم ذكر ابن الأثير كلام عبدالرحمن بن أبي بكر في معارضته للأمر ثم أضاف: «وقام الحسين بن عليّ فأنكر ذلك، وفعل مثله ابن عمر وابن الزبير»^(١).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٥١.



• شخصية ابن عمر

هذا النصّ وإن دلّ على موقفه المعارض لخلافة يزيد، إلا أنّ قراءة متبّعة لسيرة بن عمر تكشف أنّ شخصيته كانت مختلفة - بشكل واضح - عن شخصيّة الإمام الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر.

وهذا ما أشار إليه مروان بن الحكم عندما وصلت رسالة يزيد إلى والي المدينة تطالبه بأخذ البيعة بعد موت معاوية، ففي كتاب «الفتوح» أنّ مروان قال للوالي: «ابعث إليهم في هذه السّاعة فتدعوهم إلى البيعة والدخول في طاعة يزيد، فإن فعلوا قبلت ذلك منهم، وإن أبوا قدّمهم واضرب أعناقهم قبل أن يدرؤا بموت بمعاوية، فإنهم إن علموا ذلك وثب كل رجل منهم فأظهر الخلاف ودعا إلى نفسه، فعند ذلك أخاف أن يأتيك من قبلهم ما لا قبل لك به، وما لا يقوم له. إلا عبد الله بن عمر، فإنني لا أراه يُنازع في هذا الأمر أحداً إلا أن تأتيه الخلافة فيأخذها عفواً! فذّر عنك ابن عمر وابعث إلى الحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير فادعهم إلى البيعة...»^(١).

وبين أيدينا نصّ آخر يحمل ذات الدلالة، وذلك بعد أن أعلن ابن الزبير تمرّده على الأمويين وحكم يزيد، فطُورِدَ من قبل والي المدينة: «ثم أرسل إلى كلّ من كان من شيعة عبد الله بن الزبير فأخذه وحبسه، وفيمن حبس يومئذ ابن عمّ لعمر بن الخطاب، يُقال له عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي، وأمه يقال لها العجماء بنت عامر بن الفضل بن عفيف بن كليب الخزاعية. قال: وحبس أيضاً مصعب بن عبد الرحمن بن عوف. قال: فمشى رجال من بني عدي إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب فقالوا: «يا أبا عبد الرحمن، إنّ صاحبنا عبد الله بن مطيع قد حبس مظلوماً لا ذنب له، والله

(١) ابن أعمش: الفتوح، ج ٥، ص ١١.

ليالي عَشُوراء * _____

لُتُخْرِجَنَّه أَوْ لَتَمُوتَنَّ مِنْ دُونِهِ». فَقَالَ لَهُمُ ابْنُ عَمْرٍ: «لَا تَعْجَلُوا بِالْفِتْنَةِ، وَلَا تُسَارِعُوا إِلَيْهَا، فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ قَدْ أَفْسَدَتِ الْفِتْنَةُ عَلَيْهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ».

قال: ثم أرسل ابن عمر إلى مروان بن الحكم فدعاه إليه، وقال: «يا معشر بني أمية، استعينوا بالله وبالحق على إقامة دينكم ودنياكم، ولا تظلموا فإن الظلم مرتعه وخيم، ولا تأخذوا بالظنة والتُّهْمَة، فإنكم إن استقمتم أعانكم الله، وإن ظلمتم وكلكم الله إلى أنفسكم، فكفوا عن صاحبنا هذا، عبد الله بن مطيع، وخلوا سبيله، فإننا لا نعلم أن لكم عليه سبيل ولا حق تحبسونه به، فإن زعمتم أنكم ما حبستموه إلا لِحَقٍّ فافعلوا ذلك، وإن كنتم إنما حبستموه على الظن فإننا لا ندع صاحبنا يُحبس مظلوماً».

فقال مروان: «إنما نحن حبسناه بأمر أمير المؤمنين يزيد، وعليكم أن تكتبوا في ذلك إلى أمير المؤمنين، ونكتب نحن أيضاً، فإنه لا يكون إلا ما تحبون».

قال: فوثب أبو جهم بن حذيفة العدوي فقال: «نكتب وتكتبون، وابن العجماء محبوس؟ لا والله لا يكون ذلك أبداً».

ثم وثب بنو عدي فجعلوا يحضرون حتى صاروا إلى باب السجن، فاقتحموا على عبد الله بن مطيع فأخرجوه وأخرجوا كل من كان في السجن، ولم يتعرض إليهم أحد^(١).

هذه هي طبيعة شخصية ابن عمر، فهو لم يزد على أن بعث إلى مروان محذراً من الظلم ومطالباً بإطلاق سراحه، بينما هجم جماعة من العدويين وأطلقوا سراح الرجل بالقوة، دون أن يلقوا معارضة، لأن بني أمية لم يعرفوا إلا هذا المنطق.

(١) ابن أعمش: الفتوح: ج ٥، ص ١٦١٥.



• النَّصُّ الْأَوَّلُ

هناك اختلاف في كتب التاريخ في تفاصيل ما جرى من كلام بين الإمام الحسين وابن عمر وهو يحاول ثنيه عن الخروج إلى العراق.

من بين هذه النصوص ما رواه ابن أعثم، وفيه من الكلام والتفاصيل ما لا تركز إليه النفس، ولعلّ الخبر في ذاته صحيح، وإن أضيفت عليه إضافات من الرواة. وسأكتفي بنقل بعض ما جاء في الخبر اختصاراً وتجاوزاً عمّا لا يطمأنّ إليه.

وممّا جاء في الخبر: «.. وبمكة يومئذ عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)، فأقبلا جميعاً حتى دخلا على الحسين وقد عزمنا على أن ينصرفا إلى المدينة، فقال له ابن عمر: «أبا عبدالله، رحمك الله، اتق الله الذي إليه معادك! فقد عرفت من عداوة أهل هذا البيت لكم وظلمهم إياكم، وقد ولي الناس هذا الرجل، يزيد بن معاوية، ولست آمن أن يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء - الدنانير الذهبية والدراهم الفضية - فيقتلونك ويهلك فيك بشرٌ كثير، فإنّي قد سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يقول: حسينٌ مقتول، ولئن قتلوه وخذلوه ولن - لعل الصحيح «لم» - ينصروه، ليخذلهم الله إلى يوم القيامة. وأنا أشير عليك أن تدخل في صلح ما دخل فيه الناس، واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل، فلعلّ الله أن يحكم بينك وبين القوم الظالمين».

فقال له الحسين: «أبا عبد الرحمن، أنا أبايع يزيد وأدخل في صلحه، وقد قال النبي ﷺ فيه وفي أبيه ما قال؟».

ثم نقل ابن أعثم كلام ابن عباس وردّ الإمام عليه، ثم عاد لكلام ابن عمر حيث قال: «أبا عبدالله، مهلاً عمّا قد عزمت عليه، وارجع من هنا إلى المدينة، وادخل في صلح القوم، ولا تغب عن وطنك وحرّم جدك رسول الله ﷺ، ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجةً وسيلاً. وإن أحببت أن لا

ليالي عَشُوراء _____ *

تبايع فأنت متروكٌ حتى ترى برأيك، فإنَّ يزيد بن معاوية - لعنه الله - عسى أن لا يعيش إلا قليلاً فيكفيك الله أمره». فقال الحسين: «أف لهذا الكلام أبداً ما دامت السماوات والأرض...»^(١).

• النَّصَّ الثاني

أمَّا ابن عساكر فروى أكثر من رواية، وتخالف ما سبق في المكان والحوار، وإن اتَّفقت في النهاية مع رواية ابن أعثم من حيث النتيجة، وعليها أيضاً من الملاحظات ما يجعل الرواية موضع نقدٍ أيضاً من عدَّة جهات.

قال: «كان ابن عمر قدِم المدينة فأخبر أنَّ الحسين بن علي قد توجَّه إلى العراق، فلحقه على مسيرة ليلتين، أو ثلاث، من المدينة. فقال: «أين تريد؟». قال: «العراق». ومعه طوامير وكتب، فقال: «لا تأتهم». فقال: «هذه كتبهم وبيعتهم». فقال: «إنَّ الله رَعِيكَ خَيْرَ نَبِيٍّ بين الدنيا والآخرة، فاختر الآخرة، ولم يُرد الدنيا، وإنَّكم بَضْعَةٌ من رسول الله ﷺ، والله لا يليها أحدٌ منكم أبداً، وما صرفها الله رَعِيكَ عنكم إلا للذي هو خيرٌ لكم، فارجعوا». فأبى وقال: «هذه كتبهم وبيعتهم». قال: فاعتقه ابن عمر وقال: «أستودعك الله من قتل»^(٢).

من الملاحظات التي تُسجَّل على هذا النص، أنَّه لا يصح أن يكون الحدث عند خروج الإمام من المدينة، فإنَّ الكتب وصلت إليه وهو بمكة.. فلعلَّ الخبر برمته مختلق، وهو الأقرب.. كما يُحتمل أن الرواة أو النُساخ وقعوا في خطأ بين المكانين.. أو أن يكون ابن عمر قد قطع مسافةً طويلةً جداً من المدينة باتجاه (نجد) حيث طريق السفر من مكة إلى العراق، واستطاع اللحاق بالحسين ﷺ، وهذا بعيد الاحتمال.

(١) المصدر السابق. ص ٢٣-٢٥.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٢٠٢.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م _____ *
الملاحظة الثانية أنّ في كلام ابن عمر تعريضاً بالإمام الحسين، وكأنّه يتّهمه بأنّه طالبٌ مُلك، وأنّه مُقبلٌ على الدنيا رغبةً فيها، وليست حركته نوعاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما لم ينفه الإمام بحسب الخبر.. وهذا لا يمكن قبوله.

• تقييم الموقف

- ١- مجدّداً، لا تشكيك في النية الصالحة لابن عمر فيما عرضه على الإمام بعدم الخروج، سواء كان ذلك بناءً على ما جاء في النصّ الأول أو النصّ الثاني. فابن عمر لم يكن يطمع في الحكم، ولا يعمل على ذلك، كما سبق وأن أشار مروان بذلك، وهذا على خلاف النموذج الثاني الذي سنقدّمه من خلال مواقف وكلمات عدّة شخصيات في القسم الثاني بإذن الله.
- ٢- في النصوص دلالة على إعطاء قيمة عليا للحياة والعيش الآمن الرغيد، على الرغم من كلّ المفسدات المنتشرة، والانحراف الكبير الذي يستوجب النهوض ضده، وتحريك الأجواء الراكدة بهدف إخراج الناس من غفلتهم وركونهم إلى الباطل والفساد، وقبولهم بهما.
- ٣- يبدو أنّ حالة الخوف من البطش الأمويّ كانت مستحكمة في النفوس، وهو ما دعا ابن عمر وغيره لتخويف الإمام من سلطان الأمويين، وعدم مخافتهم الله في عباده.
- ٤- في كلام ابن عمر ما يفهم منه أنّ الخروج والثورة على يزيد تمثّل نوعاً من إيقاع الفتنة في المجتمع الإسلامي، وهو ما نهت عنه النصوص الكثيرة، في غفلة عن أنّ الفتنة تتمثّل في السلوك الأمويّ ذاته، والذي يسعى لمحو حقيقة الإسلام، وإحلال المبادئ الجاهلية محلّها.

٥- إن صحَّ الخبر الثاني بمجمله، فهو يعني أنَّ الإمام الحسين كان قد عقد العزم على الخروج للإطاحة بحكم الأمويين حيث أُقيمت عليه الحُجَّة من خلال الرسائل ودعوات البيعة له، تماماً كما أُقيمت على أبيه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي قال بعد أن تكالب عليه الناس لبيعته على أثر مقتل الخليفة عثمان وهو يعلم أنَّ الأمور لن تستقيم.. أو لن تستقيم له بيسر على أقلِّ تقدير: «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهده عندي من عفة عنز»^(١).

علماً بأنَّ الإمام عليّاً تحمّل ذلك وهو على بصيرةٍ من أمره، ويدرك أنَّ الأوضاع ستكون حرجة جداً، ولذا قال: «دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان. لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. وإنَّ الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت. واعلموا أنني إن أجبثكم ركبث بكم ما أعلم، ولم أضغ إلى قول القائل وعتب العاتب»^(٢).

• نهضة لا بدّ منها

وهكذا هو حال الإمام الحسين عليه السلام، فهو وإن حُذّر مراراً من قبل أكثر من شخص من الاغترار بتلك الرسائل والوعود، إلا أنَّه من موقع المسؤولية الرسالية لم يجد مناصاً من مجاراة ظاهر الأمور، فلعلَّ القوم يصدقون ويثبتون، فيتحقّق له النَّصر على الظالمين، ويُنقذ المظلومين ويخلصهم من معاناتهم المستمرة.

(١) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٣.

(٢) م.ن. الخطبة ٩٢.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
وأما الذين حاولوا أن يُثْنُوهُ عن الخروج إلى العراق، فلم يمتلكوا وعي الحسين
لمدى الخطر الذي بلغته الأمور، وهو ما كان يستدعي منه الخروج، سواء كانت
الأمور ستستقيم له، أم أنّها ستأخذ منحى الخذلان.

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام مستعداً لتقديم التضحيات الكبيرة التي ما كان
كثيرون على استعداد لتقديمها - ولعلّ الأعذار والظروف الشخصية الحقيقية
منعت البعض من الالتحاق بالركب - وهذا ما جعل المتخلفين من غير ذوي
الأعذار بعيدين عن نصره ودعم موقفه، واكتفوا بكلماتٍ ناصحةٍ مشفقةٍ وهم
غافلون عن أنّ دمّ الحسين سيغيّر معالم التاريخ!



الخذلان القسم الثاني

بعد استعراض موقف محمّد ابن الحنفية وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر، وكلماتهم الصادقة ونصائحهم الأخويّة ضمن محاولاتهم ثني الإمام الحسين عليه السلام عن الخروج إلى العراق، نستعرض مواقف شخصيات أخرى سعّت المسعى نفسه، وإن كانت لنا ملاحظات سلبية على نواياها ودوافعها.

• النموذج الرابع، عمرو الأشدق

والي مَكّة: الأشدق عمرو بن سعيد بن العاص بن أبي أحيحة الأموي. قُتل جدّه العاص في غزوة بدر الكبرى على يد أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وَلِيّ أبوه سعيد الكوفة من قبل الخليفة عثمان بن عفان بعد أن عزل الوليد بن عقبة، فأهان سعيد أهلها على المنبر، ثم قال: «إنّما هذا السواد بستان لأُغِيلِمَةٍ من قريش»^(١). فلمّا شكوه عند الخليفة انتقم منهم، وبقي يحكمها خمس سنين تقريباً.

وعلى عهد معاوية بن أبي سفيان ووليّ سعيد المدينة المنورة مناوأةً بينه وبين مروان بن الحكم إلى أن مات سنة ٥٩ للهجرة.

(١) ابن عساکر: تاريخ دمشق: ج ٢١، ص ١١٤.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
كان ابنه عمرو والياً على مكة المكرمة من قبل معاوية، ثم غدا والياً على
المدينة أيضاً على عهد يزيد.

جاء في كتاب «إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري» للقسطلاني: «سُمِّي
عمرو بالأشّدق لأنّه صعد المنبر فبالغ في شتم عليّ (رضي الله عنه) فأصابته
(لِقوة)، أي داء في وجهه»^(١).

روى ابن كثير عن الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال: «سمعتُ رسول
الله ﷺ يقول: ليرَعَفَنَّ عليّ منبري جبارٍ من جبابرة بني أمية حتى يسيل رعاؤه.
قال: فأخبرني مَنْ رأى عمرو بن سعيد بن العاص رَعَفَ عليّ منبر رسول
الله ﷺ حتى سال رعاؤه»^(٢).

• موقفه مع الإمام الحسين

بعد أن تعرّفنا على هذه الشخصية - على عجالة - فلنتعرّف على ما صدر عنها
من محاولةٍ لثني الإمام الحسين ﷺ عن الخروج.
رُوي أنّ الأشّدق أرسل رسالة إلى الإمام بُعيدَ خروجه من مكة. وقد اعتبر
بعضُ المحقّقين أنّ سبب إرسال الرسالة من قبل عمرو بن سعيد الأشّدق هو
العداء والحسد والحقد، وأنّ في مضمونها مكرٌّ وخديعة للإيقاع بالإمام من
خلال عودته إلى مكة لتدبير أمر اغتياله.

ولكنّ قراءة الحدث ضمن تفاصيله يُبيّن أنّ المسألة لم تكن بمبادرة شخصية
من الأشّدق، ولم تكن بدافع الحسد والحقد، ولا لترتيب أمر الاغتيال، بل كانت
كما رواها الطبري عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين ﷺ كالتالي: «لَمَّا

(١) القسطلاني: إرشاد الساري، ج ٤، ص ٣٦٨.

(٢) ابن حنبل: المسند، ح ١٠٧٧٤.

خرجنا من مكة، كتب عبدالله بن جعفر بن أبي طالب إلى الحسين بن علي مع ابنه عون ومحمد: «أما بعد، فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي، فإني مشفقٌ عليك من الوجه الذي توجه له، أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك. إن هلكت اليوم طمئني نور الأرض، فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين. فلا تعجل بالسير فإني في أثر الكتاب، والسلام».

ثم روى الطبري أن عبدالله بن جعفر قام إلى عمرو بن سعيد فكلّمه وقال: «اكتب إلى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان وتمنيه فيه البرّ والصلة وتوثق له في كتابك وتساءله الرجوع، لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع». فقال عمرو ابن سعيد: «اكتب ما شئت، واثني به حتى أختمه». فكتب عبدالله بن جعفر الكتاب.

وجاء الكتاب هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد، فإني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك. بلغني أنك قد توجهت إلى العراق، وإنني أعيدك بالله من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبدالله بن جعفر ويحيى بن سعيد فأقبل إليّ معهما، فإن لك عندي الأمان والصلة والبرّ وحسن الجوار. لك الله عليّ بذلك شهيداً وكفيلاً ومراعاً ووكيلاً، والسلام عليك».

وهكذا سارع ابن جعفر إلى الوالي حاملاً الرسالة وطالباً منه أن يختمها بختمه ويبادر لإرسالها إلى الحسين: «ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له: اختمه وابعث به مع أخيك يحيى ابن سعيد فإنه أحرى أن تطمئن نفسه إليه، ويعلم أنه الجُدُّ منك. ففعل. وكان عمرو بن سعيد عاملاً يزيد بن معاوية على مكة. قال: فلحقه يحيى وعبدالله بن جعفر».

وتم تسليم الرسالة إلى الإمام الحسين عليه السلام فاطلع عليها ورفض محتواها، وكتب كتاباً كالتالي: «أما بعد، فإنه لم يُشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله وعجل

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م _____ *
 وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين. وقد دعوت إلى الأمان والبرّ والصّلة،
 فخير الأمان أمان الله. ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا. فنسأل الله
 مخافةً في الدنيا توجب لنا أماناً يوم القيامة. فإن كنت نويت بالكتاب صِلتي وبرّي
 فجزيت خيراً في الدنيا والآخرة. والسلام»^(١).

• تقييم الموقف

١- شكك الإمام عليه السلام في ذيل الرسالة في دوافع الأشدق، حيث علق قيمة
 الرسالة على نيّة كاتبها، ممّا يؤكّد شكوكنا في دوافع الكتاب. والأرجح عندي أنّ
 ما صدر عنه لم يكن أكثر من محاولة لخدمة الحكم الأمويّ من خلال ثني الإمام
 الحسين عن الخروج للإطاحة بهذا الحكم.

٢- صحّح الإمام الحسين عليه السلام - في ردّه - مفهوم شقاق الله ورسوله، وأكّد
 على أنّ الخروج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس شقاقاً، بل هو عين
 المسؤولية السماوية الملقاة على المؤمنين بالرسالة.

٣- أكّد الإمام الحسين عليه السلام على أنّ الأمان الحقيقي هو أمان الآخرة،
 وأنّ الأذى في سبيل الله وسيلةٌ لنيل ذلك الأمان الحقيقي، وأنّ كلّ
 شيء - بالتالي - يُستَرَحَّص في طريق نيل رضا الله ويعجل.

والطريف في الأمر أنّ الأشدق بذاته ثار لاحقاً، وبالتحديد في سنة ٦٨
 للهجرة، حيث خرج على حكم عبد الملك بن مروان، مدّعياً أنّه الأولى بالخلافة
 منه، فألقي القبض عليه ثم قُتل.. فهل كان مشاققاً لله ولرسوله بهذا الخروج أم
 لا؟

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج ٣، ص ٢٩٧.

• النموذج الخامس، عبدالله بن الزبير بن العوام

لا حاجة للإطالة في التعريف بشخصية ابن الزبير ومواقفه من أهل بيت النبوة، إذ يكفي قول الإمام علي عليه السلام: «ما زال الزبير منا أهل البيت، حتى نشأ له عبدالله»^(١).

وأما الموقف الذي دار بينه وبين الإمام الحسين في تلك الظروف فقد نقل الطبري شيئاً منها في تاريخه، وذلك حيث انتقل الإمام إلى مكة المكرمة مؤقتاً، قال: «وأتاه ابن الزبير فحدثه ساعة، ثم قال: «ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم وكفنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم! خبرني ما تريد أن تصنع؟». فقال الحسين: «والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتب إليّ شيعتي بها وأشرف أهلها، وأستخير الله». فقال له ابن الزبير: «أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلتُ بها».

قال: ثم إنّه خشى أن يتهمه فقال: «أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ها هنا، ما حُولف عليك إن شاء الله». ثم قام فخرج من عنده»^(٢).

• موقف آخر

ولابن الزبير موقفٌ آخر صدر عنه في يوم التروية، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، قبيل خروج الإمام من مكة نحو العراق، وفيه قال مخاطباً الحسين: «لإن شئت أن تقيم أقيم فوليت هذا الأمر، فأزرنك وساعدناك، ونصحنا لك وبايعناك». فقال له الحسين: «إنّ أبي حدثني أنّ بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش».

(١) ابن الأثير: أسد الغابة، ترجمة عبدالله بن الزبير.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٩٥.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م _____ *
 فقال له ابن الزبير: فأقيم إن شئت وتولّيني أنا الأمر، فطُطع ولا تُعصى». فقال:
 «وما أريد هذا أيضاً» قال راويا الحديث وهما من بني أسد: «ثم إنهما أخفيا
 كلامهما دوننا فما زالا يتناجيان حتى سمعنا دعاء الناس رائحين متوجهين إلى
 منى عند الظهر»^(١).

• تقييم الموقف

١- دوافع موقفيّ ابن الزبير لم تكن خافية على الإمام، فقد قرأها الإمام بشكل
 واضح، ولم يخدعه الاستدراك الذي صدر عنه لاحقاً.. لذا نقل الراوي
 أنّ الإمام عقب على كلامه الأوّل قائلاً: «ها، إنّ هذا ليس شيء يؤتاه من
 الدنيا أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنّه ليس
 له من الأمر معي شيء، وأنّ الناس لم يعدلوه بي، فودّ أنّي خرجت منها
 لتخلو له»^(٢).

ولم يكن هذا خافياً على ابن عباس أيضاً فقال للإمام لاحقاً: «لقد أقررت
 عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد
 معك».... ثم خرج ابن عباس من عنده، فمرّ بعبد الله بن الزبير، فقال: «قررت
 عينك يا ابن الزبير»^(٣).

فقد كان ابن الزبير يطمح للحكم بشدّة، ويرى لنفسه الحقّ في ذلك، ولذا
 بمجرد أن خرج الإمام من المدينة بدأت تحرّكاته بجمع الأنصار، ثم غادرها إلى
 مكة، ولم يزل مقيماً بها حتى خرج الإمام الحسين عليه السلام منها إلى العراق، فلزم
 ابن الزبير حجر إسماعيل عليه السلام وجعل يُحرّض الناس على بني أميّة، ثم أعلن

(١) المصدر السابق.

(٢) م. ن.

(٣) م. ن.

ليالي عَشُوراء * _____

نفسه - بعد زمنٍ وتعاقبٍ من الأحداث - خليفةً في الحجاز حتى قُتل بمكة بأمر الخليفة الأموي وعلى يد الحجاج ابن يوسف الثقفي سنة ٧٣ للهجرة.

٢- كان تعريض ابن الزبير بالأمويين وعدم استحقاقهم لموقع الحكم واضحاً حيث قال: «ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم وكفنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم» وهي الحقيقة التي عرفها الصحابة والتابعون على الرغم من كل الجهود الأموية التي بُذلت من أجل تشويه الحقائق وتصوير الأمر وكأنهم أحق الناس بهذا الأمر، لأنهم من قريش، وقريش هم أهل النبي وعشيرته، وأن بني أمية كانوا المدافعين عن الإسلام، بينما كان بنو هاشم أعداءه على طول الخط!

روى المؤرخ الطبري في ضمن أحداث معركة صفين: «أن هاشم بن عتبة الزُّهري - ابن أخ الصحابي سعد بن أبي وقاص - دعا الناس عند المساء: «ألا مَنْ كَانَ يريد الله والدار الآخرة فإلي» فأقبل إليه ناسٌ كثير، فشدَّ في عصابة من أصحابه على أهل الشام مراراً، فليس من وجه يحمل عليه إلا صبر له وقاتل فيه قتالاً شديداً، فقال لأصحابه: «لا يهولنكم ما ترون من صبرهم، فوالله ما ترون فيهم إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها، وإنهم لعلى الضلال، وإنكم لعلى الحق. يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا وامشوا بنا إلى عدونا على تودة رويداً، ثم اثبتوا وتناصروا واذكروا الله، ولا يسأل رجل أخاه، ولا تُكثروا الالتفات، واصمدوا صمدهم، وجاهدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين». ثم إنه مضى في عصابة - مجموعة - معه من القراء، فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه عند المساء حتى رأوا بعض ما يُسرون به، قال: فإنهم لكذلك إذ خرج عليهم فتى شاب، وهو يقول:

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

* أنا ابنُ أربابِ الملوكِ غسانِ والدائنِ اليومِ بدينِ عُثمَانَ
إني أتاني خبرٌ فأشجانِ أن عليًّا قتلَ ابنَ عفانِ
ثمَّ يشدُّ فلا ينثني حتَّى يضربَ بسيفه، ثمَّ يشتم ويلعن ويكثر الكلام. فقالَ
لَه هاشم بن عتبة: «يا عبدالله، إنَّ هذا الكلام بعده الخصام، وإنَّ هذا القتال
بعده الحساب، فاتقِ الله، فإنَّك راجعٌ إلى الله فسأئلك عن هذا الموقف وما
أردت به».

قال: «فإنِّي أقاتلكم لأنَّ صاحبكم لا يُصلي كما ذكر لي، وأنتم لا تُصلون
أيضاً، وأقاتلكم لأنَّ صاحبكم - أي الإمام علي - قتلَ خليفتنا، وأنتم أردتموه
على قتله!».

فقالَ لَهُ هاشم: «وما أنت وابن عفان؟ إنما قتله أصحابُ مُحَمَّد وأبناء أصحابه
وقرَّاء الناس حين أحدث الأحداث وخالف حكم الكتاب، وهم أهل الدين
وأولى بالنظر في أمورِ الناس منك ومن أصحابك، وما أظنُّ أمرَ هذه الأمة وأمر
هذا الدِّين أهملَ طرفة عين».

فقالَ لَهُ: «أجل والله، لا أكذب فإنَّ الكذب يضر ولا ينفع». قال: «فإنَّ أهل
هذا الأمر أعلم به، فخله وأهل العلم به». قال: «ما أظنُّك والله إلا نصحت لي».

قال: «وأما قولك: إنَّ صاحبنا لا يصلي، فهو أوَّل من صلي، وأفقه خلق الله في
دين الله وأولى بالرسول، وأما كلُّ من ترى معي، فكلُّهم قارئ لكتاب الله، لا ينام
الليل تهجداً، فلا يغويئك عن دينك هؤلاء الأَشقياء المغرورون».

فقالَ الفتى: «يا عبدالله، إنِّي أظنُّك امرأً صالحاً، فتخبرني هل تجد لي من
توبة؟»^(١).

(١) المصدر السابق. ص ٩٩.

• النموذج السادس، المسور بن مخرمة الزهري

في «مختصر تاريخ دمشق»: «وكتب إليه المسور بن مخرمة: «إياك أن تغترّ بكتب أهل العراق، ويقول لك ابن الزبير: الحق بهم فإنهم ناصروك. إياك أن تبرح الحرم، فإنهم إن كانت لهم بك حاجة، فسيضربون آباط الإبل حتى يوافوك، فتخرج في قوة وعُدّة». فجزاه خيراً، وقال: «أستخير الله في ذلك»^(١).

• تقييم الموقف

لا نستطيع الجزم بصدور رسالة كهذه من ابن مخرمة أو نفي ذلك، وذلك بلحاظ سيرته وتاريخه. فقد توفي رسول الله ﷺ والمسور في حدود الثامنة من عمره.. حيث وُلد بمكة بعد الهجرة بعامين، وقدم المدينة مع أبيه بعد الفتح سنة ثمان، وهو غلام ابن ست سنين، ولكنه كان يحاول لاحقاً أن يؤكد على أنه كان أكبر من ذلك بكثير، كي تكون رواياته عن النبي موضع قبول الناس!

ومن بين رواياته التي تجعلنا نشك في سلوكه وصدور الرسالة السابقة عنه ما رواه ابن حنبل ومسلم وغيرهما عن ابن شهاب الزهري: «أن علي بن الحسين حدّثه أنّهم قدّموا المدينة من عند يزيد مقتل الحسين بن علي (رضي الله عنه)، فلقية المسور بن مخرمة فقال: «هل لك إلي من حاجة تأمرني بها؟». قلت: «لا». قال: «هل أنت مُعطي سيف رسول الله ﷺ؟ فإني أخاف أن يغلبك القوم عليه! وأيم الله لئن أعطيتني لا يُخلص إليه أبداً حتى تبلغ نفسي».

ثم يكمل المسور كلامه بذكر أمر غريب لا يتناسب مع الموقف، ولا يستطيع أحدنا تفهّم سبب ذكره سوى الإساءة إلى الإمام وجده علي بن أبي طالب بسبب عدم تجاوب الإمام معه في طلبه السابق، أو أنّها وسيلة ابتزاز في مقابل الحصول على

(١) ابن عساکر: تاريخ دمشق: ج ١٤، ص ٢٠٨-٢٠٩.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

ذلك السيف! وكأنّه يقول للإمام: أنت بين خيارَيْن، إما أن تعطيني السيف، وإما أن أنشر هذه الأكذوبة بين الناس فأشوه سيرة عليّ كما شوّهها الأمويون من قبل!

قال: «إنّ عليّ بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل فسمعتُ رسول الله ﷺ وهو يخطب الناس في ذلك على منبره هذا - وأنا يومئذ محتلم - فقال: «إنّ فاطمة بضعة منّي، وأنا أتخوّف أنّ تُفتن في دينها». ثم ذكر - أي النبي - صهرّاً له من بني عبد شمس - وهو أبو العاص زوج زينب - فأثنى عليه في مصاهرته إياه فأحسن. قال: أي النبي - «حدّثني فصدّقني ووعدني فوفى لي - وفي هذا تعريض بالإمام عليّ بأنّه لم يكن صادقاً ولم يلتزم بوعدته - وإني لست أحرم حلالاً ولا أحلّ حراماً، ولكنّ والله لا تجتمع ابنة رسول الله ﷺ وابنة عدوّ الله مكاناً واحداً أبداً»^(١).

هذا النص ونصوص أخرى من قبيل تردّد الخوارج على المسور، وأخذهم عنه، تجعلنا نشكّ في نيّته حين حاول ثني الإمام عن الخروج إذ كتب إليه بذلك - إن كان قد كتبها فعلاً - وإن لم نستطع الجزم بأنّ موقفه شبيه بموقف الزبير الذي لم يكن حريصاً على الإمام، على الرّغم من أنّ المسور سينصر ابن الزبير لاحقاً ضدّ يزيد، وسيقتل في الهجوم الذي تمّ على مكّة بأمر يزيد حين رُميت الكعبة بالمنجنيق، فأصيب المسور بحجر من حجارته ومات سنة ٦٤ للهجرة. كما أنّ الردّ المقتضب من قبل الإمام الحسين بحسب الرواية يُبقي الأمر غامضاً.

* تقييم الشهيد الصدر

وللشّهد السيد محمد باقر الصدر رَحِمَهُ اللهُ تفسير للمواقف الصادرة من المخلصين للإمام الحسين والذين كانوا صادقين معه في نصّحهم، حيث اعتبر أنّها تمثّل: «حالة انعدام الإرادة مع وضوح الطريق».

(١) ابن حنبل: المسند، ح ١١٧٢.

حيث اعتبر أنّ الطريق إنّما اتّضح للأمة بعد أن استطاع الذين سرقوا شخصيّتها وزوروا إرادتها أن يجعلوها غير قادرة على مجابهة موقف من هذا القبيل، فنامت وفقدت إرادتها.

ثم تناول السيد الصدر مشاهد من واقع التاريخ ممّا استعرضنا بعضه، معتبراً أنّ أصحاب تلك الكلمات والمواعظ هم: «مَنْ يُسَمِّونَ يومئذٍ بعقلاء المسلمين الذين يُؤثرون التعقّل على التهور»، وقد أجمعت كلمتهم على أنّ هذا «التصرّف من الإمام الحسين ليس تصرّفاً طبيعياً، كانوا يخوّفونه بالموت، كانوا يقولون له: كيف تثور على بني أميّة وبنو أميّة بيدهم السلطان، والرجال، والمال وكلّ وسائل الإغراء والترغيب والترهيب؟!!

كانوا يحدّثونه عن النتائج التي وصل إليها الإمام عليّ في صراعه مع بني أميّة، والتي وصل إليها الإمام الحسن في صراعه مع بني أميّة، كانوا يمتّونه السلامة... هذه النصائح لم يتلقّها الإمام الحسين من رعا، أو من عوام، وإنّما تلقّاها من سادة المسلمين، من الأشخاص الذين كان بيدهم الحلّ والعقد في المجتمع الإسلامي، تلقّاها من أشخاص من قبيل عبدالله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطّاب وعبد الله بن جعفر الطيّار، ومن قبل أخيه محمّد ابن الحنفية ومن قبل غيرهم من سادة الرأي في المجتمع الإسلامي».

وأضاف الشهيد الصدر محلّلاً الموقف: «هذه النصائح كانت تعبّر عن نوع من الانهيار النفسي الكامل الذي شمل زعماء وسادة المسلمين، فضلاً عن الجماهير التي كانت تعيش هذا الانهيار مضاعفاً في أخلاقها وسلوكها وأطماعها ورغباتها».

واعتبر الشهيد الصدر أن تصرّف عبدالله بن جعفر الذي استتبع كتابة الرسالة باسم والي مكة قد جعل ابن جعفر يتصوّر أنّه: «استطاع بهذا أن يقضي على كلّ

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
مبّررات خروج الحسين! لماذا يخرج الحسين من مكة؟ لأنّه خائف فيها وقد جاء الأمان له من سلاطين بني أميّة).

ثم يأتي الشهيد الصدر بشواهد أخرى لم نذكرها في بحثنا، ويبدأ بمشهد من البصرة حيث أرسل الإمام إلى مجموعة من شخصيّاتها من: «الذين يرتبطون بمدرسة الإمام عليّ - فماذا يكون ردّ فعلهم؟ - يكون ردّ الفعل - إذا استثنينا شخصاً واحداً وهو عبد الله بن مسعود النهشلي الذي كتب مستجيباً - هو البرود المطلق، أو الخيانة، إذ يبعث أحدهم برسول الحسين إلى عبيد الله بن زياد، وكان وقتئذٍ والياً على البصرة... فأمر عبيد الله بن زياد بالرسول فقتل (رضوان الله عليه)».

ويستغرب الشهيد الصدر من موقف أحد قادة الإمام عليّ وأنصاره.. كيف خذل الحسين وهو ابن عليّ، قال: «شخص آخر من هؤلاء الزعماء، الأحنف بن قيس الذي عاش مع خطّ جهاد الإمام عليّ وعاش مع حياة الإمام عليّ عن قرب، وتربّى على يديه. ماذا كان جوابه لابن الإمام عليّ؟ أمره بالتصبر والتريث.

وفي الواقع كانت رسالة الأحنف تعبّر عن أخلاقيّة الأمة المهزومة، فإنّ الأمة في حالة تعرّضها للهزيمة النفسيّة، وفي حالة فقدانها لإرادتها وعدم شعورها بوجودها كأمة تنشأ لديها بالتدرّج أخلاقيّة معيّنة هي أخلاقيّة هذه الهزيمة. وأخلاقيّة هذه الهزيمة تصبح قوّة كبيرة جدّاً بيد صانعي هذه الهزيمة لإبقاء هذه الهزيمة وإمرارها، وتعميقها وتوسيعها، ويصبح العمل الشجاع تهووراً، والتفكير في شؤون المسلمين استعجالاً، ويصبح الاهتمام بما يقع على الإسلام والمسلمين من مصائب وكوارث نوعاً من الخفّة واللاتعقّل.. نوعاً من العجلة وقلة الأناة.. نوعاً من التسرّع في العمل أو التفكير».

المشهد الآخر الذي يستشهد به الشهيد الصدر مؤكّداً نظريّته التحليليّة لمواقف

الخاذلين كان بالقرب من الكوفة وكربلاء حيث: «يذهب حبيب بن مظاهر ليطلب العون والمدد من عشيرة بني أسد للإمام عليه الصلاة والسلام، وتكون النتيجة لذلك أن تغادر عشيرة بني أسد بأجمعها تلك الليلة المنطقية، وتنسحب هذه العشيرة انسحاباً إجماعياً، ويرجع حبيب بن مظاهر ليبلغ الإمام الحسين هذه النتيجة الغريبة وهي: أن عشيرته تخشى أن تبقى بعد اليوم، تخشى أن تبقى حتى حيادية، لأنه قد لا يكتفي عمر بن سعد بهذا الحياد، فتغادر المنطقة نهائياً».

ويضيف السيد الصدر أن من بين أسباب إصرار الإمام على الخروج - ولو أدى الأمر إلى تضحية كبرى بحجم ما جرى في كربلاء - هو معالجة الأمة من هذا المرض، قال: «فبقدر ما يكون هذا المرض عميقاً في جسم الأمة، يجب أن تكون التضحية أيضاً عميقة مكافئة لدرجة عمق هذا المرض في جسم الأمة. وهذا المرض كان يشمل كل قطاعات الأمة عدا بصيص هنا وهناك...»^(١).

• ثورة القيم

وهكذا خرج الحسين عليه السلام، وثبت معه المؤمنون بأهداف حركته ونهضته، حتى إذا اتّضحت الصورة وهو محاصر بالقرب من الكوفة، وعلم أن القوم خاذلوه لا محالة، وأن أنصار بني أمية لا يريدون له إلا الهوان بمبايعة يزيد عن صغار، اتخذ قرار المواجهة والتضحية ليهز ضمير الأمة ويُعيد إليها شيئاً من الإرادة التي فقدتها، والكرامة التي تخلّت عنها، وهو ما تحقّق.. ولكن بعد أن أريقَت الدماء الزاكيات على أرض كربلاء.. وبعد أن استبيحت الحرمات.. وقُطفت الرؤوس.. وتهشّمت الصدور.. ورُوّع الأطفال.. وسُبيت نساء آل الرسول.. إنه الثمن الغالي الذي استرخصه سيّد الشهداء ما دام أنه لله.. وبعين الله.

(١) من محاضرتين للشهيد الصدر صدرتا لاحقاً في كُتَيْب تحت عنوان: «التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقية الهزيمة».



الجهاد القسم الأول



كيف نفهم الجهاد؟ وما الهدف من تشريعه؟ أليس للإنسان حرمة وحق في الحياة؟ فكيف يُسَمَحُ بقتال غير المسلم وسلب حق الحياة منه؟ هل انتشر الإسلام بالقوّة؟ وهل الإسلام ضعيف من حيث الحجّة كي يلجأ إلى السلاح بهدف لنشره؟ الخوض في موضوع الجهاد والإجابة على التساؤلات السابقة يحتاج إلى ذكر بعض المقدمات:

• المقدمة الأولى

المبدأ العام الذي شرّعه الإسلام لتنظيم علاقات الإنسان مع أبناء جنسه هو ما جاء في قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالتعارف والتلاقي والتواد والتعايش والتكامل هي الصورة العامة التي يريدّها الله ﷻ لطبيعة العلاقات التي تجمع الناس بعضهم ببعض. وهذه الصورة العامّة لا تتحقّق إلا من خلال ركائز معيّنة، من أهمّها: التسامح والعدل.

• ركيزة التسامح

العلاقات الإنسانية والتفاعل بين البشر لا بدّ وأن تشهد التنافس والاختلاف

ليالي عَشُوراء _____ ❁

والتصارع، إذ يمتلك الإنسان غرائز عديدة تلحّ عليه بإشباعها وتلبية حاجاتها، كحبّ الذات والرغبة في التملك والقوة الغضبيّة والشهوة الجنسيّة.

وعند تزاحم المصالح بين الأفراد، قد تتوتّر الأجواء، ممّا يؤهّل الأمور إلى الدخول في دائرة العُنف، فيتحوّل التوتر والغضب إلى صراع أو عدوان على المال أو الجسد أو الشخصية أو الحرّمات أو غير ذلك.

ولربما تأخذ الأمور منحىً آخر حيث يلجأ أحد الأطراف إلى الحيلة والمكيدة والخداع من أجل التغلب على المنافس والحصول على ما يريد.

وسواء كان هذا أو ذاك، فإنّ النتيجة الطبيعية لكلّ ذلك هو احتمال وقوع النزاع أو الاقتتال أو العدوان.

ولكي نخفّف من وطأتها ونتائجها واحتمال امتدادها وتوسّعها، ومن ثمّ إعادة العلاقات الإنسانيّة إلى مسار غايتها الحقيقيّة - أعني التعارف - فإنه لا بدّ من وضع قواعد للمعالجة ضمن أسس معيّنة، وإلا تحوّلت إلى بؤر أزمت لتوليد المزيد من أوجه الصّراع والنّزاع والعدوان.

والتسامح من أهمّ تلك القواعد، وقد قال الله ﷻ في بيان الدور الفاعل للتسامح في هذا الإطار: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

إنّ الرحمة التي تنبع من قلب المسلم من خلال التّسامح لا يُراد لها أن تكون سذاجة أو حماقة أو ضعفاً، بل محاولة لتفادي التخاصم والنزاع والحقد والعداوة، وإحلال روح المحبّة والتعاطف محلّها، أو أن يكون التّسامح سبيلاً لفكّ خصومة واقعة وتحويل العلاقة المتأزّمة إلى علاقة توادّ وتصافي وتراحم وتعاون.

• ركيزة العدل

أما العدل فيعتبر الأسلوب الإيجابي الصارم الذي يعالج به الإنسان مشاكل حياته في نطاق اتّصالها بالآخرين، حيث يخفف من جموح غريزة العدوان في النفس، ومن طغيان الأثرة والحقد والحسد وغيرها من نوازع الشر، بوضع الحدود المادية التي توقفه عند حدّ معيّن لا يتجاوزه.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وعليه، فإنّ حقّ المعتدى عليه مُصانٌ بالاقتصاص من المعتدي، بالعدل ودون تجاوز الحدّ.. كما أنّ باب التسامح والعفو مفتوح لو اختار ذلك، وسيكون عفواً ذا قيمة وعزّة، لأنّه عفو عن قدرة.. عفو بعد تملك حقّ الاقتصاص العادل.

• المقدمة الثانية

الخطوط العامة لأسلوب الدعوة إلى الإسلام تتمثل في قوله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالإسلام يسعى ابتداءً إلى أن يفتح للناس أبواب المعرفة واسعة، قبل أن يدعوهم إلى الإيمان به، ليكون الإيمان واعياً عميقاً، وليكون الالتزام به التزاماً حراً ومسؤولاً، لا إكراه فيه ولا قسراً.

وهذا ما عناه الله ﷻ في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكانه ﷺ يخاطبنا قائلاً: هذا طريق الحق فاتبعوه، قد بينت لكم علائمه، وأقمت لكم الحجج والبراهين الواضحة عليه.. وذاك طريق الباطل فاجتنبوه، وقد بينت لكم علائمه، وأقمت لكم الحجج والبراهين الواضحة على خطره..

فإن سلكتم طريق الحق تهتدوا، ولكي لا أكرهكم على سلوكه.. الاختيار بأيديكم، وسأترككم لتحمّلوا مسؤوليّة أنفسكم، وإن سلكتم طريق الباطل ستضلّوا، ولن أمنعكم.. ولكنكم ستحمّلون تبعات ذلك.

هذا المعنى يؤكده قوله ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وعدم الإكراه يتوافق مع الصورة العامة التي يُخطّط لها الإسلام في رسم معالم العلاقات الإنسانية، وبيانه لغاية التنوع البشري.. وهو التعارف لا التصادم.

ولكن يبقى أن للإسلام موقفٌ مختلفٌ مع حركة دُعاة الشرّ أو الباطل.. فحرية الاختيار لا تعني السّماح لدعاة الشرّ أو الباطل أن يضلّوا الناس.. ففرقٌ بين أن تسمح للإنسان أن يختار ويتحمّل تبعّة اختياراته، وبين أن تسمح له بأن يضلّل الآخرين ويعرّضهم إلى المفسد والانحلال.

• المقدمة الثالثة

للحياة قيمة كبيرة، والتشريع لا ينتهك حرمتها، ولا يشرّع ما يؤدّي إلى إباحة قتل النفس البشرية، إلا ضمن استثناءات خاصّة جداً، من قبيل أن يكون هذا الإنسان قد تعمّد - ظلماً وعدواناً - إزهاق نفس محترمة، فحينذاك يكون الاقتصاص بإعدامه وسلبه حقّ الحياة أمراً مشروعاً من خلال القانون العادل الذي يحكم بالأدلة القطعية دون شبهة أو شكّ.

قال ﷺ: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿المائدة: ٤٥﴾.

أما مَنْ يعتدي على حقّ الحياة لإنسانٍ آخر خارج نطاق هذا الاستثناء، فقد ارتكب جرماً كبيراً، لا بحقّ الفرد فحسب، بل بحقّ البشريّة جمعاء: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقد قام رسل الله ببيان هذا الأمر وخطورته، والتحذير من تجاوزه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ إِلَّا أَنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَلْتَمِزُوا بِذَلِكَ، بل وأسرفوا في العدوان على حرمة الحياة: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

• لماذا الجهاد؟

بعد هذه المقدمات يأتي دور السؤال المهم والحساس: إذا كان الأمر كذلك، على مستوى طبيعة العلاقات الإنسانية، وعلى مستوى أسلوب الدعوة وحرية الإنسان، وفي ما يتعلق بحرمة الحياة، فلمّ الجهاد والقتال والحرب؟

لَمْ كُلْ هذه الآيات الأمرة بالقتال، والتحريض عليه، والدفع نحو العطاء المالي في هذا الطريق، وتشجيع المقاتلين بوعود دنيويّة، من قبيل تحقيق النصر والغنائم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-١٩].

وبوعود استثنائية تخصّ عالم البرزخ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ..﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

وبعود تخصُّ الحياة الأخروية في جنان الخلد: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل
عمران: ١٩٥].

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال القسم الثاني من هذا البحث بإذن

الله عَزَّوَجَلَّ.





الجهاد القسم الثاني



كان السؤال الرئيسي الذي طرحته في القسم الأول من البحث حول الجهاد:
كيف نفهم الجهاد؟

وفرّعت على ذلك عدّة أسئلة تتمثّل في ما يلي: ما الهدف من تشريع الجهاد؟
أليس للإنسان حرمة وحقّ في الحياة؟ فكيف يُسمَح بقتال غير المسلم؟ هل انتشر
الإسلام بالقوّة؟ وهل الإسلام من الضعف في مقام الحجّة والدليل كي يلجأ إلى
السلاح بهدف نشره؟ ثم قدّمت ثلاث مقدّمات تمهيدية وضرورية:

الأولى: أنّ الإطار العام للعلاقات بين الناس هو التعارف، وأهم ركائز ذلك
هو العدل والتسامح.

الثانية: الخطوط العامة لأسلوب الدّعوة إلى الإسلام هي الحكمة والموعظة
الحسنة.

الثالثة: العدوان على حقّ الفرد بالحياة - من دون مسوّغ - بمثابة العدوان على
البشرية جمعاء.

بعد هذه المقدّمات يأتي دور السؤال المهم والحساس: إذا كان الأمر كذلك، على
مستوى طبيعة العلاقات الإنسانيّة، وعلى مستوى أسلوب الدعوة وحرية الإنسان،
وفي ما يتعلّق بحرمة الحياة، فلمّ الجهاد والقتال والحرب والتشجيع عليه؟

• غايات الجهاد

لو عدنا إلى القرآن الكريم سنجد أنّ الإطار الذي يجمع صور القتال والجهاد هو الكون في سبيل الله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

هذا الإطار الكبير والواسع تتجلى فيه غايات القتال تحت عناوين متعددة بحسب الظروف والمعطيات.. وقد تناوَلت الآيات القرآنية بيان ذلك، ويمكن تصنيفها وفهرستها من حيث غايات القتال كما يلي:

* الغاية الأولى

حماية العقيدة من الاضطهاد من قِبَل أعدائها، حيث إنّ الدعوة تعتمد في الأساس على الأسلوب السلمي، فماذا لو وُجِهت بالعنف والاضطهاد ومحاولة القضاء عليها؟

حينذاك ستفرض الظروف طبيعة وكيفية المواجهة.. ففي العهد المكي لم تسمح المعطيات بأن يُواجه عُنف المشركين المستمرّ والوحشيّ بحقّ الرسول والرسالة وأتباعها بعنفٍ مضاد، ولذا جاء الأمر مكرراً بالصبر والتواصي بالصبر والاستمرار في الدّعوة والتغافل والتجاوز عن العدوان وحتى الدّفع نحو الهجرة الجزئية لمن لم يعد يحتمل الأوضاع الضاغطة.. قال الله ﷻ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م _____ *
 مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا
 يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا
 غَفُورًا ﴿النساء: ٩٧ - ٩٨﴾.

ولكن عندما تهيأت الظروف لكبح جماح الاستكبار القرشي، ودفع عدوان
 المشركين، جاء الأمر بمواجهة العنف بعنفٍ مثله، لعله يكون رادعاً لهم، وباباً
 لتهيئة الظروف المناسبة لإيصال كلمة الرسالة إلى الذين طالما أصموا أسماعهم
 عنها، وأزهبوا الآخرين وحرّضوهم على الصدود: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا
 لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وأما حقيقة موقف المشركين فهو: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ
 دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، ولذا جاء الأمر بالقتال كما في قوله ﷺ:
 ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣].. والفتنة يمكن تصوورها عند السماح
 لأعداء الدين بأن يمارسوا كل أساليبهم الإرهابية والدعائية وأنواع الحصار والضغط
 لاضطهاد المؤمنين، ولمنع أصحاب الرسالة من أن يقوموا بدورهم في بيان كلمة
 الله، ولخندق حرية الدعوة الإلهية ووضع العراقيل أمامها.

وهكذا نفهم علّة السرايا والمجاميع العسكرية والاستكشافية التي انطلقت بأمر
 النبي ﷺ منذ الشهر الثامن من العام الأول للهجرة.. فالمسألة لم تكن بهدف قطع
 الطريق أو الحصول على الغنائم، كما يحاول بعض المستشرقين والمتأثرون بهم
 تصوير الأمر، بل بهدف فرض هيبة الكيان الجديد الذي بدأ يتشكل في المنطقة،
 ولردع استكبار وعدوان قريش، ولمواجهة حصار التحالفات الذي فرضه القرشيون
 مع حلفائهم من الأعراب، ولإزعاج قريش وإرغام أنفها بالتحرش بطريق قوافلها
 التجارية، وهو عصب الحياة بالنسبة إليها، لعلها تنازل عن شيء من كبرياتها
 وعدوانها المستمر، وتستمع إلى صوت العقل.

ومن هنا نعرف لماذا ردَّ النبي ﷺ الغنيمة التي نالها سرية المسلمين من قريش في «بطن نخلة» في شهر رجب الحرام، التزاماً بالمبادئ، واحتراماً للشهر، ولأنَّ الغاية لم تكن كسب الغنيمة.

وقد وجه الله ﷻ المسلمين في قتالهم أن يكونوا المبدئين الذين لا ييطرون ولا ينطلقون من خلال حالة استكبارية أو استعراضية، بل تكون غايتهم رضا الله وفتح آفاق الهداية للآخرين، وصدِّ العدوان عن المؤمنين والمستضعفين: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

فقد خرجت قريش بصورة استعراضية في أجواء غزوة بدر الكبرى، إعجاباً بقوتها واستهزاءً بالمسلمين، وأخذت معها القيان يضرِّبنَ بالدفوف ويغنين، وكان نحرُ الإبل وإطعامُ أهل الطريق حالة استعراضية ومجرّد رياء، لا إشفاقاً على المحتاجين، ولا رحمةً بالمستضعفين. يُضاف إلى ذلك أنَّ الغرض الأساسي من خروجهم للقتال هو التصدي للإسلام والمسلمين: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

* الغاية الثانية

الانتصار للمضطهدين والمستضعفين ضدَّ القوى الظالمة والمعتدية والمستكبرة، والتي تعمل على فتنهم عن دينهم بمختلف وسائل الضغط من التعذيب والعدوان على الممتلكات، فهم إنَّما: ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠] ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، ولذا جاء الأمر حاسماً:

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْتَهُمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]،
ونفت أي إشكالٍ قد يتبادر إلى الأذهان جرّاء صدور هذا الأمر: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا
تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٥].. فالأمر منطقيّ ومشروع.

* الغاية الثالثة

الدفاع عن كيان الإسلام من العدوان الحربي ضدّ المسلمين ومؤسّساتهم:
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وهذا العدوان دائم
ومستمرّ، لأنّه صراعٌ بين الحقّ والباطل، وهذا النوع من الصّراع لم يتوقّف
منذ بداية الوجود البشري: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِن
اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، وعدم اتّخاذ أيّ إجراء قويّ وحاسم في هذا الاتّجاه
ستترتب عليه نتائج وخيمة على أكثر من مستوى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ
اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج:
٤٠-٤١]..

بل إنّ الحكمة تستدعي التحصّن والوقاية من أيّ عدوان مستقبليّ محتمل:
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] كما أنّها تستدعي مواجهة القوّة
بالقوّة عند الإمكان، وهو ما قام به الأنبياء ﷺ عندما اضطرّوا لمواجهة العدوان
بالقوّة، وهو ما يرمز إليه الحديد في قوله ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ
لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

* الغاية الرابعة

مواجهة حالات نكث الموثيق والعهود التي يعمد إليها أعداء الإسلام من أجل القضاء عليه أو الإعانة على ذلك، وهو ما نجد الآيات الأولى من سورة التوبة تتحدث عنه وتعالجه بصورة مفصلة: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ اتَّخَشَوْنَهُمْ فَالَلَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢-١٣].

وقد يتساءل البعض: كيف نُعالج مسألة نقض الموثيق من جهة المسلمين أنفسهم، وهو ما جاءت به بعض آيات سورة التوبة حيث يقول ﷺ: ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].؟

الجواب عن ذلك يحتاج إلى دراسة النص ضمن سياق الحدث التاريخي الذي نزل فيه، وقد أشارت بعض آيات هذه السورة إلى جوانب منه: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَا لَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَا لَ ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ٨-١٠].

إنّ واقع هؤلاء أنّهم كانوا يعاهدون ويصالحون لا قناعةً منهم بذلك، بل شعوراً منهم بالضعف، ورغبةً منهم بتحيين الفرص لتنفيذ مخططاتهم بالقضاء على الإسلام أو إضعاف مواطن القوة عند المؤمنين، وذلك بالتعاون السري مع كلّ الأطراف الحاقدة أو المتربّصة بالإسلام الدوائر، كاليهود والروم والفرس ومنافقي الأعراب وقريش والمدينة!

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

ولذا فإنّهم هم الذين بادروا بنقض الموائيق مع المسلمين في الباطن من خلال تحركاتهم السريّة ومخططاتهم المشؤومة، الأمر الذي يُعطي المبرّر الكافي لنكث الميثاق علناً من قبل المسلمين وإعلان البراءة.

أما الفئة التي لم تُنكث العهد ولم تُخطط مع الأعداء ضدّ الإسلام والمسلمين لا في السر ولا في العلن فهي غير مشمولة بهذا الأمر: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

إنّ الإسلام لا يرتضي العدوان، ولو كان بحق المشركين، فالمبادئ لا تتجزأ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

• الدعوة الإسلامية

إنّ المقدمات التي قدّمتها، علاوة على غايات القتال التي أتينا عليها حتى الآن تؤكّد على أنّ الإسلام إنّما جاء رسالة عالمية ودعوة شاملة للناس جميعاً، فلا بدّ له من ممارسة دعوته في حرية تامة، لأنّه يعتمد في ذلك على الإقناع، وهو لن يتحقّق إلا إذا أتيح للناس فهم هذه العقيدة الجديدة والاطّلاع على ما فيها من مبادئ وقيم وأخلاقيات ومنابع هداية ومعارف وأسباب تحقيق سعادة الدارين.

ومن الطبيعي عدم توفّر مثل هذا الجوّ في ظلّ الظروف العصيبة، التي يعاني فيها المجتمع ضغط القوى الكافرة المستكبرة وعدوانها، الأمر الذي يجعل القيام بصدّ هذه القوى عمليّة دفاعية محضّة، تمارس فيها العقيدة قضية الدّفاع عن حياتها ووجودها.

إنّ النبي الأكرم ﷺ لو ترك وشأنه ولم يتعرّض له المشركون ويقفوا أمام

ليالي عاشوراء

دعوته ويضطهدوا أتباعه ويصدّوهم عن سبيل الله ويُخرجوهم من أوطانهم، لما شنَّ حرباً، وما سلَّ سيفاً، ولما كان هناك قتال.

* الغاية الخامسة

الدفاع عن النفس والعباد والبلاد دون أن ترتبط بالإسلام ودولته: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالله لا يرتضي الظلم والاعتداء على النفوس والحقوق والحُرُمات، وقد أكّدت بعض النصوص على أن المقتول في هذا الطريق يُحتسب مع الشهداء، وإن لم يأخذ حكمهم في التفاصيل الشرعية المتعلقة بغسل الميت والدفن، فعن النبي ﷺ: «من قُتل دون أهله ظلماً فهو شهيد، ومن قُتل دون ماله ظلماً فهو شهيد، ومن قُتل دون جاره ظلماً فهو شهيد، ومن قُتل في ذات الله ﷻ فهو شهيد»^(١).

* الغاية السادسة

مواجهة الفئة الباغية ضمن المجتمع الإسلامي، وذلك وفق ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فالأصل والخطوة الأولى هي الإصلاح بينهما بالعدل ووفق الموازين الشرعية، أو بالتراضي، ولكن في حالة إصرار طرفٍ منهما على الاستمرار في الصراع والقتال، فإن الموقف الشرعي يستدعي ردّ هذا البغي، إلى أن يقبل هذا الطرف بالصلح ويكفّ عن القتال.

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٥١٦.



• البغي وخروج الحسين

ويحلّو للبعض أن يعتبر خروج الإمام الحسين عليه السلام نوعاً من البغي من خلال إصراره على القتال، على الرغم من الجهود التي بُذلت لكفّه عن ذلك، وقبوله ببيعة يزيد، والدخول فيما دخل فيه الناس، حتى قالوا إنّ الحسين إنّما قُتل بسيف جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله!

قال ابن حجر المكي في «المنح المكيّة» في ذكر يزيد بن معاوية: «قال أحمد بن حنبل بكفره، وناهيك به ورعاً وعلماً يقضيان بأنّه لم يقل ذلك إلاّ لقضايا وقعت منه صريحة في ذلك ثبتت عنده، وإنّ لم تثبت عند غيره كالغزالي، فإنّه أطال في ردّ كثير ممّا نسب إليه، كقتل الحسين، فقال: «لم يثبت من طريق صحيح أنّه قتله ولا أمر بقتله». ثمّ بالغ - أي الغزالي - في تحريم سبّه ولعنه. وكابن العربي المالكي فإنّه نقل عنه ما يقشعرّ منه الجلد، إنّ قال: لم يقتل يزيد الحسين إلاّ بسيف جدّه! أي: بحسب اعتقاده الباطل أنّه الخليفة، والحسين باغ عليه، والبيعة سبقت ليزيد، ويكفي فيها - أي تحقّق البيعة وصحّة خلافة يزيد - بعض أهل الحل والعقد، وبيعته كذلك - أي تحقّق فيها هذا الشرط - لأنّ كثيرين أقدموا عليها مختارين لها، هذا مع عدم التّظر إلى استخلاف أبيه له، أمّا مع النظر لذلك فلا يشترط موافقة أحد من أهل الحلّ والعقد على ذلك.. وقول بعضهم: «لا ملام على قتلة الحسين، لأنّهم إنّما قتلوه بسيف جدّه الأمر بسلّه على البغاة وقتالهم لا يُعوّل عليه»^(١).

ولعلّ أقصر الطّرق للردّ على هذه الشبهة هو الرجوع إلى الخطبة التالية التي بيّن فيها الإمام أهم الأسباب التي دفعته للخروج والإصرار على المواجهة، ولو كلّفه ذلك نفسه وأهله وأصحابه، قال ابن عساكر: «لما استكفّ الناس

(١) الميلاني: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار، ج ٤، ص ٢٣٦-٢٣٧.

بالحسين - استداروا حوله كالحلقة - ركب فرسه ثم استنصت الناس - طلب منهم أن يُنصتوا له - فأنصتوا له فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال: تَبَّاً لكم أيتها الجماعة وترحاً - حزناً وغمماً - أحين استصرختمونا ولهين، فأصرخناكم مُوجفين - مسرعين - شحذتم علينا سيفاً كان في أيماننا، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوكم وعدونا، فأصبحتم إلماً على أوليائكم - مجتمعين حولهم على عداوة - ويداً عليهم لأعدائكم، بغير عدلٍ رأيتموه بثوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، ومن غير حدث كان منّا - بانحراف أو ظلم - ولا رأي يفيل فينا - أخطأنا فيه - فهلاً لكم الولايات إذ كرهتمونا تركتمونا والسيفُ مشيم - لم يُسلّ وبقي في غمده - والجأش طامن - القلب ساكن وهو كناية عن عدم النهوض - والرأي لم يُستخف! ولكن استصرعتم إلينا كطيرة الدبى - صغار الجراد - وتداعيتم إلينا كتداعي الفراش، قيحاً وحكة وهلوغاً وذلة لطواغيت الأمة، وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب، وعُصبة الآثام، وبقية الشيطان، ومحرفي الكلام ومطفئي السنن وملحقي العهرة بالنسب، وأسف المؤمنين، ومزاح المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عِضين - متفرقاً فأخذوا ببعضه ونبذوا الباقي - لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. أفهؤلاء تعضدون؟ وعنا تتخاذلون؟ أجل والله الخذل فيكم معروف، وشجّت عليه عروقكم، واستأزرت عليه أصولكم، فأفرعكم، فكنتم أخبث ثمرة شجرة للناظر وأكّلة لغاصب. ألا فلعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلوا الله عليهم كفيلاً. ألا وإنّ البغيّ ابن البغيّ قد ركز بين اثنتين، بين السّلة - سل السيف والقتال - والذّلة، وهيئات منّا الدنيّة، يأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وبطون طُهرت وأنوف حميّة ونفوس أبيّة أن نؤثر مصارع الكرام على ظنار اللئام». مراودتهم وفي نص آخر: طاعة اللئام - ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وكثرة العدو، وخذلة الناصر... ألا ثم لا تلبثون إلا ريث ما يُركب

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م *
فرس - أي في فترة زمنية قصيرة - حتى تُدار بكم دور الرحا، ويُفلق بكم فلق
المحور، عهداً عهداً النبي إلى أبي. فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم
عليكم غمّة ثم افضوا إليّ ولا تُنظرون. إنّي توكلت على الله ربي وربكم، ما من
دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها إن ربي على صراطٍ مستقيم»^(١).

هذه هي الصورة الحقيقية للنهضة الحسينية، وهو قتال للدفاع عن الإسلام
وعن النفس وعن المضطهدين..

ويبرز أمامنا السؤال التالي: هل كلُّ قتال باسم الإسلام ويرفع شعاراته هو جهادٌ في
سبيل الله؟ هذا ما سنجيب عنه في القسم الثالث من البحث بإذن الله ﷻ.



(١) ابن عساکر: ترجمة الامام الحسين، ص ٣١٧.



الجهاد

القسم الثالث



هل كلُّ قتال باسم الإسلام ويرفع شعاراته هو جهادٌ في سبيل الله؟
 فالיום نجد رايات عديدة تُرفع، وأحياناً تتعاون في ما بينها، وفي أحيان أخرى
 تتقاتل مع بعضها البعض بصورة أشرس ممّا تقاتل بها العدو المشترك، وكلُّ يدعو
 إلى أميره وقائده. فأَيُّها يمثّل جهاداً وقاتلاً في سبيل الله؟ وهل يكفي للحكم
 بشرعيّتها أن تقاتل عدوّاً محتلاً على سبيل المثال؟

سنناقش الموضوع بغضّ النظر عن منشأ هذه الحركات والقوى الموجودة
 اليوم على أرض الواقع، ومن يحركها، ودون الدخول في تفاصيل ما تمارسه
 من جرائم باسم تطبيق الشريعة وغير ذلك.. فنحن نتحدّث هنا فقط من ناحية
 تجريدية نظرية.

• صفات القيادة

القيادة - التي تريد أن تتخذ من القتال في سبيل الله وسيلةً للدفاع عن الإسلام
 والمسلمين والمقدّسات - لا بدّ أن تتّصف بمجموعة من الأمور الهامّة جداً، وإلا
 فقدت أهليّة القيادة تحت راية إسلامية، تمثّل من خلالها الإسلام وتُدافع عن
 مبادئه، وترفع شعاراته. ولعلّ من أهمّ تلك الصفات ما يلي:

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م _____ *

١- أن تكون قيادةً متشرّعةً متفكّهةً، تمتلك علماً شرعياً بمستوى الاجتهاد الحقيقي، أو تستعين بفقهاء يمتلكون المستوى العلمي العميق الذي يؤهلهم للإفتاء في مجال القتال والدّماء وتبعات ذلك.

٢- أن تمتلك وعياً شمولياً لواقع المرحلة من الناحية السياسيّة والأمنيّة والاقتصاديّة والعسكريّة، لا على المستوى المحليّ فحسب، بل على المستوى العالمي، بلحاظ تعقيدات اللعبة السياسيّة الدوليّة وتداخلاتها الإقليميّة والعالميّة.

٣- أن تتحلّى بالحكمة في التعامل مع الأمور والأحداث والمتغيّرات، فالتهور والعجلة والسطحيّة تُصيب أية قيادة في مقتل، وقد تترتب عليها الكثير من المعطيات السلبيّة التي لا تقف عند حدّ خسارة عسكريّة ميدانيّة، بل تتجاوزها إلى تبعات خطيرة، من قبيل تمكين المحتلّ الأجنبي من رقاب المسلمين، أو تشويه صورة الإسلام، أو تنفيذ مخطّطات الأعداء بالنيابة عنهم ودون دراية بالأمر، وغير ذلك.

٤- أن تكون على مستوى المسؤوليّة، بحيث تدرك أنّ:

• القتال بما هو قتال، وسفك للدّماء، واستعمال للقوّة والسّلاح ليس غاية، وله ضوابط وشروطاً وتشريعات محكمة، وعدم مراعاتها يُوقع في نتائج لا تُحمد عُقباها. فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في ذم عقليّة الخوارج التي كانت ترى أنّ القتال بما هو قتال أمر مطلوب: «سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسُّقم، وتخلطون من أذنّب بمن لم يُذنب»^(١).

• الدعوة تسبق القوّة، والهداية هي الأساس، ولا بدّ من استنفاد الوسائل

(١) الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٣.

والحجج، والاستعداد للإجابة عن جميع الشُّبُهات بالكلمة الطيبة وروح الرّسالة بدلاً من روح السُّلطة والعلبة والقهر، ولا شرعية للقتال مع انفتاح طريق السُّلم في التعامل مع الوضع. فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: يا عليّ، لا تُقاتل أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيمُّ الله، لئن يهدي الله ﷻ على يديك رجلاً، خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمسُ وغُرُبَت»^(١).

• الجهود السلمية لو لم تُؤت ثمارها، واستدعى الأمر الانتقال إلى مرحلة القتال والمواجهة العسكرية، فحينئذ تتخذ الأمور مجرى آخر بشروط وضوابط محدّدة. فعن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يبعث سرية دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: «سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تغلوا - لا تخونوا - ولا تُمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليها. وأيما رجل من أدنى المسلمين وأفضلهم نظر إلى أحد من المشركين، فهو جار حتى يسمع كلام الله، فإن تبعكم فأخوكم في الدين، وإن أبى فأبلغوه مأمّنه، ثم استعينوا بالله عليه»^(٢)، فالجهد حركة رسالية، وليست مسألة مزاج أو ثارات أو أحقاد، ولا وسيلة شريرة لهدف شرير.

• الغدر في الجهاد أمر مرفوض بتاتاً، ففي المروي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنه قال: «مَنْ ائتمن رجلاً على دمه، ثم خاس به - غدر به - فأنا من القاتل بريء، وإن كان المقتول في النار»^(٣). وعن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سألته عن قريتين من أهل الحرب، لكل واحدة منهما ملك على حدة، اقتتلوا ثم اصطلحوا، ثم إن أحد الملكين غدر بصاحبه، فجاء إلى المسلمين فصالحهم على أن يغزوا تلك المدينة؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: لا

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٣٦.

(٢) الطوسي: التهذيب، ح ٢٣١.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٥١.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

ينبغي للمسلمين أن يَغْدروا ولا يأْمروا بالْغدر، ولا يُقَاتِلُوا مع الذين غَدروا...»^(١).

فإلى أيّ مدى تُدرك المجاميع القتالية وقياداتها والأفراد المنضون تحت إمّرتها هذه الأمور وتبناها وتلتزم بها؟

• القيادة الفاقدة للشرعية

أمّا عندما لا تتوفر مثل هذه الصّفات والشّروط في القيادة، فهل سيُعتبر الجهاد والاشتراك في القتال مع هذه المجاميع أمراً راجحاً أو واجباً؟

لا سيّما بلحاظ أنّها ستكون عُرضة لارتكاب الجرائم باسم الجهاد، وتشويه صورة الإسلام على مدى أجيال وذلك باسم الجهاد والقتال في سبيل الله وإعادة أمجاد الخلافة الإسلامية، وتقديم المبرّرات لأعداء الإسلام للطعن فيه وتحريف الإسلام عن حقيقته، وإلحاق الدّمار بالمجتمعات الإسلامية.

• الخوارج نموذجاً

تاريخياً، بعد قضية التّحكيم، وانشقاق الخوارج، وهم يرفعون شعار لا حكم إلا لله، سعى الإمام عليّ عليه السلام على مدى أشهر، ومن خلال عدّة أشخاص لدفعهم إلى العدول عن موقفهم، وأعطاهم الحقّ في المعارضة السياسيّة، ولكنّه منعهم من الخوض في دماء المسلمين.

عن كثير بن نمر، قال: «دخلت مسجد الكوفة عشية جمعة، وعليّ يخطب الناس، فقاموا في نواحي المسجد يحكّمون - أي يهتفون بلا حكم إلا لله وهو شعارهم منذ تمرّدهم في معركة صفين - فقال بيده: هكذا - وكأنه أشار إليهم بالسكوت - ثم قال: كلمة حقّ يُراد بها باطل، حكم الله أنتظر فيكم. أحكم فيكم

(١) المصدر السابق.

بكتاب الله، وسُنَّة رسوله، وأقسم بينكم بالسَّوِيَّة، ولا نمنعكم من هذا المسجد أن تُصلُّوا فيه، ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا»^(١).

جهود الإمام عليٍّ عليه السلام أثمرت من خلال التأثير على مجاميع منهم، وبقيت مجموعة مصرَّة على موقفها، وبايعت في شوال من عام ٣٧ للهجرة عبدالله بن وهب الراسبي الملقَّب بذي الثفنتان، لظهور آثار السَّجود على جبهته.

استمرَّ الإمام في محاولة ثني هذه المجموعة عن نيَّتها في القتال حتى آخر لحظة قبيل نشوب المعركة في النهروان، واستعمل في ذلك وسائل عديدة، ومبعوثين متعدِّدين، وخاطبهم بنفسه، ودعاهم إلى المحاججة، وأعلن استعداداه للردِّ على كلِّ الشُّبهات التي تدور في أذهانهم، والاتِّهامات التي ألصقت به زوراً..

روى ابن أعثم من تلك المحاولات ما جاء في الخبر التالي: «كتب إليهم عليٌّ (كرم الله وجهه)... فأقبل عبدالله بن أبي عقب إلى الخوارج بالكتاب، حتى إذا صار إلى النهروان تقدَّم إلى عبد الله بن وهب الراسبي وهو جالس على شاطئ النهروان محتبِّ بحمائل سيفه، وحر قوص بن زهير إلى جانبه، ورؤساء الخوارج جلوس حولهم.

قال: فسلمَّ عبدالله بن أبي عقب، ودفع الكتاب إلى عبد الله بن وهب. فأخذه وفضَّه وقرأه عن آخره، ثم ألقاه إلى حرقوص فقرأه، ثم رفع رأسه إلى ابن أبي عقب فقال له: لولا أنَّك رسول، لألقيتُ منك أكثرك شعراً - أي لقطعُتُ رأسك - فمن أنت؟ قال: رجل من الموالي. قال: من أيِّ الموالي أنت؟ قال: من موالي بني هاشم. قال: إنِّي أظنُّك من هذا الرجل بسبب - يعني عليٍّ بن أبي طالب - فقال: أنا رجل من أصحابه.

(١) الهشيمي: مجمع الزوائد، ج ٦، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م * —————

قال: أفحلال أنت أم لا؟

قال: لا، بل حرام دمي في كتاب الله ﷻ.

فقال: ما أراك تعرف كتاب الله.

قال: بلى، إنني لأعرف منه النَّاسخ والمنسوخ والمكّي والمدني والسفري والحَضري - ما نزل حال سفر النبي أو حضوره -.

قال: وتعرف الله حق معرفته؟

فقال: نعم، إنني لأعرفه ولا أنكره، أو من به ولا أكفره.

قال: وبماذا عرفته؟

قال: برسوله وكتابه المنزل.

قال: صدقت. فأصدقني ما تكون من عليّ بن أبي طالب؟

قال: أنا أخوه في الإسلام.

قال عبد الله بن وهب: أو مسلم أنت؟

قال: أنا مسلم والحمد لله.

قال: وما الإسلام؟

قال له ابن أبي عقب: إنّ الإسلام عشرة أسهم، خاب مَنْ لا سهم له فيها، شهادة أنّ لا إله إلا الله وهي المِلّة، والصلاة وهي الفطرة.... ويسترسل ابن أبي عقب في بيان ذلك.

فقال عبد الله بن وهب: أيّها الرجل! إنّه حُرّم علينا دمك، فخبّرني أعالم أنت أم متعلّم؟.....- وتبدأ سلسلة جديدة من الأسئلة التي يجيب عنها ابن أبي عقيل بكلّ وضوح ودقّة ولمّا لم يجدوا إلى قتله سبيلاً تدخّل حرقوص مساعد الراسبي بحثاً عن ذريعة لقتله - فقال حرقوص: أيّها الرجل! إنك قد أوجبت على نفسك القتل!

قال: ولم ذاك؟

فقال: لأنك توليت قوماً كفروا بعد إيمانهم وأحدثوا الأحداث.

فقال له ابن أبي عقب: أيها الرجل، إنك لم تبلغ في العلم ما يجب عليك أن تُفتش عن علم الإمام، ولكنني أسألك عن مسائل يسأل صبياننا بعضهم بعضاً عنها في المكتب.... وبدأ ابن أبي عقب بطرح الأسئلة قال: فتعجب القوم من كلام ابن أبي عقب وعلمه، ثم أجاب عبد الله بن وهب إلى علي بن أبي طالب جواباً....^(١).

بهذا المستوى والأسلوب كانت محاولات الإمام المُضَيِّية لدرء القتال.. ومن جديد انشقت عن الخوارج أعدادٌ كبيرة اختارت المغادرة بلا قتال بعد أن اتضحت عندها الصورة، وتبين لها الحق، وبقيت أخرى - بقيادة الراسبي - مصرة على القتال.

صاح الراسبي: «يا ابن أبي طالب، لا نبرح من هذه المعركة أو تأتي علي أنفسنا أو تأتي علي نفسك، فابرز إلي، وأبرز إليك، ودّر الناس جانباً».

فلما سمع علي عليه السلام كلامه تبسم وقال: «قاتله الله من رجل ما أقل حياءه! أما إنه ليعلم أنني حليف سيف وخدين الرمح. ولكنه قد يئس من الحياة، أو أنه ليطمع طمعاً كاذباً. قال: ثم حمل الرجل علي علي عليه السلام وحمل علي عليه، فضربه علي بسيفه وقتله وألحقه بأصحابه. ثم التقى الجمعان وحمي الوطيس واشتدّ الجراد، فما كانت إلا ساعة حتى صارت الحرورية كرمادٍ اشتدّ به الريح في يوم عاصف»^(٢).

فقيادة مثل الراسبي الذي عُرف بذي الثففات، إنما ترفع راية الإسلام، وظهرها

(١) ابن أعثم: كتاب الفتوح، ج ٤، ص ٢٦٢-٢٦٧.

(٢) الهاشمي: وقعة النهروان، ص ٦٣.

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

إسلامي، وتنادي بتطبيق حكم الله، ولكنها ذات عقلية فاسدة سطحية، وأفرادها مغترّون بأنفسهم لا يتمسكون من الدين إلا بقشوره وبعض عناوينه.

• قصّتهم مع ابن عطاء

ولأبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال إمام ومؤسس مذهب المعتزلة خبرٌ طريف مع الخوارج يعكس عقليّتهم وسذاجتهم وجهلهم بأحكام الدين.

فقد روى المبرّد قال: «حُدِّثْتُ أَنَّ واصل بن عطاء أَقْبَلَ فِي رِفْقَةٍ فَأَحْسَوْا بالخوارج، وكانوا قد أشرفوا على العطب - الموت مصيراً على يد هؤلاء الخوارج - فقال واصل لأهل الرفقة: إنَّ هذا ليس مِن شأنكم، فاعتزلوا ودعوني وإياهم. فقالوا: شأنك. فقال الخوارج له: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجبرون ليسمعوا كلام الله، وقيموا حدوده.

فقالوا: قد أجرناكم! قال: فعلمونا أحكامه. فجعلوا يعلمونه أحكامهم، وجعل يقول: قد قبلتُ أنا ومن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا.

قال لهم: ليس ذلك لكم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]. فأبلغونا مأمنا. فساروا بأجمعهم حتى بلغوا الأمان»^(١).

ومن هنا شخّص الإمام عليّ عليه السلام حالتهم كما جاء في الخبر التالي الذي رواه حبيب بن عاصم الأزدي حيث سأل الإمام عليه السلام قائلاً: «يا أمير المؤمنين، هؤلاء الذين نقاتلهم أكفّارهم؟! فقال عليّ عليه السلام: من الكفر هربوا، وفيه وقعوا. قال: أفمنافقون؟ قال: إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قال: فما هم - يا أمير المؤمنين - حتى أقاتلهم على بصيرة ويقين؟ فقال عليّ عليه السلام: هم قومٌ مرقوا من

(١) المرتضى: الأمالي، ج ١، ص ١٦٨.

ليالي عَشُوراء _____ ❁

دين الإسلام كما مرق السهم من الرمية، يقرأون القرآن، فلا يجاوز تراقيهم»^(١). وهو تعبير مكرّر لما وصفهم به نبينا الأكرم محمد ﷺ قبل ذلك بعشرات السنين.

• احذروا الظاهر

ولذا نلاحظ ما جاء في التّصوُّص التّالية من تأكيد حول أهمّية دراسة المضمون، وعدم الاغترار بالعنوان والظاهر، والانسحاق العاطفي وراء مثل هذه الدّعاوات الباطلة باسم الجهاد والقتال في سبيل الله:

١- عن محمد بن عبدالله السّمندري قال: «قلت لأبي عبدالله ﷺ: إني أكون بالبواب - يعني باب الأبواب - فينادون السلاح، فأخرج معهم؟ قال: فقال لي: أرايتك إن خرجت فأسرت رجلاً فأعطيته الأمان وجعلت له من العَقْد ما جعله رسول الله ﷺ للمشركين، أكانوا يفون لك به؟ قال: قلت: لا والله جعلت فداك، ما كانوا يفون لي به. قال: فلا تخرج. قال: ثم قال لي: أما إن هناك السيف»^(٢).

٢- عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ: عن أمير المؤمنين ﷺ: لا يخرج المسلم في الجهاد مع مَنْ لا يؤمن على الحكم، ولا يُنفذ في الفيء أمر الله ﷻ»^(٣).

٣- عن أبي حمزة الثمالي ثابت بن دينار قال: «قال رجل لعليّ ابن الحسين ﷺ - وفي رواية أن اسمه عباد البصري - أقبلت على الحج وتركت الجهاد، فوجدت الحجّ أيسر عليك، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص ٢٩٠.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ١٩٩٦٠.

(٣) م.ن. ح ١٩٩٦١.

وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾ فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: اقرأ ما بعدها. قال فقراً: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: إذا ظهر هؤلاء لم نُؤثر على الجهاد شيئاً^(١).

• دعاء الثغور

قد يقول قائل: ألسنا نجد الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا العهد بالذات قد دعا لأهل الثغور كما جاء في الصحيفة السجادية؟ أما كانت تلك القوّات العسكرية تحت راية بني أمية؟ ألا يتناقض هذا مع ما جاء في الخبر السابق؟ والجواب عن ذلك يتمثل في فهم دوافع حديث الإمام، ومنطلق هذا الدعاء الرائع، فالتحفّظات التي طرحها الإمام زين العابدين بالإضافة إلى تلك الواردة في الأحاديث الأخرى المروية عن بعض الأئمة عليهم السلام ما جاءت لتفرّق الناس وتبعدهم عن الجهاد والقتال في سبيل الله وعجل، بل لتحافظ على قوّة هذا التشريع وسلامته. فهو عليه السلام عندما دعا لأهل الثغور، إنّما دعا للمقاتلين الذين كانوا يقاتلون أعداء الإسلام ويحمون المناطق الحدودية «الثغور» من عدوان الروم وغيرهم من الأمم، ولم يدع للمقاتلين الذين كانوا يمثلون إسناداً لبني أمية. أما عندما تحفّظ في الحديث على المشاركة في القتال، فكان تحفّظاً على الكون عنصراً في جيش بني أمية الذي يسعى لتوطيد حكمهم، لا الدفاع عن الإسلام ومقدّساته.

(١) المصدر السابق. ح ١٩٩٥٩.

لقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام يدرك حقيقة بني أمية، وهو الذي خرج مع أبيه الحسين عليه السلام إلى كربلاء، وعرف أهداف ثورته التي عرّى من خلالها واقع بني أمية، وخطر مشروعهم المعادي للإسلام، وقد سمع أباه يكرّر في أكثر من مشهد منطلقات ثورته المباركة، ومن بينها ما جرى في منطقة «البيضة» القريبة من الكوفة، بعد أن تلاقى وجيش الحر بن يزيد الرياحي، فعن عقبه بن أبي العيزار قال: «إنّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيّها الناس، إنّ رسول الله قال: «مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحُرْمِ اللَّهِ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالَفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ». أَلَا وَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ، وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرُوا الْفَسَادَ، وَعَطَّلُوا الْحُدُودَ، وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفِيءِ، وَأَحْلَوْا حُرَامَ اللَّهِ، وَحَرَّمُوا حِلَالَهُ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ غَيَّرَ...»^(١).

وفي «ذي حُسم» قال عليه السلام: «... إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ تَرَوْنَ، وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ، وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا وَاسْتَمَرَّتْ جَدَاءٌ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صَبَابَةٌ كَصَبَابَةِ الْإِنَاءِ، وَخَسِيسٌ عَيْشٌ كَالْمَرَعَى الْوَبِيلِ. أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتْنَاهَى عَنْهُ! لِيرْغَبِ الْمُؤْمِنِ فِي لِقَاءِ اللَّهِ مُحَقَّقًا، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا شَهَادَةً وَفِي نَصِّ آخَرَ: إِلَّا سَعَادَةَ وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرْمًا»^(٢).



(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٠٧.

(٢) م.ن.



أخلاق القوّة



وجود القوّة، أية قوّة، يُغري بالاستعلاء والطغيان والاستكبار... قد يكون صاحب القوّة فرداً، كما كان قارون الذي عاش الاستكبار، وبتعبير القرآن: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]، والسبب في ذلك شعوره بالقوّة: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

وقد يكون صاحب القوّة مجتمعاً، كما تحدث بذلك القرآن الكريم عن قوم النبي هود عليه السلام: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فهذا النمط من الأفراد أو المجتمعات يجد أنّ هذه القوّة تلبّي رغبته الطبيعية لإثبات الوجود، بل والأفضليّة على الآخرين، ومن هنا يسعى لكي يتناغم مع هذه الرّغبة من خلال الطغيان والاستكبار.

• فلسفات متطرّفة

بعض الفلسفات المتطرّفة تسعى لاستغلال مثل هذه الرّغبة، فتغذّيها وتزخرها وتزيّنها وتقدّمها على أنّها هي الوسيلة التي من خلالها تتقدّم البشرية،

لأنّ الحياة - بحسب هذه الفلسفات - صراعٌ بين الأقوياء والضعفاء، ولا عزاء للضعفاء.. فإمّا أن يتحوّلوا إلى وسيلة لخدمة الأقوياء وتحقيق الغايات «الكبرى» لجماعاتهم قهراً وذلّاً، وإمّا أن يُفنوا من الأرض، إذ لا يستحقّ الحياة - بحسبها - إلا الأقوياء.

ونتيجة هذه الفلسفات المشحونة بالنظرة الاستعلائية المتطرّفة لجنسٍ معيّن «كالأريّة عند النازيين»، أو قوميّة «كالعربيّة أو التركيّة»، أو لحزبٍ سياسي «كالبعثيّة»، أو لوطن «كالفاشيّة عند الإيطاليين»، أو حتى لدينٍ من الأديان «كاليهوديّة»، عانت البشرية ويلات الحروب الكبرى، ومنها الحروب العالمية التي حصدت أرواح الملايين من البشر.

• الشحن المذهبي

وهنا لا بدّ من التنويه إلى ما تقوم به بعض مفردات الخطاب الديني في الدائرة الإسلاميّة عموماً من شحنٍ طائفي، قد يعمل أحياناً على تصوّر الفرد أنّ الامتياز الذي ناله بالانتماء إلى ذلك الدين أو هذا المذهب امتيازٌ شخصيٌّ يُشبع غروره، ويلبّي رغبته الشخصيّة في إثبات الذات والتفوّق على الآخرين.

وبالتالي يتحوّل الانتماء إلى وسيلة للاستعلاء، ومن ثمّ احتقار سائر الناس ممّن لا يشاركونه الانتماء ذاته، لينتهي إلى التعصّب.. وقد نبّه الإمام عليّ عليه السلام إلى العلاقة بين الاستعلاء والاحتقار والتعصّب حيث قال: «الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرماً على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده. ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقربّين ليميّز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمّرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ،

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

إِلَّا إِبْلِيسَ ﴿ اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه وتعصّب عليه لأصله، فعُدّ والله إمام المتعصّبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبريّة، وأدّرع لباس التعرّز، وخلع قناع التذلل... فاحذروا عباد الله عدوّ الله أن يُعديكم بدائه، وأن يستفزكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق بكم بالنزع الشديد، وركبكم من مكان قريب - كنيات عن ترصد إبليس بالإنسان وتأثيره الشديد عليه - وقال ﷺ: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظنّ غير مُصيب، فصدّقه به أبناء الحميّة، وإخوان العصبية وفرسان الكبر والجاهلية^(١).

كما قد يدفع ذلك كلّهُ إلى استعمال القوّة لإلغاء الآخر من الوجود الاعتباري والحقوقي بعدم الاعتراف به كمكوّن من مكوّنات المجتمع، أو لإلغائه من الوجود الحقيقي بالإبادة على أساس الانتماء!

بالطبع فإنّ الاعتزاز بالانتماء أمر طبيعي، ولكن أن يتحوّل هذا الانتماء إلى عداة تجاه الآخر المختلف، فهو ما يجب التصدّي له ومعالجته، لأنّ هذا الاستعلاء والاحتقار يولّد حالة من التوتّر المستمرّ بين الأطراف، ويوجد حاجزاً نفسياً عند الطرفين المختلفين في الانتماء من التعامل الإنساني الطبيعي، كما يُفقد المنتمي إلى الإسلام أو المذهب القدرة على تقديم دينه أو مذهبه إلى الآخرين.

وهذا خطأ جسيم يقع فيه الخطاب الديني حين يقدّم المادّة قاصرة في الدلالة، ويقع فيه المتلقّي حين يترجم تلك المادّة إلى سلوك عمليّ. ومن هنا نجد أنّ الإسلام:

١- شدّد على ضرورة التعامل بحذر مع حالات امتلاك القوّة، كفردي أو مجتمع.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٣، ص ١٢.

ليالي عَشُورَاءُ _____ *

- ٢- أكد على الموقف الحاسم الراض لا استعمال القوّة في أيّ سبيل من سبيل الفساد والعدوان لمجرّد تلبية مزاج شخصي أو تحقيق أطماع ذاتية.
- ٣- حرص على توظيف نعمة القوّة ضمن إطار الإيمان والعدالة والعيش المشترك القائم على الاحترام والتكامل.

• تدابير فكريّة وعملية

ولتحقيق هذه الغاية اتّخذ الإسلام عدّة تدابير:

أولاً: ترسيخ حقيقة القوّة المطلقة التي يتّصف بها الله ﷻ، فهو العزيز القويّ القدير الذي لا حدّ لقوّته ولا نهاية لقدرته. والإيمان الواعي والعميق بهذه الحقيقة يمنع الإنسان من الاستسلام للنوازع الشخصية المريضة التي تدفعه للاستعلاء، لأنّه يدرك حينها أنّ القوّة المطلقة لله فوق قوّته، وأنّ قوّته ضئيلة جدّاً، بل هي لا شيء أمام صاحب القوّة المطلقة.. فيتضاءل ويخضع أمام ذلك كله، ويمتنع حينئذ عن ممارسة الظلم والشعور بالاستكبار على الناس.

ولذا يقدّم القرآن صور نزول العذاب المدمر- في فترة زمنية قصيرة- بالمجتمعات التي طعت واستكبرت على الله وعلى الناس: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

كما قدّم صورةً مستقبليةً لما سيجري في الآخرة حيث سيعترف المستكبرون والظالمون- يوم القيامة- بالعجز أمام قوّة الله ﷻ: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهكذا أسهبت الأحاديث الشريفة في عرض تبعات هذا النوع من الظلم، لاسيما النتائج المترتبة على ظلم من لا يجد لنفسه ناصراً إلا الله. ومن نماذج ذلك ما روي عن الإمام علي عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله ﻋَليَّ: اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصراً غيري»^(١).

ثانياً: ذم وشجب الأفراد والجماعات التي تعمل على توظيف قوتها من أجل تسخير الآخرين لخدمتها ظلماً وعدواناً، وتقديم صور تاريخية تبين الموقف من ذلك، من قبيل ما جاء في قصة فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] وفي قصة عاد: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

فالأساس في التنوع البشري كما ذكرت في بداية بحث الجهاد هو التعارف والتكامل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

وأما الحديث القرآني عن أنّ التباين بين الناس في القدرات الذهنية والعضلية والمالية وغير ذلك إنّما يأتي من أجل التسخير: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]. فلا يتعارض ما ذكرناه قبل قليل، لأنّ التوازن الطبيعي في الحياة يفرض اختلاف الناس في مواردهم وطاقاتهم ومواقعهم وحاجاتهم وتنوعهم في المهمات والأدوار، وهذا الارتفاع المذكور في الآية هو من قبيل أهمية وجود مدير ونائب مدير ومراقب ورئيس قسم وموظف وخادم وحارس في مؤسسة ما.

(١) المازندراني: شرح أصول الكافي، ج ٩، ص ٣٦٠.

فهذه العناوين لا ترفع قيمة الإنسان من الناحية الروحية، بل هو تباين تنظيمي وحاجة طبيعية لاستمرار الحياة، لا أكثر.. لأنَّ الذي يرفع القيمة من الناحية الروحية هو التقوى كما قرّرت ذلك الآية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم إنَّ هذا التسخير المذكور في الآية تسخير ضمن القوانين والتُّنْظُم وبمقابل، لا التسخير القائم على الظلم والعدوان.. فالتاجر يُسَخَّرُ العامل كي يُنجز له عملاً، والعامل يسخَّرُ المعلم كي يدرّس ابنه، والمعلم يسخَّرُ المهندس كي يبني له بيته.. وهكذا. أما التسخير المذموم والممنوع فهو الذي يكون عدواناً وبغير رضا الطرف الآخر.

ولذا جاء في الحديث النبوي: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»^(١).. وقوله ﷺ: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: ... ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُعْطِه أجره»^(٢).

ثالثاً: تقديم صورة سلبية عن الذين يعيشون الزهو والاستكبار، ويحاولون التعبير عن ذلك بصورة استعراضية، إذ تسخر منهم الآية القرآنية بكشف حقيقة قوتهم: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَنْ تُخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ ﴿بقدميك حين تمشي عليها، ولا بيديك العاريتين حين تحفر بهما، بينما تستطيع دودة أن تحفر في أعماق الأرض دون أن تمتلك ما تمتلكه أيها الإنسان المغرور من قوّة عضليّة وطول وعرض﴾ ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]... فلم كلّ هذه الغطرسة؟

(١) ابن ماجه: السنن، ح ٢٤٤٣.

(٢) القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ح ٢٩٨٤.

• طغيان يزيد

وقد عملت العقيلة زينب (رضوان الله عليها) على تأكيد هذه الحقيقة حين وقفت موقفها البطوليّ الشجاع في الشام، أمام يزيد الذي كان يعيش زهو الانتصار وطغيان الاستكبار.

فإن كان فرعون مستكبراً لامتداد ملكه في مصر: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٢]، فإن حدود الدولة الإسلاميّة التي كان يحكمها يزيد امتدّت من الجزائر الحالية إلى أفغانستان عرضاً، وكان مدخولها الاقتصاديّ يفوق ما كان تحت يد فرعون أضعافاً مضاعفة.

طغى يزيد، وانعكس طغيانه واستكباره وشعوره بالقوّة في مشاهد عديدة حين تعامل مع أسارى أهل بيت النبوة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، من بينها:

١- أسلوب التعامل مع الأسرى، ففي الخبر: «... ثم أتى يزيد بن معاوية بثقل الحسين ومن بقي من أهله ونسائه، فأدخلوا عليه، قد قرنوا في الجبال، فوفّقوا بين يديه»^(١).

٢- كلماته وأشعاره الاستعلائية والساخرة، قال الألويسي في تفسيره (روح المعاني): «... إنّ السبي لَمَّا ورد من العراق على يزيد، خرج فلقي الأطفال والنساء من ذريّة عليّ والحسين (رضي الله تعالى عنهما)، والرؤوس على أطراف الرماح، وقد أشرفوا على ثيّة جيرون، فلَمَّا رآهم نعب غراب، فأنشأ يقول:

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٦، ص٤٤٨.

لَمَّا بدت تلك الحمول وأشرفت تلك الرؤوس على شفا جيرون
 نعب الغراب فقلتُ: قل أو لا تقل فلقد قضيتُ من النبيّ ديوني
 يعني إنّه قتل بمن قتله رسول الله ﷺ يوم بدر، كجده عتبة وخاله ولد عتبة
 وغيرهما، وهذا كفر صريح، فإذا صحّ عنه فقد كفر به. ومثله تمثله بقول عبدالله
 بن الزبعرى قبل إسلامه: ليت أشياخي...»^(١).

٣- استهزاؤه برأس الحسين ﷺ، فعن الإمام علي زين العابدين ﷺ أنه
 قال: «لَمَّا أتى برأس الحسين ﷺ إلى يزيد، كان يتخذ مجالس الشرب
 ويأتي برأس الحسين فيضعه بين يديه ويشرب عليه»^(٢).

وروى ابن نما الحلّي: «.... وكان يزيد يتخذ مجالس الشرب واللهو والقيان
 والطرب، ويحضّر رأس الحسين بين يديه»^(٣). وأضاف ابن سعد: «.... ثم قال
 بالخيزرانة بين شفّتي الحسين، وأنشأ يقول:

يفلّقن هاماً من رجال أعزّة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلماً»^(٤)

وعن يزيد بن أبي زياد، قال: «لَمَّا أتى يزيد بن معاوية برأس الحسين بن عليّ،
 جعل ينكت بمخصرة معه سنّه - أي أسنان الحسين - ويقول: ما كنت أظنّ أبا
 عبد الله يبلغ هذا السن»^(٥).

٤- طبيعة المجلس المنعقد في بلاطه، ففي الخبر: «... ولَمَّا جلس يزيد بن
 معاوية، دعا أشرف أهل الشام فأجلسهم حوله، ثم دعا بعليّ بن الحسين

(١) الألويسي: روح المعاني. ج ٢٦، ص ١٠٩.

(٢) ابن طاووس: اللهوف، ص ٦٩.

(٣) ابن نما الحلّي: مثير الأحزان، ج ٤، ص ١٧.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ٤٤٧.

(٥) م.ن. ص ٤٤٨.

وصبيان الحسين ونسائه، فأدخلوا عليه والناس ينظرون»^(١).

وعن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عليه السلام أنه قال: «... ثم وضع الرأس في حُقة وأدخل على يزيد، فدخلت معهم، وكان يزيد جالساً على السرير وعلى رأسه تاج مُكَلَّل بالدرّ والياقوت وحوله كثير من مشايخ قريش...»^(٢).

وفي «تهذيب الكمال»: «... فلما قدّموا - أي الأسارى من أهل البيت - عليه، جمع من كان بحضرته من أهل الشام، ثم أدخلوا عليه، فهنّأوه بالفتح»^(٣).

• دور العقيلة زينب

أمّا العقيلة زينب ابنة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فقد فضحت ذلك الزخرف الباطل فقامت وقالت: «الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله كذلك يقول ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ﴾ [الروم: ١٠].

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أنّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة؟ وأن ذلك لعظم خطرِكَ عنده؟ فشمُخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا؟

مهلاً مهلاً أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؟ [آل عمران: ١٧٨].

أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣٩.

(٢) الخوارزمي: مقتل الحسين، ج ٢، ص ٦١.

(٣) المزي: تهذيب الكمال، ج ٦، ص ٤٢٩.

* ليالي عَشُوراء

سبايا، قد هتكتَ ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهنّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفّح وجوههن القريبُ والبعيدُ، والذنيُّ والشريفُ، ليس معهن من رجالهن وليّ، ولا من حُماتهن حمي؟

وكيف يُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأذكيا، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟ وكيف يُستبطأ في بُغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشَّنْف والشنآن، والإحن والأضغان؟ ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم:

وأهلُّوا واستهلُّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منتحياً على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة، تنكتها بمخصرتك! وكيف لا تقول ذلك؟ وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذرية محمد ﷺ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنك تُناديهم! فلتردنّ وشيكاً موردَهم، ولتودنّ أنك شللت وبكمت، ولم يكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت.

اللهم خذ بحقنا، وانتقم من ظالمتنا، وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حُماننا. فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا جززت إلا لحمك، ولتردنّ على رسول الله بما تحمّلت من سفك دماء ذريته، وانتهكت من حُرمتِه في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم ويلمّ شعْثهم، ويأخذ بحقّهم، ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون، حسبك بالله حاكماً، وبمحمد خصيماً وبجبرئيل ظهيراً، وسيعلم من سوى لك وممكنك من رقاب المسلمين، بس للظالمين بدلاً، وأيكم شرُّ مكاناً وأضعف جنداً.

ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعتك وأستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرّى. ألا فالعجب كلّ

الكتاب الرابع - محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

* العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل - الذئاب - وتعفوها أمّهات الفراعل - أولاد الضباع - ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدّمت وما ربك بظلام للعبيد، فإلى الله المشتكى، وعليه الموعول، فكديك واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تُميت وحيناً، ولا تُدرِك أمدنا، ولا ترحضُ عنك عارها.

وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمّعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين، فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد، ويُحسّن علينا الخلافة، إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل»^(١).

لقد عملت العقيلة زينب عليها السلام بكلماتها تلك على تعرية الواقع، ورسم صورة واضحة للتمييز بين من يمثّل الإسلام في حقيقته من خلال الالتزام بتعاليمه وشريعته وأخلاقه، وبين من يُعادي الإسلام ولا يلتزم بشرائعه وأخلاقياته ويستعمل القوّة التي يمتلكها والموقع المتقدّم الذي يتسنّمه من أجل أن يُحارب الإسلام ورجالاته.



(١) ابن طاووس: اللهوف، ص ٨١، ورويت بألفاظ مختلفة في عدة مصادر مثل بحار الأنوار للمجلسي، ج ٤٥، ص ١٣٣، والاحتجاج للطبرسي، ج ٢، ص ١٢٢.



المصادر والمراجع



- ١- القرآن الكريم
- ٢- الألويسي: روح المعاني
- ٣- الأمدى، غرر الحكم
- ٤- الأمين: أعيان الشيعة
- ٥- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة
- ٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ.
- ٧- ابن الأثير: أسد الغابة، ترجمة عبدالله بن الزبير.
- ٨- ابن أعثم: الفتوح
- ٩- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق،
- ١٠- ابن عساكر: ترجمة الامام الحسين
- ١١- ابن طاووس: اللهوف
- ١٢- ابن سعد: الطبقات الكبرى
- ١٣- ابن كثير: البداية والنهاية
- ١٤- ابن ماجة: السنن
- ١٥- ابن نما الحلبي: مثير الأحزان
- ١٦- أحمد بن حنبل: المسند.

- ١٧- الحرّ العاملي، وسائل الشيعة
 ١٨- الحراني: تحف العقول
 ١٩- الحلّي: نهج الحق وكشف الصدق
 ٢٠- الخوارزمي: مقتل الحسين
 ٢١- الرضوي: نهج البلاغة
 ٢٢- الريشهري: ميزان الحكمة.
 ٢٣- السرخسي: المبسوط.
 ٢٤- صائب عبد الحميد: المذاهب والفرق في الإسلام
 ٢٥- الصدوق: من لا يحضره الفقيه
 ٢٦- الطبري: تاريخ الأمم والملوك
 ٢٧- الطوسي: التهذيب
 ٢٨- فضل الله: من وحي القرآن
 ٢٩- القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح
 ٣٠- القرشي: حياة الإمام الحسين.
 ٣١- القسطلاني: إرشاد الساري
 ٣٢- الكشي: اختيار معرفة الرجال
 ٣٣- الكليني: الكافي
 ٣٤- المازندراني: شرح أصول الكافي
 ٣٥- المجلسي، بحار الأنوار.
 ٣٦- المجلسي: مرآة العقول
 ٣٧- المرتضى: الأمالي
 ٣٨- المزي: تهذيب الكمال

* ————— الكتاب الرابع - محرم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

٣٩- الميلاني: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار

٤٠- النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام

٤١- الهاشمي: وقعة النهروان





محتويات الكتاب

٥	تصدير
٧	المقدمة
٩	تمهيد

١- ليالي عاشوراء / الكتاب الأول

حسينية دار الزهراء عليها السلام - الكويت، محرّم ١٤٣٣ هـ - ٢٠١١ م

١٣	• تطوير المجالس الحسينية
٢٠	• الإخلاص في العطاء
٢٧	• رَبُّطُ المنبر الحسيني بالواقع
٣٦	• شرعية الحياد في الموقف
٤٦	• الموقف من أسرى الحروب
٦٢	• نَقْدُ شعرِ الطف: مفاهيم قلقة
٦٧	• العباس عنوان للوفاء
٧٠	• نقد شعر الطف: تشويه التاريخ
٧٨	• نقد شعر الطف: لسان الحال



- عصمة الدماء والنفوس ٨٦
- مشروعية الثورة الحسينية ٩٤
- توثيق المقتل: الجزء الأول ١٠١
- توثيق المقتل: الجزء الثاني ١١٧
- توثيق المقتل: الجزء الثالث ١٢٣
- خاتمة ١٣٥
- المصادر والمراجع ١٣٧

٢- ليالي عاشوراء / الكتاب الثاني

حسينية دار الزهراء عليها السلام - الكويت، محرّم ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م

- مقدّمة ١٤٣
- هذا الكتاب ١٤٦
- مرجعية القرآن ١٤٩
- مدى حجّية خبر الواحد في تكوين المعتقد ١٥٥
- العقائد والعلم والتاريخ ١٦٤
- المعصوم وعلم الغيب ١٦٩
- الغيب في القرآن ١٧٤
- المعصوم: هل يعلم وقت وفاته؟! وحيثياتها ١٨٠
- لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام مع علمه المسبق باستشهاده؟! ١٨٧
- بين العلم الإجمالي والتفصيلي ١٩٢

- لماذا أخرج الحسين عليه السلام أهله معه؟! ٢٠٠
- الحرب النفسية..... ٢٠٩
- مَنْ دفن الإمام الحسين عليه السلام؟ ٢١٤
- المصادر والمراجع ٢٢٥

٣- ليالي عاشوراء / الكتاب الثالث

مسجد سيد هاشم البهبهاني - الكويت، محرّم ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

- المقدمة ٢٣١
- مقدمة حول نصّ الكلمة الحسينية ٢٣٥
- مفهوم الفساد ٢٤٢
- فساد الحاكم ٢٥١
- الفساد الأخلاقي ٢٦٤
- الفساد المالي ٢٨٣
- نقض العهود والمواثيق ٢٩٧
- الفساد الفكري ٣١٢
- مسؤولية الإصلاح ٣٢٣
- القائمون على الإصلاح ٣٣٦
- القضاء على المفسدين ٣٤٧
- القيادة وثقافة الإصلاح ٣٦٣
- ختام البحث ٣٧٢
- المصادر والمراجع ٣٧٥

٤- ليالي عاشوراء / الكتاب الرابع

مسجد سيد هاشم البهبهاني - الكويت، محرّم ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

- المقدّمة ٣٨١
- البدعة في عالم السياسة (١) ٣٨٨
- البدعة في عالم السياسة (٢) ٣٩٦
- البدعة في عالم الفكر ٤٠٥
- كلمة الحق بين الكتمان والإفصاح ٤١٤
- الخذلان : القسم الأوّل ٤٢٤
- الخذلان: القسم الثاني ٤٣٨
- الجهاد: القسم الأوّل ٤٥١
- الجهاد: القسم الثاني ٤٥٧
- الجهاد: القسم الثالث ٤٦٨
- أخلاق القوّة ٤٧٩
- المصادر والمراجع ٤٩١





الشيخ
علي حسن غلوم

- المولد: ١٩٦٥ / الكويت.
- التحق بالحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة عام ١٩٨٣ إلى ١٩٩١.
- والتحق بموازاة ذلك بالجامعة الإسلامية المفتوحة (دانشگاه آزاد إسلامي) متخصص أدب إنجليزي.
- حاصل على عدة شهادات في مجال الحاسب الآلي.
- أكثر من ٤٠ مصنفًا في الأبواب المختلفة، من بينها (مفاهيم حركية من وحى القرآن في مجلدين - لا فتى إلا على - الدررة الثمينة في أخبار مكة والمدينة - سلسلة حدائق الإيمان وبساتين الإيمان وهي ٩ كتب دراسية في مادة التربة الإسلامية - محطّات في الفكر والسياسة والأدب - منتقيات في ٣ كتب - صلاة الجمعة - أحكام المريض والمصاب - رسالة المسجد).
- ١٤ برنامج حاسب آلي.
- إصدار أسبوعي لصفحة دينية متخصصة بعنوان منتقى الجمان تصدر في الكويت في جريدة الوطن منذ أكثر من ٨ سنوات.
- ١٦ حلقة رسوم متحركة كرتونية تربوية للأطفال بعنوان مغامرات عجيب.
- عدة تمثيلات إذاعية وتسجيلات صوتية ومرئية موجهة للأطفال والشباب والتمزوجين بطريقة مميزة.
- تأسيس وإدارة دورات دراسات صيفية منذ عام ١٩٩١ - ٢٠١٠.
- المشاركة في عدة مؤتمرات عقدت في الكويت ولبنان وبريطانيا والولايات المتحدة.
- حاليًا إمام جمعة وجماعة في مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت.
- المشرف الديني على حملة التوحيد الكويتية للحج منذ موسم ١٤١٣ - ١٩٩٢ وحتى الآن.
- عضو هيئة أمناء مؤسسات المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله.



المركز الإسلامي الشيعي
مجمع الإمامين الحسنين ١٤٤٣